

من الكاتبة التي كانت الملهمة لمسلسل شبكة «فوكس» الدرامي الشهير «العظام BONES» والتي تُرجمت كتبها إلى ثلاثين لغة في مختلف أنحاء العالم



Kathy Reichs



قرارات قاتلة

DEADLY DÉCISIONS

رواية

قرارات قاتلة

DEADLY DÉCISIONS

قرارات قاتلة

DEADLY DÉCISIONS

رواية

تأليف

كاتي رايكس

Kathy Reichs

ترجمة

فاطمة شامدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Deadly Decisions
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Pocket Star Books
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-846-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

1

كان اسمها إميلي آن. كانت في التاسعة من عمرها، ذات شعر أسود مُجعّد، ورمـــوش طــويلة، وبشرة بلون الكراميل. كانت أذناها مثقوبتين بقرطين ذهبيين صغيرين، أما جبينُها فقد ثقبته رصاصتان من رشاش كوبرا نصف أوتوماتيكي من عيار 9 ملم.

كـــان ذاك يوم سبت، وكنت أعمل بطلب خاص من رئيسي بيار لامانش. كـــنت في المختبر منذ أربع ساعات، أعمل على فرز نسيج مشوه للغاية، حين فُتح الباب المؤدي إلى غرفة التشريح، ودخل المحقق - الرقيب لوك كلوديل.

كـــنت قـــد عملت مع كلوديل في الماضي، وبالرغم من أنه أصبح يتحملني، وربما حتى يقدرني، فإن سلوكه الفظ لا يدل على ذلك.

سألني وهو يلقي نظرة سريعة على الحمّالة أمامي، ثم يشيح بنظره سريعاً "أين لامانش؟".

لم أقل شيئاً. حين كان كلوديل يمر بإحدى حالاته النفسية كنت أتجاهله.

"هل وصل الدكتور لامانش؟" سألني المحقق متجنباً النظر إلى قفازيّ المتسخين.

"إنه السبت سيد كلوديل. إنه لا يع ـــ".

في تلـــك اللحظــــة، أطل ميشال تشاربونو برأسه إلى الغرفة. كنت أسمع من خلال الفتحة صرير الباب الكهربائي في الجزء الخلفي من المبنى.

أخبر تشاربونو شريكه "لقد وصلت الجثة".

أي جثة؟ لماذا كان محققان جنائيان في المشرحة بعد ظهر يوم سبت؟

حيّاني تشاربونو بالإنكليزية. كان رجلاً ضخماً ذا شعرٍ شائك أشبه بالقنفذ.

"مرحباً دكتورة".

"ماذا يجري؟" سألت وأنا أنـــزع قفازيّ، وأنـــزل قناعي عن وجهي.

أجاب كلوديل بوجه متوتر وعينين خاليتين من المرح في الضوء الأبيض.

"سيصل الدكتور لامانش إلى هنا عما قريب. سيشرح لك الموضوع".

كان العرق يلمع على جبينه، وقد ضغط فمه بحيث أصبح يشكل خطاً رفيعاً ومشدوداً. كان كلوديل يكره عمليات التشريح، ويتجنب المشرحة قدر استطاعته. مـــن دون أن يـــضيف كلمـــة أخـــرى، فتح الباب، ومرّ متجاوزاً شريكه. راقبه تشاربونو يجتاز الممر ثم التفت إليّ.

"هذا صعب بالنسبة إليه. لديه أولاد".

"أولاد؟" أحسست بشيء بارد في صدري.

"نفّذ الهمجيون ضربة هذا الصباح. هل سمعت يوماً بِريتشارد ماركوت؟".

كان الاسم مألوفاً على نحو مبهم.

"ربما كنتِ تعرفينه باسم آرينيه. العنكبوت". ولف أصابعه كمن يؤدي أغنية للأطفال.

"إنـــه رجـــل عظيم. وهو رسمي منتخب في مجموعة الدرّاجين الخارجين على القانـــون. العنكـــبوت هو رقيب الأفاعي في الحرب، ولكنه مرّ بيوم عصيب هذا الـــنهار. حـــين كان متوجهاً إلى النادي الرياضي حوالى الثامنة هذا الصباح، قام الهمجيون بتفجيره في ممر السيارات، بينما لجأت زوجته إلى شجيرة الليلك".

مرّر تشاربونو أصابع يده عبر شعره، وابتلع لعابه.

انتظرت.

"لقد قتلوا طفلة في العملية أيضاً".

"يا الله!" شددت أصابعي على القفازين.

"إنهـــا بـــنت صغيرة. أخذوها إلى مستشفى مونتريال للأطفال لكنها لم تنجُ. سيحـــضرونها إلى هـــنا الآن. كان ماركوت ميتاً عند وصوله إلى المستشفى، وقد أُخرج الآن".

"هل سيأتي لامانش؟".

هزّ تشاربونو رأسه موافقاً.

كـــان الأخـــصائيون الخمسة في علم الأمراض يتناوبون على دوام العمل في المختـــبر. وإذا اســـتدعى الأمر عملية تشريح أو زيارة إلى موقع الوفاة خارج دوام العمـــل، فإن أحدهم يكون متوفراً دائماً. غير أن ذلك نادراً ما كان يحدث. اليوم كان دور لامانش.

طفلة. شعرت بالفيض المعهود من المشاعر وبالحاجة إلى الهروب.

أشـــارت ساعتي إلى الثانية عشرة وأربعين دقيقة. نـــزعت مئزري النايلوني، وكورته مع القناع والقفازين المصنوعين من مادة اللاتيكس، ورميت كل شيء في مستوعب للنفايات البيولوجية. ثم غسلت يديّ، واستقللت المصعد إلى الطابق الثاني عشر.

لا أعرف كم بقيت جالسة في مكتبـــي، أحدق إلى نهر سان لورنس متجاهلة علبة اللبن. للحظة خُيّل إلي أنني سمعت باب لامانش يُفتح، ثم صوت صرير أبواب الأمن الزجاجية التي تفصل أجزاءً من جناحنا.

كـــنت قد طوّرت بعض المناعة ضد الموت العنيف كوني عالمة إنسان جنائية. بما أن المحقق الطبـــي يلجأ إليّ كي يستمد معلومات من عظام أولئك المشوهين أو المحـــروقين أو المـــتحللين، فقـــد كنت قد شاهدت الأسوأ. أما مكانا عملي فهما المـــشرحة وغـــرفة التشريح، لذا فإنني أعرف منظر الجثة ورائحتها وملمسها حين تُمـــسك أو تُـــشق بالمبـــضع. إنني معتادة على الملابس المشبعة بالدم، وقد نُشرت لـــتجف، وعلـــى صـــوت المنشار وهو يقطع العظام، وعلى مشهد الأعضاء وهي تطوف في جرار تحمل أرقاماً للعينات.

لكـــنني لم أستطع أبداً أن أتعوّد على رؤية الأولاد الموتى. لم أستطع أن أتعود صورة الطفل الذي هُزّ بعنف أو الولد الذي ضُرب أو صورة الضحية الذي لم يبلغ ســـنّ المـــراهقة بعد والذي تعرض للاستغلال الجنسي. لم تفشل الاعتداءات على الأبرياء الصغار يوماً في إثارة قلقي وحزني.

لم تمضِ فترة طويلة منذ أن عملت على قضية تتعلق بأطفال، وهي قضية تتعلق بصبيين توأمين كانا قد تعرضا للقتل والتشويه. كانت تلك إحدى أصعب القضايا في مهنتي، و لم أكن أوّد أن أركب تلك الدوامة العاطفية مجدّداً.

ثمّ إن تلـــك القضية كانت مصدراً للرضى أيضاً. حين تمّ سجن المسؤول عن قـــتلهما وتشويههما و لم يعد باستطاعته إصدار الأوامر بإعدام آخرين شعرت بأنني أنجزت عملاً جيّداً بحق.

أزلـــت الغطـــاء، وحـــركت اللبن. حلّقت صور التوأمين في بالي. تذكرت إحساسي في المشرحة، وعادت بـــي الذكريات إلى طفلتي الصغيرة.

يا الله، لَمَ هذا الجنون؟ الرجال الذين شُوّهت جثثهم والذين كنت قد تركتهم في الأسفل كانوا قد ماتوا أيضاً نتيجة لحرب الدرّاجين الحالية.

لا تـــصابـــي بالـــيأس يا برينان. اغضبـــي. امتلأي غضباً بارداً وعزماً. ثم استخدمي علمك في المساعدة على القبض على الأوغاد.

"أجل"، وافقت مع نفسي بصوت عالٍ.

شربت اللبن حتى آخره، وتوجهت إلى الأسفل.

كـــان تـــشاربونو في الغرفة المؤدية إلى أحد أجنحة التشريح الصغيرة يقلّب الـــصفحات في دفتـــره ذي الـــسلك اللولبـــي. كان كرسيه المصنوع من الفنيل والمواجه للمكتب يضيق بجسده الضخم. أما كلوديل فلم يبدُ له أثر.

سألته "ما اسمها؟".

"إميلي آن توسان. كانت في طريقها إلى صف الرقص".

"أين؟".

"في فردان". مال برأسه نحو الغرفة المجاورة. "لقد بدأ لامانش مهمته". مررت بجانب المحقق إلى غرفة التشريح.

كـــان هناك مصور يلتقط الصور بينما كان عالم الأمراض يدوّن ملاحظات، ويأخذ صور بولارويد احتياطية للجثة.

راقـــبت لامانش يمسك بالكاميرا من مقبضيها الجانبيين، ثم يرفعها وينـــزلها فوق الجـــثة. بينما كانت العدسة تعدل بؤرة التصوير، غابت نقطة صغيرة، ثم تكثفت فوق أحد الجروح في جبين الفتاة. وحين أصبح محيط النقطة واضحاً، التقط لامانش صورة. انـــزلق مربعٌ صغير فسحبه، وأضافه إلى مجموعة من الصور على الرف الجانبـــي.

كـــان جسد إميلي يحمل الدّليل على الجهد المُكثّف الذي بُذل لإنقاذ حياتها. كان رأسُها ملفوفاً بشكل جزئي، ولكنني تمكنت من رؤية أنبوب شفاف بارزٍ من

فـــروة رأســـها كان قد تمّ إيلاجه لمراقبة ضغط الجمجمة لديها. كما امتد أنبوب داخـــل حنجـــرتها إلى قصبتها الهوائية ومريئها من أجل إمداد رئتيها بالأوكسجين ومنعها من التقيّؤ. بقيت القساطر التي استُخدمت لإدخال السوائل إلى دمها معلقة في شـــرايينها تحـــت التـــرقوية والأربية والفخذية، وبقيت الرقع البيضاء الدائرية للأقطاب الكهربائية ملتصقة بصدرها.

كـــم كـــان الـــتدخّل لإنقاذ حياتها مسعوراً، كان أشبه ما يكون بالاعتداء. أغمضت عينيّ، وشعرت بالدموع تحرق مقلتيّ.

ســـحبت عينيّ عائدة بهما إلى الجسد الصغير. لم تكن ترتدي شيئاً كان هناك فقـــط ســـوار المستشفى البلاستيكي حول معصمها. بجانبها أُلقي ثوب المستشفى الأخضر الباهت وملابس مجموعة في حزمة وحقيبة وردية اللون بالإضافة إلى زوج من الأحذية الرياضية الحمراء.

الـــضوء الأبيض. البلاط والمعدن اللامع. الأدوات الجراحية المُعقّمة الباردة. لم يكن ذلك مكاناً لفتاة صغيرة.

حين نظرت إلى الأعلى، التقت عينا لامانش الحزينتان بعيني. وبالرغم من أن أيّـــاً مـــنّا لم يأتِ بالذكر على ما كان مُلقىً على الطاولة الحديدية، فقد أدركتُ أفكاره. ضحية أخرى. عملية تشريح أخرى في الغرفة نفسها.

كـــبتُّ مـــشاعري، وأنا أصف التقدم الذي كنت أحرزه في القضايا الخاصة بـــي في إعـــادة جمـــع جثتي الدرّاجين اللذين تعرضا للتفجير بسبب حماقتيهما، وسألت عن موعد وصول سجلات ما قبل الوفاة. أخبرني لامانش أنه قد تمّ طلب هذه الملفات وأنه يتوقع وصولها الاثنين.

شـــكرته، وذهـــبت لأتابـــع مهمتي التقنية. بينما كنت أقوم بفرز الأنسجة، تذكـــرت محادثتي مع لامانش في اليوم السابق، وتمنيت لو أنني ما زلت في غابات فرجينيا. هل اتصل لامانش بـــي إلى هناك بالأمس فقط؟ كانت إميلي آن لا تزال على قيد الحياة آنذاك.

يمكن للكثير أن يتغير خلال أربع وعشرين ساعة.

2

في الـــيوم السابق كنت في كوانتيكو أقيم دورة تدريبية حول استرداد أجزاء الجسد في الأكاديمية التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالية. كان فريقي التقني المختص باســـترداد الأدلـــة ينبش هيكله العظمي من الأرض، ويعيد جمعه حين لمحت عميلاً خاصاً يقترب من خلال الأشجار. أبلغني بأن الدكتور لامانش أراد أن يتحدث إليّ لأمـــر ضـــروري، فتـــركت فريقـــي، واتجهت إلى خارج الغابة، وأنا أشعر بعدم الارتياح.

بينما كنت أشق طريقي نحو الشارع، كنت أفكّر في لامانش والأخبار التي قد تحملـــها دعـــوته. بـــدأت عملي كمستشارة للمختبرات العلمية القضائية والطب الـــشرعي بعد ذهابـــي إلى مونتريال في أوائل التسعينيات كجزءٍ من عملية تبادل للأُسرة التعليمية بين جامعة ماك غيل وجامعتي الأم في تشارلوت.

كـــان لامـــانش يعلـــم أنـــني مُجازة من قبل المجلس الأميركي للعلم الجنائي البشري، لذلك كان فضولياً بشأن قدرتي على مساعدته.

كـــان لـــدى مقاطعة كيبيك نظامٌ مركزيٌّ للتحقيق في الوفيات المشتبه فيها، مـــزوّدٌ بمختبراتٍ طبية شرعية متطورة للجرائم، لكن كان ينقصها عالم جنائي مجاز من قبل المجلس. في ذلك الوقت، كما اليوم، كنت أعمل كمستشارة لمكتب رئيس التحقـــيق الطبـــي في كارولينا الشمالية، وأرادني لامانش أن أعمل لدى المختبرات العلمـــية القـــضائية والطـــب الـــشرعي. قامت الوزارة بتمويل مختبر لعلم الأحياء والـــتحقتُ أنا بصف لتعلُّم الفرنسية. لأكثر من عشر سنوات الآن، تأتي إليّ الجثث

المتحولة إلى هياكل عظمية وتلك المتحلّلة والمُحنّطة والمحروقة أو المُشوّهة من مقاطعة كيبـــيك من أجل تحليلها والتعريف بهويتها. حين لا تأتي عملية التشريح التقليدية بأي فائدة، أقتطع ما استطعت من العظام.

نـــادراً ما كان لامانش يترك لي رسالة يصفها بالملحة، وحين كان يفعل، لم يكن الأمر جيداً.

خــلال دقائـــق، عـــبرتُ الغابة إلى شاحنة صغيرة مركونة إلى جانب طريق مرصوف بالحصى. حرّرت شعري، ومرّرت أصابعي إلى الوراء عبر فروة رأسي.

لم يكن هناك من حشرات.

بعـــد أن أعدت ربط شعري، سحبت حقيبتي من الجزء الخلفي من الشاحنة، وبحــثت عن هاتفي الخلوي. أشارت الشاشة الصغيرة أن ثلاثة اتصالات قد فاتتني. استطلعت لائحة الأرقام. كان المختبر مصدرها جميعاً.

حاولت طلب رقم المختبر، لكن الإرسال كان ضعيفاً. لهذا السبب كنت قد تـــركت الهاتـــف في الشاحنة. تباًّ! بالرغم من أن لغتي الفرنسية أصبحت جيّدة خلال السنوات العشر الماضية، فإن الضجة الخلفية وسوء الاتصالات غالباً ما كانا يسببان لي المشاكل. بين مشاكل تبادل اللغة والإرسال الضعيف لم أتمكن أبداً من فهـــم الرســـالة جـــيّداً بواسطة هذا الهاتف. كان عليّ أن أمشيَ عائدة إلى المقر الرئيسي.

أغلقت زمّام بزتي الرياضية، ورميتها في صندوق في الجزء الخلفي من الشاحنة، وتوجهت إلى أسفل التلة معلقة حقيبتي فوق كتفي.

عالـــياً فوق الأشجار، كان صقر يدور حول هدف ما. كانت السماء زرقاء لامعة تطوف فيها بحرية غيومٌ منفوخة كالقطن ومتفرقة عشوائياً. عادةً كان الصف يُعقـــد في أيّار، وكنّا قد قلقنا من أن برنامج نيسان هذا العام سيعني هطول الأمطار أو درجـــات حرارة أكثر انخفاضاً. ليس ثمّة مشكلة. كان مقياس الحرارة يشير إلى أكثر من سبعين درجة.

بيـــنما كـــنت أمشي، كنت أسمع كل الأصوات من حولي. صوت حذائي يسحق الحصى، صوت زقزقة الطيور فوق رأسي، صوت شفرات الطائرة المروحية تحلـــق علـــى علو منخفض، وصوت فرقعة إطلاق النار في البعيد. يتشارك مكتب

التحقـــيقات الفيدرالـــية مـــنطقة كوانتيكو مع وكالات بوليسية فيدرالية أخرى والقوات البحرية بنشاط ثابت وصادق للغاية.

التقـــى طريق الحصى بالإسفلت عند زقاق هوغن، مباشرة تحت السّاحة التي صُـــمّمت لتحاكـــي القرية التي يستخدمها مكتب التحقيقات الفيدرالية ومكتب الكحـــول والمخـــدرات والأسلحة النارية والمتفجرات وغيرها. التفت بعيداً إلى اليسار كي أتجنب التطفل على تدريبٍ لإنقاذ الأسرى، واستدرت يميناً نحو شارع هوفر أسفل التلة نحو أقرب مجمع للمنشآت الإسمنتية ذات اللون الرمادي الضارب إلى الـــصفرة مع هوائيات ناتئة عن الأسطح كبراعم جديدة نمت على سياج قديم. بعدما عبرت موقفاً صغيراً للسيارات إلى مركز الأبحاث والتدريب الجنائي العلمي، قرعت الجرس على رصيف التحميل.

فُتح باب جانبـــي جزئياً، وظهر وجه رجل في الشق الضيق. كان أصلع تماماً بالرغم من أنه كان شاباً، وبدا أنه قد فقد شعره منذ زمن.

"هل أنهيت عملك باكراً؟".

"كلا، إنني بحاجة إلى أن أتصل بمختبري".

"يمكنك أن تستخدمي مكتبـــي".

"شكراً يا كريغ. سيستغرق الأمر دقيقة واحدة فقط". كنت أرجو ذلك.

"إنني أتفقد المعدات، لذا خذي وقتك".

غالـــباً ما تُقارن الأكاديمية بقفص الهمستر بسبب شبكة الخنادق والممرات الـــتي تـــصل مبانـــيها العديدة، غير أن الطوابق العليا لم تكن لتُقارن بالمتاهة في الأسفل.

انعطفنا من خلال منطقة تتكدّس فيها الأقفاص وصناديق الكرتون وشاشات الكومبيوتر القديمة وصناديق العدة المعدنية نـــزولاً نحو ممر، ثم عبر ممرين آخرين إلى مكـــتب بالكاد يتسع لطاولة وكرسي وخزانة للملفات ورفّ للكتب. كان كريغ بيتـــشام يعمـــل لصالح المركز الوطني لتحليل الجرائم العنيفة، وهو أحد أهم أفراد مجمـــوعة الاستجابة للحوادث الخطرة التابعة لمكتب الاستخبارات الفيدرالية. كان هذا الكيان لفترة من الزمن يسمّى بوحدة خطف الأطفال والقتل المتسلسل، ولكنه عاد إلى اسمه الأصلي حديثاً.

بما أن تدريب التقنيين على استرجاع الأدلة هو إحدى وظائف المركز الوطني لتحليل الجرائم العنيفة، فإن هذه الوحدة تقوم بتنظيم حلقة الدروس والمحاضرات السنوية.

حين يتعامل المرء مع مكتب التحقيقات الفيدرالية يجب أن يكون عارفاً بالمبادئ الأساسية.

جمع كريغ بعض الملفّات من مكتبه، وكدّسها على الخزانة.

"هذا سيمنحك بعض المساحة كي تدوّني الملاحظات. هل أنت بحاجة إلى أن تغلقي الباب؟".

"لا شكراً. أنا بخير".

أطرق مضيفي برأسه، ثم اختفى نزولاً باتجاه القاعة.

أخذت نفساً عميقاً، وانتقلت ذهنياً إلى الفرنسية ثم طلبت الرقم.

"صباح الخير يا تمبرانس". كان لامانش ورجل الدين الذي عمّدني هما الوحيدين اللذين يستعملان اسمي الكامل. أما بقية العالم فكان يناديني بتمب.

"كيف حالك؟".

أخبرته أنني بخير.

"أشكرك لإعادة الاتصال بي. أخشى أن لدينا وضعاً مروّعاً هنا. وسأحتاج إلى مساعدتك".

"نعم؟" مروّع؟ لم يكن لامانش ليبالغ.

"إنهم الدرّاجون. لقد قُتل اثنان آخران".

الدرّاجون. لأكثر من عشر سنوات كانت العصابات المتنافسة للدرّاجين الخارجين على القانون تتصارع على السيطرة على تجارة المخدرات في كيبيك. كنت قد عملت على عدّة قضايا تتعلق بالدرّاجين الذين وقعوا ضحيةً لإطلاق النار، واحترقت جثثهم بشكل لا يمكن التعرف إليهم.

"نعم؟".

"حتى الآن هذا ما أعادت الشرطة جمعه. الليلة الماضية دخل ثلاثة أعضاء من الهمجيين إلى منتدى الأفاعي بقنبلة قوية محلية الصنع. بينما كان أحد أعضاء الأفاعي يعمل على كاميرات المراقبة لاحظ أن شخصين يقتربان ويحملان صُرّة

ضـــخمة بيـــنهما، فقام بإطلاق النار، وانفجرت القنبلة". توقف لامانش للحظة. "السائق موجود في المستشفى في وضع حرج. أما بالنسبة إلى الشخصين الآخرين، فإن أكبر كمية من النسيج تمت استعادتها تزن تسعة باوندات".

آخ.

"كنت أحاول الاتصال بضابط الأمن مارتن كويكواتر يا تمبرانس. إنه موجودٌ هناك في كوانتيكو، ولكنه يحضر اجتماعاً لمراجعة القضايا يستغرق طوال اليوم".

"كويكواتر؟" لم يكن ذلك اسماً نموذجياً لشخص من كيبيك.

"إنه مواطن أصلي من كندا".

"هل هو يعمل في قضية كركاجو؟".

عملـــية كـــركاجو هي قوة قضائية متعددة السلطات للتحقيق في النشاطات الإجرامية بين عصابات الدرّاجين في المقاطعة.

"أجل".

"ماذا تريدني أن أفعل؟".

"أرجـــو أن تخبري الضابط كويكواتر بما أطلعتك عليه، واجعليه يتصل بـــي. ثم أريـــدك أن تحضري إلى هنا بأسرع ما يمكن، فقد نجد بعض الصعوبة في عملية التعرف إلى الجثث".

"هل تم العثور على أصابع يمكن طبع بصماتها أو أجزاء من الأسنان؟".

"كلا، ومن غير المحتمل حدوث ذلك".

"ماذا عن فحص الحمض النووي؟".

"قـــد تكـــون هـــناك مشكلة في ذلك. الوضع معقد، وأفضل ألا أناقشه عبر الهاتف. هل يمكنك العودة أبكر مما خططت له مسبقاً؟".

كالعـــادة كـــنت قـــد أنهـــيت فصل الربيع في جامعة كارولينا الشمالية في تـــشارلوت في الوقت المناسب كي أدرس صف مكتب التحقيقات الفيدرالية. كان عليّ الآن أن أصحح الامتحانات النهائية. كنت أتطلع إلى زيارة قصيرة لأصدقائي في العاصـــمة قبل أن أسافر إلى مونتريال لتمضية فصل الصيف. سيكون على تلك الزيارة أن تنتظر.

"سأكون هناك غداً".

"شكراً".

واصل كلامه بلغته الفرنسية الدقيقة بصوت شجيّ زاده الحزن أو التعب عمقاً.

"لا يبدو الأمر جيداً يا تمبرانس. سيثأر الهمجيون من دون شك. ومن ثم سيريق الأفاعي مزيداً من الدماء". سمعته يسحب نفساً عميقاً ثم يزفر ببطء. "أخشى أن الوضع سيتطور إلى حرب واسعة النطاق قد يموت فيها الأبرياء".

أنهينا المكالمة، وطلبت الخطوط الجوية الأميركية كي أرتب رحلة صباحية، وبينما كنت أضع سماعة الهاتف مكانها، ظهر كريغ بيتشام عند مدخل الباب.

شرحت له أمر كويكواتر.

"أتعنين ضابط الأمن؟".

"إنه شرطي ملكي كندي".

"أم... حسناً".

طلب كريغ رقماً ما، وسأل عن مكان كويكواتر. وبعد لحظة دوّن ملاحظة، وأنهى المكالمة.

"صاحبك يحضر جلسة مهمة تتناول معالجة القضايا في إحدى غرف الاجتماعات في الأسفل هنا". عرض عليّ الرقم الذي دونه، ثم أعطاني التعليمات.

"فقط اذهبي إلى هناك، واتخذي مقعداً لك. قد يتوقفون لاستراحة عند الثالثة".

شكرته، وشققت طريقي عبر القاعات حتى وجدت الغرفة. كانت أصوات مخنوقة تنبعث من خلال الباب المغلق.

كانت ساعتي تشير إلى الثانية وعشرين دقيقة. أدرت مقبض الباب، وانسللت إلى الداخل.

كانت الغرفة مظلمة باستثناء ضوء المسلاط والضوء البرتقالي الذي يشع من إحدى الشرائح. استطعت أن أحصي ستة أشخاص يجلسون حول طاولة في وسط الغرفة. استدارت بعض الرؤوس باتجاهي بينما كنت أجلس على كرسي اتجاه الحائط الجانبي بينما بقيت معظم العيون مثبتة على الشاشة.

للدقائق الثلاثين التالية شاهدت هاجس لامانش يتحول إلى حقيقة من خلال تفاصـــيل مرعبة. بيتٌ تعرض للتفجير، أنسجةٌ متناثرة على الجدران، أشلاءُ أجساد منتـــشرة عـــبر المرج. جذعُ أنثى بوجه تحوّل إلى كتلة حمراء، وعظام جمجمة وقد تفلطحت وانتشرت بسبب انفجار طلق ناري. هيكلُ سيارة رياضية وقد تحول إلى اللون الأسود، ويدٌ متفحمة تتدلى من نافذة خلفية.

علّـــق رجـــل يجلـــس إلى يمين المسلاط على حروب عصابات الدرّاجين في شـــيكاغو بينما كان يقوم بعرض الشرائح. كان الصوت مألوفاً على نحو غريب، لكنني لم أستطع التعرف إليه.

حوادث إطلاق نار أكثر. انفجارات. حوادث طعن. بين الحين والآخر كنت أتفحـــص الـــصور الظلية حول الطاولة. كان أحدهم فقط لا يملك تسريحة شعر قصيرة جداً.

أخـــيراً، شـــعت الشاشة بضوء أبيض. أصدر المسلاط صوتاً أشبه بالطنين، وطافـــت ذرّات الغـــبار في شعاعه. أصدرت الكراسي صريراً حين تمطّى شاغلوها الذين عادوا واتجهوا نحو بعضهم بعضاً.

نهـــض المـــتحدث، وعبر الغرفة نحو الحائط. حين أُضيئت الأنوار في السقف تعـــرّفت إلـــيه بصفته العميل الخاص فرانك توليو، وهو كان قد تخرج من صف استرداد الأدلة منذ سنوات خلت. حين لمحني شعّت ابتسامة عريضة على وجهه.

"كيف تجري الأمور يا تمب؟".

لطالمـــا كـــان فرانك يتسم بالدّقة ابتداءً من شعره الرمادي القصير جداً، إلى جـــسده المكتنـــز حتى حذائه النظيف إيطالي الصنع. وبخلافنا جميعاً، حافظ فرانك على ترتيبه بالرغم من كل التدريبات القاسية والمتعبة.

"لا أستطيع التذمر. هل ما زلت تعمل مع مكتب شيكاغو؟".

"حـــتى الـــسنة الماضـــية. لقـــد تم تعييني الآن مع فريق الاستجابة للأحداث الخطرة".

كانـــت كـــل العيون مركزة علينا، وفجأة انتبهت إلى أنني لم أكن نظيفة أو مُسرّحة الشعر.

استدار فرانك نحو زملائه.

"هل يعرف الجميع طبيبة العظام المهمة؟".

بيـــنما كـــان فـــرانك يقوم بتقديمي، كان الجالسون حول الطاولة يبتسمون ويطـــرقون برؤوسهم. تعرفت إلى البعض بينما لم أتعرّف إلى البعض الآخر. ألقى واحد أو اثنان منهم دعابة عن حوادث سابقة كان لي فيها دور.

كـــان اثنان من الحاضرين غير منتسبين إلى الأكاديمية. كانت صاحبة الشعر الأكثف التي رأيتها هي كايت بروفي، المشرفة على وحدة الاستخبارات في مكتب التحقيقات التابع لولاية كارولينا الشمالية. كانت كايت خبيرة مكتب التحقيقات في قضايا عصابات الدرّاجين الخارجين على القانون منذ زمن طويل. كنا قد التقينا في أوائـــل الثمانينيات حين كانت عصابة الخارجين على القانون تتقاتل مع وُدعاء الجحيم في ولاية كارولينا. تمكنت من التعرف إلى اثنين من الضحايا.

في الطـــرف البعـــيد من الطاولة كانت شابة تقوم بالطباعة على ما يشبه آلة اختـــزال وبجانبها كان مارتن كويكواتر يجلس خلف حاسوب محمول. كان وجهه عريـــضاً ذا عظمتي خدين عاليتين وحاجبين يشكلان زاوية عند نهايتيهما. كانت بشرته بلون حجارة القرميد النارية.

"أنا واثق من أنكما تعرفان بعضكما بعضاً أيها الغريبان". قال فرانك.

"في الحقـــيقة لا". قلـــت "لهـــذا أنـــا أتطفـــل. أود أن أتحدث مع الضابط كويكواتـــر". مـــنحني كويكواتر خمس ثوانٍ من اهتمامه تقريباً، ثم عاد بنظره إلى شاشة الحاسوب.

"إنـــه توقيت جيد. نحن جاهزون لأخذ استراحة". نظر فرانك إلى ساعته، ثم عـــبر الغرفة كي يوقف عمل المسلاط. "دعونا نتناول بعض القهوة، ونجتمع مجدّداً عند الثالثة والنصف".

بيـــنما مرّ أمامي طابور العملاء، قام أحد الأعضاء باستعراض مبالغ فيه حين رســـم مـــربعاً بأصـــابعه ونظر إليّ من خلاله، وكأنه يركز عليّ من خلال مُحدّد للمناظر. كنا أصدقاء لعشر سنوات وكنت أعرف ما كان ينتظرني.

"تـــسريحة شـــعرك جميلة يا برينان. هل تحصلين على صفقة جيدة من الرجل الذي يهتم بحديقتك؟ هل يقوم بتقليم شجيراتك وشعرك بسعر واحد؟".

"بعضنا يقوم بعمل حقيقي أيها العميل ستون هام".

تابع طريقه ضاحكاً.

حين أصبحت بمفردي مع كويكواتر، ابتسمت، وبدأت بمقدمة أوسع.

"أعـــرف من تكونين". قال كويكواتر بإنكليزية ذات لكنة بسيطة. فاجأتني فظاظـــته، وكـــنت أقاوم الرد بطريقة وقحة. ربما كان العَرق والشعر المُشعّث هما سببـــي حساسيتي المفرطة.

حـــين شرحت أن لامانش كان يحاول الاتصال به، سحب كويكواتر جهاز اتصاله من حزامه، وتفقد الشاشة، ثم نقره بقوة على يده.

أعاد تعليق الجهاز بحزامه وهو يهز برأسه متنهداً.

قال "إنها البطاريات".

راقبني كويكواتر عن كثب، وأنا أكرر ما قاله لامانش. كانت عيناه ذات لون بـــني داكن تصعب معه رؤية الفاصل بين بؤبؤ عينيه والقزحية. حين أنهيت، أطرق برأسه ثم استدار، وترك الغرفة.

وقفت للحظة أتساءل عن سبب تصرف الرجل الغريب. رائع. لم تكن لدي فقـــط جثتا درّاجين متبخرتين كي أعيد جمعهما. الآن كان لدي الضابط المتجانس معي روحاً وطبعاً كشريك.

التقطت حقيبتي، وتوجهت عائدة إلى الغابة.

لا مشكلة يا سيد كويكواتر. لقد تعاملت مع أشخاص أصعب منك.

3

خلـــت الـــرحلة إلى مونتريال من أي أحداث باستثناء صد مارتن كويكواتر الواضح. فبالرغم من أننا كنا على نفس الرحلة، فإنه لم يتحدث معي أو ينتقل إلى أحد المقاعد الشاغرة في صفي. أومأنا برأسينا في مطار واشنطن ريغان وفعلنا ذلك مجدّداً بينما كنا ننتظر في صف الجمارك في مطار دورفال في مونتريال. كان بروده يناسبني إذ لم أكن أودّ التعامل مع هذا الرجل.

اســـتقللت ســـيارة أجرة إلى شقتي في وسط المدينة، وقمت بإفراغ الحقائب، وأكلـــت بسرعة فطيرة باردة. دار محرّك سيارتي القديمة من طراز مازدا بعد ثلاث محاولات، وتوجهت إلى الجانب الشرقي من المدينة.

لسنوات عديدة كان المختبر الجنائي موجوداً في الطابق الخامس في مبنى يعرف بمـــبنى شرطة كيبيك. أما بقية الطوابق فقد كانت تابعة لشرطة المُقاطعة أو شرطة كيبيـــيك باستثناء مكتبـــي ومركز للاعتقال في الطابقين الثاني عشر والثالث عشر. وكانت غرف التشريح والمشرحة في الطابق السفلي.

كانت حكومة كيبيك قد أنفقت الملايين مؤخراً لتجديد المبنى. وقد تغير موقع الـــسجن، وانتـــشرت مختـــبرات الجرائم والمختبرات الطبية الشرعية في الطابقين العلـــويين. مـــرّت شـــهور عديدة على عملية الانتقال لكنني ما زلت عاجزة عن اســـتيعاب هـــذا التغيير. كان مكتبـــي يطل على مشهد رائع لنهر سان لورنس، وكان مختبري من الدرجة الأولى.

عـــند الثالـــثة والنصف من بعد ظهر نهار الجمعة كانت زحمة نهاية الأسبوع

المعتادة قد بدأت بالتلاشي. كانت الأبواب تُغلق واحداً بعد الآخر وجيش التقنيين والعلماء الذين يرتدون ثياب المختبر قد بدأ بالتضاؤل.

فتحت بابي، وعلّقت سترتي على العلاّقة الخشبية الشبيهة بالشجرة في القاعة. كانت ثلاثة بيانات بيضاء ملقاة على مكتبي. اخترت البيان الذي يحمل توقيع لامانش.

غالباً ما يشكّل طلب خبرة عالم إنسان أوّل مقدمة لي في أي قضية. يملأ هذا البيان عالم الأمراض الذي يطلبني، وهو يقدم معلومات أساسية في تعقب ملف ما.

توجهت عيناي إلى أسفل العامود إلى اليمين. رقم المختبر. رقم المشرحة. رقم حادث الشرطة. كل شيء مرتب بعناية وفعالية. وقد تم تزويد الجثة برقم وحفظها في الأرشيف إلى أن تأخذ العدالة مجراها.

انتقلت إلى العامود الأيسر. عالم أمراض. محقق في أسباب الوفيات المشتبه فيها. ضابط تحقيق. إن الموت العنيف هو التدخل الأقصى، وأولئك الذين يحققون فيه هم آخر من يسترق النظر. وبالرغم من أنني أشارك في هذا الأمر، إلاّ أنني لم أكن قطّ مرتاحة للامبالاة التي يتعامل فيها النظام مع الميت والتحقيق في الموت. وبالرغم من أن التجرد هو أمر واجب للحفاظ على التوازن العاطفي، فإنني غالباً ما أشعر بأن الضحية تستحق شغفاً وخصوصية أكبر.

ألقيت نظرة سريعة على ملخص الحقائق المعروفة. كانت تختلف عن رواية لامانش الهاتفية في أمر واحد. حتى اليوم، تمت استعادة مئتين وخمس عشرة قطعة من بقايا اللحم والعظام. أما القطعة الأكبر، فقد كانت تزن أحد عشر باونداً.

ذهبت لأعثر على المدير متجاهلة الاستمارات الأخرى ومجموعة من الرسائل الهاتفية.

نادراً ما كنت أرى بيار لامانش مرتدياً سوى ثوب المختبر الأبيض أو ثوب الجراحة الأخضر. لم يكن بإمكاني أن أتصوره يضحك أو يرتدي زيّاً مربّع النقش أو متصالبه. كان كئيباً ولطيفاً ويرتدي ثياباً مصنوعة فقط من الصوف الخشن، وكان أفضل عالم أمراض جنائي عرفته.

لمحته من خلال المربّع الزجاجي بجانب باب مكتبه. كان جسمه الممشوق منحنياً فوق مكتب تكومت عليه الأوراق والمجلات والكتب ومجموعة من الملفات

بكـــل الألـــوان الأساســـية. حين نقرت على الزجاج نظر إلى الأعلى، وأوعز اليّ بالدخول.

كان المكتب، مثل شاغله، يعبق برائحة خفيفة من تبغ السيجار. كان لامانش معتاداً على التحرك بصمت، وأحياناً كانت الرائحة دليلي الأول لوجوده.

"تمبرانس". شددّ على الجزء الأخير من اسمي، وجعله متناغماً مع كلمة فرانس الفرنسية. "شكراً جزيلاً لعودتك باكراً. اجلسي أرجوك".

لطالمـــا كـــان يتكلم الفرنسية بدقة من دون أن يختصر أي كلمة أو يستخدم العامـــيّة. اتخـــذنا مكانيـــنا حول طاولة صغيرة مواجهة لمكتبه حيث وُضعت عدة مغلفات بنية كبيرة.

"أعلـــم أن الوقت متأخر الآن لبدء التحليل، لكن ربما تودين الحضور إلى هنا غداً؟".

كـــان الوجه الطويل ذو الخطوط العميقة العامودية يدل على شخص عنيد. وحـــين كان يرفع حاجبيه متسائلاً كانت التجاعيد المتوازية مع عينيه تطول وتتجه نحو خط وجهه الوسطي.

"أجل. بالطبع".

"ربما تودين البدء بصور الأشعة".

أشار إلى المغلفات، ثم استدار نحو مكتبه.

"هـــنا تجدين صور الموقع والتشريح". ناولني رزمةً من المغلفات البنية الأصغر حجماً وشريط فيديو.

"لقـــد سُحقت جثَتا الدرّاجين اللذين كانا يحملان القنبلة إلى منتدى الأفاعي، وانتـــشرت بقاياهمـــا علـــى مـــساحة هائلة. وقد كان جزءٌ كبيرٌ مما وجده فريق الاســـتعادة ملتصقاً بالجدران وعالقاً في الشجيرات وأغصان الأشجار. من المدهش أن أكـــبر القطع التي تمت استعادتها حتى الآن تأتي من سطح المنتدى. كما أن جزءاً من القفص الصدري عليه وشم جزئي سيكون مفيداً لاكتشاف هوية الضحية".

"ماذا عن السائق؟".

"لقد أسلم الروح في المستشفى هذا الصباح".

"ومطلق النار؟".

"إنـــه موقوف، لكن هؤلاء الناس لا يكونون مفيدين أبداً. إنه يفضل الذهاب إلى السجن على إعطاء أي معلومات للشرطة".

"حتى تلك التي تتعلق بعصابة منافسة؟".

"إن تكلم فربما يكون في عداد الأموات".

"أليس هناك من أسنان أو بصمات حتى الآن؟".

"لا شيء".

مررّ لامانش كفاً فوق وجهه وهزَ كتفيه ثم شبك أصابعه في حجره.

"أخشى أننا لن نتمكن من فرز كل الأنسجة أبداً".

"ألا نستطيع استخدام الحمض النووي؟".

"هل سمعت باسمي رونالد ودونالد فايلنكورت من قبل؟".

هززت رأسي.

"الأخوان فايلنكورت، لو كليك ولو كلاك، وهما عضوان أساسيان في عصابة الهمجـــيين. وقد وُجد أحدهما متورطاً في تصفية كلود دوبـــي لوكوتو منذ بضع سنوات. لا أذكر أيهما".

"هل تعتقد الشرطة أن الأخوين فايلنكورت هما الضحيتان؟".

"أجل".

نظرت العينان الكئيبتان إلى عيني.

"إن كليك وكلاك توأمان متطابقان".

بحلـــول السابعة من ذلك المساء كنت قد فحصت كل شيء باستثناء شريط الفيديو. راجعت عدداً كبيراً من الصور التي تحوي مئات من أجزاء العظام والكتل الدمـــوية ذات الأشكال والأحجام المختلفة مستخدمة مكبراً. في كل صورة كانت الأســـهم تـــشير إلى كريات حمراء وصفراء اللون ملقاة على العشب ومتشابكة في الأغـــصان ومسطحة على قطع من الرماد والجمر المنطفئ والأسقف المصنوعة من الورق المقيّر والحديد المُموّج.

كانـــت الـــبقايا قد وصلت إلى المشرحة في أكياس سوداء بلاستيكية كبيرة يحتوي كل منها على مجموعة من الأكياس التي تغلق بإحكام. كان كل كيس يحمل رقمـــاً ومجموعة من أجزاء الجثتين بالإضافة إلى التراب والأنسجة القماشية وقطع

الحديــد والحطــام غير المحدد. انتقلت صور التشريح من الأكياس غير المفتوحة إلى لقطــات الأكــياس البلاستيكية الصغيرة المنسَّقة على طاولات التشريح إلى صور المحتويات المرتبة في فئات.

في الصور الأخيرة كان اللحم ملقىً في صفوف مثل اللحم المرتب في صندوق الجــزّار. وقع نظري على أجزاء من الجماجم وقطعة من عظم الساق الأكبر ورأس عظــم الفخذ وجزءٍ من فروة رأس مع أذن يمنى كاملة. كما أظهرت بعض الصور القــريبة الحــوافّ المسنّنة للعظام المحطمة بينما أظهرت صور أخرى شعراً وأنسجةً وقصاصاتٍ من الأقمشة ملتصقة باللحم. كان الوشم الذي ذكره لامانش واضحاً علــى قطعــة من الجلد ويصور ثلاثَ جماجم وأيديَ عظمية تغطي العيون والآذان والأفواه. كانت مفارقة كبيرة لا تقدر بثمن، إذ إن هذا الشاب لن يستطيع رؤية أو سماع أو قول أي شيء بعد اليوم.

بعد فحص البصمات وصور الأشعة اتفقت مع لامانش. كنت أستطيع رؤية العظــام في الــصور، كما أظهرت صور الأشعة وجود المزيد منها. وسمح لي هذا بــتحديد المصدر التشريحي لبعض الأنسجة. لكن بدا أن فرز اللحم المبعثر لكل من الأخوين سيكون صعباً.

إن التمييــز بــين الأجساد المتمازجة دائماً ما يكون صعباً، خاصة إذا كانت الــبقايا محطمــة علــى نحوٍ سيئ أو ناقصة. هذه العملية تزداد صعوبة حين تكون الضحايا من نفس الجنس والعمر والعِرق. في إحدى المرات أمضيت أسبوعاً أفحص العظــام، وأحلــل لحــم سبعِ ضحايا تم استخراج جثثهم من مساحة ضيقة تحت منــــزل قاتلهم. كانوا ذكوراً مراهقين ينتمون إلى العِرق الأبيض. وقد كان تتبع الحمض النووي مفيداً جداً في تحديد هويتهم.

في هذه الحالة ربما لم يكن ذلك ليجديَ نفعاً. لو كانت الضحيتان توأمين من نفس الخلية لكانا نشآ من نفس البويضة، ولكان حمضهما النووي متطابقاً.

كان لامانش محقاً. بدا من غير المرجح أن أتمكن من تقسيم الأجزاء إلى جثتين منفصلتين، ومنح اسم لكلٍّ منهما.

قرقــرت معدتي منذرة بوقت مغادرة العمل. أمسكت بحقيبتي، وأغلقت زمّام سترتي وأنا أشعر بالتعب واليأس، وتوجهت إلى الخارج.

حين عدت إلى المنـــزل أعلمني ضوء الهاتف المتقطع بأن لدي رسالة. وضعت الـــسوشي الـــذي اشتريته على الطاولة، وفتحت عبوة مرطبات مخصصة للريجيم، وضغطت على الزر.

كـــان ابن أختي كيت قادماً بالسيارة من تكساس إلى فرمونت بصحبة والده. وبإصـــرارٍ مـــنهما على توطيد العلاقة بينهما كانا قادمين شمالاً لصيد ما استطاعا صـــيده في المـــياه الداخلـــية في الربيع. وبما أن قطي يفضل المساحة والراحة اللتين يوفّرهما البيت النقال على الفعالية التي يقدمها السفر الجوي، فقد كان كيت وهوي قـــد وعدا باصطحابه من منـــزلي في تشارلوت ونقله إلى مونتريال. كانت الرسالة تفيد بأنهما سيصلان مع بيردي في الغد.

غمـــست شريحةً من لفافة الماكي ووضعتها في فمي. كنت أهم بتناول لفافة أخرى حين رن جرس الباب. بدهشة توجهت نحو شاشة الأمن.

ظهر أندرو رايان على الشاشة مستنداً إلى الجدار في المدخل المؤدي إلى بيتي. كـــان يرتدي سروالاً من الجينـــز الأزرق الباهت وسترةً واقيةً فوق قميص أسود وينـــتعل حذاءً للركض. بطوله البالغ ست أقدام وإنشين وعينيه الزرقاوين وملامحه الحادة كان يبدو مزيجاً من كال ريبكن وأنديانا جونـــز.

وكنت أنا أبدو مثل فيليس ديلير قبل إجرائها عملية تغيير المظهر.

رائع.

فتحت الباب وأنا أتنهد.

"مرحباً يا رايان. ماذا هنالك؟".

"رأيت ضوء مصباحك وحسبت أنك ربما عدت باكراً".

رمقني بنظرة مخمنة.

"أكان يوماً صعباً؟".

"أمـــضيت الـــيوم أتنقل وأفرز أجزاءً من اللحم". أجبت مدافعة، ثم دسست شعري وراء أذني. "هل ستدخل؟".

"لا أســـتطيع البقاء". لاحظت أنه يحمل هاتفه الرنّان ومسدساً. "فكّرت فقط في أن أسألك عن مشاريعك للعشاء لليلة الغد".

"سأقوم بفرز جثث ضحايا التفجير طوال يوم غد، لذلك ربما أكون في مزاج سيئ".

"سيكون عليك أن تأكلي".

"سيكون عليّ أن آكل".

وضع يداً فوق كتفي، وفتل خصلة من شعري بأصابع يده الأخرى.

قال بصوت منخفض "إن كنت متعبة نستطيع أن ننسى العشاء ونسترخي فقط".

"هم...".

"ونوسع آفاقنا؟".

سحب شعري إلى الوراء، ومرر شفتيه على أذني.

"آه. أجل".

"بالطبع يا رايان. سأرتدي شيئاً مميزاً".

"دائما ما أشجع ذلك".

رمقته بنظرة موافقة.

"هل ستختار الطعام الصيني؟".

"الطعام الصيني جيد". قال وهو يرفع شعري عالياً ويجمعه في عقدة على قمة رأسي. ثم تركه يتساقط، ولف ذراعيه حول ظهري. وقبل أن أتمكن من الاعتراض، شدني إليه، وقبلني بشغف.

كانت شفتاه ناعمتين وصدره صلباً على صدري. بدأت أسحب نفسي بعيداً عنه، لكنني كنت أدرك أنني لم أكن أريد أن أفعل هذا. استرخيت، وانسجم جسدي مع جسده، وأنا أتنهد. تبخرت أحداث النهار المرعبة، وفي تلك اللحظة شعرت بأمان من جنون القنابل والأولاد المقتولين.

في النهاية كنا نحتاج إلى الهواء.

"أأنت متأكد من أنك لا تريد الدخول؟" سألته وأنا أتراجع، وأفتح الباب. شعرت بركبتيَّ ترتخيان.

نظر رايان إلى ساعته.

"أنا متأكد أن نصف ساعة لن تحدث فرقاً".

في تلك اللحظة رن هاتفه الرنّان. تفقد الرقم.

"اللعنة".

"اللعنة".

أعاد تعليق هاتفه الرنّان في حزام سرواله.

قال بابتسامة خبيثة، "آسف. تعلمين أنني حقاً أفضل...".

"اذهب" بابتسامة وضعت كفي على صدره ودفعته بلطف.

"أراك مساء الغد عند السابعة والنصف".

"فكّري فيّ". قال وهو يستدير ويتوجه نحو الرواق في الأسفل.

حين ذهب عدت إلى السوشي وأنا بالتأكيد أفكّر في أندرو رايان.

يعمـــل رايان مع شرطة كيبيك كمحقق جنائي، ومن فترة إلى أخرى نعمل علـــى نفس القضايا. وبالرغم من أنه يطلب مواعدتي منذ سنوات، فإنني لم أوافق علـــى مواعدته اجتماعياً حتى وقت قريب. تطلب الأمر مني بعض الإقناع الذاتي، لكنني اقتنعت بوجهة نظره أخيراً. من الناحية التقنية لم نكن نعمل سوياً، لذلك فإن قاعدة عدم إقامة علاقة رومانسية في مكان العمل لم تكن تخضع للتطبيق ما لم أود أنا تطبيقها.

بالرغم من ذلك، فإن هذا الترتيب جعلني أشعر بالتوتر. بعد عشرين سنة من الـــزواج وسنوات عديدة كشبه عازبة، لم تكن إقامة العلاقات الجديدة أمراً سهلاً بالنسبة إليّ. لكنني كنت أستمتع بصحبة رايان، لذلك قررت أن أمنح الأمر فرصة "لأن أواعده" كما تقول أختي.

آه يا الله. المواعدة.

كـــان علـــيّ أن أعترف بأنني أجد رايان جذاباً إلى حدٍّ كبير. كانت معظم النساء يجدنه جذاباً، فحيثما ذهبنا، كنت ألاحظ أعين النساء تتفحصه متسائلةً من دون شك.

كـــنت أتساءل أنا أيضاً. لكن في تلك اللحظة كانت تلك السفينة لا تزال في المرفأ والمحركات موقدة وجاهزة للانطلاق. وقد أعادت تأكيد ذلك الأمر ركبتاي المرتخيتان. كان الخروج لتناول العشاء فكرة أفضل.

رن جرس الهاتف بينما كنت أنظف الطاولة.

"يا الله، لقد عدت". جاء الصوت عميقاً بلغة إنكليزية ذات لكنة فرنسية ثقيلة.

"مرحباً إيزابيل، ما الأمر؟".

بالـــرغم من أنني عرفت إيزابيل كايي نحو عامين فقط، فقد أصبحنا مقربتين للغايـــة في هذه الفترة. كنا قد التقينا في فترة عصيبة من حياتي. خلال صيف قاتم كنت هدفاً لمريض نفسي عنيف كما تعرضت أفضل صديقاتي للقتل وأُجبرت أخيراً علـــى مواجهة حقيقة زواج فاشل. فانغمست في ذاتي، وحجزت لنفسي في فندق كلب ميد، وسافرت لألعب التنس وأفرط في تناول الطعام.

كنت قد التقيت بإيزابيل خلال الرحلة إلى ناسو ثم لعبنا سوياً كزوجين. ربحنا واكتـــشفنا أنـــنا كنا هناك لأسباب متشابهة وأمضينا سوياً أسبوعاً ممتعاً. أصبحنا صديقتين منذ ذلك الوقت.

"لم أكـــن أتوقـــع مجيئك قبل الأسبوع المقبل. كنت سأترك لك رسالة كي نلتقي، لكن بما أنك هنا، ما رأيك بأن نتناول العشاء سوياً غداً؟".

أخبرهّا عن رايان.

"علـــيك أن تحافظي على هذا الرجل. حين تسأمين من ذلك الفارس أرسليه إليّ، وسأمنحك شيئاً تفكّرين فيه. لِمَ عدت باكراً؟".

شرحت لها عن حادث التفجير.

"آه، أجـــل. قرأت عن ذلك الحادث في جريدة لا برس. هل الأمر رهيب إلى هذه الدرجة؟".

قلت "الضحايا ليسوا في حالة جيدة".

"الدرّاجـــون. إن أردت رأيـــي، فهـــؤلاء الدرّاجون الخارجون على القانون يستحقون ما يحصل لهم".

لم تكن إيزابيل تعوزها الآراء ونادراً ما كانت تتردد في مشاركتها.

"يجـــدر بالشرطة أن تدع رجال العصابات أولئك يفجرون بعضهم بعضاً. عندها لن يكون علينا أن ننظر إلى أجسادهم الوسخة ذات الأوشام القذرة بعد ذلك".

"هم ـــ".

"أقصد أنهم ليسوا كمن يقتلون أطفالاً".

"لا". قلت موافقة "ليس الأمر كذلك".

في اليوم التالي ماتت إميلي توسان بينما كانت في طريقها إلى درس الباليه.

4

كـــان هـــاورد وكيت قد وصلا عند السابعة وتركا بيردي وتابعا طريقهما. كـــان بيردي يتجاهلني ويتفقد الشقة بحثاً عن أي متطفلٍ من الكلاب حين غادرت إلى المختبر عند الثامنة لأتابع عملي على ضحايا التفجير.

كانت إميلي آن قد وصلت بعد الظهر بقليل.

بمـــا أنني كنت بحاجة إلى مساحة للعمل، فقد اخترت غرفة التشريح الكبيرة. ســـحبت الحمالـــتين اللتين تحويان بقايا ضحيتَيَ التفجير إلى وسط الغرفة، ورحت أحاول تجميع الجثتين على طاولتين. بما أنه كان يوم سبت، فقد كان المكان كله لي.

كنت قد حدّدت وفرزت كل قطع العظام المرئية. ثم باستخدام صور الأشعة سحبت القطع التي تحتوي على عظام، وشرّحت الأنسجة للبحث عن أي علامات فارقـــة. وعندما كنت أجد قطعاً متطابقة، كنت أقسّمها بين الطاولتين. إن وجود حديبتين في الجهة اليسرى من العانة أو لقمتين خشائيتين أو نتوئَين من عظم الفخذ يعني أننا نتعامل مع شخصين مختلفين.

كمـــا وجدت دليلاً على مشكلة في النمو خلال فترة الطفولة في بعض أجزاء العظام الطويلة. حين تتعرض الصحة للمشاكل يتوقف الطفل عن النمو ويتوقف نمو العظـــم. ويأتي هذا التوقف نتيجة للمرض أو لفترات من الغذاء غير السليم. وحين تتحسن الأمور يعاود الجسم نموه، لكن التوقف الذي حدث يترك علامات دائمة.

كانـــت صـــور الأشـــعة تظهر خطوطاً كمداء على شظايا عديدةٍ من عظام الذراع والقدم. كانت الخطوط الضيقة تمتد على نحو مستعرض عبر الجذع، وتشير

إلى فتـــرات من النمو المتوقف. وضعت الأنسجة ذات الأجزاء المصابة على طاولة والأنسجة ذات العظام السليمة على الأخرى.

كانـــت إحدى الكتل المتشابكة من اللحم المتناثر تحتوي على عدة عظام من الـــيد. حـــين أخــــرجتها عثرت على قطعتين من العظم السنعي ذات أشكال غير منـــتظمة. أظهـــرت هـــذه المناطق المُتكتّلة كثافة زائدة حين تم تصويرها بالأشعة السينية، مما يشير إلى أن واحداً من الضحيتين كان قد كسر هذه الأصابع في وقت ما في الماضي. وضعت هذه الأنسجة جانباً.

أمّا الأنسجة الخالية من العظم فقد كانت موضوعاً آخر. فبواسطتها استطعت درس نـــسيج القماش الملاصق، وأنا أعمل بشكل عكسي بدءاً من النسيج المفروز وأجمّع الخيوط والألياف من طاولة إلى أخرى وصولاً إلى قطع الأنسجة المتبقية على الحمالات. اعتقدت أنني استطعت جمع نسيج مربع النقش، وهو قماش كاكي من الـــنوع المُـــستخدم عادة في صناعة سراويل العمل وقماش الدنيم والقطن الأبيض. لاحقاً يمكن للخبراء في قسم الشعر والأنسجة أن يجروا تحليلاً كاملاً كي يحددوا إن كان بإمكانهم تأكيد النتائج التي توصلت إليها.

بعد الغداء ومحادثتي مع لامانش، عدت إلى ضحيّتَي التفجير. بحلول الخامسة والربع كنت قد قسّمت ثلثي الأنسجة تقريباً. من دون الحمض النووي لم أرَ أيّ أمـــلٍ في ربط الأجزاء المتبقية بأشخاص مُعيّنين. كنت قد قمت بما أستطيع القيام به.

كنت قد وضعت هدفاً لنفسي أيضاً.

كلما خضت في أجزاء جسدي الأخوين فايلنكورت وجدت أنه من الصعب عليّ التعاطف مع الشخصين اللذين كنت أعيد تجميع جثتيهما. في الحقيقة، شعرت بالـــضيق لاضـــطراري إلى القـــيام بذلك. لقد تم تفجير هذين الرجلين بينما كانا يحـــضران لـــتفجير آخرين. كانت عدالة قاسية قد فرضت نفسها وملأني إحساس بالإرباك أكثر منه بالأسف.

لم يكـــن هذا شعوري حيال إميلي آن. كانت مستلقية على طاولة التشريح الـــتي تعود إلى لامانش لأنها كانت متوجهةً إلى صف الرقص. لم تكن تلك الحقيقة مقبولة. لم يكن مقتل فتاة بريئة ليعتبر مجرّد حادثة ناجمة عن حرب مجنونة.

يمكـــن للأفاعي أن يقتلوا الهمجيين، ويمكن للخارجين على القانون أن يقتلوا الـــبانديدوس. أو الملحدين. أو وُدعاء الجحيم. لكن يجب عليهم ألاّ يقتلوا الأبرياء. قطعـــت عهـــداً على نفسي بأن أستخدم كل مهارة جنائية أستطيع تجنيدها وكل ســـاعة أمتلكها لأعثر على الأدلة وأحدد هوية هؤلاء المجرمين المضطربين وأُدينهم. يحق للأولاد المشي في الشوارع من دون أن يوقفهم أحد.

نقلـــت الـــبقايا المفـــروزة مجدّداً إلى الحمالتين، ولففتها في صناديق مبرّدة، ونظّفـــت نفـــسي، وارتـــديت ملابس الخروج. ثم استقللت المصعد لأبحث عن رئيسي.

قلت بصوت هادئ وثابت، "أريد أن أعمل على هذه القضية. أريد النيل من قتلة الصغار هؤلاء".

حَـــدَّقَتْ إليّ عيـــنا العجوز التعبتان لفترة بدت طويلة جداً. كنا نناقش قضية إميلي آن توسان وقضية الفتى الآخر. صبـــي.

كـــان أوليفيه فونتان في طريقه إلى تدريب الهوكي حين اقترب بدرّاجته من ســـيارة مـــن طراز جيب شيروكي في اللحظة التي كان فيها السائق يدير المفتاح. انفجرت القنبلة بقوة كافية لقذف الشظايا على جسد أوليفيه وقتله مباشرة. حدث هذا الأمر يوم ذكرى ميلاده الثانية عشرة.

كـــنت قـــد نـــسيت أمر قضية قتل فونتان حتى رأيت إميلي آن. كان ذلك الحادث قد وقع في كانون الثاني من العام 1995 في جزيرة وست، وقد تورط فيها كـــل مـــن وُدعاء الجحيم وآلة الصخر. تسبب موت أوليفيه بإطلاق صرخة من الغضب الشعبـــي، الأمر الذي أدى إلى إنشاء عملية كركاجو، وهي قوة عسكرية متعددة متخصصة في التحقيق في جرائم الدرّاجين.

"تمبرانس، لا أستطيع ـــ".

"ســـأفعل كل ما يتطلبه الأمر. سأعمل في وقتي الخاص، بين القضايا. إن كان العاملـــون في عملية كركاجو مثل العاملين في كل القضايا الأخرى، فربما يفتقرون إلى المـــساعدين. بإمكـــاني إدخال المعلومات إلى الحاسوب أو إجراء أبحاث تتعلق بقضايا قديمة. أستطيع الوصل بين الوكالات، وربما ربط وحدات الاستخبارات في الولايات المتحدة. أستط ـــ".

"تريثي يا تمبرانس". رفع يداً وقال، "ليس هذا أمراً أستطيع القيام به. سأتحدث مع السيد باتينو". كان ستيفان باتينو مديراً لمختبر العلوم القضائية والطب الشرعي، وكان يتخذ القرارات النهائية للمختبرات الطبية الشرعية.

"لن أدع عملي في عملية كركاجو يتدخل في واجباتي العادية".

"أعلم ذلك. أعدك بأنني سأتحدث مع المدير صباح يوم الاثنين. الآن اذهبي إلى المنزل. أرجو لك نهاية أسبوع جيدة".

تمنيت له عطلة نهاية أسبوع جيدة أيضاً.

ينتهي فصل الشتاء في كيبيك بطريقة مختلفة عن كارولينا بيدمونت. هناك في موطني يتسلّل الربيع برفق، وبحلول نهاية آذار وبداية نيسان تبدأ الأزهار بالتفتح، ويكون الهواء لطيفاً مع بداية دفء الصيف.

ينتظر سكان كيبيك فترة أطول بستة أسابيع كي يزرعوا حدائقهم والصناديق على شبابيكهم. ويكون جزء طويل من نيسان بارداً ورمادياً وتلمع الشوارع والأرصفة بالجليد الذائب والثلج. لكن حين يطلّ الربيع فإنه يظهر باستعراض مبهر. فينفجر الموسم، ويتجاوب السكان بحماسة غير مسبوقة على كل الكوكب.

كان هذا الاستعراض الربيعي يبعد أسابيع عن اليوم. كان الجو مظلماً والمطر الخفيف يتساقط. رفعت زمّام سترتي، وأخفضت رأسي، وأسرعت باتجاه السيارة. استمعت إلى نشرة الأخبار بينما كنت أدخل نفق فيل ماري، كان مقتل الفتاة توسان الخبر الرئيسي. تلك الليلة كانت إميلي آن ستنال جائزة في مباراة للكتابة مخصصة للصغار. وكانت قد عنونت مقالها الرّابح: "دعوا الأطفال يعيشون".

مددت يدي، وأوقفت عمل المذياع.

فكّرت في مشاريعي للأمسية، وكنت سعيدة لوجود شخص يرفع من معنوياتي. وأقسمت ألا أتحدث في موضوع العمل مع رايان.

بعد عشرين دقيقة، فتحت باب شقتي، وسمعت صوت الهاتف يرن. نظرت إلى ساعتي بسرعة. كانت السادسة وخمسين دقيقة. سيكون رايان هنا خلال أربعين دقيقة، وكنت أريد بعض الوقت لأستحم.

مشيت إلى غرفة المعيشة، ورميت سترتي على الأريكة. أصدرت الآلة صوتاً، واستمعت إلى صوتي يطلب رسالة قصيرة. ظهر بيردي في نفس اللحظة التي صدر فيها صوت إيزابيل.

"تمـــب، إن كنت في المنـــزل أجيبـــي على الهاتف. الأمر مهم". توقفت عن الكلام. اللعنة.

لم أكـــن أرغـــب في الحـــديث حقاً. لكن شيئاً ما في صوتها جعلني أمسك بالسماعة.

"مرحبا إيزا...".

"شغلي التلفاز. محطة سي بـــي سي".

"أعرف بشأن الفتاة توسان. كنت في المخ...".

"الآن!".

أمسكت بجهاز التحكم عن بعد، وشغلت جهاز التلفاز.

ثم استمعت وأنا أشعر بالرعب.

5

"كان المحقق – الملازم أول رايان قيد التحقيق منذ عدة شهور. وقد اتُهم بحيازة بضاعة مسروقة وبحيازة مواد مراقبة والمتاجرة بها. استسلم رايان بهدوء لضباط المجتمع المدني في مونتريال بعد ظهر هذا اليوم خارج منزله في منطقة أولدبورت. وقد تم إيقافه عن العمل من دون أجر بانتظار انتهاء التحقيق".

"والآن نعود إلى الأخبار الأخرى التي كنا نتابعها. في الأخبار المالية، فإن الاندماج المقترح...".

"تمب!".

أعادني صوت إيزابيل العالي. رفعت السماعة إلى أذني.

"إنه هو، أليس كذلك؟ أندرو رايان، الجريمة ضد الشّخص، أمن كيبيك؟".

"لا بد من أنها غلطة".

بينما كنت أقول ذلك طارت عيناي إلى ضوء الرسالة. لم يكن رايان قد اتصل.

"الأفضل أن أذهب. سيصل إلى هنا قريباً".

"إنه في السجن يا تمب".

"يجب أن أذهب. سأتصل بك غداً".

وضعت السمّاعة، وطلبت رقم شقة رايان. لم يرد أحد. طلبت هاتفه الرنّان، وأدخلت رقمي. لم أتلقَ أي رد. نظرت إلى بيردي. لم يكن لديه أي تفسير.

بحلول التاسعة كنت قد بدأت أدرك أنه لن يأتي. كنت قد طلبت رقم منـــزله ســـبع مرات، وكنت قد طلبت شريكه لكنني حصلت على نفس النتيجة. لم يكن هناك من ردّ أو استجابة.

حاولـــت تـــصحيح الامـــتحانات النهائية التي أحضرتها من جامعة كارولينا الـــشمالية في تشارلوت، لكنني لم أستطع التركيز. ظلّت أفكاري تعود إلى رايان. كـــان الـــوقت يمرّ ووجدت نفسي أحدّق إلى نفس المقال في الدفتر الأزرق ذاته ودماغي لا يعي شيئاً مما كتبه الطالب. استكان بيردي في الانحناء بين ركبتيَ، لكن ذلك لم يكن مصدر راحة كبيراً لي.

لا يمكن للأمر أن يكون صحيحاً. لم أستطع تصديقه. لم أرد تصديقه.

عـــند العاشرة، أخذت حمام فقاعات ساخناً وطويلاً، وفتحت علبة من المعكرونة المجمـــدة، وأخـــذتها إلى غرفة المعيشة. اخترت أقراصاً مدمجة كنت آمل أنها ستبهجني، ووضعتها في مُشغِّل الأسطوانات. ثم حاولت أن أقرأ. انضم إليّ بيردي مجدّداً.

لا فائـــدة. كنت أدور في نفس الحلقة. كانت أخبار بات كونروي لتُنشرَ في ناهتل.

كنت قد رأيت صورة رايان على الشاشة ويداه مقيدتان خلف ظهره ويحيط بـــه مـــن الجانبين رجال الشرطة بالملابس الرسمية. وقد راقبتهم يدفعون برأسه إلى الأمـــام بينما كان ينحني ليجلس في المقعد الخلفي في سيارة الكروزر. بالرغم من ذلك لم يستطع عقلي تقبل الأمر.

هل كان أندرو رايان يتاجر بالمخدرات؟

كيف كان بإمكاني أن أكون غير مصيبة إلى هذا الحدّ بشأنه؟ هل كان رايان يتاجـــر بالمخـــدرات خلال كل الوقت الذي عرفته فيه؟ هل كان هناك وجه آخر للرجل لم أكن قد رأيته من قبل؟ أم كان الأمر برمّته خطأً رهيباً؟

كان يجب أن يكون الأمر غلطة.

بـــردت المعكـــرونة على الطاولة. لم تكن لديّ شهية على الطعام. و لم يكن مزاجـــي يسمح لي بالاستماع إلى الموسيقى. لعبت فرقة بيغ باد فودو دادي وفرقة جوني فايفوريت موسيقى سوينغ تستطيع أن تجعل الميت ينهض ويرقص. لكنها لم تستطع أن تحسّن مزاجي.

كـــان المطر ينهمر على نحو مستمر الآن، وينقر النوافذ متكتكاً بصوت ناعم. بدا ربيعي في كارولينا بعيداً جداً.

لففت المعكرونة حول الشوكة، لكن رائحتها جعلت شيئاً في معدتي ينقبض.

كان أندرو رايان مجرماً.

كانت إميلي آن توسان ميتة.

كانـــت ابنتي في مكان ما في المحيط الهندي. غالباً ما أتصل بكاتي حين أكون محـــبطة، لكـــن في الشهور القليلة الأخيرة كان هذا الأمر صعباً. فقد كانت تمضي ربـــيعها ضـــمن برنامج فصل في البحر، وهي تلف العالم على متن سفينة أس أس يونيفرس إكسبلورر. والسفينة لن تعود قبل خمسة أسابيع أخرى.

أخـــذت كـــوباً من الحليب إلى غرفتي، وفتحت شق الشباك، وحدقت إلى الخارج. كانت الأفكار تدور في رأسي مثل حركة السير عند الخامسة.

بدت الأشجار والشجيرات كأشباح سوداء من خلال الضباب القاتم اللامع. خلف هذا الضباب كنت أستطيع رؤية مصابيح السيارات الأمامية ولمعان المصابيح البيـــضاء من زاوية ديبانور. بين الحين والآخر كانت السيارات تمر مسرعة أو يمر المشاة على عجل وكعوب أحذيتهم تطقطق على الرصيف المبلل.

كانت ليلة عادية ورتيبة للغاية، ليلة ماطرة أخرى في نيسان.

تـــركت الـــستارة تنسدل، وعبرت الغرفة إلى سريري وأنا أشك في أن العالم سيعود إلى طبيعته في وقت قريب.

أمضيت اليوم التالي في نشاط دائم أفرغ الحقائب، وأنظف المنـــزل، وأشتري المأكولات. تجنبت المذياع والتلفاز، وألقيت نظرة سريعة على الجريدة.

نـــشرت الغازيت جريمة قتل توسان تحت عنوان **فتاة صغيرة تقتل في حادث إطلاق نار دموي**. وبجانب الخبر ظهرت صورة مُكبرة لإميلي آن في الصف الرابع الابتدائي. كان شعرها مضفراً ومربوطاً عند أطرافه بشرائط وردية كبيرة. وأظهرت ابتسامتها ثغرات لن تسنح الفرصة لأسنان البالغين بأن تملأها.

كانـــت صـــورة والدة إميلي تفطر القلب أيضاً. كانت الكاميرا قد التقطت صورة امرأة نحيلة سوداء تميل برأسها إلى الوراء وتفتح فمها واسعاً وهي تزمّ شفتيها إلى الـــداخل في صـــرخة عـــذاب. كانـــت ركبتا السيدة توسان منثنيتين ويداها

معقـــودتين تحـــت ذقنها، وعلى كل جانب كانت تسندها امرأة سوداء ضخمة. كانت الصورة المغبشة تفيض بحزن لا يوصف.

أعطـــت القصة تفاصيل قليلة. كان لإميلي آن أختان صغريان هما سينثيا لويز وعمـــرها ســـت سنوات وهنا روز وتبلغ من العمر أربع سنوات. كانت السيدة توسان تعمل في مخبز، أمّا السيد توسان فقد توفي في حادث خلال العمل قبل ثلاث ســـنوات. وقد كان الزوجان اللذان ولدا في بربادوس قد هاجرا إلى مونتريال سعياً وراء حياة أفضل لبناهما.

كـــان الاحتفال الجنائزي سيقام يوم الخميس في الثامنة صباحاً في دار العبادة الكاثوليكية ويتبعه الدفن في مقبرة سيدة الثلج.

رفضت أن أقرأ أو أن أستمع إلى أي تقرير عن رايان. كنت أود أن أسمع منه أخباراً. خلال كل فترة الصباح تركت رسائل على آلته من دون أن أتلقى أي رد. كمـــا تعذر الاتصال بشريك رايان جون برنارد. لم أستطع التفكير في القيام بأي شـــيء آخر. كنت على يقين من أن أحداً في المجتمع المدني في مونتريال أو شرطة كيبيك سيتحدث عن الموقف و لم أكن أعرف أحداً من عائلة رايان أو أصدقائه.

بعـــد القيام برحلة إلى النادي الرياضي حضّرت عشاءً من صدور الدجاج مع صلـــصة الخـــوخ والجزر والفطر والأرز بالزعفران. كان رفيقي السّنوري ليفضل السمك من دون شك.

نهضت باكراً صباح الاثنين، وقدت سيارتي إلى المختبر، وذهبت مباشرةً لمقابلة لامـــانش. كـــان يحـــضر اجتماعاً مع ثلاثة محققين، لكنه طلب إليّ أن أتحدث مع ستيفان باتينو بأسرع ما يمكن.

لم أضـــيّع أي وقت، فتوجهت نحو الرواق حيث مكاتب العاملين في الطب الشرعي وعلم الإنسان وعلماء الأسنان والأنسجة ومختبرات علم الأمراض. بعد أن عـــبرت قسم الوثائق إلى يساري وقسم التصوير إلى يميني، تابعت طريقي إلى منطقة الاســـتقبال الرئيـــسية، ودرت شمالاً نحو الجناح حيث يقيم العاملون الإداريون في مختبرات العلوم القضائية والعلوم الطبية الشرعية. كان مكتب المدير آخر مكتب.

كـــان باتيـــنو يُجـــري مكالمة هاتفية. أشار إليّ بالدخول، واتخذت مقعداً مواجهاً لمكتبه.

حـــين انتهى من مكالمته، انحنى إلى الوراء ونظر مباشرةً إليّ. كانت عيناه ذاتا اللـــون البني الغامق تغطيهما رموش طويلة وحاجبان كثيفان. لم يكن ستيفان باتينو يحتاج إلى أن يقلق أبداً بشأن تساقط الشعر.

"أخبرني الدكتور لامانش أنك تودين العمل في التحقيق في قضية توسان".

"أعـــتقد أنني قد أكون مفيدة في عملية كركاجو. لقد سبق لي العمل في عدة قضايا تتعلق بالدرّاجين. في الوقت الحاضر أنا أعمل على فرز أجزاء ضحيَّتَي تفجير منتدى الأفاعي. لست حديثة العهد بهذه الأمور. أستطيع...".

لوّح لي بإحدى يديه.

"لقد سألني مدير عمليات كركاجو إن كان بإمكاني تعيين أحد العاملين لديّ للعمل كصلة وصل مع وحدته. بوجود هذه الحرب المستعرة يود أن يكون متأكداً مـــن أن مختـــبر الجـــريمة والعاملين في المختبرات الطبية الشرعية والمحققين يعملون بالتنسيق في الوقت عينه".

لم أنتظر لأسمع المزيد.

"أستطيع القيام بذلك".

"إنه الربيع. حينما يذوب الجليد عن النهر ويتوجه المخيمون والمتنـــزهون نحو الغابات سيزداد عملك".

كـــان ذلـــك صحيحاً. لطالما ازداد عدد الجثث الطافية والمتحللة حين يصبح الطقس دافئاً وتظهر جثث من ماتوا في الشتاء الماضي.

"سأعمل لساعات إضافية".

"كـــنت ســـأعيِّن ريال مارشان، لكنني أرحب بك إن كنت تريدين المحاولة. ليس هذا عملاً بدوام كامل".

رفع ورقة عن مكتبه وناولني إياها.

"هـــناك اجـــتماع عـــند الثالـــثة من بعد ظهر اليوم. سأتصل بهم لأبلغهم بقدومك".

"شكراً. لن تندم على هذا".

نهض ورافقني إلى الباب.

"هل تأكدتم من جثّتَي الأخوين فايلنكورت؟".

"سنتعرف إليهما حالما يصل سجلاهما الطبيان. نأمل أن يحدث ذلك اليوم".
أشار إليّ مشجعاً.
قال بالإنكليزية، "نالي منهم يا تمب".
بادلته الإشارة، ورفع كتفيه ثم تراجع إلى مكتبه.
بالإضـــافة إلى كونه مديراً رائعاً كان باتينو يملك جسداً أروع من جسد أي رياضيّ.

يكـــون المحققون في أسباب الوفيات المشتبه فيها والمحققون الطبيون أكثر انشغالاً أيام الاثنين، و لم يكن يوم الاثنين هذا استثنائياً. ظننت أن الاجتماع لن ينتهي أبداً بينما كـــان لامـــانش يـــستعرض القضايا. كانت بنت صغيرة قد توفيت في المستشفى وقد اعتـــرفت الأم بهـــزها فقط. ثلاث سنوات هو أكبر من العمر المعروف لتناذر الطفل المهزوز. وقد أكّدَت كدمة في رأس الطفلة أنها قد ضُربت بعنف على سطحٍ صلب.

عُثـــر على مريض في الثانية والثلاثين من عمره يعاني من انفصام في الشخصية مفـــتوح الـــبطن وأحشاؤه تفيض على سجادة غرفته. وقد زعمت عائلته بأنه قد ســـبب الأذى لنفسه. وكانت شاحنتان قد اصطدمتا خارج سانت هياسنث. وقد احترق السائقان بشكل يتعذر معه التعرف إلى جثتيهما.

كما وُجد بحار روسي في السابعة والعشرين من عمره في مقصورته من دون أي علامـــات للحياة. وقد أعلن رُبّان السفينة وفاته وحُفظت الجثة، وأُحضرت إلى الشاطئ. وبما أن الوفاة حدثت في المياه الكندية، فقد تطلب الأمر تشريحاً للجثة.

تعرضت امرأة في الرابعة والأربعين من عمرها للضرب حتى الموت في شقتها. وقد بدأ البحث عن زوجها الهارب.

كان سجلا دونالد ورونالد فايلنكورت الطبيّان قد وصلا بالإضافة إلى مغلّف من الصور.

حـــين تم تمرير الصور أدركنا أن إحدى جثتي التوأمين على الأقل موجودة في الأســـفل في أجـــزاء. في لحظة رائعة التقطتها عدسة كاميرا كوداك وقف رونالد فايلنكورت عاري الصدر وهو ينفخ صدره وقد زيّنت الجمجمة الجهة اليمنى منه.

أوكل لامانش كلاً من عمليتي التشريح لعالم أمراض، وسلَمني وثائق الأخوين فايلنكورت.

بحلـــول العاشـــرة وخمس وأربعين دقيقة كنت قد عرفت أياً من التوأمين قد كـــسر اثـــنين من أصابعه. كان رونالد فايلنكورت المعروف بلو كليك قد كسر إصـــبعيه الـــثاني والثالث في شجار في أحد المشارب في العام 1953. وقد أظهرت صـــور الأشعة التي أجريت في المستشفى الإصابة في نفس المكان حيث وجد النمط غـــير المنتظم في العظام السنعية. وقد بيّنت الصور أيضاً خلوّ عظام ساعد لو كليك من علامات النمو غير الطبيعي.

كما تعرض لو كليك لحادثة درّاجة نارية أرسلته مجدّداً بعد شهرين إلى غرفة الطوارئ وقد أصيب هذه المرة بأذىً في الورك والأطراف السفلية من جسمه. كما كانـــت الـــصورة الشعاعية مشابهة. كانت عظام الفخذ لدى رونالد طبيعية. وقد أشـــار ســـجله إلى أنه كان قد دُفع من سيارة عام 95 وُطعن في عراك في الشارع لاحقـــاً خلال ذلك العام. كما كان قد تعرَض للضَرب من قبل عصابة منافسة في العام 97. كان سُمك ملفه الذي يحوي صور الأشعة يبلغ إنشين.

اكتـــشفتُ أيضاً أياً من التوأمين كان الولد السليم. كان دونالد فايلنكورت المعـــروف بلو كلاك قد أُدخل إلى المستشفى عدة مرات خلال طفولته حين كان يعـــاني مـــن فترات طويلة من الغثيان والتقيّؤ ولم يتم تشخيص السبب أبداً. وفي الحادية عشرة من عمره كان يعاني من التهاب معوي.

أخذ لو كلاك حصته أيضاً. فقد كان ملفه، كملف أخيه، يحتوي على رزمة كـــبيرة مـــن صور الأشعة التي أظهرت عدد زياراته إلى مركز الصدمات. كان قد كسر أنفه وعظمة خده. وقد تعرض صدره لجرح سكين كما تعرّض رأسه لضربة بزجاجة.

ابتـــسمت لـــسخرية القـــدر وأنا أغلق الملف. فالحياة المضطربة للأخوين ســـتؤمّن رسمـــاً يساعد على فرز جسديهما. وقد تركت بليتهما المتعددة خريطة عظميَة.

عدتُ إلى الطابق السفلي مُسلحة بالملفات الطبية، وبدأت عملية التعرف إلى الأجـــزاء. بـــدأت بالجزء من الصدر حيث الوشم والأجزاء التي ربطته بها. كان ذلـــك رونالد. كان يملك اليد المكسورة وكل الأنسجة التي تحتوي على العظام الطويلة الطبيعية.

كانـــت عظـــام الأطـــراف الـــتي تحمل علامات النمو غير الطبيعي تعود لدونالـــد. أمـــا عظـــام الأطـــراف التي خلت من أي علامات فقد كانت تعود لأخيه.

بعـــد ذلك بيّنت لليزا، وهي واحدة من التقنيين في عمليات التشريح، كيفية إجراء الصور الشعاعية للأجزاء المتبقية مع الاحتفاظ بالعظام في مواقع مطابقة لصور مـــا بعد الموت الموجودة في أفلام المستشفى. كان هذا سيسمح لي بمقارنة تفاصيل الشكل والبناء الداخلي.

بمـــا أن وحـــدة التصوير بالأشعة كانت مطلوبة جداً، فقد عملنا خلال فترة الغـــداء، وتوقفنا أخيراً عند الواحدة والنصف حين عاد التقنيون وعلماء الأمراض الآخـــرون. وقد وعدت ليزا بأنها ستنهي العمل حالما تتوفر الآلة، وأسرعت أنا إلى الأعلى لأبدّل ملابسي.

كـــان مركز عملية كركاجو يقع في بناء حديث مؤلف من ثلاثة طوابق على ضـــفّة نهر سان لورنس مباشرة عبر مونتريال القديمة. أما باقي المُجمّع فقد كانت تشغله شرطة المرفأ والمكاتب الإدارية للسلطة البحرية.

ركـــنت سيارتي في مواجهة النهر. إلى اليسار كنت أستطيع رؤية جسر جاك كارتيـــيه وإلى اليمين جسر فكتوريا الأصغر منه وقد طافت قطع ضخمة من الثلج وتمايلت على سطح المياه الرمادية الداكنة.

بعـــد ذلك على طول الشاطئ لاحظت وجود الشقق رقم 67، وهي شبكة هندســـية من المساحة السكنية التي كانت قد بُنيت أساساً بهدف العرض ومن ثم تم تحـــويلها إلى شقق خاصة. وقد بعث منظر البناء هذا شعوراً بالتقلص في صدري. كان رايان يقيم في تلك الشبكة من العلب.

دفعت الفكرة من رأسي، وأمسكت بسترتي، واتجهت بسرعة نحو البناء. كان غطـــاء الغيوم ينكسر، لكن النهار كان لا يزال رطباً. وقد صفق ملابسي نسيم من الشاطئ يحمل معه رائحة الزيت والمياه الجليدية.

كـــان هناك درج واسع يؤدي إلى مركز عملية كركاجو في الطابق الثالث. وكان هناك شره محنط، وهو الطوطم الذي سميت به الوحدة، يجلس داخل أبواب زجاجية. وشغل نساء ورجال مكاتب في غرفة مركزية كبيرة، وقد كُتبت أرقامهم

الداخلية بأحرف كبيرة على لافتات فوق رؤوسهم، وزينت كل حائط صور ذات أُطر وقصص محققي عملية كركاجو وطرائدهم.

نظر إليّ بعضهم في حين لم يلتفت معظمهم بينما كنت أتوجه إلى السكرتيرة، وهـــي امرأة في أواسط العمر ذات شعر مفرط في اللون وشامة على خدها بحجم حشرة من حشرات حزيران. رفعت عينيها عن ملفاتها لفترة كانت تكفي لتوجيهي إلى غرفة الاجتماعات.

دخلـــت لأجـــد اثـــني عشر رجلاً يجلسون حول طاولة مستطيلة بينما اتكأ آخرون بموازاة الجدران. نهض جاك روي مدير الوحدة حين رآني. كان قصيراً وذا عـــضلات وبـــشرة متوردة وشعر رمادي مع فرق يقسم الشعر عند الوسط مثل شخصية تعود إلى العام 1890.

"نحن في غاية السعادة لأنك تقومين بهذا من أجلنا يا دكتورة برينان. سيكون ذلـــك عـــوناً كبيراً لمحقّقيَّ كما بالنسبة إلى الرجال في مختبرك. أرجوك". أشار إلى كرسي شاغر عند الطاولة.

علّقت سترتي على ظهر المقعد، وجلست. بينما كان آخرون يدخلون، شرح روي هدف الاجتماع. كان أشخاص عديدون من الحاضرين قد تعاقبوا على فريق كـــركاجو حديثاً. كان آخرون قديمي العهد في الفريق لكنهم طالبوا بجلسة منعشة للذاكرة. قدّم روي عرضاً سريعاً لمشهد الدرّاجين في كيبيك. حين وصل الشرطي كويكواتـــر قدّم تقريراً عن حلقة الإدارة الرئيسية للقضية والتي حضرها في أكاديمية مكتب التحقيقات الفيدرالية.

شـــعرت بـــأنني أدور في عجلة زمنية. كانت قضية كوانتيكو حاضرة مجدّداً، ولكـــن هـــذه المرة كانت اللغة المستخدمة هي الفرنسية كما كانت المجزرة التي تم وصفها تحدث في مكان أعرفه وأعشقه.

أظهـــرت الـــساعتان التاليتان عالماً سيعرفه القليلون فقط. تلك الومضة بعثت رجفة عبر جسدي ورعشة في روحي.

6

"أوّلاً إليكم بعض المعلومات التي تساعد على تفسير الأحداث".

تكلّم روي من مقدمة الغرفة. كانت لديه ملاحظات على المنصة لكنه لم يستخدمها.

"بدأت نوادي الدرّاجين الخارجين على القانون على الشاطئ الغربي للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية بوقت قصير. لم يستطع بعض المحاربين القدامى العائدين التكيف مع المتطلبات الاجتماعية للسَلام، وأخذوا يطوفون الريف على درّاجات من طراز هارلي دايفدسون ويضايقون المواطنين على نحو بغيض. وقد شكّلوا فرقاً متحررة، وأطلقوا على أنفسهم أسماءً مثل محاربي المرح، والإوزات الراكضة، والآثمين، والسكّيرين. منذ البداية لم يكن هؤلاء الشباب مرشحين لكلية الكاردينالات".

تعالت الضحكات والتعليقات المكبوتة.

"إن الفريق ذا التأثير الأكبر كان مجموعة من الرجال العاجزين عن التكيف الاجتماعي والذين يطلقون على أنفسهم اسم شاذّي بلومينغتون الغاضبين. أصبح هؤلاء في ما بعد وُدعاءَ الجحيم متخذين الاسم ورمز رأس الموت الذي تعلوه خوذة من سرب للطائرات قاذف للقنابل من الحرب العالمية الثانية. من الفرع المؤسس في سان برناردينو في كاليفورنيا ــ".

"ياهو، بردو". جاء التعليق من الخلف.

"صحيح".

"مـــن ذلـــك الفرع انتشر نادي وُدعاء الجحيم عبر شمال أميركا. وفي النهاية كوّن الأعضاء فرقاً أخرى على مستوىً وطني ثم عالمي. الفرق الأربعة الكبرى اليوم هـــي وُدعاء الجحيم والخارجون على القانون والبانديدوس والهمجيون. لدى كل الفـــرق، باستثناء الهمجيين، فروع خارج الولايات المتحدة بالرغم من أنها لا تصل إلى مستوى الوُدعاء".

رفـــع رجـــل يجلس إلى الطاولة يده. كانت لديه كرش كبيرة، وقد تراجعت حـــدود شـــعره، وبـــدا إلى حدٍّ كبير كآندي سيبويكز من مسلسل قسم شرطة نيويورك الأزرق.

"ما هو العدد الذي نتكلم عنه هنا؟".

"تخـــتلف الأرقام بحسب المصدر، لكن التقدير الأفضل يفيد بأن لدى وُدعاء الجحـــيم مـــا يفوق ألفاً وستمئة عضو في كل أنحاء أوروبا وأستراليا ونيوزيلندا. معظـــم هؤلاء موجودون في الولايات المتحدة وكندا بالطبع، لكن بدءاً من اليوم أصبح لديهم مئة وثلاثة وثلاثون فرعاً حول العالم. يقدر التقرير الكندي السنوي لخدمات الاستخبارات حول الجريمة للعام 1998 أن لدى البانديدوس ستة وسبعين فـــرعاً وحـــوالى ستمئة عضو حول العالم. أما تقديراتٌ أخرى فترفع الرقم إلى ثمانمئة".

"يا الله!".

"ما الذي يميز أعضاء نادي الدرّاجين الخارجين على القانون؟" بدا السائل في حوالى التاسعة عشرة من عمره.

"تقنـــياً يـــضم نـــادي الدرّاجين الخارجين على القانون أولئك الأعضاء غير المـــسجلين في الجمعية الأميركية للدرّاجين أو في الجمعية الكندية للدرّاجين، وهي الحليفة في أميركا الشمالية للاتحاد الفيدرالي العالمي للدرّاجين ومقرّها الرئيسي اليوم في سويسرا. بحسب الجمعية الأميركية للدرّاجين، فإن النوادي غير المسجلة تشكل واحـــداً بالمـــئة من كل الدرّاجين، لكن هذه المجموعات المتطرفة المنحرفة هي التي تعطـــي قـــيادة الـــدّراجات سمعة سيئة. كما أن الفتيان قبلوا بهذا اللّقب بسرور. بالمناســـبة، لقـــد رأيـــت شعار الواحد بالمئة موشوماً على بعض أبشع الأكتاف في المقاطعة".

"أجـــل. إنّ المثلّث الصّغير يميّز الدرّاج الحقيقي". كان المحقّق الجالس إلى يميني يربط شعره على شكل ذيل الحصان، ويضع قرطاً فضياً في أذنه.

"أنـــت تعـــني قيء الجرذ الحقيقي". كان هذا سيبويكز. بدت لكنته الفرنسية كمـــا كنت أتوقّع تماماً لو كان مركز قسم شرطة نيويورك الأزرق يقع في منطقة الأنهار الثلاثة.

تصاعد مزيد من الضحك.

أشار روي إلى رزمة من دفاتر الملاحظات وسط الطاولة.

"ثمّـــة معلـــومات في هذه الدفاتر عن تركيبة نوادي الدرّاجين الخارجين على القانـــون. قومـــوا بقراءتها جيداً وسنناقشها لاحقاً. اليوم أريد أن ألقي نظرة على المشهد المحلي".

أضـــاء مـــسلاطاً، وامتلأت الشّاشة بصورة قبضة محكمة، وشم يصّور صليباً معقـــوفاً على المعصم، والأحرف الأولى لكلمتي *تبّاً للعالم* مكتوبةً بالأحمر والأسود على امتداد عقد الأصابع.

"إن الفلـــسفة الأساســـية للدرّاجين الخارجين على القانون يمكن أن تتلخص بجملة واحدة".

"تباً للعالم!" علت صرخة جماعية.

"ت. ل. ع. تباً للعالم". قال روي موافقاً. "يأتي إخوانك وأولاد جنسك أولاً ويطالبون بالإخلاص المطلق. لا يجدر بغير البيض طلب الانضمام".

انتقل روي إلى الشريحة التالية. أظهرت الشاشة صورةً بالأسود والأبيض لستة عـــشر رجـــلاً يقفون في ثلاثة صفوف غير مستوية. كانوا جميعاً مشعثي الشعر، ويـــرتدون سترات جلدية من دون أكمام تزينها الدبابيس والرّقع. كانت أوشامهم لتعجب محارباً من الماوري. وكذلك تقطيبهم.

"في نهاية السبعينيات اتفق الدرّاجون الخارجون على القانون وُدعاء الجحيم في الـــولايات المـــتحدة مع عصابات معينة أرادوا السيطرة عليها في كيبيك. في العام 1977 دُعي أعضاء البوباي إلى الحفل الرّاقص، وأصبحوا أوّل فرع لوُدعاء الجحيم في المقاطعـــة. في ذلـــك الـــوقت كـــان نادي البوباي ثاني أكبر نوادي الدرّاجين الخـــارجين على القانون في كندا، وكان يضم مئتين وعشرين إلى ثلاثمئة وخمسين

عضواً. لسوء الحظ، فقد تمكّن خمسة وعشرون إلى ثلاثين فتى منهم فقط من إثارة إعجـــاب الوُدعاء لدرجة ارتداء الألوان، وتم رفض الباقين. أنتم تنظرون إلى بعض الذين رفضوا هنا. هذا فرع الشمال سيئ السمعة. لقد تمت تصفية خمسة من هؤلاء الشباب من قبل إخوانهم الوُدعاء وانقرض الفرع".

"لماذا؟".

"لكل نادٍ قانونٌ يُطبّق على كل عضو. منذ أن تألّف نادي وُدعاء الجحيم في الأربعينيات منعت قوانينهم استخدام الهيرويين والإبر. لقد اكتسب هذا الأمر أهمية أكبر في جو الأعمال في يومنا هذا. وتذكروا أن هؤلاء ليسوا درّاجي الماضي. هذه ليـــست الثورة الاجتماعية في الخمسينيات أو حضارة المخدرات والثورة التي عمّت خلال الستينيات. إن درّاجي اليوم متورّطون في الجريمة المنظمة المتطوّرة. الأهم أن هـــؤلاء الشباب هم رجال أعمال. يمكن للمخدرات أن تسبب المشاكل، وتكلف النادي الكثير من المال، وهو أمر لا يُحتمل".

أشار روي إلى الشاشة.

"بالعـــودة إلى الفـــرقة هـــنا وفي العام 1982 فقد سنّ فرع مونتريال قانوناً للمخـــدرات، ودعـــا إلى قتل أو طرد أي عضو متمرد. لكن الأعضاء في الشمال كانـــوا متمسكين بمخدراتهم، فقرروا الذهاب في طريقهم. ويبدو أن الضربة كانت قد أثّرت في حساباتهم إذ إنهم فشلوا في الانتباه إلى قلّة عددهم".

نقر روي بقلمه على صور خمسة من الرجال واحداً بعد الآخر.

"في حزيـــران مـــن العام 1985 عُثر على هؤلاء الرجال غارقين في نهر سان لـــورنس. كان أحد أكياس النوم قد طفا بينما كان على الشرطة سحب البقية من القعر".

"إنهم يهتمون بعملهم". قال ذو ذيل الحصان.

"إلى الأبـــد. لقـــد قُتلوا في منتدى وُدعاء الجحيم في لينوكسفيل. ويبدو أن الحفل الذي كانوا قد ذهبوا لحضوره لم يكن كما كانوا يتوقعون".

هـــزّ ذو ذيل الحصان رأسه. "هذا يتعارض مع العقيدة القديمة الصالحة للأخوة الخارجين على القانون".

سألت "هل هذا ما أشعل الحرب الحالية؟".

"ليس فعلاً. بعد سنة من تبني وُدعاء الجحيم للبوباي، أصبح فريق في مونتريال يُدعـــى بالـــشياطين الجيدين الفرع الأول للخارجين على القانون في كيبيك. وهم يقتلون بعضهم بعضاً منذ ذلك الحين".

أشار روي إلى رجل نحيل يجلس القرفصاء في الصف الأمامي في الصورة.

"لقـــد أُعلنت الحرب حين قتل عضو وُدعاء الجحيم هذا أحد الخارجين على القانون في ممر للسيارات. استمرتّ عمليات القتل لسنوات عدة لاحقة".

"الله يغفر، أما الخارجون على القانون فلا. هذا هو شعارهم". كتب سيبويكز اسمه كوريسك على دفتر للملاحظات بينما كان يتحدث. كنت أتساءل عن عدد الناس الذين كانوا يدعونه سيبويكس خطأً.

"صـــحيح. لكن الخارجين على القانون في كيبيك عانوا انقلاباً في الحظ منذ ذلـــك الحين. خمسة أو ستة منهم يقبعون الآن في السجن، وقد أُحرق ناديهم عن آخـــره قبل بضع سنوات. تضم الحرب الحالية بشكل فعلي الودعاء وفريقاً كندياً يُدعى آلة الصخر ونواديهم التابعة".

"شابٌ أنيق". علّق سيبويكز/كوريسك.

"لكن أعضاء نادي آلة الصخر مرّوا أيضاً بأوقات عصيبة". ثم تابع روي قائلاً "حتى وقت قريب".

انتقل إلى شريحة تعرض رجلاً يعتمر قبعة، ويعانق رفيقاً له يرتدي سترة جلدية في وســـطها صـــورة شبه كاريكاتورية لقاطع طرقات مكسيكي يحمل سكيناً بيد ومـــسدساً بالأخرى. عرّفت شعارات حمراء وصفراء على شكل هلال فوق وتحت الصورة مرتديها بأنه نائب رئيس درّاجي الباندیدوس المحلي.

"كان نادي آلة الصخر على شفير الإفلاس، لكن يبدو أنه ينتعش الآن بسبب ظهور أعضاء يحملون شعارات تعرّفهم بأنهم أعضاء مبدئيون".

سألت "مبدئيون؟".

"لقد وُضع أعضاء آلة الصّخر في حالة الانتظار ريثما يقرر نادي الباندیدوس إن كان هؤلاء جديرين بالانتماء إلى النادي".

"لسنوات عديدة اكتفى أعضاء نادي الباندیدوس ببيع المخدرات المحلية وبحفنة مـــن الدولارات يحصلون عليها من الدعارة. كانت المنظمة المحلية تدير الأمور بغير

حـــزم. تغيّـــر ميـــزان القوى الآن إذ تُسلّم القيادة الجديدة بميزة التوسّع والسيطرة المحكمة على الأعضاء الفروع".

"انظـــروا إلى العـــضو في أسفل الصورة". أشار روي إلى شارة عند أسفل الـــسترة في خلفية الصورة. "تغيّرت كيبيك إلى كندا في هذه الصورة. هذا مؤشر واضح إلى المكان الذي يريد البانديدوس التوجه إليه. لكن الأمر قد لا يكون بهذه السهولة".

شريحة أخرى. مجموعة درّاجات على طريق سريع ذي اتجاهين.

"الـــتقطت هـــذه الصورة في ألبكرك في نيو مكسيكو قبل أسابيع عدة. كان أعـــضاء الـــبانديدوس في طريقهم إلى سباق ينظمه فرع أوكلاهوما حين أوقفت الـــشرطة بعـــض الفتيان بسبب مخالفات السير. كان الرئيس العالمي للنادي بينهم، فاغتـــنم المحققـــون الفرصـــة لاستجوابه بشأن كل الوجوه الجديدة. فاعترف أن الـــبانديدوس كانـــوا يتفقدون نواديَ محتملة حول العالم، لكنه رفض الإجابة حين سُئل عن آلة الصخر".

"يـــبدو أن التـــرتيب لم يكـــن صفقة مبرمة. كان الرئيس قد خرج لتوه من اجـــتماع للاتحاد الوطني للدرّاجين حيث حاول البانديدوس ووُدعاء الجحيم فرض اتفاقـــية تـــتعلق بآلة الصخر. لم يكن وُدعاء الجحيم سعداء بشأن الحملة التوسعية للـــبانديدوس وعرضـــوا حـــل فرع مُرتقب في نيومكسيكو إن ترك البانديدوس المفاوضات مع نادي كيبيك".

سأل ذو ذيل الحصان "إذاً، ما زال أعضاء آلة الصخر يتسكعون هناك؟".

"أجـــل. لكن إن تم إرسالهم إلى هناك، فقد يقلب وجود البانديدوس الميزان هنا". بدا صوت روي خافتاً.

"إن نـــادي آلة الصخر جديد نسبياً على الساحة، أليس كذلك؟" سأل المحقق الذي بدا فتياً.

"إنهم موجودون منذ العام 1977"، قال روي "لكنهم أضافوا نادي الدرّاجين إلى اسمهـــم في العـــام 1997. قـــبل ذلك لم يكونوا يعدّون أنفسهم تقليديين كنادٍ للدرّاجين. لم يكن الأمر مفاجئاً على بطاقاتهم في الميلاد ذلك العام".

"بطاقات الميلاد؟" حسبت أنه يمزح.

"أجـــل. هـــؤلاء الـــرجال يهتمون بالتقاليد كثيراً. كان ذلك حديث غرفة الدردشة في السجن". قال كوريسك.

علا الضحك.

شرح روي "تسمح البطاقات للأعضاء بتتبع أحوال بعضهم بعضاً. لكنها من جهة أخرى تُغني ملفات الاستخبارات للعصابات المنافسة".

انتقل روي إلى خريطة لمونتريال.

"حالـــياً يقاتـــل أعضاء آلة الصخر نادي وُدعاء الجحيم للسيطرة على تجارة المخـــدرات غـــير الشرعية في المقاطعة. ونحن نتكلم هنا عن مبالغ كبيرة. بحسب المدّعـــي العـــام، فإن سوق المخدرات غير الشرعية في كندا تساوي من سبعة إلى عـــشرة ملـــيارات سنوياً بالنسبة إلى عصابات الجريمة المنظمة، وتمثل كيبيك جزءاً كبيراً من ذلك المبلغ".

أشار إلى منطقتين في المدينة.

"إن المـــناطق المُتـــنازع عليها تشمل الجهات الشمالية والشرقية في مونتريال وأجـــزاءً مـــن مديـــنة كيبيك. منذ العام 1994 وقعت مئات من حوادث التفجير والحرائق المفتعلة وما لا يقلُّ عن مئة وأربع عشرة جريمة قتل".

ســـألت "هـــل يتـــضمن هذا العدد ماركوت والتوأمين فايلنكورت والفتاة توسان؟".

"أنـــت محقـــة. مـــئة وثماني عشرة جريمة. هناك على الأقل أعداد كبيرة من المفقودين والمحسوبين في عداد الأموات".

سأل كوريسك "كم محارباً لعيناً لا يزال في الخنادق؟".

"يـــبلغ العـــدد المبدئي حوالى مئتين وخمسة وستين من أعضاء وُدعاء الجحيم وخمسين من آلة الصخر".

"هل هذا كل شيء؟" أذهلني أن عدداً صغيراً يستطيع إحداث كل هذه الفوضى.

"لا تنـــسي المساعدين الثانويين". مال كوريسك إلى الخلف، وأصدر كرسيه صوتاً خفيفاً.

قـــال روي "لكل من الفريقين نواد تابعة تتفق معهم. وهؤلاء الخاسرون هم الذين يقومون بالأعمال القذرة للمنظمات".

"الأعمال القذرة؟" بدا كل شيء قذراً بالنسبة إليّ.

"توزيـــع وبـــيع المخدرات، جمع الديون، شراء الأسلحة والمتفجرات وجرائم القـــتل والتخويف. هذه النوادي التابعة هي حثالة الدرّاجين وسيقوم أفرادها بأي شيء لإثبات شجاعتهم للكبار. لهذا السبب يصعب القبض على عضو يحمل شارة من ناد مهم. هؤلاء الأنذال يفلتون من أيدينا ببساطة ويعملون عن بعد".

عَلّـــق كوريسك قائلاً "فإن قبضت عليهم بالفعل، فسيتّحدون ويستخدمون سعادينهم لإرهاب أو قتل شهودك".

تخيّلت لحم الأخوين فايلنكورت المتبعثر.

"الهمجيون متحدون مع آلة الصخر؟".

"صحيح".

"والأفاعي مع وُدعاء الجحيم؟".

"هذا صحيح".

"من هم الآخرون؟".

"لنـــرَ. هـــناك الطـــاقم المـــشاكس والمزّاحون والرّوكرز والأشرار وراكبو الموت...".

في تلـــك اللحظـــة ظهر مارتن كويكواتر عند الباب. كان يرتدي بزّة زرقاء داكنة اللون وقميصاً أبيض أنيقاً. كان يبدو أشبه بمحامي ضرائب منه بمحقق جرائم منظمة. أومأ برأسه إلى روي ثم جال الغرفة بعينيه. حين رآني ضاقت عيناه لكنه لم يتفوّه بأي كلمة.

"آه، جيد. بإمكان السيد كويكواتر أن يزوّدنا بوجهة نظر مكتب التحقيقات الفيدرالية".

لكـــنّ هذا الأمر لم يكن صحيحاً. كان كويكواتر يحمل أخباراً عاجلة. كان عدد الجثث في طريقه للازدياد.

7

بحلــول شـــروق شمس اليوم التالي كنت عند نادي الأفاعي في سان بازيل لو غراند. كان المبنى ينتصب وحيداً على مساحة أكبر من الأرض التي كانت مُحاطة بالكامـــل بـــسياج مكهرب. أحاطت كاميرات المراقبة بالحافة العليا للحاجز، كما أضاء فيضٌ من الضوء محيطَ المكان.

كانـــت الـــبوابات عند نهاية الطريق من جهة الشارع العام تُشغّل كهربائياً وتُـــراقب مـــن داخل المنـــزل. حين وصلنا كانت البوابات مفتوحة و لم يقم أحد باســـتجوابنا بواسطة الهاتف الداخلي. بالرغم من أنني كنت أستطيع رؤية كاميرا بعـــيدة مركّزة علينا، فقد كنت أعلم أنه ما من أحد يقوم بالمراقبة. كانت المذكرة قد صدرت، وتوقفت سيارات لا تحمل إشارة الشرطة وسيارات من طراز كروزر وعـــربات نقل المحققين في الوفيات المشتبه فيها وشاحنة ساحة الجريمة على جانب الطريق.

قـــاد كويكواتر السيارة عبر البوابات، وتوقّف عند نهاية الصف. حين أوقف عمل المحرك نظر جانبياً إليّ لكنه لم يتفوه بكلمة. بادلته المجاملة، وأمسكت بحقيبتي، وخرجت من السيارة.

في الخلف كانت الأرض حرجيّة، وفي الأمام امتد حقل من البيت إلى الطريق الـــسريع. وقسَّم الشارعِ المرصوف الذي دخلنا منه الفسحة الأمامية، وانتهى عند حلقة من الإسفلت محيطةً بالمبنى. كما حدّت الإسفلت مخاريط إسمنتية بعلوّ الخنصر، وُضـــعت هـــناك لمنع وقوف السيارات حتى بُعد خمس عشرة قدماً من أي جدار.

ذكّرني هذا الترتيب بشمال إيرلندا في أوائل السبعينيات. فقد كان درّاجو كيبيك، مـثل مواطني بلفاست، قد أخذوا خطر تفجير السيارات على محمل الجدّ. كانت سيارة سوداء من طراز فورد إكسبلورر مركونةً على طرف الإسفلت.

كـان الأفـق مرقـشاً بضوء الشمس الذي كان ينـزف ألواناً من الأصفر والوردي إلى لون الفجر البنفسجي الباهت. حين أقلني كويكواتر قبل ساعة كانت السماء مكفهرّة مثل مزاجي. لم أكن أرغب في القدوم إلى هنا. لم أكن أوّد التعامل مـع *الـسيد شخصيَّة*. والأهم من كل ذلك أنني لم أكن أود أن أنبش جثث عدد أكبر من الدرّاجين.

كان ما أخبرنا به كويكواتر البارحة قد شكَّل عبئاً ثقيلاً على صدري. وبينما كـنت أستمع إلى روايته أدركت أن ما كان يجب أن يكون مشاركةً سطحية من جانبـي اضطلعت بها كي أتمكن من العمل على قضية إميلي آن قد أصبح الآن مهمة أساسية. كانت فكرة كل ما عليّ القيام به تلاحقني مثل ولد متنمر في ملعب المدرسـة. ذكّـرتُ نفسي بأن ثمّة فتاة في التاسعة من العمر ملقاة في المشرحة وأن عائلتها المحطمة لن تعود كما كانت أبداً. كنت موجودة من أجلهم.

كـان قناص الأفاعي الذي قضى على الأخوين فايلنكورت مستعداً لإجراء صـفقة. كـان يواجه ثالث حادث اعتقال له وقد اتُهم بالقتل من الدرجة الأولى، فعرضَ الكشف عن موقع جثتين. كان التاج يساوم من أجل تهم بالقتل من الدرجة الثانية. ها نحن. في بداية النهار في سان بازيل.

كـنا نعـبر الممـر بتثاقل حين أصبح الفجر صباحاً. وبالرغم من أنني كنت أستطيع رؤية نَفسي، فقد كنت أعلم أن النهار سيصبح دافئاً بفعل حرارة الشمس.

انـسحقَت الحـصى تحت قدميَّ، وبين الحين والآخر انـزاحت حصاة من مكانهـا، وانـزلقت عبر الشارع غير المستوي، وتدحرجت إلى خندق جانبـي. زقزقت العصافير معلنةً استياءها من وصولنا.

اذهبـي عني. فكّرت. لقد بدأت صباحي قبلك.

لا تكـوني طفلـة يا برينان. أنت منـزعجة لأن كويكواتر أحمق. تجاهليه. قومي بعملك.

عند ذلك تكلم.

"إنني بحاجة إلى أن أجد شريكي الجديد. لقد تم إرساله حديثاً للعمل في قضية كركاجو".

بالـــرغم من أن كويكواتر لم يقدّم اسماً، فقد شعرت بالتعاطف مع الشرطي غـــير المحظـــوظ. أخـــذت نفـــساً عميقاً، وحملت حقيبتي، ونظرت حولي وأنا أتبعه.

كان ثمة أمر واضح. لم يكن نادي الأفاعي ليفوز بلقب مهندس المناظر لذلك العـــام. كان الجزء الأمامي من الممتلكات مثلاً جيداً على ما حارب المحافظون على الطبـــيعة في الكونغرس الأميركي من أجل حمايته. كانت الأرض الممتدة إلى الطريق الـــسريع بحراً من النباتات الميتة الممتدة على الوحل الربيعي ذي اللون البني المحمرّ. كانت الغابة ذات الأشجار القليلة خلف المنـــزل قد تُركت لسكانها ذوات الأربع لتزيينها.

حـــين عـــبرنا الإسفلت ودخلنا إلى الباحة ظهرت خطة التصميم جليّة. كان الـــسياج مجهـــزاً بكل الأمور الأساسية من جدران بطول اثنتي عشرة قدماً تعلوها كـــاميرات المراقبة وآلات لكشف الحركة وأضواء مشعة، وكلُّها أمور مستوحاة من السجون الأميركية الفضلى. كان الإسمنت يغطي الأرض من الحائط إلى الحائط وقـــد تم تزويد المكان بأطواق كرة السلة وشواية تعمل على الغاز وبيت كلب مع حظيرة وسلسلة. حلّت أبواب حديدية مكان البوابة الأساسية للباحة، وكان مدخل الكاراج مقوّىً بالفولاذ ومغلقاً باللّحام.

خـــلال الرحلة إلى الخارج تكلّم كويكواتر مرَّة واحدة كي يزودني بالتاريخ الأساســـي للعقـــار. كان المنـــزل قد بُني من قبل رجل من نيويورك كان قد جمع ثـــروته من تهريب المشروبات أيام قانون فولستيد. خلال منتصف الثمانينيات قام نـــادي الأفاعي بشرائه من ورثة المهربين، وصرفوا أربعمئة ألف على التجديدات، وعلّقوا شعارهم عليه. بالإضافة إلى حفظ أمنهم في المحيط، كان الشباب قد ركّبوا زجاجـــاً مـــضاداً للرّصـــاص لكلّ النوافذ في الطابق الأول، كما كانوا قد ركّبوا تصفيحاً فولاذياً لكل باب.

لم يكـــن شـــيءٌ من هذا ليهمّ هذا الصباح. كان باب المنتدى مفتوحاً على مصراعيه مثل البوابة الخارجية. دخل كويكواتر وتبعته.

كان ردّ فعلي الأول هو الدهشة من الأثاث المترف. إن احتاج هؤلاء الشباب إلى جمع مبلغ لدفع كفالة أو لتوظيف محامٍ، فكل ما عليهم القيام به هو إجراء مزاد. كانت الأدوات الإلكترونية وحدها كافيةً لتوقعَ بِأف بـــي بايلي.

كان المنـــزل الذي يلف وسطه درجٌ معدني مبنياً على مستويات عدة. عبرنا ممراً يغطي أرضه بلاطٌ باللونين الأبيض والأسود، وبدأنا بالصعود. إلى يساري لمحت غـــرفة ألعاب كاملة مجهزة ببركة وطاولات فوزبول ومشرب كامل. على الحائط فـــوق مجموعة زجاجات الشراب كان ثمة ثعبان ملفوف ذو رأس خلا من اللحم وزعانـــف وعيـــنين جاحظـــتين يكشّر في ضوء برتقالي. عند الطرف البعيد من المشرب، كان بنك من شاشات الفيديو يزود المُشاهد بستة عشر مشهداً عن العقار علـــى شاشات بيضاء وسوداء صغيرة. كانت الغرفة أيضاً مزودة بجهاز تلفاز كبير ونظـــام للـــصوت يشبه لوحة تحكم تابعة للناسا. أومأ خفير من قسم شرطة سان بازيل برأسه بينما كنا نمرّ.

في الطابـــق الـــثاني لاحظت وجود نادٍ رياضي يحتوي على ست قطع من معـــدات نوتيلوس على الأقل. كما كان النادي يحوي مقعدين للأوزان ومجموعة مـــن الأوزان الحـــرة أمام مرآة جدارية إلى اليسار. كان شباب الأفاعي يهتمون بشكل أجسامهم.

في الطابـــق الـــثالث اجتـــزنا غـــرفة معيشة مصممة على الطراز الصفراوي للـــدرّاجين في العقد الأخير من القرن. كانت السجادة من القطيفة ذات لون أحمر قان، كما زينت الجدران قرون ذهبية معقوفة ولوّنَ الأزرق قماشَ الأرائك الضخمة والمقاعـــد المخصـــصة لـــشخص واحـــد. كانت الطاولات مصنوعةً من النحاس والـــزجاج ذي اللون الأسود، وتحمل تشكيلة من منحوتات الثعابين. كما حدّت ثعابين مصنوعة من الخشب والسيراميك والحجر والحديد حوافَّ النوافذ، وزمجرت من أعلى أضخم جهاز تلفاز كنتُ قد رأيته في حياتي.

كانـــت الجدران مزينة بملصقات مكبرة لصور كانت قد التُقطت في الحفلات والـــسباقات الـــتي كـــان يقـــيمها النادي. في كل صورة كان الأعضاء يعرضون عـــضلاتهم المُـــبللة بالعـــرق ودرّاجاتهم المفرشخة أو يحملون عبوات وزجاجات الشراب. بدا معظمهم من ذوي معدل الذكاء المتدني.

شـــققنا طـــريقنا عبر خمس غرف نوم، وحمام مغطى بالرّخام الأسود ومزود بجاكـــوزي، وحمام زجاجي مفتوح بحجم ملعب اسكواش لنصل أخيراً إلى المطبخ. كـــان هناك هاتف معلّق على حائط إلى يميني مع لوح للرسائل قابل للمحو يحمل أرقاماً وكلمات غير مفهومة بترتيب أبجدي واسم محامٍ محلي.

إلى يساري لاحظت وجود سلّم آخر.

سألت كويكواتر "ماذا يوجد في الأعلى؟".

لم يرد.

وقف خفير آخر من سان بازيل في الجهة البعيدة من الغرفة.

"إنها غرفة تسلية أخرى". قال بالإنكليزية. "مع فسحة خارجية ومنتجع يتسع لعشرة أشخاص".

كان هناك رجلان يجلسان إلى طاولة خشبية تحدّها نافذة صغيرة مطلة على الخلـــيج. كـــان أحـــدهما مبعثر الشعر بينما كان الآخر مرتباً ومهندماً إلى حدّ الكمال.

نظرت إلى كويكواتر الذي هزّ برأسه. شعرت بقلبـــي يغرق.

كـــان لوك كلوديل هو شريك كويكواتر الجديد غير المحظوظ الذي لم يذكر اسمـــه. عظيم. الآن عليّ أن أعمل مع بيفر والعنيد. كان كلوديل يتكلم ومن وقت إلى آخر ينقر على وثيقةٍ افترضت أنها مذكرة التفتيش.

بدا الرجل الذي كان يخاطبه غير مسرور بصباحه. كان يملك عينين سوداوين شرستين وأنفاً معقوفاً يتجه بحدة يساراً مباشرة تحت الحدبة وشعراً على شفته العليا أكثر كثافة من شعر حصان البحر. نظر إلى قدميه الحافيتين عابساً بينما كان يشد ويرخي قبضتي يديه اللتين كانتا تتدليان بين ركبتيه.

أومأ كويكواتر إلى حصان البحر.

"إن الرجل الهولندي هو سيلفيان بوليدو. لوك يشرح أننا هنا كي نقوم ببعض أعمال البستنة". نظر بوليدو بسرعة إلى كويكواتر ثم إليّ بعينين قاسيتين خاليتين من المرح ثم ركّز من جديد على فتح وإغلاق قبضتيه. التفّ ثعبان ذو ثلاثة ألوان على طول ذراعه، وبدا وكأنه يتمايل بينما كانت عضلاته تتوتر وترتخي. شككت في أن تشبيه كويكواتر بشأن أبناء عمنا القدامى كان غير عادل بالنسبة إليهم.

توقـــف كلـــوديل عن الكلام بعدما قال عدّة كلمات أخرى وجعل بوليدو يحدّق إلى قدميه. بالرغم من أن طولَه لم يكن ليتجاوز الخمس أقدام وثلاثة إنشات فقد بدا أشبه بفتىً يقوم بإعلان يروّج للهرمونات. للحظة لم يقل شيئاً، ثم قال "هذا هـــراء يـــا رجـــل. لا يمكنك أن تدخل إلى هنا، وتبدأ بنبش المكان". كانت لغته الفرنسية ذات لكنة ريفية كندية قوية لدرجة أن كثيراً من الكلمات فاتتني، غير أنني حتماً فهمت ما يعني بشكل عام.

نهض كلوديل، ونظر إلى بوليدو مباشرة.

"هـــذا بالـــضبط ما تُظهره هذه الورقة الصغيرة، ما نستطيع أن نفعله. وكما شرحت، لديك خياران. يمكنك أن تجلس بهدوء مثل صبـــي صغير مطيع أو يمكننا أن نـــرميك خارجاً بعد أن نقيّد يديك، ونقدم لك إقامة مجانية لفترة غير محددة من الزمن. إنه خيارك أيها الأنف".

لفظ كلوديل لقبه بلهجة ساخرة. واستحسنتُ طريقته هذه في التعامل معه.

"ماذا يفترض بـــي أن أفعل؟".

"ســـتؤكد لأصـــدقائك بأن من مصلحتهم ألاّ يأتوا إلى هنا اليوم. عدا ذلك سيكون يومك حراً. لن تقوم بأي عمل على الإطلاق. وسيبقى كابورال بيرنغر هنا ليراقبك".

"إنني أهتم بالعمل هنا فحسب. لِمَ عليكم أن تأتوا إلى هنا هذا الصباح؟".

مدّ كلوديل يده، وربت على كتف الأنف. "الحياة مسألة توقيت أيها الأنف".

هزّ بوليدو كتفيه، ومشى متثاقلاً نحو النافذة.

"أيها الوغد".

رفع كلوديل كفيه بإشارة تقول "ماذا في وسعي أن أفعل؟".

"ربما لديك مشاكل أكبر من مشاكلنا أيها الأنف. أظن أن الأخوة لن يكونوا سعداء ببقائك للحراسة".

جعل بوليدو يذرع الغرفة مثل حيوان مسجون. ثم توقّف عند النضد، وضربه بقبضتيه الاثنتين.

"تـــباً". برزت عضلات رقبته غضباً بينما كان شريان في وسط جبينه ينبض مثل جدول صغير.

بعـــد لحظـــة استدار، وأجرى مسحاً على الوجوه واحداً بعد الآخر، ثم ثبتني بنظـــرة حـــادة كنظرة تشارلز مانسون. فتح إحدى قبضتيه، وأشار بإصبع مرتجف نحوي.

"الأفـــضل أن تنجح هذه المرتدة في القيام بالأمر من المحاولة الأولى". ارتجف صوته غضباً "لأنه رجل ميت يمشي".

كانـــت المـــرتدة المقصودة تنتظر على بعد مئة ياردة في المقعد الخلفي لسيارة جـــيب لا تحمـــل علامة. كان قد وافق على اصطحابنا إلى موقع القبر كجزء من صفقة الالتماس. لكن ما من شيء كان ليقنعه بالخروج من السيارة حتى ابتعدنا عن المنـــزل. كان علينا أن نقوده وإلا ألغى الصفقة.

تـــركنا المنـــزل، وتوجهنا مباشرة إلى سيارة الجيب. جلست في مقعد الراكب، وجلـــس كلوديل في الخلف بينما تابع كويكواتر الطريق مع فريق استعادة الأدلة. كان دخان السجائر كثيفاً جداً داخل السيارة إلى درجة أنني كنت أتنفس بصعوبة.

كـــان مُخبرنا رجلاً في منتصف العمر ذا عينين خضراوين وشعر أحمر باهت مـــشدود في ربطة ذيل الحصان عند الجزء الخلفي من رأسه. بدا وكأنه نشأ في مياه كهف تحت الأرض ببشرته البيضاء وشعره المسترسل وعينيه الباهتتين كعيني حيوان زاحـــف. كان لقب الأفعى هذا مناسباً له. كان قصيراً مثل بوليدو. لكنه، بخلاف بوليدو، لم يكن مهتماً بإقامة طويلة في المنتدى.

تكلّم كلوديل أولاً.

"الأفـــضل أن يكـــون الأمر جيداً يا رينالدي وإلا فإن أصدقاءك يستطيعون الإعداد لجنازة. يبدو أن معدل قبولك بين رفاقك قد انخفض".

سحب رينالدي الدخان إلى رئتيه، واحتفظ به قليلاً، ثم نفخه في اتجاهين من خلال أنفه. ابيضّت فتحتا أنفه اللتان كانتا تتّسعان مع الجهد الذي كان يبذله.

"من المرأة؟" بدا صوته غريباً وكأنه تعمّد تشويشه ليخفي هويته.

"ســـتنبش الدكـــتورة برينان كنـــزك أيها الضفدع. وأنت ستساعدها بكل طريقة ممكنة، أليس كذلك؟".

"بف ـــ" نفخ رينالدي الدخان من بين شفتيه اللتين همتتا مع الحركة تماماً مثل فتحتي أنفه.

"وستكون مطيعاً مثل جثة في المشرحة، أليس كذلك؟".
"لنبدأ بالأمر".
"إن الجزء المتعلق بالمشرحة لم يكن مقاربة عابرة أيها الضفدع. سيكتسب هذا التشبيه معنىً إن كنت تخدعنا".
"إنني لا أخترع هذا الكلام. ثمة رجلان ميتان هناك. لنتحرك".
وافق كلوديل قائلاً "هيا بنا".
نقر رينالدي إصبعاً هزيلاً مخشخشاً الأصفاد التي تربط معصميه.
"در حول المنـــزل وانتبه إلى آثار التراب إلى اليمين".
"يبدو ذلك بداية صادقة أيها الضفدع".
ضـــفدع. لقب مناسب آخر. فكّرت وأنا أستمع إلى صوت رينالدي الأجشّ الغريب.

خرج كلوديل من السيارة، وأشار إلى كويكواتر بعلامة النصر على بعد عشر يـــاردات عند سيارة مشهد الجريمة. استدرت لأنظر، وضبطت رينالدي يحدّق إليّ، وكأنه يحاول قراءة شيفرتي الجينية. حين التقت أعيننا تابع التحديق إليّ رافضاً النظر بعيداً. فعلت الأمر نفسه.

سألته "ألديك مشكلة معي يا سيد رينالدي؟".
"إنه عمل غريب لفتاة". قال من دون أن يتوقّف عن النظر إليّ.
"إنني فتاة غريبة بالفعل. لقد تبوّلت مرة في بركة سوني بارجر".
لم أكـــن أعرف حتى إن كان زعيم وُدعاء الجحيم السابق يملك بركة، لكن الأمر راقني. بالإضافة إلى ذلك، فإن الضفدع ربما لم يفهم إشارتي إلى بارجر.

مـــرّت عـــدة ثوانٍ، ثم ابتسم الضفدع بتكلّف، وهزّ رأسه قليلاً، ثم مدّ يده ليطفئ سيجارته في منفضةٍ السجائر الصغيرة بين المقعدين الأماميين. حين انـــزلقت الأصـــفاد، رأيـــت وشمين للبرق الصاعق على ساعده مكتوب فوقهما عبارة *القلة القذرون*.

عـــاد كلوديل إلى السيارة، وانضم كويكواتر إلينا، وبدأ القيادة من دون أن يقول شيئاً. بينما كنّا ندور حول المنـــزل، ونتوجه نحو الغابة حدّق رينالدي بصمت خارج النافذة وهو مشغول من دون شك بأفكاره الجهنمية الرهيبة الخاصة.

كـــان طريق رينالدي ضيقاً، وكانت السيارات وسيارة فريق استعادة الأدلة تتحرك ببطء عبر الوحل والنبات المبلل. عند نقطة معيّنة اضطر كويكواتر وكلوديل إلى الخــروج من السيارة وإزاحة شجرة كانت قد وقعت على الطريق. بينما كانا يجرّان الأغصان المتعفنة جفل سنجابان، وانطلقا بعيداً.

عـــاد كويكواتر يندّيه العرق، وتغطي الوحول قدميه حتى الركبتين، بينما ظل كلوديل محتفظاً بنقائه، وتوجه عائداً إلى السيارة، وكأنه يرتدي بزة السهرة.

شـــككت في أن كلوديل سيبدو أنيقاً ومرتباً وهو يتمشى بملابسه التحتية، لكـــني لم أظن أنه ليفعل ذلك أبداً. أرخى كلوديل ربطة عنقه ملليمتراً كاملاً، ونقـــر علـــى نافذة رينالدي. فتحت بابـــي، لكن الضفدع كان يشعل سيجارةً أخرى.

نقـــر كلـــوديل على النافذة مرة أخرى، ومدّ الضفدع يده إلى المقبض. فُتح الباب، وخرج الدخان.

قـــال كلـــوديل: "أطفـــئ ذلك الشيء قبل أن نحتاج كلنا إلى جهاز تنفس اصطناعي. هل ما زالت خلايا ذاكرتك تعمل أيها الضفدع؟ هل تستطيع التعرف إلى الحقل؟".

"إنهما هنا. ليتك تصمت، وتدعني أقوم بعملي".

خـــرج ريـــنالدي ونظـــر حوله. رمقني كويكواتر بنظرة أخرى من نظراته المتحجـــرة بينما كان مُخبرنا يجري مسحاً على المنطقة بنظره. تجاهلته، وتفحصت المكان بدوري.

كانـــت المـــنطقة مقلباً للنفايات في السابق. استطعت رؤية عبوات من التنك والبلاســـتيك وزجاجات شراب الشعير والشراب الفرنسي وفراش قديم ومجموعة صـــدئة مـــن الرّفّاصات. كانت الأرض تحمل علامات آثار ضعيفة لغزلان تدور، وتعبر المكان، ثم تختفي بين الأشجار المحيطة.

"إنـــني أفقد صبري أيها الضفدع". قال كلوديل بإصرار. "سأعدّ حتى الثلاثة كما أفعل مع الأولاد، لكنني متأكد من أنّك لن تفهم الحساب الأكثر تقدماً".

"هل ستسكت الوغد ـــ".

ردّ كلوديل محذّراً "خذ الأمور ببساطة".

"لم آت إلى هـــنا منذ سنوات. كانت هناك ظِلّة يا رجل. إن استطعت إيجاد الظلة فسأتمكّن من اصطحابكم إلى مكان الجثتين".

بـــدأ الضفدع يدور في الغابة متفحصاً المكان مثل كلب صيد يشتَمّ أرنباً. بدا أقل ثقة مع كل لحظة تمرّ، وكنت قد بدأت أشاركه شكوكه.

كـــنت قـــد ذهبت في عدة بعثات يقودها مخبرون وفي حالات كثيرة كانت الرحلة مضيعة للوقت.

تـــشتهر المعلومات التي يدلي بها المساجين بأنها غير موثوقة لأن المُبلّغ يكذب أو لأن ذاكـــرته خانته ببساطة. ذهبت ولامانش مرتين بحثاً عن صهريج لصرف الـــنفايات كنا قد أُبلغنا بأنه قبر لضحية جريمة قتل. ذهبنا في رحلتين من دون أن نجـــد أيّ صـــهريج. عـــاد المُبلّغ المحترف إلى السجن، ودفع المكلّفون بالضرائب الفاتورة.

أخيراً، عاد رينالدي إلى سيارة الجيب.

"يجب أن نبتعد أكثر".

"إلى أي حدٌّ؟".

"هـــل تحـــسبينني عالم جغرافيا؟ سأعرف البقعة حين أراها. كانت هناك ظِلّة خشبية".

"أنت تكرر نفسك أيها الضفدع". نظر كلوديل بحدّة إلى ساعته.

"إن تـــوقفتَ عـــن اللحـــاق بـــي، واتجهتَ إلى مكانٍ أبعد ستحصل على جثتيك".

"مـــن الأفضل أن تكون محقاً أيها الضفدع، وإلا ستكون أكبر خاسر في هذه الألفية".

عاد الرّجال إلى سيارة الجيب، وجعلت القافلة تتقدم ببطء.

بعـــد عشرين ياردة رفع رينالدي يديه ثم أمسك بالمقعد خلف كتفيَّ، وشدّ نفسه إلى الأمام كي ينظر من خلال الزجاج الأمامي للسيارة.

"توقف".

ضغط كويكواتر على الفرامل.

"هناك. ها هو المكان".

أشـــار رينالدي إلى جدران بلا سقف لبناء خشبـــي صغير. كان قد سقط معظـــم الكـــوخ على نفسه، وانتشرت أجزاءٌ منَ السقف والقطع الخشبية المتعفنة حول الأرض.

خرج الجميع من السيارة. قام رينالدي بدورة كاملة، وتردّد قليلاً ثم سار نحو الغابة بزاوية أربعين درجة مع الكوخ.

تبعته وكلوديل، وجعلنا نشق طريقنا من خلال الكروم والنباتات المتسلقة التي نبتت في العام الماضي، ونضرب الأغصان التي لن تظهر براعمها قبل أسابيع. كانت الشمس فوق خطِّ الأفق الآن، وكانت الأشجار ترمي بظلالٍ من خيوط العنكبوت الطويلة على الأرض النديَّة.

حـــين لحقنا برينالدي كان يقف عند حافة أرضٍ مقطوعة الأشجار وكانت يـــداه متدليتين أمامه وكتفاه مكورتين مثل قرد ذكر يستعد لعرض. لم تكن النظرة على وجهه تبعث على الاطمئنان.

"لقـــد تغيّر المكان يا رجل. لا أذكر وجود هذا العدد من الأشجار. كنا نأتي إلى هنا لنشعل النار في الهواء الطلق، ونفقد وعينا".

"لا يهمني كيف أمضيت أنت ورفاقك الصيف أيها الضفدع. وقتك يمرّ هنا. ستمـــضي خمـــسةً وعشرين عاماً في السجن، وسيقرأون في الصحف كيف عثروا عليك ميتاً على أرض غرفة الاستحمام".

لم أكن قد سمعت كلوديل يتكلم بهذه اللهجة النابضة بالحياة من قبل.

برزت عضلات فكّي رينالدي لكنه لم يقل شيئاً. بالرغم من أن الطقس كان جلـــيدياً ذلـــك الـــصباح، فقد كان يرتدي قميصاً أسود قصير الكمين وسروال جينـــز. بدت يداه نحيلتين وقويتين ووقف الشعر على يديه الباهتتين.

استدار، ومشى إلى وسط الفسحة. عند الجهة اليمنى، انحدرت الأرض بلطف نحـــو جدول صغير. شقّ رينالدي طريقه عبر أشجار الصنوبر إلى الضفة، ونظر في الاتجاهين، ثم توجّه إلى أعلى الجدول. تبعته وكويكواتر وكلوديل. توقّف رينالدي بعـــد عـــشرين ياردة، ولوّح بيديه الهزيلتين باتجاه مدىً من الأرض المكشوفة التي كانـــت تقع بين الجدول وتلٍّ من الجلمود وكان الفيضان الموسمي قد بعثر الأغصان وعبوات البلاستيك والتنك والحطام العادي.

"ها هما القبران اللعينان".

نظـــرت إلى وجهـــه. كـــان هادئاً الآن، وقد حلّت من جديد مكان النظرة المترددة نظرة متغطرسة مغرورة.

قـــال كلوديل مهدداً، "إن كان هذا كل ما تقدمه أيها الضفدع، فإنك حتماً ذاهب إلى السجن".

"لا تهدِّدني مجدّداً يا رجل. لقد مضى أكثر من عشر سنوات. إن كانت المرأة تجيد عملها فستجدهما".

بينما كنت أتفحّص المنطقة التي أشار إليها رينالدي، شعرت بضغط أكبر على صـــدري. أكثـــر مـــن عشر سنوات من الفياضانات الموسمية. لن تكون هناك أي إشارات. لن يكون هناك أي تجويف أو أي نشاط للحشرات أو تغيُّر في النبات أو تراصـــف في طـــبقات الأرض. لـــن تكون هناك أي إشارة لأي شيء مخبأ تحت الأرض.

نظـــر كلوديل إليّ متسائلاً. سمعت خرير الجدول اللطيف خلفه. وفوق رأسه نعق غراب، وردّ عليه آخر.

"إن كانـــا هـــنا، فسأجدهما". أجبت بصوتٍ عبَّر عن ثقة أكبر من تلك التي كنت أحسّ بها.

بدا النعيق أشبه بالضحك.

8

بحلـــول الظهر، كنا قد أزلنا النبات والحتات من منطقة تبلغ مساحتها خمسين يـــاردة مـــربعة، وذلك بناءً على ذاكرة الضفدع المشوشة عن موقع القبرين. فقد اتـــضح أنه لم يكن قد رأى الجثتين فعلاً، لكنه كان يعتمد على *معلومات موثوقة*. بحسب رواية العصابة، كانت الضحيتان قد دُعيتا إلى حفلة في المرج، ثم سارتا إلى الغابة حيث أُطلقت النار على رأسيهما. رائع.

وضـــعت علامـــات على شبكة للتفتيش، ثم قمت بغرز أوتاد بلاستيكية برتقالية اللـــون على طول الحدود بفواصل تبلغ خمس أقدام. بما أن الجثث نادراً ما تُخبأ أعمق مـــن ستّ أقدام تحت الأرض، فقد طلبت جهاز رادار يخترق الأرض مع هوائي بقوة 500 ميغاهيرتز، وهو تردّد فعال على هذا العمق. وقد وصل الجهاز في غضون ساعة.

كنت قد حفرت حفرة تجريبية خارج منطقة البحث للسماح بتقييم الكثافة، والـــرطوبة، وتغيّرات الطبقات، وظروف التربة الأخرى وذلك بالعمل مع مُشغّل الـــرادار. أعدنا ملء الحفرة بعد أن دفنّا فيها قطعة معدنية من حديد التسليح. كان مُشغّل الرادار قد تفحّص الحفرة بحثاً عن معلومات ضابطة.

كـــان يقـــوم بالضبط النهائي لمعداته حين خرج الضفدع من سيارة الجيب، ومشى بشكل جانبـــي نحوي يتبعه حارسه عن قرب. كانت تلك إحدى غزواته، وقد خفّف الصباح الخالي من القنص من قلقه.

"مـــا هـــذا بحـــق الله؟" سأل مشيراً إلى مجموعة من الأجهزة التي بدت أشبه بإحدى بدع فيلم العودة إلى المستقبل. حينذاك انضم كلوديل إلينا.

"يمكـــنك أن تستفيد من بعض الصفات الجديدة أيها الضفدع. ربما يجب أن تحضر لنفسك واحدة من تلك الُمفكرات التي تعلّمك كلمة جديدة كل يوم".

"تباً لك".

بطـــريقة مـــا قدّرت قيمة كلمات الحشو الإنكليزية. كانت أشبه بأصوات الوطن في أرض غريبة.

نظـــرت لأرى إن كـــان الضفدع يدّعي الحكمة فحسب، لكن العينين ذاتَي اللـــون الأخضر الباهت أظهرتا اهتماماً حقيقياً. حسناً، لم يكن الضفدع سيحصل على الكثير من التجارب العلمية حيث كان ذاهباً.

"إنه نظام جي بـــي أر".

بدا عليه عدم الفهم.

"إنه جهاز رادار خارق للأرض".

أشرت إلى شريط موصول إلى ولاّعة السجائر في عربة ذات دفع رباعي.

"ذلـــك هـــو جهاز الرادار الخارق للأرض. إنه يُقيّم الإشارات التي يرسلها الهوائي، ويرسم تخطيطاً على تلك الشاشة".

أشـــرت إلى جهازٍ كالمزلجة ذي مقبضٍ عامودي وسلكٍ طويل وسميك يصله بجهاز الرادار الخارق للأرض. "ذلك هو الهوائي".

"يبدو وكأنه جزازة للعشب".

"أجل". كنت أتساءل عما كان الضفدع يعرفه عن الاهتمام بجزّ الأعشاب.

"حـــين يـــسحب الُمشغلُ الهوائيّ عبر الأرض فإن الهوائي يصدر إشارةً تخرق الأرض ثم ترســـل معلـــومات إلى الـــرادار الـــذي يقدر القوة والزمن الارتدادي للإشارة".

بدا وكأنه يفهمني. بالرغم من أن كلوديل كان يبدي عدم الاهتمام فإنه كان يصغي أيضاً.

"إن كـــان هـــناك شـــيء في التربة، فإن الإشارة تتشوَّش وتتأثر قوَّتها بحجم التـــشويش تحت الأرض وبالميزات الكهربائية عند الحدود العليا والسفلى. إن عمق الجسم يحدِّد مدى الوقت الذي تأخذه الإشارة للذهاب داخل الأرض والعودة".

"إذاً، هذا الشيء يستطيع إخبارك بمكان وجود الجثة؟".

"لـــيس جثة بالتحديد. لكنه يستطيع إخبارنا بأن ثمة تشويشاً تحت السطح، كما يستطيع تزويدنا بالمعلومات عن حجمه ومكانه".

بدا الضفدع وكأنه لا يفقه شيئاً.

"حين تقوم بصنع حفرة وتضع شيئاً فيها، لا تعود تلك البقعة كما كانت من قبل. يمكن أن يكون للجسم المدفون سماكة أقل أو خلطة أو ميزات كهربائية مختلفة عن التربة المحيطة به".

صحيح. لكنني كنت أشك في أن الأمر سيكون هكذا هنا. إن عشر سنوات من تسرب المياه كفيلة بإزالة الفوارق في التربة.

"هـــذا الـــشيء الذي تم دفنه سواء أكان سلكاً أو آلة غير منفجرة أو جسماً بشرياً لن يرسل نفس الإشارة كالتربة المحيطة".

"من التراب إلى التراب. ماذا لو نـــزّت الجثة إلى مياه الشرب؟".

سؤال جيد أيها الضفدع.

"يمكـــن للّحم المتحلّل أن يُغيِّر التركيب الكيميائي والميزات الكهربائية للتربة، لذا فإن العظام والجثث المتحجرة قد تظهر حتى".

"قد تظهر".

في تلك اللحظة أعطى مشغّل الرادار إشارة تفيد بأنه جاهز.

صرخت "هلا سحبت المزلجة يا كويكواتر؟".

تبرع كلوديل بالقيام بذلك.

"حـــسناً. أحـــضر أحد الشباب الذين يتعرفون إلى الهوية ليتبعك كي يضبط الـــسلك. الأمر ليس معقداً. ابدأ حيث نصب المشغّل الهوائي خارج المنطقة التي تم تنظيفها. حين تتجاوز خط الأوتاد في أقصى الشمال اضغط على زر جهاز التحكم الموجود على المقبض مرتين. ستضع الإشارة الحدود لذلك التقاطع. قم بجرّ المزلاج بمعـــدل ثلثي سرعة المشي محتفظاً بالمجذاف مستقيماً قدر المستطاع. كلّما اجتزت وتـــداً في الغرب الشرقي اضغط على الزر مرة. حين تصل إلى الطرف الأبعد أعطِ إشـــارةً مـــزدوجة مجدّداً للإشارة إلى نهاية التقاطع. ثم سنجرّ هذا الشيء إلى نقطة البداية ونقوم بإجراء مسح ثانٍ".

"لِمَ لا نستطيع أن نمشي جيئة وذهاباً فحسب؟".

"لأننا لن نستطيع مقارنة الأوراق المطبوعة من تقاطعات مجاورة إن كان المسح قد أُجري من اتجاهات معاكسة. سنغطي المنطقة بأكملها من الشمال حتى الجنوب. هذا يشكل ثلاثين مسحاً ثم نعيد الإجراء من الشرق إلى الغرب".

أطرق برأسه.

"سأبقى مع المُشغّل وأراقب الشاشة. إن لاحظنا تشويشاً، فسأصيح، ويستطيع شريكك تفتيش المنطقة".

بعد ساعة كان البحث قد انتهى، وكان الكل حول السيارة يتناولون الشطائر، ويفتحون عبوات المشروبات الغازية. شكّل اثنا عشر وتداً أزرق ثلاثة مربعات داخل شبكة المسح.

كانت النتائج أفضل مما كنت آمل فقد أظهرت القراءات في التقاطعات الثالثة والثالثة عشر في الاتجاه الجنوبي الشمالي تشوشات بأطوال واتساعات متساوية تقريباً. لكن الصورة التي جاءت من المسح الحادي عشر كانت ما جذب انتباهي. كنت قد طلبت نسخة مطبوعة قمت بدراستها بينما كنت آكل النقانق والجبن.

أظهرت النسخة المطبوعة شبكة. وأشارت الخطوط الأفقية إلى عمق معين بناءً على معايرتنا للحفرة الضابطة مع سطح الأرض في الأعلى. كانت الخطوط العامودية مُنقّطة ومطابقة للإشارات التي أرسلها كلوديل عند تجاوز كل وتد في الشبكة.

كان النمط تحت سطح الأرض مباشرة مموجاً لكنه شكّل خطاً مستوياً بشكل عام. لكن فوق الشبكة رقم 11 شمالاً كانت سلسلة من الخطوط المنحنية على شكل جرس مُركّبة مثل أضلاع هيكل عظمي. أشار الرَّسم إلى تشويش عند تقاطع الخط 11 في الجهة الجنوبية الشمالية والخط 4 في الجهة الشرقية الغربية. كان التشويش يقع عند عمق ما يقارب الخمس أقدام.

انتقلت إلى رسومات المنطقة التي تم أخذها من المسح في المنطقة الشرقية الغربية. سمحت لي مقارنة التقاطعات القائمة بتقدير حجم وشكل التشويش. ما رأيته جعل دقات قلبي تتسارع.

كان الانحراف بطول ستّ أقدام تقريباً وعرض ثلاث أقدام. بحجم قبر.

بعمق قبر.

"هل سينجح هذا؟" لم أكن قد سمعت كلوديل يقترب.

"نحن نحضّر الطعام".

"الآن؟".

"أجل".

أنهـيت شـرب عبوة الكولا المخصصة للريجيم، وصعدت إلى سيارة الجيب. سـارت الحافلة الصغيرة بصعوبة في الخلف بينما كان كويكواتر يقود باتجاه تقاطع الخطـين 11 شمالاً و4 شرقاً. كنا قد قرّرنا أنني سأقوم بالحفر في تلك المنطقة بينما يقـوم كلـوديل وكويكواتر بفحص التشويشين الآخرين. بعد أن وضعت شبكة بـسيطة حول كل موقع كان عليهما أن يزيلا التراب بكميات صغيرة، ويفحصا محتويات كل مجرفة.

كـنت قد علّمت المحققين في قضية كركاجو كيفية الانتباه إلى الفروقات في لـون وتركيب التربة. كانوا سيصيحون لو وجدوا أي تغيّرات. كما كان كل منا سيتلقّى المساعدة من موظفين من قسم الهوية القضائية وسيقوم مصورون بتسجيل كل العملية على أشرطة فيديو.

هذا ما فعلناه.

كـان كلوديل يشرف على العمل بينما كان فريقه يعمل على التشويش عند الـتقاطع 13 شمالاً و5 شرقاً على بعد عشر أقدام تقريباً من التشويش الذي كنت أعمل عليه. من وقت إلى آخر كنت أنظر إلى كلوديل لأراه يقف مع أفراد طاقمه ويـزوِّدهم بالإرشادات أو يسألهم عن أمر ما في التراب. كان عليه أن يخلع سترته الرياضية.

بعد ثلاثين دقيقة، أصدرت مجرفة صوت قعقعة عالية في حفرة كلوديل. اتجه الدم نحو قمة رأسي، وانقبضت معدتي. كان نصل المجرفة قد ضرب شيئاً صلباً وقاسياً.

بيـنما كـان كلوديل يراقب، كشفت والتقنيون محيط الشكل. كان الجسم صدئاً ومتكتلاً بالوحل، لكن الشكل كان جلياً. نادى التحري من خدمة التعرف إلى الهوية القضائية العامل مع كلوديل قائلاً: "تابرناك، هذا ويبر!".

"سـيد كلوديل، هل تخطط لحفل شواء؟ تشوي قطع اللحم وتُخرج كراسي الحقل وربما تدعو الفتيات؟".

"جـــان – غي، أخبر لوك بأن ثمة طريقة أسهل. لديهم هذه الأشياء في متاجر وال مارت".

"أجل". لم يبتسم كلوديل أبداً. "إنك مضحك لدرجة أننا قد نحتاج إلى كيس للجثث لأنني سأموت من الضحك. سيكون علينا أن نسحب هذا الشيء، ونتأكد من عدم وجود أي مفاجآت في الأسفل".

ترك كلوديل عملية الشواء لزملائه في الفريق، ومشى عائداً معي إلى التقاطع 11 شمـــالاً و4 شرقاً. تابعت جرف التراب عند الطرف الشمالي بينما قام كلوديل بالإشراف على مساعدي من خدمة التعرف إلى الهوية القضائية في الجنوب. بحلول الساعة الثانية كنا قد صنعنا حفرة بعمق ثلاث أقدام تقريباً و لم أكن قد وجدت أي شيء في الحفرة أو على الشاشة يشير إلى أنني أقترب من قبر.

ثم رأيت الحذاء.

كـــان ملقـــىً على جانبه وكعبه مُوجهاً قليلاً إلى الأعلى. استخدمت مجرفتي لإزالـــة التـــراب موسعة المكان حوله. راقبني مساعدي لفترة وجيزة ثم تابع كشط الطرف البعيد من الحفرة. راقب كلوديل ذلك من دون أن يدلي بأي تعليق.

خـــلال دقائـــق كنت قد وجدت رفيقه. أزلت التراب بصعوبة حفنة بعد أخـــرى حتى انكشفت الفردتين بالكامل. كان الجلد رطباً وقد فقد لونه بشكل سيئ، وصدأت حلقاته المعدنية والتوت، لكن فردتي الحذاء كانتا سليمتين بشكل معقول.

حـــين انكشف الحذاء بشكل كامل، دونت ملاحظات بشأن مستوى وموقع الحـــذاء، والـــتقط المصور صوراً لاكتشافي. حين حرّرت كل فردة ووضعتها على قطعـــة مـــن النايلون كان واضحاً أن أياً منهما لم تكن تحتوي على عظام قدم أو ساق.

لم تكن تلك إشارة جيدة.

كانت السماء أشبه بالخزف المصقول والشمس قوية. من وقت إلى آخر كان النـــسيم يـــداعب الأغصان فوق رؤوسنا ويضرب بلطف واحدها بالآخر. خرخر الغدير بلطف إلى يميني بينما كان يشق طريقه فوق الصخور التي هجرها الجليد قبل وقت طويل.

انطلقت نقطة من العرق من جبيني عند خط الشعر، وانزلقت على طول رقبتي. جذبت سترتي فوق رأسي، ورميتها على أغصان الصنوبر التي تحد حفرتنا. لم أكن متأكدة إن كانت غددي تعمل بسبب دفء الربيع أو بسبب الضغط الذي كنت أشعر به.

لطالما كان الحال كذلك عند نبش الجثث. الفضول. الترقب. الخوف من الفشل. ماذا هناك تحت الطبقة التالية؟ ماذا لو لم يكن هناك شيء؟ ماذا لو كان هناك شيء لكنني لا أستطيع استخراجه من دون أن أُتلفه؟

كنت أشعر بالرغبة في الإمساك بمجرفة والحفر مباشرة إلى الأسفل. لكن لم تكن إزالة التربة بهذه الطريقة الجواب المناسب. كنت أدرك ضرورة اتباع التقنية الصحيحة بالرغم من صعوبة العملية. ستكون استعادة العدد الأقصى من العظام والأشياء المُصنّعة والتفاصيل القرينية مهمةً في قضية كهذه، لذلك تابعت تحليل التراب ونقله في دلاء للفحص. في محيط نظري كنت أستطيع رؤية التقني يقوم بنفس الحركات بينما كان كلوديل صامتاً بقربه. كان قد خلع سترته عند نقطة معينة.

رأينا النقاط البيضاء في نفس الوقت. كان كلوديل على وشك الكلام حين قلت "مرحباً!".

نظر إليّ وهو يرفع حاجبيه، وأومأت برأسي.

"يبدو أن هناك كلساً. هذا عادة يعني وجود جثة هنا".

تراجعت النقاط البيضاء لتكشف طبقة من الرواسب البيضاء الدبقة، ثم وجدنا الجمجمة الأولى. كان وجهها موجهاً إلى الأعلى وكأن محجري العينين اللذين يملأهما التراب قد انحرفا لإلقاء نظرة أخيرة على السماء. صاح المصور معلناً الخبر، وترك الآخرون ما كانوا يقومون به واجتمعوا حول حفرتنا.

ظهر هيكلان عظميان بينما كانت الشمس تتحرك ببطء نحو الأفق. كانا مضطجعين على جنبيهما. كان أحدهما في وضع الجنين بينما التوَت ذراعا وساقا الآخر بحدة إلى الوراء. خلت الجمجمتان وعظام السيقان والحوضين من اللحم، وتلطخت بنفس اللون البني للتربة التي اصطبغت بلون الشاي.

كانت عظام الأقدام والكواحل تغطيها الجوارب المتعفنة كما غطّت خرق القماش النّتن جذعي الجثتين. غلّف القماش كلتا الذراعين، وتعلّق بالعظام مثل

محاكاة فزاعة لطرف إنسان. لفّ السّلك المعصمين، وكنت أستطيع رؤية سحّابات ومشابك أحزمة حديدية ضخمة وقد استكانت بين فقرات الظهر.

بحلول الخامسة والنصف كان فريقي قد كشف البقايا بالكامل. حملت ملاءة النايلون إلى جانب الأحذية ومجموعة من الخراطيش البالية والأسنان المعزولة التي تم استخلاصها خلال عملية الفحص. كان المصورون يلتقطون صوراً فوتوغرافية وصور فيديو حين أقنع الضفدع حارسه بزيارة أخرى.

"مرحباً. صباح الخير". قال وهو يحني حافة قبعة وهمية نحو الهيكلين العظميين في الحفرة. ثم استدار إليّ قائلاً "أو ربما يجب أن أقول صباح العظام لك يا سيدتي".

تجاهلت تلاعبه بالألفاظ.

"يا الله. لِمَ ليس هناك سوى بقايا قمصان وجوارب؟".

لم أكن في مزاج يسمح لي بإعطاء محاضرة.

"هذا صحيح". قال وهو يضحك ضحكة مكبوتة، ويحدِّق إلى الحفرة. "لقد أجبروهما على خلع حذاءيهما وحملهما. لكن، أين سروالاهما؟".

"من التراب إلى التراب، ألا تذكر؟" قلت باقتضاب.

"بل من القذارة إلى القذارة". جاء صوته متوتراً بسبب الحماسة وكأنه أطلق العنان لنفسه.

أثارت قساوته انزعاجي. الموت يؤذي. الأمر بهذه البساطة. إنه يؤذي أولئك الذين يموتون والذين يحبّونهم كما يؤذي من يعثرون عليهم.

"في الواقع لقد فهمتَ الأمر بالعكس". بصقت. "إنها القذارة التي تدوم إلى وقت طويل. الألياف الطبيعية مثل القطن الموجود في السراويل من طراز لوفايز تتحلّل في وقت أسرع من الألياف الصناعية. كان صديقاك يرتديان قماش البوليستر".

"تباً، يبدوان بشعين. هل هناك شيء آخر معهما؟" سأل وهو يسترق النظر إلى القبر. ومضت عيناه كعيني جرذ يجلس على جيفة.

شخر قائلاً "كان قرار الذهاب إلى الحفل سيئاً، أليس كذلك؟".

وافقت على ذلك، كان قراراً مميتاً.

بدأت أنظف نصل مجرفتي مستخدمة نشاطي هذا لتهدئة نفسي. كانت هناك جثتان عند أقدامنا وهذا القارض كان ينتشي بالمنظر.

استدرت لأتأكد هل كان المصورون قد انتهوا من عملهم، فرأيت كويكواتر يمشي نحوي.

عظـــيم. أســـعِد نهاري. فكّرت آملة في أنه كان يبحث عن شخص آخر. لم يكن يبحث عن شخص آخر. راقبته يتقدم بحماسة قد تتملكني عند إصابتي بلسعة الصقيع.

اقتـــرب كويكواتـــر، ورمقني بإحدى نظراته الثاقبة بينما كان وجهه قاسياً كالغـــرانيت. كـــان جسده يعبق برائحة العرق الذّكوري والصّنوبر، وأدركت أنه كـــان يعمـــل خـــلال كل فترة بعد الظهر. في الوقت الذي استراح فيه الآخرون ليتفحـــصوا تقدم العمل عند القبر الأساسي، بقي كويكواتر يقوم بعمله. كان يريد أن يحتفظ ببعض المسافة، الأمر الذي راقني.

"ثمة شيء يجب أن تريه".

كان سكونه يثير أعصابـــي. انتظرت أن يشرح أكثر، لكن كويكواتر استدار ومشى عائداً إلى موقعه واثقاً كل الثقة من أنني سأتبعه.

فكّرت في أنه كان وغداً متعجرفاً.

كانـــت الأشـــجار تلقي بظلال طويلة ودرجات الحرارة تتدنى مع مرور كل دقيقة. نظرت إلى ساعتي. كانت السادسة تقريباً. كنت أشعر بالجوع. كان قد مرّ وقت طويل منذ تناولت النقانق والجبن.

فكّرت في أنه يجدر بهذا الأمر أن يكون جيداً.

مشيت مجهدة عبر المساحة التي تم تنظيفها إلى التقاطع عند الخطين 3 شمالاً و9 شـــرقاً حـــيث موقـــع التشويش الذي كان فريق كويكواتر قد عُين للعمل عليه. دهشت لرؤية أنهم كانوا قد حفروا شبكتي بأكملها.

كـــان الجسم الذي استرعى اهتمام كويكواتر على عمق متر في المكان الذي حدَّدته. كان الفريق قد حفر كل المربع حتى عمق مترين. "أهذا كل شيء؟".

أومأ كويكواتر برأسه.

"أليس هناك شيء آخر؟".

لم يتغير تعبيره.

نظرت حوله. كان واضحاً أهم قد انتهوا من عملهم. كانت الشاشة لا تزال مثبتة إلى دعاماتها التي أحاطت بها مخاريط التراب الندية. بدا وكأنهم نخلوا كل جزء من التراب في المقاطعة. عادت عيناي إلى قاعدة التمثال الخزفي الذي يصوّر الموت.

لم يكن ما اكتشفوه يعني أي شيء.

9

أغمضت عينيّ، وأصغيت إلى صوت الأبقار تخور بهدوء في البعيد. في مكان ما كانت الحياة هادئة وروتينية وذات معنى.

حين فتحت جفنيّ كانت العظام لا تزال هناك لكنها لم تكن تعني الكثير. كان الغسق يحلُّ بسرعة سارقاً التفاصيل من المنظر كما تتلاشى التفاصيل في فيلم قديم. لم نكن سننتهي من استخلاص الأدلة ذلك اليوم، لذلك كان على الإجابات أن تنتظر.

لم أكن لأخاطر بإتلاف الأدلّة بسبب ارتكاب الأخطاء في الظلام. كانت الجثث ستبقى هنا لفترة من الزمن وبإمكانها البقاء في مكانها لبضع ساعات. كان علينا أن نزيل البقايا المكشوفة من كل قبر، ولكن كان ذلك كل شيء. كان الموقع سيُغلق بإحكام لنتابعَ العمل في الصباح.

كان كويكواتر لا يزال يراقبني. نظرت حولي لكنني لم أستطع رؤية كلوديل.

"أحتاج إلى أن أتحدث مع شريكك". قلت وأنا أدير ظهري باتجاه موقعي.

رفع كويكواتر إصبعاً. ثم سحب هاتفاً خلوياً من سترته، وطلب رقماً، وناولني إيّاه.

أجاب كلوديل فوراً تقريباً.

"أين أنت؟".

"خلف شجرة حور. هل كان عليّ أن أطلب إذناً لقضاء حاجتي؟".

سؤال غبـــي يا بريناي.
"لِمَ يظن شريكك أن هيكلين عظميين لا يكفيان فوجد لنا ثالثاً".
"يا الله!".
"حسناً، لم يكن ذلك هيكلاً عظمياً بالضبط. مما أستطيع رؤيته، فإن الفارس الثالث يتألف من جمجمة وبعض العظام الطويلة".
"أين الباقي؟".
"سؤال جيد أيها المحقق كلوديل. هذا يسبب بعض الإرباك لي أيضاً".
"ماذا تريدين أن تفعلي؟".
"لنـــستخرجَ كـــل العظام، ثم نغلق المكان حتى طلوع الضوء. سيكون على شـــرطة ســـان بازيـــل أن تختم المكان، وتُعيّن خفيراً عند كل قبر. يجب ألاّ تكون حراسة المكان صعبة جداً بما أن الأمن هنا أكثر إحكاماً من لوس آلاموس".
"لن يكون مالكو الأرض سعداء بهذا التدبير".
"نعم، حسناً، لم أخطّط لتمضية أسبوعي بهذه الطريقة أيضاً".
لم يـــستغرق توضـــيب العظام وإرسالها إلى المشرحة أكثر من ساعة. جرى وضع العلامات على الشواية، وأدلة مادية أخرى، وتم إرسالها إلى مختبر الجريمة. ثم قمـــت بتغطـــية الحُفر بملاءات من النايلون، وتركتها في رعاية قسم شرطة سان بازيل.
كما كان متوقعاً، فقد عدت وكويكواتر إلى البلدة بصمت. حين وصلت إلى المنـــزل، حاولت طلب رقم رايان، لكنني لم أتلقَّ أي جواب.
"لِمَ يا آندي، لِمَ؟" همست وكأنه كان موجوداً ليسمعني. "أرجوك، لا تسمح لذلك بأن يكون حقيقياً".
أمضيت مسائي بأن أخذت حماماً، ومن ثم تناولت البيتزا ولجأت إلى النوم في وقت مبكر.
في الصباح كُنّا مجتمعين مجدّداً عند أرض الأفاعي المخصصة للنـــزهات. كان الجـــدول مـــا زال يخرخر والعصافير تشدو، ومرة أخرى وجدت نَفسي في هواء الصباح. كان هناك شيئان مختلفان فقط.
كان كلوديل قد اختار أن يبقى في البلدة كي يتابع أدلة أخرى.

خلال الليل، تسربت أخبار عن الجثث إلى الإعلام، واستقبلتنا قوة غازِيَة عند وصـــولنا. اصـــطفت السيارات والشاحنات الصغيرة على طرفي الطريق السريع، وهجـــم علينـــا الصحفيون باللغتين الإنكليزية والفرنسية. تجاهلناهم بكلتا اللغتين، وتجاوزنـــا الكاميرات ومكبرات الصوت وقدّمنا أنفسنا للضابط المسؤول ثم انسللنا عبر البوابات.

أعـــدت فتح كل قبر، وابتدأت من حيث توقفت بدءاً بالجثتين. قمت بالحفر حـــتى عمق ستّ أقدام لكنني عثرت على بضعة عظام يد وزوج آخر من الأحذية فحسب.

قمـــت بالأمـــر نفسه في موقع كويكواتر وأنا أزداد حيرة مع كل مجرفة من التراب. عدا عن الجمجمة وعظام الساقين كانت الحفرة خالية تماماً. لم يكن هناك من مجوهرات أو بقايا ملبوسات. و لم أجد أي مفاتيح أو بطاقات هوية بلاستيكية. كمـــا لم تكـــن هـــناك أي آثار للشعر أو للنسيج الرقيق. و لم يشر مسح الرادار الإضافي إلى أي أدلة أو أي تشويشٍ في المنطقة التي تم تنظيفها.

كـــان هـــناك شـــيء آخر يدعو للاستغراب. بالرغم من أن القبر الذي ضمّ الهـــيكلين العظميين كان غنياً ببقايا الحشرات، إلا أن القبر عند تقاطع 3 شمالاً و9 شـــرقاً لم يكن يحتوي على أي دودٍ متحجرٍ أو بيوت يرقات. لم أستطع أن أفسّر الفرق.

بحلـــول الخامـــسة كنا قد أعدنا ملء الحفر، وحملنا أدواتنا إلى سيارة مشهد الجـــريمة الـــصغيرة. كنت أشعر بأنني مرهقة ووسخة وحائرة، وقد علقت رائحة المـــوت بـــشعري وملابسي. كان جلّ ما أردت القيام به هو الذهاب إلى المنـــزل وإمضاء ساعة في الماء والصابون.

حـــين خرج كويكواتر من البوابات أحاط طاقم التلفاز بسيارة الجيب رافضاً أن يدعـــنا نمرّ. خفّفنا سرعتنا حتى نقطة التوقف، ودارَ رجل في أواسط العمر ذو شـــعر مـــصفف وأسنان مثالية نحو جهتي ونقر على الزجاج. ركّز عامل الكاميرا وراءه عدسته على وجهي.

لم أكن في مزاج يسمح لي بالدبلوماسية، فأنـــزلت زجاج النافذة، وملِت إلى الخـــارج، وأخـــبرتهم بكلماتٍ تصويرية بأن يفسحوا الطريق. ظل ضوء الكاميرا

يعمل، وبدأ الصحافي يرميني بأسئلته واحداً تلو الآخر. اقترحت عليهم أماكن معينة لتخزين آلاهم وأخرى للاستمتاع. ثم دُرت بعينيّ، وسحبت رأسي، وضغطت على الـــزر. شغل كويكواتر المحرك، وانطلقنا مسرعين. التفتُّ لأرى الصحفيّ واقفاً في الـــشارع ويده تقبض على مكبر الصوت وملامحه التي تخلو من أي عيب تعبّر عن المفاجأة.

اســـتقررت في مقعدي، وأغمضت عينيّ مدركةً أن كويكواتر لن يجريَ أي حديث. لم يزعجني الأمر. دارت الأسئلة في دماغي، وراحت تلف كجدولٍ مرتفع المنسوب.

من كانت الضحية الثالثة؟ كيف مات؟

كنت أرجو أن أجد إجاباتٍ عن هذه الأسئلة في المختبر.

مـــتى حدثت الوفاة؟ كيف انتهى الأمر بجزء من جثة في قبر سرّيّ في منتدى الأفاعي؟

كان على الأفاعي أن يزوّدونا بإجابات عن هذه التساؤلات.

أمّـــا السؤال الأكثر إثارةً للإرباك فقد كان يتعلّق بأجزاء الجثة المفقودة. أين كانـــت بقية الهيكل العظمي؟ بينما كنت أُزيل وأُوضّب العظام لنقلها كنت أراقب عـــن كـــثب وجـــود أي إشاراتٍ لضرر ربما تكون قد سببته الحيوانات. فالدببة والـــذئاب وبـــنات آوى وحيواناتٍ أخرى مفترسة ستكون سعيدة بالتغذي على جـــثث آدمـــية لو سنحت لها الفرصة. والأمر نفسه ينطبق على عائلة الكلاب أو القطط.

لم أرَ أيّ دلـــيلٍ يشيرُ إلى أن حيوانات قمامة قد توارت بالأجزاء المفقودة. لم يكـــن هناك أي مفصلٍ أو جذع قد قضم و لم يكن هناك أي خدوش على الأسنان أو جروح أو ثقوب. كما لم ألاحظ أي علامات لسكين أو منشار توحي بأن الجثة قد قُطّعت أوصالها.

إذاً، أين كانت بقية أجزاء الميت؟

كنت قد أعددت لليلة الأربعاء نفس برنامج الثلاثاء مع بعض التعديل. حمام. طعـــام في المايكروويف. برنامج بات كونري. نوم. باستثناء المرحلة الأولى التي لم تجرِ كما كنت قد خططت.

كـــنت قـــد نشّفت جسمي للتوّ وارتديت ثوب نوم أخضر قطنياً حين رن جرس الهاتف. تبعني بيردي إلى غرفة الجلوس.

"يا الله، لقد أصبحتِ أكثر شهرةً مني".

لم يكن ذلك الكلامَ ما كنت بحاجة إلى أن أسمعه بالتأكيد. كانت إيزابيل قد عملـــت في المـــسرح والتلفاز لأكثر من عشرين عاماً وأصبحت من أكثر الممثلين شعبية في كيبيك. حيثما ذَهبَت كان الناس يتعرفون إليها.

قلت مخمنة، "كنتُ نجمة نشرة الساعة السادسة".

"لقد كان الأداءُ يستحق جائزة أوسكار، مشحوناً بالغضب ومشتعلاً بشغف الـــ...".

"هل كنت سيئة جداً؟".

"بدا شعرك بحالة جيدة".

"هل تعرفوا إليّ؟".

"ولكن بالطبع يا دكتورة برينان".

اللعـــنة. حـــين رميت بنفسي على الأريكة استقر بيردي في حجري متوقعاً حواراً طويلاً.

"هل أجروا أي تعديلات على الشريط؟".

"على الإطلاق. إنني أجيد قراءة الشفاه يا تمب. أين تعلمت هذه الكلمات؟".

تأوهـــت وأنا أتذكر بعض اقتراحاتي حول مكان وضع الكاميرات ومكبرات الصوت.

"لكـــنني لم أتصل بك لهذا السبب. أريدك أن تأتي لتناول العشاء يوم السبت. ســـيأتي بعـــض الأصدقاء لزيارتي، وأظن أنك بحاجة إلى بعض العلاج الاجتماعي وبعض الوقت بعيداً عن هؤلاء الدرّاجين المريعين ورايان هذا".

رايان هذا.

"لا أظن بأن رفقتي ستكون ممتعة في الوقت الحالي. أنا...".

"لـــن أقـــبل بالـــرفض يا تمب. وأريدك أن تضعي اللآلئ والعطر وتتأنقي. سيحسن هذا من مظهرك كليّاً".

"أخبريني بأنك لا تدبرين لي موعداً آخر مع أحدهم يا إيزابيل".

للحظة كنت أصغي إلى الصمت. ثم قالت "هل يجعلك نوع العمل الذي تقومين به ميّالة إلى الشك يا تمب؟ لقد أخبرتك. سيكون هناك بعض الأصدقاء. بالإضافة إلى ذلك، لديّ مفاجأة لك".

آه. لا.

"ما هي؟".

"إن أخبرتك فلن تكون مفاجأة".

"أخبريني على كل حال".

"حسناً، ثمة شخص أريدك أن تلتقيه. وأنا أعلم أنه سيودّ رؤيتك. لقد سبق والتقيتما إنما ليس بشكل رسمي. هذا الرجل غير مهتم على الإطلاق بعلاقة رومانسية. ثقي بي".

خلال العامين الماضيين كنت قد التقيت بالعديد من أصدقاء إيزابيل الذين كان معظمهم يعملون في مجال الفن. بعضهم كانوا مملّين بينما بعضهم الآخر كانوا آسرين. كان العديد منهم غير أسوياء. كانت محقة. إن ليلة من المرح ستكون مفيدة لي.

"حسناً، ماذا أُحضر معي؟".

"لا شيء، فقط تأنقي وكوني هنا عند السابعة". بعد أن نزعت المنشفة عن رأسي، وسرّحت شعري، وضعت طعاماً مؤلفاً من ثمار البحر في المايكروويف. كنت أبرمج الوقت حين قُرع جرس الباب.

فجأة أملت أن يكون رايان، ومشيت نحو الردهة. كان كل شيء خطأ. لكن ماذا لو لم يكن خطأً، هل أريد رؤيته حقاً؟ هل أريد أن أعرف أين كان أو ما كان سيقوله؟

نعم، بالتأكيد.

لم أكن بحاجة إلى التحقق من هوية الطارق بنفسي لأن شاشة جهاز الأمن أظهرت جون برنارد وليس شريكه، واقفاً في الردهة الخارجية. فتحت له البوابة الخارجية إلكترونياً، وذهبت إلى الحمام لأرتدي جوارب ورداءً.

حين دخل إلى الشقة، تردَّد وكأنه يحاول أن يستجمع نفسه. بعد لحظة مربكة مدّ يده التي كانت باردة حين صافحته.

"مرحبا يا تمب. إنني آسف لأنني فاجأتك بهذه الطريقة".

بـــدا لي بأنني أتعرّض للكثير من المفاجآت هذه الأيام. أومأت برأسي. كان وجهـــه مُتعباً وقد أحاطت بعينيه هالاتٌ سوداء. كان في هذه الليلة يرتدي سروال جينـــز باهت وسترة مجعدة، وهو الذي يتأنق عادة. بدأ يتكلم مجدّداً لكنني قاطعته باقتـــراح بـــأن ننتقل إلى غرفة الجلوس. اختار الجلوس على الأريكة بينما تكوّرت على الكرسي مقابله.

درس برنارد وجهي بوجه متوتر ومشاعر لم أستطع قراءها. وفي المطبخ بعث فرن المايكروويف الدفء في سمكي الأبيض وفي الجزر والأرز بالكاري.

هذه حفلتكَ، فكرت رافضة في أن أكسر الصمت. وأخيراً تكلم.

"بشأن رايان".

"نعم".

"تلقيت اتصالاتك، لكنني لم أستطع التحدث في هذا الموضوع حينها".

"ما هو الموضوع بالتحديد؟".

"لقد خرج بكفالة لكنه متهم بــ...".

"أعرف التهم".

"لا تغضبـــي مني. لم أكن أعرف موقفك من كل هذا".

"بحق الله يا برنارد. أنت تعرفني منذ فترة طويلة".

ردّ بحدّة: "لقد عرفت رايان لفترة أطول بكثير! من الواضح أنني أسيء الحكم على الناس".

"يبدو أن كلينا غير ضليعين في هذا المجال".

كـــرهت بـــرودتي لكـــن عدم اتصال برنارد ضايقني. حين كنت بحاجة إلى معلومات مهمة بالنسبة إليّ تجاهلني وأبعدني وكأنني متشردة على الطريق.

"اسمعي، لا أعرف ما يمكنني أن أقوله لك. هذا الأمر معقد للغاية. سمعت أنهم حين ينتهون من التحقيق مع رايان لن يكون مؤهلاً للقيام بأي عمل حتى ولو كان بسيطاً".

"هل الأمر سيئ؟" قلت وأنا أراقب أصابعي تلعب بحوافّ الوسادة.

"لديهم ما يكفي من الأدلة لسجنه حتى الغد".

"ماذا لديهم؟".

"حين فتشوا شقته وجدوا من مادة الميثامفيتامين ما يكفي لتفجير العالم الثالث بأكمله بالإضافة إلى أكثر من عشرة آلاف دولار ثمن سترات فرائية مسروقة".

"سترات فرائية؟".

"أجل، هذه الأشياء التي يقوم الجميع بأي شيء للحصول عليها".

"ماذا بعد؟" كنت قد برمت حافة الوسادة بإحكام لدرجة أرسلت الألم إلى يدي ومعصمي.

"بالإضافة إلى الشهود وأفلام الفيديو وأوراق النقود التي تحمل علامات وذيل طويل يجر مباشرة إلى قلب كومة القذارة".

خانت صوت برنارد عواطفُه. سحب نفساً عميقاً.

"هناك المزيد. الكثير منه. لكنني لا أستطيع التحدث عنه. أرجوك أن تتفهمي يا تمب. أنا آسف لأنني تركتك معلقة. استغرقت بعض الوقت كي أستوعب هذا الأمر أنا نفسي. لم أكن أصدقه، لكن...".

توقف خائفاً من أن يثق بصوته.

"أظن أن الشاب لم يترك ماضيه خلفه أبداً. حين كان طالباً جامعياً تورط رايان في تجارة المشروبات والمخدرات. في نهاية الأمر ترك حياته الجامعية نهائياً. تعرض للقتل بسبب طعنة سكين أحد الذين يتعاطون المخدرات، وغيّر الفتى الثائر طريقه وأصبح شرطياً، وارتقى إلى رتبة محقق - ملازم أول. كنت أعرف كل ذلك، لكن بالرغم من ذلك...".

"علمت بأن أحدهم كان يصطاد رايان، وأظن أنه يمكن أن تكوني أنت. لكن الأمر ليس مهماً الآن. الوغد قذر وهو يستحق ما سيحصل له".

لم ينطق أي منا بكلمة لمدة طويلة جداً. كنت أستطيع الشعور ببرنارد يحدق إليّ لكنه رفض أن ينظر إليّ أو يقول أي كلمة. أعلن المايكروويف انتهاء تسخين الطعام ثم توقف. كان الصمت مطبقاً، أخيراً سألت.

"هل تعتقد أنه قام بهذا فعلاً؟" كنت أشعر بحرارة خديّ تحرق جسدي داخل القفص الصدري.

"لم أقم بأي عملٍ في الأيام القليلة الماضية سوى ملاحقة الخيوط لأثبت أنه لم يقم بذلك. أي شيء. أيٍ أحد. كل ما أردته هو إشارة صغيرة إلى الشك".

حين أشار بإبهامه وسبابته استطعت ملاحظة رجفة بسيطة في يده.

"لم تكـــن تلـــك الإشارة موجودة يا تمب". مسح بإحدى يديه على وجهه. "لكن هذا الأمر لم يعد يهم".

"ما زال مهماً. إنه الأمر الوحيد المهم".

"في البداية ظننت أنه لا يمكن أن يكون هو على الإطلاق. ليس أندرو رايان. ثم علمت بشأن القضية ضده".

سحب نفساً عميقاً آخر.

"اسمعي يا تمب. أنا آسف. أنا آسف لهذه الفوضى لدرجة أنني لم أعد متأكداً من أنا أو إن كان رايان يستحق ثمن تذكرة حافلة".

حين نظرت إلى برنارد كان وجهه مفعماً بالألم، وأدركت تماماً ما كان يشعر به. كان يحاول ألاّ يحتقر شريكه لاستسلامه للجشع، وقد كرهه كل الوقت بسبب الفراغ البارد والعميق الذي خلّفته خيانته.

وعـــدني برنارد بإبلاغي بأي أمر يعرفه. حين غادر رميت السمك في القمامة وبكيت حتى غفوت.

10

نهـــار الخميس ارتديت بزة زرقاء داكنة، وقدت سيارتي إلى دار العبادة ليدي أوف إنجلـــز. كـــان الصباح عاصفاً وكانت الشمس تظهر من حين إلى آخر بين الغيوم الكثيفة التي اندفعت في السماء.

ركـــنت ســـيارتي، وشققت طريقي من خلال المجموعة المعتادة من الحمقى والصحفيين ورجال الشرطة. لم يكن هناك من إشارة تدل على وجود تشاربونو أو كويكواتر أو كلوديل.

كـــان أغلب الحادين الذين تقاطروا وصعدوا السلالم برزانة من السّود. وصل البـــيض علـــى شكل ثنائي أو مجموعات وكل منهم كان بصحبة ولدٍ واحد على الأقل. ربما كان الأولاد هم رفاق إميلي آن في الصف مع عائلاتهم.

قـــرب المـــدخل، نـــزعت عاصفة من الريح القبعة عن رأس امرأة عجوز إلى يمـــيني، طارت يد معقودة إلى رأسها بينما جاهدت اليد الأخرى للإمساك بالتنورة التي كانت تخفق حول ساقيها.

انـــدفعت إلى الأمـــام، وحاصرت القبعة في اتجاه حائط دار العبادة، وناولتها للـــسيدة فشدّتها إلى صدرها النحيل، ورسمت ابتسامة صغيرة. ذكّرني وجهها البني المجعد بدمى التفاح البري التي تصنعها السيدات ببراعة في الجبال الدخانية.

"هـــل أنت صديقة لإميلي آن؟" سألتني السّيدة العجوز بصوت مبحوح. لم أكن أود أن أشرح علاقتي بها فقلت "نعم يا سيدتي".

"إنها حفيدتي".

"أنا آسفة جداً لخسارتك".

"لـــديّ اثنان وعشرون حفيداً، لكن إميلي آن تلك كانت مُميّزة. تلك الفتاة كانـــت تقـــوم بكل شيء. كانت تكتب رسائلها بنفسها وترقص الباليه وتسبح وتتزلج على الجليد. أظن أن هذه الفتاة أذكى من أمها".

"كانت فتاة صغيرة جميلة".

"ربما لهذا السبب أخذها الله".

راقـــبت جدة إميلي آن تكمل كلامها وأنا أتذكّر تلك الكلمات نفسها منذ زمن بعيد. تحرك ألم قديم في صدري، وحضّرت نفسي للآتي.

في الداخل، كانت دار العبادة باردة، وتعبق برائحة البخور والشمع وورنيش الخشب. تسلّل الضوء من خلال الزجاج الملون ملقياً نعومة فائقة على كل شيء.

ازدحمت المقاعد الأمامية بالحاضرين بينما جلس عدد مُتفرّق منهم في الوسط. انسللت إلى الصف الخلفي، وعقدت ذراعيَّ، وحاولت التركيز على الحاضر. كنت أشـــعر بالحاجـــة إلى الحـــكّ كما كانت راحتا يديَّ مبللتين بالعرق. بينما كنت أتفحـــص المكـــان حولي، أنهى عازف الأرغن الجزء الأول من موسيقى الاحتفال الديني، وبدأ بجزءٍ آخر.

استقرّ تابوتٌ أبيض صغير تحت المذبح، وقد تكومت فوقه الورود، وأحاطت بـــه الـــشموع مـــن كلا الجانبين. تمايلت البالونات على خيوط رُبطت بمسكات التابوت. بدت الكُرات زاهية الألوان وغير متزامنة على الإطلاق مع المشهد.

كـــنت أستطيع رؤية رأسين صغيرين وشخص أكبر بينهما في المقعد الأمامي. كانـــت السيدة توسان منحنية إلى الأمام، وقد شدت بمنديل إلى فمها. بينما كنت أراقـــبها بـــدأت كـــتفاها ترتفعان وتنخفضان، وارتفعت يد صغيرة وربتت أعلى ذراعها بلطف.

استفاق الألم النائم في داخلي بالكامل، وعدت مجدّداً إلى رعية سان بارناباس. كان الأخ موريسون عند المنبر وأخي الصغير مضطجعاً في تابوته الصغير الخاص.

كـــان نـــشيج أمي رهيباً وأنا أحاول مواساتها. لم تشعر بلمستي وهي تشدّ هاريـــيت الـــصغيرة إلى صـــدرها وتبكـــي على رأسها. راقبت شعر أختي الناعم الذهبـــي كلون الذرة يتحوَّل رطباً بسبب دموع أمي وأنا أشعر بالعجز.

لو أعطوني علبة من الألوان وسألوني أن أرسم العالم عندما كنت في السادسة من عمري لكنت اخترت لوناً واحداً. الأسود.

كنت عاجزة عن إنقاذ كيفين ومنع مرض ابيضاض الدم من الفتك بجسده الصغير. كان أثمن هدية عندي، وكنت أحبه كثيراً. كنت قد دعوت ودعوت، لكنني لم أستطع أن أفعل شيئاً لمنع موته أو لجعل أمي تبتسم. كنت قد بدأت أتساءل إن كنت شريرة لأن أدعيتي لم تجد نفعاً. بعد أكثر من أربعة عقود كان الألم الذي سببه موت كيفين ما زال موجوداً. لم تفشل مشاهد وأصوات وروائح الجنائز وموسيقاها يوماً في فتح ذلك الجرح من جديد، سامحة للحزن الدفين بأن ينزّ إلى عقلي الواعي.

نقلت عينيّ من عائلة توسان وتفحصت الجموع. كان تشاربونو قد أخفى نفسه في ظل غرفة الاعتراف، لكنني لم أتعرّف إلى أي شخص آخر.

في تلك اللحظة دخل رجل الدين ورسم إشارة على صدره. بدا شاباً ورياضياً ومتوتراً. كما بدا أشبه بلاعب تنس يقترب من مباراة منه بكاهن يقترب من صلاة جنائزية. وقفنا جميعاً.

بينما كنت أؤدي الحركات المعتادة، شعرت ببشرتي تتورد وبقلبي يدق أسرع مما يجب. حاولت أن أركّز لكن عقلي قاوم ذلك. نزفت الصور إلى دماغي وأخذتني إلى ذلك الوقت من طفولتي.

وقفت امرأة ضخمة على المنبر إلى يمين المذبح. كانت بشرتها ذات لون بني محمر كلون خشب الماهوغاني، وقد جدلت شعرها في أعلى رأسها. لمع خدّا المرأة وهي ترتل. تذكرتها من الصورة في الجريدة.

ثم تحدث رجل الدين عن براءة الطفولة، ومدح أقارب إميلي آن طبعها المرح وحبها لعائلتها. ذكر خال لها شغفها بكعك الوافل ووصفتها معلمتها بأنها تلميذة مفعمة بالحماسة وقرأت مقالاً لها كان قد حصل على جائزة. كما ألقت زميلتها في الصف قصيدة مميزة.

نشيج مكبوت. بخور. مباركة التابوت. نحيب هادئ تصدره السيدة توسان.

أخيراً، استدار رجل الدين، وطلب من أختَي إميلي آن ورفاقها الانضمام إليه، ثم جلس على سلالم المذبح. سادت لحظة من الصمت المطبق تبعتها أوامر همس بها

الأهـــل للأولاد. واحداً بعد الآخر نهض الأولاد عن المقاعد الخشبية ومشوا بخجل نحو المذبح.

لم يكـــن ما قاله رجل الدين جديداً. كانت إميلي آن قد اجتمعت مجدّداً مع والدها. وستنضم إليهما أمها وأختاها يوماً ما، وكذلك سيفعل جميع الحاضرين.

كان ما قام به رجل الدين بعد ذلك جديداً. أخبر الأولاد أن إميلي آن سعيدة وبأننا يجب أن نحتفل معها. أشار إلى مساعديه الذين اختفوا في حجرة الاجتماعات وعادوا بباقات ضخمة من البالونات.

شـــرح رجل الدين قائلاً: "هذه البالونات مليئة بغاز الهليوم، وهذا سيجعلها تطير. أريد أن يحمل كل منكم بالوناً وسنمشي جميعاً مع إميلي آن. ثم سنتلو صلاة الـــوداع، ونطلق بالوناتنا، ونتركها لتصعد إلى السماء. ستراها إميلي آن فتعلم أننا نحبها".

نظر إلى الوجوه الصغيرة الرزينة.

"هل هذه فكرة جيّدة؟".

أومأ الجميع برؤوسهم.

نهـــض رجـــل الـــدين، وفك الخيوط، ووضع بالوناً في كل يد صغيرة، وقاد الأولاد على السلالم. بدأ عازف الأرغن يعزف لحن شوبارت "آيف ماريا".

حُمـــل الـــتابوت، وتحركت المسيرة نحو الباب، وخلت المقاعد من شاغليها. حين مرّ الصف انسللت عند طرفه.

تـــبع الناس الذين كانوا في حداد التابوت إلى الخارج، ثم شكّل الكبار دائرة أحاطت بالأولاد. وقفت السيدة توسان خلف ابنتيها يسندها المغني.

تـــوقفتُ على السلالم. كان غطاء الغيوم قد انكسر تاركاً وراءه سماءً ملبدةً بالغـــيوم البيضاء المُندفعة. راقبت البالونات تصعد باتجاه هذه الغيوم، وشعرت بحزن حاد يعتصرني.

تريثت للحظة، ثم نـــزلت السلالم ببطء وأنا أمسح الدموع عن خديّ وأجدّد العهـــد الـــذي قطعته يوم ماتت إميلي آن. سأعثر على هؤلاء السّفاحين الذين لا يميزون بين الناس وأضعهم حيث لا يستطيعون أن يقتلوا طفلاً آخر. لن أستطيع أن أعيد الابنة، لكنني سأقدّم هذا العزاء القليل إلى الأم.

قـــدت سيارتي نحو بارثنييس تاركةً إميلي آن لأولئك الذين يحبونها وأنا أشعر بأنني يجب أن أُغرق نفسي في العمل.

في المختـــبر كـــان المحققـــون في قضية كركاجو قد تعرّفوا إلى هوّية الهيكلين العظمـــيين اللذين تم استخراجهما في سان بازيل. ركب فيلكس مارتينو الذي يبلغ السابعة والعشرين من عمره وروبرت غايتلي الذي يبلغ من العمر التاسعة والثلاثين السيارة مع العنكبوت الذئبـــي الذي هو اليوم عضو غير فعال لكنه كان ناشطاً في مونتـــريال في السبعينيات والثمانينيات. كان غايتلي عضواً رسمياً بينما كان مارتينو مرشحاً للعضوية.

مـــساء الرابع والعشرين من العام 1987 كان الاثنان قد غادرا شقة غايتلي في شـــارع هوشلاغا متوجهين إلى حفل. لم تكن زوجة غايتلي تعرف اسم أو عنوان المضيف. لم يرَ أحدٌ أياً من الرجلين مجدّداً.

أمـــضيت الـــيوم مع العظام التي أتت من القبر المزدوج أصنفها وأحدد العمر والجـــنس والعرق والطول لكل فرد. أكّد شكل عظام الحوض والجمجمة أن كلتا الـــضحيتين ذكـــران. كما أن الفرق في السن والطول جعل مهمة التعرف إلى كل واحد منهما أسهل بكثير من مهمة التعرف إلى الأخوين فايلنكورت.

حالمـــا أنهيت العمل على الجمجمتين والفكين سلمتها لمارك بيرجرون ليجري تحالـــيل للأسنان. حسبت أن مهمته ستكون سهلة أيضاً بما أنه كان من الواضح أن كلا الرجلين كانا قد خضعا لتجميل أسنانهما.

كـــان الكسر في عظم الترقوة للضحية الأطول قد شفي تماماً. كنت ألتقط صـــوراً للإصـــابة حـــين دخل بيرجرون إلى مختبري صباح الجمعة. كان طبيب الأســـنان أحـــد أغـــرب الرجال الذين التقيتهم. هو ذو شعر منفوش أشبه بنبتة الهـــندباء وســـاقين طويلتين. كان من المستحيل معرفة سنّه ولا يبدو أن أحداً في المختبر كان يعرفه.

انتظر بيرجرون حتى التقطت الصورة، ثم أكد أن التعريف كان صحيحاً.

"كيف حصلت على السجلات بهذه السرعة؟".

"بواســـطة طبيبَي أسنان متعاونَين. ولحسن حظي كان الميتان مهتمَّين بصحة أسنانهما، على الأقل غايتلي. كانت لديه أسنان سيئة والكثير من عمليات التجميل.

كـــان مارتيـــنو أقل اهتماماً بأسنانه، لكن كانت هناك بعض الميزات التي جعلت التعـــرف إليه أمراً مضموناً. كان الدرّاج الكبير الشرير يمشي بأربع أسنان لبنية في فمه. هذا أمر نادر لشخص في عمره".

أطفأتُ ضوء قاعدة التصوير.

"هل بدأت العمل على الضحية الثالثة؟" سأل بيرجرون.

"ليس بعد، لكنني أستطيع إنهاء ذلك لاحقاً. هلا ألقينا نظرة؟".

كـــنت أريـــد أن أرى المجمـــوعة الثالثة من العظام طوال الصباح، وأعطاني بيرجرون عذراً جيداً لذلك.

"بالطبع".

أعدت عظم الترقوة إلى الهيكل العظمي على الجهة اليسرى لطاولة عملي.

"لمن تعود هذه العظام؟" سألت مشيرة إلى العظام.

ذهب بيرجرون إلى طبقه، وفحص الأرقام الموجودة على كل عظمة قذالية ثم تلـــك الموجـــودة على البطاقات الصغيرة التي كنت قد وضعتها إلى جانب الهياكل العظمـــية، ورتَّب الجماجم على هذا الأساس. دفع بيدٍ عظمية فوق الضحية بعظم النحر المكسور.

"إنه السيد مارتينو".

ثم توجه نحو السيد إلى يمينه.

"وهذا السّيد غايتلي".

"هل كان غايتلي يتكلم الإنكليزية؟".

"أفترضُ هذا لأن طبيب أسنانه لا يتكلم أي كلمة فرنسية".

"لا يوجد الكثير من هؤلاء بين الدرّاجين".

"لا أعرف أياً منهم". وافق بيرجرون.

"هل ستبلغين كويكواتر وكلوديل الأخبار الجيدة؟".

"لقد اتصلت بهما بالفعل".

ذهبت إلى رفوف التخزين، وسحبت الصندوق الذي يحتوي على ضحية سان بازيـــل الثالـــثة. بما أنّ بقايا الضحية كانت مغلفة بالتراب، فقد وضعت غربالاً في المغسلة، ووضعت البقايا فيه وفتحت المياه الجارية عليها.

أصـــبحت العظـــام الطويلة نظيفة بسهولة، لذا وضعتها على لوح التصريف، وبـــدأت أنظـــف الوحل المتراكم على الجمجمة بالفرشاة. أخبرني الوزن أن باطن عظـــم الترقوة كان صلباً. حين أصبحت ملامح الوجه واضحة، قلبت الجمجمة، وتركت مياه الصنبور تجري فوق القاعدة. ثم توجهت نحو مكتبـــي كي أملأ بطاقة تعريف القضية.

حـــين عدت إلى المغسلة كان بيرجرون يحمل الجمجمة بيديه. أدارَ الوجه إلى الأعلى، ثم لفّه إلى الجهة الجانبية. حدق إلى الملامح لفترة طويلة ثم قال "يا الله".

حين ناولني عظم الترقوة كررت حركاته، ثم رددت صدى أفكاره.

"يا الله".

11

احـــتجت لنظـــرة واحـــدة لأدرك أنني كنت غير مصيبة. فقد أخبرني الجبين والجزء الخلفي من الرأس الأملسان والخدان النحيلان والنتوء والخشائي الصغير بأن الضحية رقم ثلاثة كانت بوضوح تنتمي إلى جنسي.

أحضرت مسماكي، وقمت بقياس أحد العظام الموجودة على لوح التصريف. إن رأس العظـــم الفخـــذي يشبه الطابة في بنيته، وهو يدخل في تجويف في الحوض ليشكّل مفصل الورك. كان محيطه يبلغ 39 ملم فحسب، مما يضعه تماماً ضمن مجال قياسات الأنثى.

كمـــا أن الـــضحية كانت شابة. استطعت ملاحظة خطّ مُسنن عبر رأس الطابـــة، الأمـــر الذي يشير إلى أن التحام قلنسوة النمو لم يكن قد اكتمل وقت الوفاة.

عـــدت إلى الجمجمـــة. كانـــت خطوط متعرّجة تفصل كل العظام. أدرت الجمجمـــة كي ألقي نظرة على القاعدة. مباشرة أمام الثقب الأكبر في الجمجمة، وهـــو الثقب الذي يترك الحبل الشوكي من خلاله الدماغ، كانت هناك ثغرة بين العظم الإسفيني والعظم القذالي.

أظهرت لبيرجرون الدرز المفتوح.

"لقد كانت فتاة صغيرة". ثم أضفت قائلةً "ربما كانت في سنوات المراهقة".

قـــال شـــيئاً معلّقاً لكنني لم أسمع تعليقه. كان انتباهي مشدوداً إلى تشويه في العظم الجداري الأيمن. مرّرتُ أصابعي عليه بحذر. أجل، كان ثمة شيء هناك.

حملت الجمجمة تحت الصنبور، وأزلتُ التراب عنها بفرشاة ذات شعيرات ناعمة محاذرةً التسببَ بأي ضرر. راقب بيرجرون ما يجري بينما ظهر العيب واضحاً. لم يستغرق الأمر أكثر من لحظات.

كنت قد عثرت على ثقب صغير مستدير فوق وخلف فتحة الأذن بقليل. قدّرت محيط هذا الثقب بسنتيمتر واحد تقريباً.

سأل بيرجرون مقترحاً "هل هو جرح سببه عيار ناري؟".

"ربما. لا. لا أظن ذلك".

بالرغم من أن الثقب كان بالحجم المناسب لرصاصة ذات عيار صغير، فإنه لا يبدو كمدخل رصاصة. كان محيطه ناعماً ومدوّراً مثل باطن ثقب الكعكة المحلاة.

"ماذا بعد؟".

"لست متأكدة. ربما كان ذلك نوعاً من العيوب الخلقية. ربما كان دملة. سأفهم الموضوع بشكل أفضل حين أُفرغ الجمجمة، وألقي نظرة على سطح بطانة القحف. سأحتاج إلى إجراء صور للأشعة لأرى ما يجري داخل العظم".

نظر بيرجرون إلى ساعته.

"أخبريني حين تنتهين كي ألتقط بعض الصور لهذا الثقب. لم ألاحظ وجود أي عمليات ترميم لكنني قد أجد شيئاً في صور الأشعة. إنّ النّاب اليمنى تظهر بطريقة غريبة، مما سيكون مفيداً، لكنني أُفضّل الحصول على الفك الأسفل".

"سأعمل بجد أكبر في المرة القادمة".

قال ضاحكاً "ليس ذلك ضرورياً".

حين غادر بيرجرون وضعت الجمجمة رأساً على عقب في حلقة مطاطية، وعدّلت جريان الماء بحيث يجري بلطف داخل الثقب الأكبر في الجمجمة. ثم عدت إلى تصوير غايتلي ومارتينو مُوثّقة ملامح الهيكلين العظميين المتعلقة بتحديد هويتيهما. كما التقطت عدة صور لثقوب الرصاص في الجزء الخلفي من رأسيهما.

كنت أفحص جمجمة الأنثى المجهولة بشكل دوري وأصبّ الوحل منها كلّما حلّه الماء. بينما كنت أُصرّف الرواسب مباشرة قبل الظهر، أفلت شيءٌ ما ونقر على جدار الجمجمة الداخلي. وضعت الجمجمة مجدّداً على الحلقة وأدخلت أصابعي.

أحسست بالجسم طويلاً ورفيعاً. حاولت أن أزيحه من مكانه، لكن، كان لذلك الشيء طرف عالق بالوحل. عدّلت جريان الماء، وعدت إلى تقرير غايتلي وأنا بالكاد قادرة على احتواء فضولي.

بحلول الواحدة من بعد الظهر كان الجسم يطوف حراً، لكن كان طرفه لا يزال ملتصقاً بإحكام. بصبر نافذ سمحت للمغسلة بأن تمتلئ وغمرت الجمجمة بالماء ثم قصدت الكافتيريا في الأسفل.

حين عدت من الغداء كان نقع الجمجمة قد فكّك آخر ذرة من التراب فاستطعت أن أزيله بسهولة. حبست أنفاسي بينما كنت أُدخل أصابعي وأحرّر الجسم العالق.

كان الجسم عبارة عن جهاز أقلّ من أربعة إنشات ومؤلفاً من أنبوب موصول بصمّام عند أحد طرفيه. قمت بتنظيف الجهاز ووضعته على طبق. كنت متأكدة من أهمية ذلك الجهاز، لكنني لم أكن أدرك ماهيته، فغسلت يديّ، وذهبت لأبحث عن عالم أمراض.

بحسب مجلس الخدمة، كان لامانش في اجتماع للجنة حول وفاة الأطفال. كان مارسيل مورين في مكتبه.

رفع بصره حين نقرت الباب.

"ألديك دقيقة؟".

"بالطبع". كانت فرنسيته دافئة وشعرية تعكس طفولته في هايتي. دخلت إلى المكتب، ووضعت الطبق أمامه.

"آه. إنه جهازٌ مزروعٌ جراحياً". ارتفع حاجباه خلف نظارة غير مؤطرة. كان حاجباه يتحولان إلى اللون الرمادي كشعره المجعّد القصير المتراجع إلى الوراء.

"ظننت ذلك. هلا أخبرتني المزيد عنه؟".

رفع كفيه الاثنتين. "ليس كثيراً. يبدو أشبه بتحويلة بطينية. لكنني لست بجرّاح أعصاب. ربما تودين الحديث مع كارولين راسل. لقد قدّمت لنا بعض الاستشارات التي تتعلق بالأعصاب".

قلّب أوراق مفكرته، ثم دوّن رقماً وناولني إياه قائلاً "إنها في معهد مونتريال للأعصاب".

شــكرته، وذهــبت إلى مكتبــي، وطلبت رقم معهد مونتريال للأعصاب. كانت الدكتورة راسل في اجتماع فتركت لها رسالة. كنت قد أنهيت المكالمة للتوّ حين رنّ جرس الهاتف.

كان كلوديل هو المتصل.

سأل "هل تحدثت إلى بيرجرون؟".

"لقد ذهب للتو".

"إذاً، فقد انتقل اثنان من لائحة المفقودين إلى لائحة الموتى".

انتظرت أن يكمل كلامه لكنه لم يفعل.

"وبعد؟".

توقف كلوديل ثم قال "لقد بدأنا نجري الاتصالات لكن لا أحد يعرف شيئاً".

لم يكــن هذا الأمر مفاجئاً علماً أن أكثر من عقد قد مرّ وهؤلاء الناس ليسوا مــستقرين في مكانهم، وهم بالطبع لن يخبرونا بأي شيء حتّى لو نبشنا جداهم من تلك الحفر.

"ماذا عن رينالدي؟".

"الضفدع متمسك بروايته. لقد عرف ما عرفه من الآخرين. بحسب حكايات الــنادي التقلــيدية، فقــد ذهــب غايتلي ومارتينو إلى حفل ومشيا إلى حتفهما بقدميهما".

"كانا يرتديان الجوارب فقط".

"هــذا صحيح. هؤلاء الرجال بعيدون عن اللباس الرسمي. لكن الضفدع لم يكــن موجــوداً حين حصلت جريمة القتل. ربما كانت ليلته تلك مخصصة للعمل الخيري. ماذا عن الرجل الثالث؟".

"الشخص الثالث فتاة".

"فتاة".

"أجل. ماذا يعرف الضفدع عنها؟".

"لا شــيء. لكن الضفدع لن يعطيَ أي معلومات ما لم يكن هناك من جائزة له. ماذا يمكنك أن تخبريني عنها؟".

"إنها فتاة بيضاء في منتصف إلى أواخر العقد الثاني من عمرها".

"هل كانت صغيرة إلى هذا الحد؟".

"أجل".

كنت أستطيع سماع صوت حركة المرور في الخلفية، وظننت أن كلوديل كان يتصل من الشارع.

"سأحصل على لائحة بأسماء الفتيات المراهقات المفقودات. ما كان الإطار الزمني؟".

"عُد عشر سنوات إلى الوراء".

"لِمَ عشر سنوات؟".

"أظن أن الضحية قد ماتت منذ عامين على الأقل، لكن الأدلّة التي استخرجناها لا تمكنني من تحديد حد أقصى. أظن أن هذا كان قبراً ثانوياً".

"ماذا يعني ذلك؟".

"أظن أنّها كانت قد دُفنت في مكان آخر، ثم نُبشت جثتها ونُقلت إلى المكان حيث عثرنا عليها".

"لِمَ؟".

"إنه سؤال آخر جيد أيها المحقق كلوديل".

أخبرته عن الجهاز المزروع.

"ماذا يعني *ذلك*؟".

"حين أعرف سأخبرك".

كنت قد أنهيت المكالمة للتوّ حين رنّ جرس الهاتف مجدّداً. كانت كارولين راسل تستطيع لقائي عند الثالثة. نظرت إلى ساعتي. إن ابتسم لي الحظ واستطعت إيجاد موقف للسيارة، فسأتمكن من الوصول في الموعد المحدد.

كتبت رقم القضية على غطاء وعاء عينة بلاستيكي، وأحكمت إقفال الغطاء على الجهاز المزروع. توقفت فقط لأخبر بيرجرون أنه يستطيع الحصول على جمجمة الفتاة، وأسرعت إلى السيارة، وسابقت الوقت.

كان مستشفى فكتوريا الملكي قد بُني قبل بداية القرن وهو عبارة عن مجمّع من العمارات المنتشرة المبنية بالحجر الرمادي. وهو يقع في قلب مونتريال، ويطل على حرم جامعة ماك غيل كقصر من العصور الوسطى على تلة توسكانية.

يقـــع معهد آلان التذكاري عند طرف بيل، وهو المعهد الذي اكتسب سمعة سيّئة بسبب التجارب التي كانت تجريها وكالة الاستخبارات المركزية على المخدرات هناك في أواخـــر الخمـــسينيات. يقع معهد مونتريال للأعصاب إلى شرق مستشفى فكتوريا الملكي تجاه شارع الجامعة. وتقع وحدات التعليم والأبحاث في جامعة ماك غيل ومعهد مونتريال للأعصاب ومستشفى الأعصاب ومعهد أبحاث أورام الدماغ الجديد جنباً إلى جنب مع ملعب كرة القدم الذي يقف شاهداً حيّاً على أولويات الجامعة الحديثة.

يعـــود مركـــز الأعصاب كما معهد الأبحاث والمستشفى إلى ثلاثينيات القرن الماضـــي وهـــو مـــن بنات أفكار وايلدر بنفيلد. بالرغم من أنه كان عالماً وجرّاح أعـــصاب ذكياً، إلاّ أن الدكتور بنفيلد لم يكن عملياً في ما يتعلّق بالتحكم بحركة السير. إن إيقاف السيارات يشكل كابوساً.

اتـــبعت اقتراح الدكتورة راسل، وقدت سيارتي إلى حرم مستشفى فكتوريا الملكي، ودفعت أكثر من عشرة دولارات، وبدأت أجول موقف السيارات. كنت أدور لـــثالث مـــرة في الموقف حين لمحت أضواء فرامل. خرجت سيارة من طراز أودي، فاندفعت وأوقفت سيارتي مكانها متجنبة بذلك ضبط جهاز الاستقبال على التردد 5,88 للحصول على معلومات عن أماكن لركن السيارة. أشارت ساعتي إلى الثانية وخمس وخمسين دقيقة.

وصـــلت إلى مكتب راسل مبللة بالعرق، وأنا ألهث بسبب سباقي في شارع بـــيني ورحلتي خلال المستشفى. كان الضباب قد بدأ يتجمع، وقد أصبحت خصل الـــشعر فـــوق جبيني رطبة ومتجعدة. حين رفعت الدكتورة بصرها عَبَر تعبير من الشك فوق وجهها.

عرّفتها بنفسي، فنهضت ومدّت يدها لتسلّم عليّ. كان شعرها رمادياً وقصيراً وقـــد رفعـــته جانبياً. كان وجهها مجعداً إلى حدٍّ كبير، لكن قبضتها كانت قوية كقبضة أي رجل. حسبت أنّها كانت في الستينيات من عمرها.

"آســـفة لتأخيري. لقد وجدت بعض الصعوبة لإيجادك". كان ذلك تصريحاً مكبوحاً.

"أجـــل، هـــذا البناء مربك. أرجوك اجلسي". قالت بالإنكليزية مشيرة إلى كرسي مقابل مكتبها.

"لم أكن أعرف أن هذا المكان كبير إلى هذه الدرجة". قلت وأنا أجلس.

"آه، نعم، إن معهد مونتريال للأعصاب مرتبطٌ بعدد هائلٍ من النشاطات".

خلعت سترتي قائلة، "أعرف أن المعهد معروف عالمياً بالأبحاث التي يجريها على داء الصرع".

"أجل، تجري في مستشفانا عملياتٌ جراحية لداء الصرع أكثر من أي مركز آخر في العالم. لقد كان هذا المعهد رائداً في استخدام التقنية الجراحية لقطع قشرة الدماغ. وقد بدأت الدراسات في رسم خريطة عمل الدماغ مع مرضى داء الصرع هنا منذ أكثر من ستين عاماً. كان ذلك هو العمل الذي مهّد الطريق لتخطيط الدماغ باستخدام صورة الرنين المغناطيسي والرسم السطحي للجُزَيء بشحنة موجبة الانبعاثات والتي تستخدم في هذه الأيام".

"أعرف عن صورة الرنين المغناطيسي، لكن ماذا عن الرسم السطحي للجُزَيء بشحنة موجبة الانبعاثات؟

"كصورة الرنين هو عبارة عن تقنية تستخدم لتصوير تركيب وفيزيولوجية الدماغ. إن مركز ماك كونيل لتصوير الدماغ التابع لنا يُعدّ واحداً من أهم المرافق في العالم".

"وما أنواع الأبحاث الأخرى التي تقومون بها؟".

"لقد صدر عن المعهد كمّ هائل من الأعمال الرائدة مثل تطوير الرسم الدماغي، ومبدأ الصرع البؤري والعام، وأساليب جديدة للجراحة، والمساهمة في الكيمياء الحيوية في الجهاز العصبي، وتركُّز الديستروفين في العضلات الهيكلية. أستطيع المتابعة إلى ما لانهاية".

كنت متأكدة أنها تستطيع ذلك. كان واضحاً أن الدكتورة راسل كانت فخورة بالمستشفى حيث تعمل. ابتسمتُ مشجعة بالرغم من أنني لم أفهم سوى جزء مما عدّدَته فقط.

مالت إلى الخلف وضحكت قائلة "أنا متأكدة من أنك لم تأتِ إلى هنا لسماع محاضرة عن معهدنا".

"لا، لكن الأمر مشوّق. أتمنى لو كنت أملك وقتاً أطول. لكنني أعلم أنك مشغولة جداً ولا أريد أن أشغل أكثر مما هو ضروري من يومك".

أخذت الوعاء من حقيبتي وناولتها إياه. نظرت إليه ثم فتحت الغطاء فانـــزلق الجهاز المزروع على قطعة ورق على الدفتر المُلقى على مكتبها.

"هـــذا قـــديم"، قالت وهي تديره بقلم رصاص. "لا أظن أنهم قد صنعوا هذا النموذج منذ سنوات".

"ما هو؟".

"إنها تحويلة بطينية - صفاقية. لقد تم زرعها لمعالجة استسقاء الرأس".

"استـــسقاء الرأس؟" كنت أعرف هذا التعبير لكنني تفاجأت لسماعها تقوله. هل من بليّة أخرى سأعرفها عن هذه الفتاة؟

"إنـــه معروف بماء في الرأس لكن هذا ليس تعبيراً دقيقاً بالفعل بالرغم من أن التـــرجمة الحـــرفية من اليونانية تعني ماء ورأس. يتم إنتاج السائل المخي الشوكي باســـتمرار في مـــساحات في الدماغ تدعى البطينات. يدور هذا السائل عادة عبر البطيـــنات الأربعـــة ويجري إلى سطح الدماغ نـــزولاً نحو النخاع الشوكي. وفي الـــنهاية يمـــتص الدم هذا السائل ويبقى الضغط في البطينات وكمية السائل ضمن حدود مقبولة".

"لكـــن إن مُنع التصريف، فسيتراكم السائل متسبباً في تضخّم البطينات التي تضغط على النسيج المحيط".

"إذاً، فاستسقاء الرأس هو نتيجة عدم توازن في كمية السائل المخي الشوكي الذي يتم إنتاجه ومعدل تصريفه من البطينات".

"بالضبط".

"وحـــين يتراكم السائل المخي الشوكي يتسبّب في تضخم البطينات وبازدياد الضغط داخل الرأس".

"لقـــد فهمـــت. يمكن لاستسقاء الرأس أن يكون مُكتسباً أو خلقياً، وهذا لا يعني أنّه وراثي. إن هذا التعبير يعني ببساطة أن الحالة موجودة عند الولادة".

"لقـــد وجـــدت التحويلة في جمجمة تبدو طبيعية. ألا يسبب استسقاء الرأس تضخماً في حجم الرأس؟".

"فقـــط عند الأطفال، وفقط إذا تُرك من دون علاج. كما تعلمين، فإن عظام وجماجم الأولاد الأكبر سناً تكون قد تكونت بالفعل".

"ما الذي يسببه؟".

"هـــناك الكثير من العوامل التي تؤدي إلى عدم تصريف السائل بشكل كافٍ. تعرض الولادة المُبكرة الطفلَ لخطر كبير. كما أن معظم الأطفال الذين يعانون من السنسنة المشقوقة يصابون باستسقاء الرأس".

"هل تتعلق السنسنة المشقوقة بعيب في الأنبوب العصبـــي؟".

"أجـــل. تحدث المشكلة خلال الأسابيع الأربعة الأولى للحمل، غالباً قبل أن تعـــرف المـــرأة بحملها. يفشل الأنبوب العصبـــي للجنين الذي يتطور إلى الدماغ والـــنخاع الشوكي والعامود الفقري في النمو بشكل صحيح مما يتسبب بدرجات مختلفة من الأذى الدائم".

"هل هو شائع؟".

"إنـــه شائع جداً. تصيب السنسنة المشقوقة واحداً من كل ألف طفل يولد في الولايات المتحدة وحوالى واحداً من كل 750 طفلاً يولدون في كندا".

"لم أستخرج أي عامود فقري، لذا ليس بإمكاني أن أعرف إن كانت سيدتي الـــصغيرة قد أُصيبت بالسنسنة المشقوقة". أومأت راسل برأسها موافقة ثم أكملت شرحها.

"هناك عدة أسباب أُخرى لاستسقاء الرأس إلى جانب...".

وجعلت تعدّها على أصابعها. "يمكن أن ينتج عن نـــزيف في الدماغ. ويمكن للالتهاب والحتات الناجم عن إصابات الدماغ، كالتهاب السحايا، أن يسدا مجاري التـــصريف. ويمكن للأورام أن تسبب ضغطاً وتضخم أنسجة الدماغ وتؤدي إلى ســـوء في التـــصريف. كـــذلك يمكن أن تفعل أنواع معينة من الدُمّل. كما يمكن لاستسقاء الرأس أن يكون موجوداً في العائلة".

"أيمكن أن يكون متوارثاً؟".

"أجل، بالرغم من أن ذلك الأمر نادر الحدوث".

"إذاً، ما هو دور التحويلة؟".

"ليس هناك من طريقة لشفاء أو منع حدوث استسقاء الرأس. خلال الأعوام الأربعـــين الماضـــية كـــان العلاج الأكثر فعالية هو الإيلاج الجراحي لتحويلة. إن التحويلة التي أحضرها قديمة بعض الشيء لكنها نموذجية إلى حدٍّ كبير".

"معظم التحويلات هي مجرد أنابيب مرنة تُثبت داخل البطينات لتحويل مجرى السائل المخي الشوكي. وهي تتكون من نظام من الأنابيب مع صمام للتحكم بمعدل التصريف ولمنع عودة تدفق السائل. كانت التحويلات الأولى تحوّل السائل المتراكم إلى وريد في الرقبة ثم إلى أُذين القلب الأيمن. تدعى هذه بالتحويلات الأذينية البطينية. لا يزال بعضُها يستخدم لكن هناك مشاكل مرتبطة بها مثل الالتهاب والفشل القلبي، بالرغم من أنه نادر الحدوث، بسبب انسداد أوعية الشرايين داخل الرئتين جرّاء جلطات الدم التي تقشر رأس القسطر. معظم التحويلات اليوم تصرّف السائل إلى التجويف الصفاقي".

أشارت إلى الجهاز الذي سحبته من الجمجمة.

"هذا ينتمي إلى النوع الأخير. في حالة مريض حي يمكنك الإحساس بالأنبوب الأُذيني يجري تحت الجلد الذي يغطي الأضلاع. ذلك الجزء من الجهاز مفقود".

انتظرتُ حتى تكمل كلامها.

"إن التجويف الصفاقي كبير، ويمكنه عادة أن يستوعب أي كمية من السائل الذي يصل عبر التحويلة. كما أن ثمّة ميزة أخرى للتصريف إلى البطن وهي أن التقلصات المنتظمة للأعضاء المعوية تحرك رأس القسطر. هذه الحركة تمنعه من أن يُسدَّ أو يُحبسَ في نسيج الجرح".

"متى يتم إيلاج هذه الأشياء؟".

"حالما تُشخّص حالة استسقاء الرأس. يمكن لستة وثلاثين إنشاً من الأنابيب أن تُثبت في بطن المولود الجديد. وحينما يكبر الولدُ تُفك الأنابيب لتستوعب الطول المتزايد للجسم".

"لقد وجدت ثقباً صغيراً في الجمجمة بجانب نقطة اتصال الصدغ بالجدار الداخلي للدماغ".

"إنه ثقب يسببه المثقاب وهو يُحفر خلال الجراحة لإيلاج الطرف الأعلى من التحويلة إلى الدماغ. ويتمُّ حفر هذا الثقب عادة خلف خط الشعر، إمّا في أعلى الرأس، أو خلف الأذن، أو في الجزء الخلفي مَن الرأس".

ذهبت عينا راسل في اتجاه ساعة معدنية مستديرة الشكل على مكتبها ثم عادت إليّ. كنت متشوقة لأعلم عن الصعوبات التي قد يسببها استسقاء الرأس،

لكنني أدركت أن وقت السيدة كان محدوداً. كان عليّ أن أقوم بذلك البحث بنفسي.

حملت سترتي بينما أعادت هي التحويلة إلى الوعاء، ولفّت الورقة متيحة للجهاز أن ينزلق بلطف إلى مكانه. نهضنا في الوقت نفسه وشكرتها على مساعدتها.

سألتني "ألديك أيّ فكرة عن هوية الشابة؟".

"ليس بعد".

"هل تريدينني أن أرسل إليك بعض المقالات عن استسقاء الرأس؟ هناك مشاكل مرتبطة بهذا المرض قد تكون مفيدة لك".

"أجل، بالتأكيد. شكراً لك".

12

غـــادرتُ معهد مونتريال للأعصاب، وتوجهت مباشرة إلى مقر كركاجو من أجـــل حـــضور ثاني جلسات المراجعة التي يعقدها روي. كان الاجتماع قد بدأ، فانـــسللت إلى كرســـي خلفي ودماغي لا يزال يعمل على استيعاب ما كنت قد عـــرفته مـــن كارولين راسل. كانت محادثتنا قد أثارت أسئلة بقدر ما أجابت عن أخرى.

كـــيف أثّـــر استـــسقاء الرأس في فتاتي المجهولة؟ هل كانت سقيمة؟ معوّقة؟ مـــتخلفة عقلياً؟ كيف انتهى الأمر بمراهقة تعاني من هذا الوضع بأن تكون مدفونة قـــرب مقر الدرّاجين؟ هل كانت مشتركة بإرادتها، أم كانت ضحية بريئة أخرى مثل إميلي آن توسان؟

هـــذه المرة كان روي يستخدم شرائح شفافة، وملأت الشاشة لائحة بالبنود. أجبرت نفسي على التركيز.

"تتميـــز نوادي الدرّاجين الخارجين على القانون بعدد من العناصر المشتركة. معظـــم هذه النوادي منظّمة بحسب نموذج وُدعاء الجحيم. سنعود لنلقي نظرة على تلك التركيبة بتفصيل أكبر".

أشار إلى البند الثاني.

"إن عـــضوية كل النوادي انتقائية و*الأعضاء المحتملين* أو *الجنود* مدعوون إلى إثبات أنفسهم كي يستحقوا الحصول على ألوانهم".

أشار إلى أسفل اللائحة.

"إن أثمـــن ممتلكات العضو هي الألوان أو رقعة النادي. لكن لا يرتدي الجميع الألـــوان. أمـــا الأفراد المفيدون للعصابة فيُسمح لهم بالعمل كشركاء من دون أن يكونوا أعضاء فعليين.

يركّز نادي الدرّاجين الخارجين على القانون على النشاطات الإجرامية. لكل نـــاد قوانينه التي تتغاضى عن العنف من أجل مصالح النادي وأعضائه. كما أن جمع المعلومات الاستخباراتية مُركّز، وهو يشمل مراقبة العصابات الأخرى والعاملين في مجال تطبيق القانون".

أشار روي بقلمه إلى البند الأخير في اللائحة.

"إن المنتدى الذي غالباً ما يكون مدعوماً بقوّة ومجهّزاً إلى حدٍّ كبير هو ملتقى نشاطات النادي".

فكّـــرت في بيت الأفاعي في سان بازيل، وتساءلت عن نوع النشاطات التي يمكن أن تضم فتاة في السادسة عشرة من عمرها تعاني من استسقاء الرأس.

اســـتبدل روي الـــشريحة الـــشفافة بأخـــرى تُـــصوِّر تركيبة هرمية وتحمل عـــنوان **البنـــية السياسية لنادي الدرّاجين الخارجين على القانون على الصعيد الوطني.**

شرح روي التسلسل الهرمي بدءاً من أسفل اللائحة.

"إن العنـــصر الأساسي في تركيبة نوادي الدرّاجين الخارجين على القانون هو الفرع المحلي. يتحول نادي الخارجين على القانون المستقل إلى جزء من منظمة أكبر كـــوُدعاء الجحيم فقط بعد أن تتم المصادقة على النظام الأساسي بتصويت من قبل الأعـــضاء المحليين. هذا يتضمن عملية طويلة يمكننا أن نناقشها لاحقاً إذا كان لدينا وقت".

"يعمـــل كـــل فرع محلي في منطقة محلية محددة، ويحافظ على درجة معينة مـــن الاســـتقلالية، لكن عليه أن يتبع القوانين الموضوعة من قبل المنظمة، وهي الـــتي تحـــدد حقـــوق وواجبات الأعضاء والعصابة على شكل قوانين داخلية أو دستور".

وضـــع روي شريحة شفافة جديدة على المسلاط. كانت هذه اللائحة تحمل عنوان **البنية السياسية للدرّاجين الخارجين على القانون: الفروع المحلية.**

"لكـــل فـــرع محلي جسمه الذي يتحكم به أو السلطة التنفيذية التي ينتخبها الأعـــضاء. عـــادة يكون هناك رئيس ونائب رئيس وأمين صندوق وضابط نظام. هـــؤلاء هم الرجال المسؤولون عن الحفاظ على النظام داخل المجموعة وعن السلام خارجها".

"لا أظـــن أن أحـــداً من مغفلينا المحليين سيكون على لائحة المرشحين لجائزة نوبل هذا العام". كان كوريسك في مزاج يسمح له بالمزاح.

هدّأ روي من موجة الضحك.

"هـــناك أيـــضاً قائد طريق مُنتخب مسؤولٌ عن الجولات. ثم هناك الأعضاء ضباط الصف والأفراد _".

"وهو يعني ضباطاً بالفعل". توقف كوريسك للحظة.

"يقـــرِّرون في أمـــور تؤثر في الفريق، لكن الرئيس هو الذي يتخذ القرارات النهائية. كما أن لبعض النوادي الكبرى ضابط أمن مهمته الحصول على معلومات جديـــدة عن العصابات المنافسة والصحفيين والمحامين والقضاة والموظفين الرسميين والشهود وبالطبع عنكم".

أشار روي بيده إلينا جميعاً.

"أي نوع من المعلومات؟".

"معلـــومات شخـــصية ومالـــية وأخرى تتعلق بأفراد العائلة، والصديقات، والأصـــدقاء، وأرقام الهواتف، وتواريخ الولادة، والعناوين، وأوصاف السيارات، وأرقام لوحات السيارات، وأماكن العمل والعادات اليومية، إلى ما هنالك. يستطيع هـــؤلاء الرجال الحصول على كل تلك المعلومات. إن مجموعة الصور التي يملكونها تفـــوق معرض الصور الوطني عدداً. إن كان هناك من ضحية مقصودة، يمكن للملفه أن يتضمن نصائح عن أفضل الأماكن لقتله".

"هراء!".

"رائع!".

مـــرّر روي قلمـــه من اليسار إلى اليمين عبر ثلاث خانات على الخط التالي الأدنى للرسم.

"عند أدنى هرم الفرع المحلي يقع مركز الأعضاء المرتقبين والمتسكعين والنساء".

أشار روي إلى الخانة التي تحمل اسم *العضو تحت الاختبار*.

"يجب على العضو المرتقب أو الجندي أن يكون مُرشحاً من قبل عضو أصيل وهـــو يقوم بالأعمال القذرة للمنتدى وخلال السباقات. لا يحق للأعضاء المرتقبين أن ينتخبوا أو أن يحضروا إلى دار العبادة".

"دار العبادة؟" اليوم كان صاحب ذيل الحصان يضع قرطاً على شكل جمجمة فضية في أذنه.

"الاجتماع الأسبوعي الإلزامي للفرع المحلي".

"كم يطول الأمر قبل أن يصبحوا أعضاء حقيقيين؟".

"تتـــراوح فتـــرة الانتظار بين ستة أشهر وسنة. يمكنكم أن تتعرفوا إلى هؤلاء الرجال بسهولة لأنهم يحملون الجزء الأدنى من الرقعة فقط".

"وهي التي تدل على موقع الفرع". قال صاحب ذيل الحصان.

"أجـــل. هـــناك عدة صفحات تُظهر ألوان النادي في الكتيبات التي أعطيتكم إياها. بعضها تشكّل روائع فنية حقيقية".

حرّك روي قلمه جانبياً إلى الخانة التي تحمل عنوان **الشركاء**.

"يجب أن يرعى المتسكعَ عضوٌ أصيل. بعضهم يصبحون أعضاء مرتقبين بينما يفـــشل آخـــرون في ذلك. يقوم المتسكعون بكل الأعمال القذرة، ويعملون كبنية الدعم للنادي في المجتمع. وهم مستثنون من كل أعمال النادي".

تدلت خانتان من تلك عند آخر اليمين حملتا عنوان **الشريكات النساء**.

"تقع النساء عند المستوى الأدنى من الهرم في واحدة من فئتين. فالسيدات الأكبر ســـناً هنّ الزوجات إما بالعرف أو بالقانون. ويُمنع اختلاطهن بالأعضاء الآخرين من العـــصابة إلا إذا دُعـــين. أما *الأمهات* أو *النعجات* فهن قصة أخرى. كيف يمكنني أن أعبر عن ذلك؟" رفع حاجبيه وكتفيه. "إنهن يختلطن بالآخرين بحرية".

"كلهن حنونات". قال كوريسك.

"جـــداً. إنهن دُمى عادلة لأي عضو يحمل الرقعة الملونة. بينما تتمتع الزوجات بدرجة معينة من الحماية، لا يمكننا الشك في أن عصابات الدرّاجين الخارجين على القانـــون ذكـــورية ومتعـــصبة للذكـــور. أما النساء فيُبَعنَ ويُشتَرَينَ ويتم تبادلهنّ كالخردوات".

"إن فكـــرة الدرّاجين عن تحرير المرأة هي أن ينـــزعوا الأصفاد عنها بعد أن ينتهوا منها. ربما". قال كوريسك.

"هذا قريب جداً من الحقيقة. فالنساء يُستغللن بالتأكيد، ويتعرضن للأذى".

سألت روي، "كيف يُستغللن؟".

"إلى جانـــب الجـــنس، هناك ما يمكن أن نسميه تقاسم الأجر. فهم يدفعون النـــساء للرقص والاحتيال في المشروب والمتاجرة بالمخدرات في الشارع والبغاء ثم يجمعون الريع. زعمت مومس من هاليفاكس أنها كانت مضطرة إلى دفع ما يفوق الأربعين بالمئة من ريعها إلى وُدعاء الجحيم الذين كانوا يلعبون دور القوادين لها".

"كيف يجدون هؤلاء النساء؟" شعرت بمعدتي تنقبض.

"كالعـــادة، يلـــتقطون النساء اللواتي يعملن في المشارب والمسافرات تطفلاً والهاربات".

"هل تريدين الركوب معي أيتها الحلوة؟" سأل كوريسك.

تصورت الجمجمة والتحويلة.

أكمل روي كلامه قائلاً "من المدهش أنهم لا يعانون من النقص أبداً. لكن لا تـــسيئوا فهمـــي. بيـــنما تقع غالبية النساء ضحايا وتُمسك بعضهن ضد إرادتهن، يـــستمتع عدد جيد منهنّ بنمط الحياة هذا. فهناك الرجال الذكوريون والمخدرات والكحول والأسلحة والجنس المتوفر دائماً. إنهن يستمتعن بهذه الحياة الصاخبة".

"كمـــا أن النساء يكن ذوات فائدة في أساليب غير محصورة بالجنس والمال. غالـــباً ما تكون السيدات هنّ من ينقلن المخدرات أو الأسلحة المُموّهة وهن يحسِنّ الهروب حين تهجم الشرطة. وتعمل النساء في الوكالات الحكومية وشركة الهاتف ومكاتـــب السجلات وفي أي مكان يخولهن الحصول على معلومات مفيدة. تملك بعض الزوجات أسلحة أو عقارات مسجلة بأسمائهن إما لأن أزواجهن ممنوعون من امتلاكها أو لحماية ممتلكات أزواجهن من مصادرتها من قبل الحكومة".

نظر روي إلى ساعته بسرعة.

"أعتقد أننا سننهي اجتماعنا بتلك الملاحظة. لقد انضم إلينا بعض الأشخاص مـــن المجتمع المدني لشرطة مونتريال، لذا سأعقد جلسة أخرى من هذه الجلسات".

تساءلت عن سبب عدم حضور كلوديل اجتماع اليوم.

"في هذه الحالة، سأعلن الموعد".

بيـــنما كـــنت أقود سيارتي إلى مختبري، عادت أفكاري إلى المراهقة في سان بازيل وإلى شرح راسل. أيمكن أن تكون الفتاة ضحية لجنون الدرّاجين هذا؟ تردد صدى شيء ما عنها بداخلي، وحاولت مجدّداً أن أجمع ما عرفته عنها.

لقـــد ماتـــت وهي في سن المراهقة. لم تعد طفلة، لكنها لم تكن قد أصبحت امرأة بعد. لم تكشف عظامها أي شيء عن الطريقة التي ماتت بها، لكنها كشفت شيئاً عن نمط حياتها. قد يساعد استسقاء الرأس على تحديد هويتها.

لقـــد بيّن الثقب الذي شُفي جيداً أن التحويلة كانت موجودة من فترة. هل كانـــت تكره التحويلة؟ هل كانت تستلقي في السرير ليلاً وتتلمس الأنبوب الذي يجـــري تحت جلدها؟ هل كانت مصابة بمشاكل جسدية أخرى؟ هل كان زملاؤها يعذبـــونها؟ هـــل كانت تلميذة متفوقة؟ أم فاشلة؟ هل سنعثر على سجلات طبية متعلقة بفتاة مفقودة قد تساعدنا على تحديد هوية هذه الجمجمة؟

بعكـــس العديـــد من المتوفين من دون اسم، لم يكن لدي أي فهم أو حدس بشأن هويتها. الفتاة. هكذا صرت أفكّر فيها. الفتاة في حفرة الأفاعي.

لِـــمَ كانت مدفونة في منتدى الدرّاجين؟ هل كانت وفاتها مرتبطة بجريمتيّ قتل غايتلي ومارتينو أم كانت ضحية أخرى للتقاليد المقيتة لعنف الدرّاجين ضد النساء؟ هـــل تم وضـــع حدّ لحياتها لسبب مدبّر أم كانت هناك بمحض الصدفة في المكان والزمان غير المناسبين مثل إميلي آن توسان؟

بينما كنت أشق طريقي خلال السير المزدحم شعرت بالحزن والغضب مجدّداً، الألم لأجـــل حياة لم تعشها الفتاة بالكامل والغضب من قساوة أولئك الذين أنهوا حياتها.

فكّرت في أندرو رايان بعينيه الزرقاوين بلون السماء والحادّتين على نحو مميّز. حـــتى رائحـــته كانت تجعلني سعيدة. كيف أمكنني ألاّ ألاحظ الجانب الآخر منه، حـــياته المزدوجة؟ هل يمكن أن يكون الأمر هكذا؟ أخبرني عقلي أن الأمر هكذا. لقد أقسم برنارد أن الأمر صحيح. لِمَ رفض قلبـــي أن يغيّر موقفه؟

راحـــت أفكاري تدور من دون جدوى. شعرت بالألم في عنقي بنبض خلف عيني اليسرى.

اســـتدرت إلى شارع بارتيناس، وركنت سيارتي في بقعة خالية. ثم ملت إلى الخلف، وتوقفت عن التفكير. كنت بحاجة إلى وقت للاستراحة.

ســـأخبر كلوديل بما علمته. لن تكون هناك أي عظام أو أفكار تتعلق برايان حـــتى يمـــرّ أســـبوع بكامله. لن أقوم بأي شيء جدي أكثر من التمعن في كُتيّب الـــدرّاجين الـــذي استلمته من روي. سأقرأ، وأتسوّق، وأذهب إلى حفل إيزابيل. لكن حين يحلّ نهار الاثنين سأتعهد مرة أخرى باستكمال بحثي عن قتلة إميلي آن، وسأجد اسماً للفتاة في حفرة الأفاعي أيضاً.

13

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة حين وصلتُ إلى البيت.

في المختــبر كنت قد حفظت العظام والتحويلة ثم اتصلت بكلوديل كي أنقل إلــيه مــا علمــته من راسل. قرَّرنا أنني سأدرس كل القضايا منذ السنوات العشر الأخيرة بما فيها الهياكل العظمية الجزئية. أمّا هو فسيتابع العمل على لائحة الفتيات المفقــودات. في حال لم يتوصّل أي منا إلى نتيجة بحلول نهاية يوم الاثنين فسنحوّل القــضية إلى مركز معلومات الشرطة الكندية. وإن فشلت هذه الخطوة، فسنرسل القضية جنوباً إلى المركز الوطني لمعلومات الجريمة.

بدت تلك خطة جيدة.

بعــد أن بــدّلت ملابــسي وأجريت محادثة وجيزة مع بيردي، توجهت إلى ماكي، وصعدت إلى النادي في الطابق العلوي، حيث مارست الرياضة لمدة ساعة. بعد ذلك اشتريت دجاجاً مشوياً من الجزار كما ابتعت بعض الخضار والفواكه.

في المنــزل، وضعت الحبوب والخضار في المايكروويف، وقسّمت الدجاجة، واحتفظت بنصفها في البرّاد من أجل غداء يوم السبت. ثم أحضرت زجاجة صلصة الشواء.

تُعتبر مونتريال مائدة حقيقية وهي موطن للعديد من أفضل مطاعم العالم مثل الــصينية والألمانــية والتايلندية والمكسيكية واللبنانية. فكل المجموعات العرقية ممثلة جيداً. إن كنت تريد تناول غداءً سريعاً أو عشاءً ذواقاً متأخراً، فالمدينة لا يشق لها غبار. أمّا نقطة ضعفها الوحيدة فهي فن الشواء.

مـــا يشكل صلصة الشواء في كيبيك هي صلصة بنية اللون محضّرة من مرق اللحم وهي تفتقر إلى الطعم والرائحة مثل أول أوكسيد الكربون. يستطيع الباحث الجاد أن يجد صلصة تكساس التي تكوّن الطماطم أساسها، لكن الصلصة المُعدّة في ولايـــة كارولينا من الخل والخردل هي رفاهية أجد نفسي مضطرة إلى استيرادها. يكـــون الأصـــدقاء في مونتـــريال مشككين حين يعاينون الجرعة الذهبية، لكنهم يتعلقون بها عندما يتذوقونها مرة واحدة.

ســـكبتُ صلـــصة مـــوريس في زبدية صغيرة، وحملت كل شيء إلى غرفة الجلوس، وتناولت العشاء أمام التلفاز. كانت نهاية الأسبوع ما زالت تسير بشكل جـــيد بحلول التاسعة مساءً. كان القرار الأصعب حتى تلك النقطة يتعلق بالولاء في الرياضة. بالرغم من أن فريق الأشبال كان يتفوق على الشجعان فقد اخترت مباراة الاتحاد الوطني لكرة السلة، وشجعت فريق الدبابير إلى نصر بحوالى 102 مقابل 87 هدفاً على فريق النيكس.

كـــان بيردي مشتّتاً، تجذبه رائحة الدجاج من جهة، وتفزعه الثورات واليدان الملوّحـــتان مـــن جهة أخرى. أمضى الليل جالساً في آخر الغرفة واضعاً ذقنه على قائمتـــيه الأماميـــتين، كان يفتح عينيه واسعاً في كل مرة أصرخ فيها. عند الحادية عـــشرة تبعني إلى السرير حيث قام بدورتين قبل أن يستقر خلف ركبتي. استغرق كلانا في النوم خلال دقائق.

أيقظـــني صوت جرس الباب. ستكون الزقزقة أفضل بكثير. حين يضغط زائر على الجرس لطلب الدخول إلى المبنى، يزقزق الجهاز مثل عصفور دوري يعاني من الحزوقة.

كـــان ســـتار النافذة رمادياً باهتاً، وقد شعّت الأرقام على الساعة مشيرة إلى الثامـــنة والـــربع. لم يكن بيردي يضغط على قدمي. أبعدت الأغطية، وأمسكت بثوب.

حين تعثرت في الردهة، وقع نظري على عين خضراء هائلة عبر شاشة جهاز الأمـــن، فطـــارت يداي إلى صدري، وعدت خطوة إلى الوراء من دون إرادة مني بعيداً عن الشاشة.

دق الجرس مزقزقاً.

تراجعت العين، وحل مكانها وجه ابن أختي. كشّر وجهه للكاميرا وهو يميل برأسه من جانب إلى آخر ويمط زاويتي فمه بأصابعه.

ضغطت على الزر لأسمح له بالدخول. تمسَّح بيردي برجليّ، ونظر إليّ بعينين صفراوين مستديرتين.

"لا تسلني يا بيردي".

ملأ كيت الزاوية بكيس قماش كان في يدٍ وكيس ورق أسمر في اليد الأخرى وحقيبتي ظهر متدليتين من كتفيه. كان يعتمرُ قبعة محبوكة متعددة الألوان بدت وكأنها ستكون كبيرة في غواتيمالا.

"خالتي". هدر صوته بلهجة تكساس المتشدقة الصاخبة.

"ش ش". رفعت إصبعاً إلى شفتيَّ. "إنه صباح السبت".

تراجعت خطوة، وفتحت الباب على مصراعيه. بينما كان يمر بجانبي استطعت أن أشم رائحة دخان الخشب والفطريات وما يشبه الفطر أو الطحالب.

ترك كيس القماش وحقيبتي الظهر وعانقني. حين أفلتني ونزع قبعته، بدا شعره مثل إدوارد "ذراعي المقص".

"تسريحة شعر جميلة يا خالتي".

"لست في وضع يسمح لك بالكلام". قلت وأنا أثني خصلات من شعري وراء أذنيّ.

مدّ إليّ الكيس الورقي.

"لدي شيء لك من مياه فيرمونت". وقع نظره على بيردي فحيّاه.

"مرحباً يا بيردي، كيف حال صديقي؟".

انطلق القط إلى غرفة النوم.

حدَّقت إلى الردهة الخالية في الأسفل.

"هل هاورد معك؟".

"كلا، لقد توجه جنوباً".

"آه؟" أغلقت الباب، وأنا أشعر بعدم الفهم.

"أجل يا سيدتي. كان عليه أن يعود إلى لعبة النفط لكنني سأبقى هنا لفترة إذا كنت لا تمانعين؟".

"بالطبع يا كيت. هذا رائع". لفترة؟ نظرت إلى كومة الأمتعة وتذكرت زيارة أمه الأخيرة لي.

كانت أختي هاري قد أتت لحضور مؤتمر يستمر خمسة أيام، وانتهى بها الأمر بالبقاء لأسابيع.

"لكـــني الآن مرهق. هل تمانعين إن أخذت حماماً، ونمت لبعض الوقت؟ لقد انطلقنا حتى قبل أن تفكّر الشمس في النهوض".

"نم قـــدر ما شئت. بعد ذلك أريدك أن تخبرني عن رحلتك". وفكّرت في أنه بالتأكيد يجب أن يستحم.

أتـــيت ببعض المناشف، وقدته إلى غرفة الضيوف. ثم ارتديت سروال جينـــز وكنــــزة فـــضفاضة، ومشيت إلى زاوية ديبانور لأشتري جريدة الغازيت. حين عـــدت كانـــت المناشـــف المبللة ملقاة على أرض الحمام، وكان باب غرفة النوم موصداً.

ذهبت إلى المطبخ، وشممت صرة كيت. كانت تحوي سمكاً بالتأكيد. أضفت غلافاً خارجياً آخر عليها، ووضعتها في البراد بانتظار تعليمات أخرى. ثم حضّرت القهوة، واستقررت مع الجريدة قرب طاولة غرفة الطعام.

هكذا انتهت عطلة نهاية الأسبوع بالطبع.

حصيلة القتلى ترتفع إلى 120:

التعرف إلى جثتي درّاجَين آخرَين

كانـــت القـــصة مكتوبة في الصفحة الثالثة من القسم الأوّليّ للجريدة. كنت أتوقـــع بعض التغطية للخبر. لكن ما لم أكن أتوقعه كان الصورة التي كانت مُحبّبة وقد التُقطت من مسافة بعدسة مقربة قوية. لكن كان من الممكن تمييز الشخص في الصورة. كنت راكعة بجانب قبر مع جمجمة بين يديَّ. كالعادة عرفّني التعليق فوق الصورة **كعالمة إنسان جنائية تعمل لصالح مختبر العلوم القضائية والطب الشرعي.**

لم تكـــن الـــصورة واضحة تماماً فكنت غير واثقة هل كانت قد التُقطت في منـــتدى الأفاعـــي أو إن كانـــت صورة قديمة من الملفات التقطت في موقع آخر؟ يخـــتلف مظهـــري ومعداتي قليلاً من عملية نبش إلى أخرى، ولم يكن ثمة شيء في المحيط ليحدد موقعاً بعينه.

كـــان المقـــال مرفقاً بثلاث صور أخرى: الصور الرئيسية المعتادة للضحيتين وصـــورة لمـــدخل منتدى الأفاعي. لقد وصف المقال نبش جثتي غايتلي ومارتينو وروى قصة اختفائهما. كما كانت هناك خلاصة موجزة لحرب الدرّاجين بالإضافة إلى شرح لتباين عدد الجثث.

حـــسناً. ربما تكون هذه الحقائق قد نُشرت من خلال قنوات رسميّة. كان ما تبع المقال هو ما صدمني.

اســـتمر الـــنص حـــول ضحية ثالثة مُربكة، واصفاً بدقة البقايا الجزئية التي وُجـــدت في الحفرة الأخرى. انتهى المقال بذكر أنه حتى هذا التاريخ تبقى هوية الفتاة لغزاً.

كيف وصلهم هذا الخبر بحق السماء؟

شـــعرت ببداية ارتباك. لست مولعة بإثارة انتباه الإعلام، لكنني أقلق بشكل خـــاص حـــين يعرّض الإعلام إحدى قضاياي للخطر. من عساه يكون قد سرّب المعلومات؟

سحبت نفساً طويلاً وعميقاً، ونهضت كي أسخن قهوتي.

حسناً. لقد سرّب أحدهم المعلومات. ماذا الآن؟

يجب ألاّ يحصل ذلك. هذا هو الموضوع.

ضغطت زر المؤقت السريع على المايكروويف.

صحيح. لكن ستتعرض القضية للشبهة؟

فكّرت في ذلك.

رنَّ جرس المايكروويف، فسحبت كوبـــي.

كـــلا. في الحقـــيقة قد يأتي هذا المقال بمعلومات مفيدة. قد يتقدم شخص ما باسم ما.

إذاً، لم يحصل أي أذىً. لكن هل صدر قرار رسمي بنشر تلك المعلومات؟ ربما لا وإلا لكنت قد عرفت بأمره.

كـــان أحدهم قد تحدَّث إلى الصحافة، كان هذا غير مقبول. من عرف بأمر عظـــام الفتاة؟ كويكواتر؟ كلوديل؟ عضو من خدمة التعرف إلى الهوية القضائية؟ تقنيٌّ في المختبر؟ الدكتورة راسل؟

"لن تتوصلي إلى معرفة ذلك نهاية هذا الأسبوع".

هذا صحيح أيضاً.

عـــزمت علـــى التعامل مع هذا السؤال نهار الاثنين، فعدت بعقلي إلى القراءة والتسوق وحفل إيزابيل.

كيت.

آه.

ذهبت إلى الهاتف، وطلبت رقم إيزابيل.

"صباح الخير".

"هذه أنا يا إيزابيل".

"لا تفكّـــري حـــتى في إلغـــاء مجيئك إلى الحفل يا تمب". كان بإمكاني سماع موســـيقى طقـــوس الربيع في الخلفية، وعرفت أنها تطبخ بالتأكيد. فلطالما طبخت إيزابيل على موسيقى سترافينسكي.

"حسناً، لقد حدث أمر ـــ".

"الأمـــر الوحـــيد الذي يمكن أن يعذرك الليلة هو سقوطك المميت من طائرة 747. طائرتك أنت".

"لقد حضر ابن أختي هذا الصباح، وسيبقى عندي لفترة".

"وبعد؟".

"لا أشعر بأنني يجب أن أتركه وحده في يومه الأول هنا".

"بالطبع لا. ستحضرين معك ابن أختك الليلة".

"إنه في التاسعة عشرة".

"رائـــع. أعـــتقد أنني كنت في التاسعة عشرة في يوم من الأيام. كان ذلك في الـــستينيات كما أعتقد. كان عليّ أن أمر في الستينيات كي أصل إلى السبعينيات. أذكـــر أنني كنت أتعاطى المخدرات، وأرتدي أزياء غريبة عديدة. سأراك مع هذا الشاب عند السابعة والنصف".

وافقت، وأنهيت المكالمة.

حسناً. الآن عليّ أن أقنع ابن أختي بتمضية مساء السبت بأكل أضلاع الحمل والحلزون مع جماعة من أشخاص أكبر منه سناً.

كما بدا في نهاية الأمر لم يكن ذلك مشكلة. ظهر كيت حوالى الساعة الثالثة والربع أشعث الشعر وجائعاً. أكل ما تبقى من الدجاج، وسأل إن كان يستطيع أن يغسل ثيابه. حين ذكرت أمر العشاء وافق مباشرة.

دوّنــــت ملاحظة كي أتصل بهاري. لم تكن بهجة كيت ما كنت أتوقعه بناءً علـــى سنوات المراهقة لابنتي كاتي. لكن كيت كان غريباً في المدينة وربما لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه.

أمـــضيت الـــساعات القليلة التالية أُنهي كتابة رسالة توصية لطالب، وأنظف غـــرفتي، وأشــــرح لابـــن أختي كيفية ضبط المسحوق والقماش. حوالى السادسة توجهت إلى لو فوبورغ كي أشتري زجاجة من الشراب وباقة ورد.

تقطـــن إيــــزابيل في جزيرة الأخوات، وهي قطعة صغيرة من الأرض في سان لورنس كانت تملكها الراهبات الرماديات لأجيال لكنها أصبحت حديثاً مستعمرة مـــن قـــبل مجموعة من الشباب الناجحين الذين يعيشون على مستوى عالٍ. تدلُّ الملكية المشتركة على ذوق رفيع، وهي ملكية متعددة الاستخدامات تضمُّ المساكن المـــشتركة في الجزيرة ومنازل البلدة والمنازل الخاصة والشقق في ناطحات السحاب بالإضـــافة إلى نـــوادي التـــنس والمراكز التجارية وممرات الدرّاجات والمساحات الخـــضراء الـــتي تم تعهـــدها بعناية. ترتبط الجزيرة بالشاطئ الجنوبـــي عبر جسر شامبلاين وبمونتريال عبر جسور صغيرة.

يقـــع منـــزل إيزابيل في الطابق العلوي في مجمّع مؤلف من مبنيين في الطرف الـــشمالي البعيد. إثر فشل زواجها الثالث، وقّعت أوراق الطلاق، وباعت منـــزلها وكل محتوياته، وانطلقت إلى جزيرة الأخوات. أما الممتلكات الوحيدة التي أحضرتها معها فقد كانت أسطوانتها وألبومات صورها الثمينة.

كانـــت إيــــزابيل بحاجـــة إلى شيء يتماشى مع مزاجها اللامبالي فاختارت موضـــوع رحلة الصيد. كان مهندس الديكور قد مزج أقمشة طبيعية تصوّر جلد النمـــر وقـــد بـــدت وكأن صندوق الحياة البرية العالمي قد صادق عليها. حفلت الجدران بصور للحيوانات، وقد صُفّت مجموعة من المنحوتات الأفريقية على طاولة قهـــوة ذات قوائم تشبه قوائم الفيل يغطيها الزجاج. وكان السرير الكبير في غرفة النوم الرئيسية مغطى بناموسية.

كان كيت مفتوناً، أو على الأقل بدا كذلك. بينما كانت إيزابيل تصحبنا في جــولة راح يطــرح الأسئلة واحداً تلو الآخر عن أصل كل قطعة من ممتلكاتها. لم أكن متأكدة من درجة اهتمامه، لكنني كنت مسرورة لبصيرته الاجتماعية.

لم يكــن الديكور ما أسرني بل المنظر. كنا بانتظار ضيف واحد بعد، لذا بعد أن تم تقــديم الشراب لكيت ولي، والتقينا بقية الحاضرين خرجت إلى الشرفة كي أستمتع بالمنظر.

كــان المطر الخفيف ينهمر وعبر النهر كان خط الأفق يلمع بكل لون يمكن تصوره. لاح الجبل فوق مباني المدينة أسود حالكاً.

مــن الداخل سمعت صوت جرس الباب، ثم نادت إيزابيل اسمي. ألقيت نظرة أخيرة ودخلت.

كان المدعو الأخير على العشاء قد وصل وكان يسلم معطفه الواقي من المطر إلى إيزابيل. حين رأيت وجهه أُصبت بالذهول.

14

"أنتَ!".

لم تكن تلك إحدى افتتاحياتي اللبقة. رمقتُ إيزابيل بنظرة تعني "فقط انتظري حتّى وقت لاحق".

لكنها تجاهلت نظرتي هذه.

"نعـــم، هـــل دهـــشت يا تمب؟" رسمت ابتسامة مشرقة. "قلت إنكما سبق والتقيتما بطريقة غير رسمية. الآن سأقوم بتقديمكما رسمياً".

مدّ الصحفي يده. هذه المرة لم يكن يمسك بمكبر للصوت، كما كانت نظرته ودية لا تحمل الدهشة المذهولة التي تذكّرتها من لقائنا خارج منتدى الأفاعي.

"تمب، هذا لايل كريز. أنا واثقة من أنك رأيته على شاشة التلفاز".

اســـتطعت أن أتذكّر وجهه جيداً الآن. لقد كان مراسلاً محققاً يعمل لصالح محطة سي تي في.

"وأنت يا لايل. أعرف أنني لست مضطرة إلى إخبارك باسم الدكتورة برينان. ندعوها تمب. ونشدّ على آخر الكلمة. يجد الآخرون صعوبة في ذلك".

حـــين سمحت للايل بأن يمسك بيدي، انحنى قريباً مني، وقبّلني أوّلاً على الخد الأيمـــن ثم علـــى الأيسر بحسب الطريقة التقليدية في كيبيك. تراجعت إلى الوراء، وتمتمت شيئاً أملت في أن يفسره بأنه بارد لكن مهذب.

قـــدّمت إيزابيل كريز إلى الآخرين، فصافح الرجال وقبّل السيدات. ثم رفعت كأسها نحو كيت.

"أظـــن أنـــه على شرف هذا الشاب الوسيم من تكساس يجدر بنا **جميعاً أن** نتكلّم لغتنا الإنكليزية".

ارتفعت الكؤوس عالياً بينما وافق الجميع. بدا كيت مرتاحاً إلى حدٍّ كبير.

"هـــل أســـاعدك على تحضير العشاء؟" سألت بإنكليزية باردة، وأنا أتوق إلى الانفراد بإيزابيل كي أشاركها بعض الأفكار.

"لا، لا. كـــل شيء جاهز. رجاءً جميعاً، هيا إلى الطاولة. ستجدون بطاقات صغيرة بجانب كل طبق".

تباً.

انـــسحبت إيـــزابيل إلى المطبخ بينما تجمَّع بقيتنا حول الطاولة لنتبيّن ترتيب الجلوس. كما حسبت، كنت سأجلس إلى جانب كريز، وكان كيت سيجلس إلى يميني.

كان هناك سبعة أشخاص. جلس ممثل كبير في السن إلى جانب كيت الآخر. كـــنت قـــد التقيته في مناسبة سابقة، لكنني لم أستطع أن أتذكر اسمه و لم أكن قد لاحظـــته حـــين تم تقديمـــه. لم أكن أعرف الضيفين الآخرين. تبيّن أنهما زوجان وكانت الزوجة تاجرة قطع أثرية بينما كان الزوج منتج أفلام.

تبادلـــنا حديثاً قصيراً بينما نقلت إيزابيل الصحون من المطبخ. كان الممثل قد أنهى لتوّه لعب دور بولونيس في إنتاج فرنسي على مسرح الستارة الخضراء. وروى كريز أحدث مهمة له. تناولت القصة قرصاناً في السادسة عشرة من عمره كان قد اقتحم شبكة للجيش الأميركي ثم اتصل بشرطة الجوالة الملكية الكندية كي يمسكوا به.

قال الممثل "لقد أراد الفتى الحصول على بعض الاهتمام الخاص".

علّق ابن أختي قائلاً: "كان بإمكانه أن يؤدي تجربة كلاعب كرة قدم".

لا بأس يا كيت.

ســـألت إيـــزابيل الزوجين وهي تدور حول الطاولة، وتصب الشراب "بماذا كنتما مشغولين أنتما الاثنان؟".

حـــين وصلت إلى كيت، توقّفت ونظرت إليّ. أطرقت برأسي. لا بأس. لقد كان وجوده شرعياً في كيبيك، وكنت أنا من سيقود. قبل كيت بحماسة.

كان اسم المنتج كلود هنري برولت. وكان قد عاد لتوه من تصوير دام ثلاثة شـــهور في إيـــرلندا. وكانت زوجته ماري كلير تدير متجراً في مونتريال القديمة، وتمـــضي الوقت في شراء القطع الأثرية في بروفنس. جعلت تتكلم بغير ترابط عن مملكة آرلز وسلالة أنجفين الحاكمة وعن اثني عشر لويس على الأقل شارحةً كيف غيّـــر كـــلٌ منهم وجه صناعة المفروشات. كنت أسترق النظر إلى لايل كريز بين قـــضمات لحـــم الغنم. كما كنت أتذكّر، كان شعره وأسنانه خالية من العيوب وخطـــوط وجهه حادة. أما العيب الوحيد الذي وجدته فقد كان ذرّات من قشرة الرأس على ياقة قميصه.

كان لايل مستمعاً جيداً، فقد أبقى عينيه مثبتتين على ماري كلير مومئاً برأسه بـــين الحين والآخر وكأن جمالية القماش وتصميم الخزائن كانا الأمرين الوحيدين اللذين يهمان في الوقت الحاضر.

حـــين توقفت ماري كلير لتأخذ نفساً، تدخلت إيزابيل مُحوّلة الحديث مثل مـــوجّه لحركة الطيران مع عدة رحلات على شاشته. بالرغم من أنني كنت معجبة بمهارتها، إلا أنني لم أقدِّر الاتجاه الذي اختارته.

"تعمل تمب منذ زمن على الجرائم المريعة التي ترتكبها العصابات. هل يمكنك أن تخبرينا شيئاً عنها؟".

"أتعنين الدرّاجين؟" سأل كلود هنري.

"أجـــل". أردت أن أحدِّق إلى إيزابيل لكنني قررت أن ذلك سيكون تصرفاً وقحاً. وددت لو أخنقها أيضاً، وكان ذلك سيكون تصرفاً أوقح.

"هل لك علاقة بالاكتشاف الذي قرأت عنه في جريدة اليوم؟".

"نعـــم، لكـــن كمـــا تعلم إيزابيل" - نظرت نحوها وابتسمت ببرودة - "لا أستطيع -".

"ماذا تفعلين مع الدرّاجين يا خالتي تمب؟".

كـــان اهتمام كيت قد خَفَتَ خلال درس تصميم الأثاث، لكنه اشرأب عند سماع الموضوع الجديد.

"أنت تعلم أنني أعمل لصالح المختبر الطبـــي الشرعي الإقليمي؟".

أطرق برأسه.

"الأسبوع الماضي طلب مني المدير معاينة بعض قضايا جرائم القتل". لم أذكر شيئاً عن دوري في عملية كركاجو.

"كم عددها؟".

"قليلة".

أصرّ قائلاً "أكثر من ثلاث قضايا؟".

"خمس".

"خمسة أشخاص قتلوا في أسبوع واحد؟" فتح كيت عينيه واسعاً. كان كل الآخرين حول الطاولة قد التزموا الصمت.

"قتل اثنان منهم في العام 1987. لقد اكتشفنا جثتيهما هذا الأسبوع".

"هذا ما قرأت عنه". قال كلود هنري موجهاً شوكة نحوي. "هذا هو. لقد كنت أنت الشخص في الصورة".

ألحّ كيت "من كان الآخرون؟".

الآن وددت خنق ابن أختي.

"اثنان منهما كانا ضحيتي تفجير. وضحية أخرى كانت فتاة صغيرة قتلت خطأً خلال إطلاق نار في ممر للسيارات".

"يا الله". قالت ماري كلير بالفرنسية وقد نسيت تعهدها الكلام بالإنكليزية.

مددت يدي لأتناول المياه الفوارة، وأنا أتمنى يائسة لو أنني كنت قد انتبهت إليها كي أراوغ بسؤال عن الطبقات الخارجية للخشب في عصر النهضة.

"هل قصدتِ الفتاة التي وجدت عظامها في سان بازيل العظيم؟".

التفتّ عند سؤال كريز. بالرغم من أن صوته بدا عادياً، فقد ومضت عيناه على نحو لم ألاحظه من قبل.

"كلا".

"هل حدَّدتم هويتها؟" مدّ يده ليأخذ شرابه.

"كلا".

سأل كيت "عمّ تتحدثان؟".

"لقـــد عثـــرنا على بعض العظام قرب قبر الدرّاجين أيضاً. إنها فتاة، لكننا لا نعـــرف مـــن هي أو هل كانت مرتبطة بالأفاعي. قد يعود تاريخ دفنها إلى ما قبل امتلاك الأفاعي للعقار".

سأل كريز "هل هذا ما تعتقدينه؟".

"لا أدري".

"من هم الأفاعي؟".

كنت أعيد تشكيل رأيي في مهارات ابن أختي الاجتماعية.

"إنهم ناد تابع لوُدعاء الجحيم".

"غير ممكنٍ".

"بلـــى، هـــذا ممكن. وهم وإخوانهم في السلاح مسؤولون عما يقارب 120 جريمة قتل في هذه المقاطعة خلال السنوات الخمس الأخيرة. الله يعلم عدد الآخرين الذين اختفوا".

"الدرّاجون يقتلون بعضهم بعضاً؟".

"أجل، إنه صراع من أجل السيطرة على تجارة المخدرات".

"لِمَ لا تدعونهم وشأنهم فحسب؟" سأل الممثل. "لِمَ لا تنظرون إلى الأمر على أنه شكل من أشكال التنظيم الذاتي للمرضى الاجتماعيين؟".

"لأن أبـــرياء كإميلي آن توسان التي كانت في التاسعة من عمرها قد يقعون ضحية النيران المتقاطعة".

"وربما هذه الفتاة الأخرى؟".

"ربما يا كيت".

سأل كريز "هل تعتقدين بأنكم ستتمكنون من إثبات هذا الأمر؟".

"لا أعلم. أرجوك أخبرنا عن فيلمك يا كلود هنري".

بيـــنما كـــان المنتج يتحدث، التقط كريز زجاجة الشراب، وأمسك بكأسي الفارغة. أشرت إليه برأسي رافضةً لكنه تابع ما يقوم به. وحين وضعت يدي على حافة الكأس ضحك ورفعها وملأ الكأس.

ســـحبت يدي، وحرَّرتها من يده حانقة، وملت بالكرسي إلى الوراء. لا أستطيع أن أتحمل الأشخاص الذين يلحّون بالشراب على الآخرين الذين لا يريدونه.

عاد بي صوت ابن أختي إلى الحديث. كانت إيزابيل قد سلّطت ضوءها الآن على كيت.

"نعم، لقد ذهبت مع أبي. إنه يعمل في مجال النفط. انطلقنا من تكساس في سيارة وينباغو كبيرة وقديمة. لقد كانت هذه فكرة أبي. أرادنا أن نتقرّب من بعضنا بعضاً".

"جئنا إلى هنا لنوصل قط خالتي، ثم توجهنا شرقاً إلى فرمونت عند خط ديربي. لقد خطّط أبي لهذه الرحلة أفضل من غزو النورماندي. لهذا أستطيع أن أتذكر كل الأسماء".

"على كل حال، خيّمنا قرب هذه البلدة التي تدعى وستمور، واصطدنا السلمون من نهر ويلوبي. ينحصر وجود هذا السمك في المياه العذبة، وحين يهاجر في الربيع يكون الأمر رائعاً. أظن أن الصيادين الحقيقيين يعتبرونه نوعاً من مكان مبجّل".

"ثم توجهنا جنوباً إلى مانشستر، واصطدنا سمك الباتينكيل، واشترى أبي كل شيء من مصنع أورفيش؛ كصنارات الصيد وأشياء أخرى. ثم عاد هو إلى تكساس في سيارة الوينباغو، وجئت أنا لأزور خالتي صائدة الدرّاجين". رفع كأسه لي، وحذا الجميع حذوه.

تابع كيت يقول "إنه أمر غريب إلى حدّ ما لأن أبي اشترى لي درّاجة نارية منذ عام تقريباً".

كنت مستاءة، ولكن غير متفاجئة. كان هاورد زوج أختي الثاني رجل نفط من غرب تكساس ويملك من المال أكثر من العقل وعيباً في حلزونه المزدوج جعل منه رجلاً مزواجاً. وقد تطلّقا حين كان كيت في السادسة من عمره. كانت مقاربة هاورد للأبوة تتمثل في الجود بالألعاب والمال على ابنه. حين كان كيت في الثالثة من عمره اشترى له الأحصنة القزمة وألعاب السيارات ذات المحرك. وحين أصبح في الثامنة عشرة انتقل إلى المراكب الشراعية ثم إلى سيارة بورش.

"أي نوع من الدرّاجات النارية؟" سألت إيزابيل.

"إنها درّاجة من طراز هارلي دايفدسون. أبي يحب هذا النوع من الدرّاجات فعلاً. درّاجتي من نوع رود كينغ كلاسيك، وهو يملك درّاجة من طراز ألترا

كلاســيك ألكتــرا غلايد. وكلتا الدرّاجتين من طراز إيفو. لكن سيارته ناكلهاد القديمــة هي حبّه الحقيقي. لقد وُضعت هذه السيارات في السوق بين عامي 1936 و1947".

سألت إيزابيل "ماذا تعني هذه التعابير؟".

"إنهــا ألقــاب تشير إلى تصميم رأس المحرك. تم إنتاج محرك إيفوليوشن في 2 لأول مــرة في أوائل الثمانينيات. وقد كان اسمه في الأصل الأحمق، لكن هذا التعبير لم يلتصق به طويلاً. يشير إليه معظم الناس باسم ديفو. معظم الدرّاجات التي ترينها الــيوم هــي من طراز شوفيلهاد وهي كانت تُصنّع بين عامي 1966 و1984. بين عامي 1948 و1965 كانت هناك الدرّاجات من طراز بانهاد وقبلها الدرّاجات من طــراز فلاتهاد التي ظهرت في العام 1929. من السهل تحديد فترة الصنع من خلال تصميم رأس المحرك".

لم يكن اهتمام كيت بالدرّاجين يُقارن بولعه بالدرّاجات.

"هل تعرفين أن كل درّاجات هارلي الحديثة تتحدر من درّاجة سايلنت غراي فالــو، وهــي الدرّاجة الأولى التي خرجت عن خط الإنتاج في ميلواكي عند بداية القــرن؟ كان لهذه الدرّاجة محرك ذو أسطوانة واحدة يبلغ حجمها 25 إنشاً مكعباً وقــوة تبلغ ثلاثة أحصنة. لم تكن هذه الدرّاجة مزودة بإصبع غماز هيدروليكي أو بمُــبدئ للحركة الذاتية كهربائي أو محرك من طراز أف – توين". هز كيت رأسه غير مصدق.

"يحــل المحرك الحديث من طراز توين مكان المحرك القديم بحجم يبلغ 88 إنشاً مكعــباً. حــتى المحرك القديم من طراز 71 أف أل إيتش بحجم أربعة إنشات لديه ضــغط محرك بنسبة 0.5 لواحد. واليوم يجهدون لبلوغ ضغط بنسبة تسعة لواحد. أجــل. لقد اجتزنا مرحلة طويلة. لكن كل درّاجة على الطريق اليوم تعود إلى تلك الدرّاجة القديمة من طراز سايلنت غراي فالو".

سأل الممثل "أليس هناك من صانعي درّاجات آخرين؟".

"بلــى يــا ســيدي". وافق كيت ووجهه وصوته يظهران الاحتقار. "هناك الدرّاجات من طراز الياماها والسوزوكي والكاواساكي والهوندا في السوق. لكنها وســائل نقل فحسب. لقد صنع البريطانيون بعض الدرّاجات الجيدة مثل نورتون

وبـــــي أس آي، لكن كل هذه الشركات توقفت عن العمل. كما أن الدرّاجات الألمانية من طراز بـــي أم دبليو رائعة، لكنني لن أشتري بمالي سوى درّاجة هارلي".

سأل كلود هنري "هل ثمنها مرتفع؟".

هـــز كـــيت كتفيه "لا تصنع هارلي درّاجات من النوع الرديء. إنها ليست معدات رخيصة".

أصـــغيت إلى ابن أختي بينما كان يتحدث. كان يملك نفس المعرفة والاحترام للدرّاجات النارية اللذين كانت ماري كلير تكنّهما للمفروشات. ربما كان توقيت زيارته مناسباً. يمكنه أن يساعدني على فهم هذا العالم الغريب الذي كنت أدخله.

كان قد انتصف الليل تقريباً حين ودَّعنا الآخرين، وطلبنا المصعد. كنت أشعر بـــأنني جاهـــزة للـــنوم، أما كيت فقد كان لا يزال متحمساً يثرثر عن المحركات، وينـــتقد ضـــيوف وأحـــداث الأمسية. ربما كان الشراب هو السبب أو ربما كان الشباب. شعرت بالحسد لقدرته على الاحتمال.

كـــان المطـــر قـــد توقف لكن ريحاً قوية ضربت سطح النهر، وأخذت تهزُّ الأغـــصان والشجيرات وتدور بالأوراق المبللة على الأرض. حين عرض كيت أن يحضر السيارة قيَّمت حالته بسرعة ثم سلَّمته المفاتيح، وانتظرت داخل الردهة.

في خـــلال أقل من دقيقة أوقف السيارة، وخرج منها، ثم استدار ليجلس في مقعد الراكب. حين استقررت خلف المقود رمى بمغلّف أسمر في حجري.

"ما هذا؟".

"إنه مغلّف".

"أرى ذلك. من أين أتى؟".

"كان على الزجاج الأمامي تحت إحدى المساحتين. لا بدَّ وأن لديك معجباً".

نظـــرت إلى المغلّـــف. كان مغلّفاً مبطناً مثبتاً عند أحد أطرافه ومزوداً بلسان يسحب الظهر لسهولة الفتح. كان اسمي مكتوباً بقلم أحمر.

حـــدّقت إلى الأحـــرف وأنا أشعر بإنذار يدق عميقاً داخل رأسي. من كان يعـــرف أنني سأكون في الجزيرة هذه الليلة؟ من كان ليتعرف إلى سيارتي؟ هل كنا ملاحقين؟ مراقبين؟

بحذر شديد تلمست المحتويات. شعرت بشيء قاسٍ يبرز.

"حسناً".

قفـــزت عندما سمعت صوت كيت. حين التفت كان وجهه شاحباً على نحو مخيف وملامحة مظلمة ومشوهة في الضوء الأصفر الباهت القادم من أبواب الردهة.

"اللعـــنة يـــا كـــيت. قـــد تكون هذه..." توقفت غير واثقة إلى أين تذهب أفكاري.

"قـــد تكـــون مـــاذا؟" مال كيت جانبياً، ولفَّ ذراعه على الجزء الخلفي من المقعـــد. "هـــيا، افتحـــيه". ألحّ قائلاً "أراهن أنها مزحة. ربما رأى أحد أصدقائك الشرطيين السيارة، وترك شيئاً سخيفاً ليخيفك".

كـــان هـــذا ممكناً. يمكن لأي شخص في الشرطة أن يقوم بذلك. لقد كنت هدفاً للدّعابات في الماضي.

"هـــيا". مـــدّ كيت يده، وشغّل الضوء الداخلي. "ربما هي بطاقات لحضور المعرض".

ســـحبت اللـــسان، ومددت يدي إلى داخل المغلّف. طوّقت أصابعي مرطباناً زجاجياً صغيراً.

حـــين سحبت المرطبان وحملته نحو الضوء شعرت بالصفراء تصعد إلى حلقي. أخبرتني التقلصات المتواترة تحت لساني أنني سأتقيَّأ. بالكاد سمعت صوت كيت وأنا أندفع نحو مسكة الباب.

"يا الله، يا خالتي تمب، من عساكِ أغضبت؟".

15

استقرّت العين في قعر المرطبان، وكان البؤبؤ متجهاً إلى الأعلى وخيوط اللحم الرفيعة تطوف في السائل العكر. ظهر العضو باهتاً وقد سقط بشكل جزئي، وبدا أحد جوانبه ممزقاً. بالرغم من أنه كان مغلقاً بإحكام، إلاّ أن المرطبان أصدر رائحة مألوفة. كانت هناك ورقة مثنية ملصقة في أسفله.

مدّ كيت يده، وانتزع الملاحظة.

"نحن نراقبك". بدت اللغة الفرنسية غريبة بتشدق لهجة تكساس.

"ماذا يعني هذا يا خالتي تمب؟".

"نحن نراقبك".

بيدين مرتجفتين أعدت المرطبان والملاحظة إلى المغلّف، ووضعته على أرض المقعد الخلفي. كانت راحة الفورمالديهايد تملأ المكان. كنت أعلم أن الرائحة كانت في رأسي، لكن ذلك لم يكن ليخفف من شعوري بالغثيان. صارعت لأستعيد السيطرة على ردود فعلي اللاإرادية فمسحت كفيّ الرطبتين بسروالي، وشغّلت محرك السيارة.

سأل كيت ونحن ندخل شارع جزيرة الأخوات "هل تظنين أنها مزحة؟".

"لا أدري". بدا صوتي عالي النبرة.

استشعر كيت مزاجي فلم يصر على السؤال.

حين وصلت إلى المنزل لففت المرطبان بعدة أكياس من النايلون، وأحكمت إغلاقه في وعاء بلاستيكي. ثم قمت بتنظيف علبة الخضار، ووضعته في البراد.

راقبني كيت بصمت بينما علا تعبير اندهاش وجهه.

شرحت له قائلة، "سآخذه إلى المختبر نهار الاثنين".

"إنها عين حقيقية، أليس كذلك؟".

"أجل".

"أتظنين أنها دعابة؟" ردَّد سؤاله السابق.

"ربما". لم أظن ذلك فعلاً، لكنني لم أود إخافته.

"لدي شعور بأنه يجب عليّ ألاّ أسأل، لكن إذا كان الأمر دعابة، لم تأخذين العين إلى المختبر؟".

"ربمـــا يخيف الأمر المخادعين المرحين". قلت وأنا أحاول أن أبدو غير مهتمة، ثم عانقته قائلة "الآن سأخلد إلى النوم. غداً سنجد شيئاً ممتعاً نقوم به".

"هذا رائع. هل تمانعين إذا استمعت إلى الموسيقى؟".

"تصرف على راحتك".

حـــين أغلق كيت الباب تأكدت من أقفال الأبواب والشبابيك كما تأكدت من أن جهاز الإنذار يعمل. قاومت رغبتي في البحث عن أي مترصد لي في خزانتي أو تحت سريري.

اخـــتار كـــيت أن يستمع إلى موسيقى البلاك سابات. وقد استمع إليها حتى الثانية والربع.

استلقيت في السرير لوقت طويل أصغي إلى ضربات موسيقى الهافي ماتل وأنا أتـــساءل إن كانت تصلح لأن تكون موسيقى، وأتساءل عن عدد المكالمات الهاتفية التي سأتلقاها من الجيران، وأتساءل هل كان أحدهم قد انـــزعج إلى درجة إرساله إليّ ملاحظة ذيّلها بعين بشرية.

بالـــرغم من أنني أخذت حماماً دام عشرين دقيقة، فإن رائحة الفورمالديهايد بقيت تسكن رأسي. شعرت بالنعاس يلفّني وبشعر جسمي ينخز جلدي.

نمـــت حتى وقت متأخر من الصباح التالي. حين استيقظت، وكنت متعبة من كوني استفقت فزعة عدة مرات خلال الليل، اتجهت أفكاري مباشرةً إلى الشيء في بـــرّادي. مـــن؟ لِـــمَ؟ هل كان الأمر يتعلّق بالعمل؟ هل كان ثمة مريض نفسي في المنطقة؟ من كان يراقبني؟

دفعـــت الأسئلة عميقاً إلى خلفية عقلي عازمة على معالجتها نهار الاثنين. في هـــذا الـــوقت سأكون في غاية الحذر. تأكدت من القضيب الشائك ثم من أزرار

طلب الأرقام المباشر على الهواتف وجهاز الأمن لأتأكد من أنها مضبوطة على رقم الطوارئ.

كانـــت الـــشمس ساطعة، وبلغت الحرارة على شرفتي خمس درجات مئوية ارتفعـــت إلى 40 درجـــة فهرنهايت عند العاشرة. كان اليوم يعد بأن يكون نهاراً كندياً حاراً جداً.

لم أتوقـــع أن أرى كـــيت قـــبل الظهر إذ كنت أعرف عن الإيقاع النهاري للمـــراهقين، ارتديت ملابسي، ومشيت إلى النادي الرياضي بحذر أكثر من المعتاد وجلدي ينخزني من التوتر وعيناي يقظتان لأي شخص أو أي شيء مشتبه فيه.

بعد ممارسة الرياضة، اشتريت بعض الكعك والجبن القشدي وبعض المطيّبات التي يمكن تناولها مع الجبن القشدي. كذلك قمت بشراءٍ مندفع عند عربة الأزهار. كـــان بيردي قد هجرني إلى حدّ كبير منذ وصول كيتَ، فأردت اجتذاب انتباهه مجدّداً بشراء نبتة نعناع بري.

لم يكـــن الكعك أو النبتة فعالين بشكل كافٍ. ظهر ابن أختي حوالى الواحدة والربع وكان القط في إثره.

"أتودُّ بعض الكعك؟".

"حسناً".

"الجبن القشدي، السلمون المدخن، ليمون حامض، بصل، الكبر المخلَّل؟".

"ألغي الكبر المخلل. شغلي البرنامج".

رمق بيردي النبتة بعينيه لكنّ الأمر انتهى عند هذا الحدّ.

طرحت الخيارات بينما تناول كيت طعامه.

"إنه نهار رائع. أقترح بأن نقوم بنشاطات في الهواء الطلق".

"لِمَ لا".

"يمكننا أن نبدأ من حديقة النباتات ونطوف الجبل أو يمكنني أن أخيف بعض راكبـــــي الـــدرّاجات الهوائية ونقصد المرفأ القديم أو نقود الدرّاجة على الطريق الموازي لقناة لاشين".

"هل يسمحون بالتزلج؟".

"التزلج؟".

"بالمزلاجات. هل يمكننا أن نستأجر بعض المزلاجات ونقوم بقيادة الدرّاجات هذه؟".

"أعتقد ذلك". يا الله.

"أراهن أنك رائعة على المزلاجات. هاري تجيد التزلج".

"أم — آه. لماذا تدعو أمك هاري؟".

لطالما كنت فضولية بهذا الشأن. منذ أن بدأ بالكلام، كان يدعو أمه باسمها.

"لا أعرف. ليست بالضبط كالأم في مسلسل البيت الصغير في المرج".

"لكنك تفعل هذا مذ كنت في الثانية من عمرك".

" لم تكن مُكرّسة نفسها للحياة المنــزلية حينها. لا تبدّلي الموضوع. هل أنت جاهزة للتزلج؟".

"بالطبع".

"أنت رائعة يا خالتي تمب. دعيني أستحم ثم ننطلق فوراً".

كـــان يـــوماً مثالياً تقريباً. كانت البداية صعبة، لكنني سرعان ما تماشيت مع الإيقـــاع، ورحت أنـــزلق وكأنني ولدت على المزلاجات. أعاد إليّ ذلك ذكريات التـــزلج علـــى أرصفة المدينة حين كنت فتاة صغيرة وذكريات المرات العديدة حين كـــدت أن أصدم المشاة أو أتزلج إلى ممر السيارات. ساعدت الشمس المشرقة على ظهـــور جماعات من الرياضيين فاحتشد الطريق بالدرّاجين والمتزلجين. بالرغم من أنـــني كنت غير ثابتة عند المنعطفات، فقد تعلمت أن أناور بشكل سمح لي بتجنب التـــصادم. أمـــا المهـــارة الوحيدة التي لم أتمكن من اكتسابها فقد كانت التوقف المفاجئ. لم يكن هذا النوع من الفرامل للمزلجات قد اخترع حين كنت طفلة.

مـــع نهاية بعض الظهر كنت أبحر بسلاسة، لكنني أصررت على ارتداء ثياب مبطنة تكفي للدفاع عن مرمى في مباراة لاتحاد الهوكي الوطني.

كانـــت الساعة قد تجاوزت الخامسة حين سلّمنا المزلاجات والحشوات وتوجَّهنا إلى مطعم شي سينغابور لتناول غداء آسيوي. ثم استأجرنا فيلمي النمر الوردي وطلقة في الظـــلام وضحكنا بينما كان المفتش كلوسو يشرح كيف يمكن للشخص أن يكون جزءاً من الحل وجزءاً من المشكلة في الوقت عينه. كان الفيلمان من اختيار كيت الذي زعم أن الانغماس في اللغة الفرنسية سيساعده على التأقلم في مونتريال.

لم أتذكر العين حتى استلقيت على السرير يغمرني التعب والألم. تقلبت في السرير مراراً وأنا أحاول ألا أتصور الشيء في برادي والشرير الذي وضعه على سيارتي.

كـــان يوم الاثنين لا يزال دافئاً، لكن الغيوم الداكنة كانت قد تجمَّعت فوق المديـــنة وجعلت تحوم على علوٍّ منخفض حابسة ضباباً متحرّراً قريباً من الأرض مما جعل السائقين يستخدمون المصابيح الأمامية.

حـــين وصـــلت إلى العمل، أخذت المرطبان إلى قسم علم الأحياء، وطلبت مـــراجعة. لم أشـــرح مصدر العين وهم لم يسألوا. أعطينا العين رقماً غير مسجّل، ووعدت اختصاصية تقنية بالاتصال بـــي لإبلاغي عن النتيجة.

كان لدي شكوك بشأن مصدر العين، لكنني كنت آمل بأن أكون غير مصيبة لأن الفكرة كانت مخيفة للغاية. تمسَّكت بالملاحظة بانتظار التحليل.

كـــان اجتماع الصباح قصيراً نسبياً. كان صاحب وكالة لبيع سيارات الفولفو قد وجد مشنوقاً في كاراجه مع رسالة انتحار مشبوكة في صورة. وكانت طائرة ذات محرك واحد قد سقطت في سان هوبرت. وقد دُفعت امرأة عن رصيف محطة ميترو فيندوم.

لم يكن هناك شيء من أجلي.

عـــندما عدت إلى مكتبـــي دخلت إلى حاسوبـــي. استخدمت كلمات علم الإنـــسان ومجهول وجزئي للبحث في قاعدة البيانات عن حالات تتألف من هياكل عظمية جزئية تعود إلى أنثى مجهولة الهوية. عثر الحاسوب على ست وعشرين حالة على امتداد السنوات العشر الماضية.

طلبت كل القضايا التي تنقصها جمجمة مستعينة بتلك اللائحة. نجح الأمر مع الـــبقايا الـــتي تم استلامها منذ عملت في المختبر. قبل ذلك لم تكن للعظام بيانات مفـــصلة. كانت حالات الهياكل العظمية تُصنف ببساطة على أنها جزئية أو كاملة. أبرزت القضايا المصنفة كجزئية.

بعـــد ذلك استخدمت لائحة الهياكل العظمية التي تم تحليلها خلال مدة تولّيّ منصبـــي لأطلب لائحة بالهياكل العظمية التي ينقصها العظم الفخذي.

لم يكن الأمر مجدياً. كانت المعلومات قد أُدخلت وفقاً لوجود أو عدم وجود الجمجمة وبقايا عظام الجمجمة. لكن لم يتم تسجيل وجود أو غياب عظام معينة. كان عليّ أن اطلب الملفات الفعلية.

لم أضيّع أي وقت، فعبرت الردهة إلى قسم السجلات. كانت امرأة نحيلة ترتدي سروال جينز أسود وبلوزة قروية تشغل المكتب الأمامي. كانت أحادية اللون بشعرها المصبوغ المبيض وبشرتها الباهتة ولون عينيها الذي كان أقرب ما يكون إلى لون غسالة صحون قديمة. كانت العلامات الوحيدة للّون هي الخطوط الحمراء الكرزية حول صدغيها ورشات من النمش على أنفها. كنت عاجزة عن إحصاء عدد الأزرار والأقراط المعروضة في كل من أذنيها. لم أكن قد رأيتها من قبل.

"صباح الخير. اسمي تمب برينان". مددت يدي، وأنا أقدم نفسي.

أومأت برأسها من دون أن تمدّ يدها أو تقدّم نفسها.

"هل أنت جديدة هنا؟".

"أنا أعمل مؤقتاً هنا".

"آسفة، لكنني لا أظن أننا التقينا من قبل".

هزت كتفاً واحدةً. "اسمي جوسلين ديون".

حسناً. أنزلت يدي.

"هذه لائحة بالملفات التي أحتاج إلى مراجعتها يا جوسلين".

ناولتها النسخة المطبوعة، وأشرت إلى الأرقام التي أبرزتها. حين مدَّت يدها لتأخذ الورقة لاحظت تحديداً لعضلاتها من خلال الكم الرقيق. لا بدَّ من أن جوسلين تمضي بعض الوقت في النادي الرياضي.

"أعرف أن هناك عدداً كبيراً من الملفات. لكن يمكنك أن تجدي مكان تخزين الملفات وتسجيلها لي بأسرع وقت ممكن؟".

"لا مشكلة".

"أريد الملف الكامل لكل قضية وليس التقرير الأنثروبولوجي فحسب".

عبر تعبير ما وجهها، ومضة من التغيير فحسب مرت ثم اختفت.

"أين تريدينها؟" سألت وهي تنظر إلى اللائحة.

أعطيتها رقم مكتبي ثم غادرت. مشيت خطوتين في الرواق حين تذكرت أنني لم أذكر شيئاً عن الصور. حين عدت استطعت رؤية رأس جوسلين منحنياً قريباً فوق الورقة المطبوعة. تحركت شفتاها بينما تحرك إصبع إلى أسفل كل جهة من الورقة. بدت وكأنها تقرأ كل كلمة.

حين ذكرت الصور، جفلت لدى سماعها صوتي.

قالت وهي تنـــزلق على كرسيها العالي "إنني أعمل عليها".

إنها امرأة غريبة، فكّرت وأنا أتوجه عائدة إلى العمل على تقارير غايتلي ومارتينو.

أحضرت جوسلين إليّ الملفات خلال ساعة، وأمضيت الساعات الثلاث التالية أراجعهـــا. عملـــت على ست قضايا تتعلق بنساء من دون رؤوس كعدد إجمالي. اثنـــتان مـــنهن كانتا من دون عظام الفخذ لكن لم تكن أيٌّ منهما فتية إلى درجة تخولها لأن تكون الفتاة في الحفرة.

في السنوات التي سبقت وصولي إلى مونتريال بقيت سبعة هياكل عظمية تنقصها الجمجمة وتعود إلى إناث مجهولات الهوية. كانت اثنتان منهنّ صغيرتين بشكل كافٍ، لكن أوصاف الباقيات كانت غامضة، ومن دون البيانات المفصلة ليس هناك من طريقة لمعرفة أي عظام قد تمت استعادتها. لم يحتوِ أي ملف على صور.

عدت إلى جهاز الكومبيوتر، وراجعت أوصافَ الحالة الأولى. كانوا قد احتفظوا بالعظام لمدة خمس سنوات، ثم أعادوا تصويرها قبل أن يسمحوا بدفنها أو إتلافها.

لكن الملف لم يحتوِ على أي صور. كان ذلك غريباً.

طلـــبت موقع استعادة العظام. كانت العظام قد أتت من سالويت وهي قرية تـــبعد حـــوالى ألـــف ومئتي ميل شمالاً عند طرف شبه جزيرة أنجاما. أدخلت رقم المختبر الأحدث، وطلبت موقع استعادة العظام.

ســـانت جولي. تسارع نبضي. لم يكن ذلك المكان على بعد اثني عشر ميلاً من سان بازيل العظيم.

عدت إلى الملف. ومجدّداً لم أجد أي صور.

راجعت طريقة إدارة القضية، و لم أعثر على أي شيء يشير إلى أن القضية قد حلّت.

أمِنَ الممكن أن أكون محظوظة إلى هذا الحدّ؟

حـــين بـــدأت العمل في المختبر ورثت مجموعة من حالات الهياكل العظمية. تخلّصت من بعضها، لكن عدداً كبيراً بقي في مستودعي.

فتحت الباب، وجررت كرسياً إلى الطرف البعيد من الغرفة الصغيرة. كانت علب من الكرتون الأسمر تشكل صفاً على طول كل من الحائطين وكانت مرتبة

بتسلسل زمنيّ بحسب أرقام المختبر. توجهت إلى القسم الذي يحوي الأرقام الأقدم.

كانت القضية على الرف الأعلى. وقفت على الكرسي، وأنزلت العلبة إلى طاولة العمل. رفعت الغطاء بعد أن أزلت الغبار عنه. في الجزء الأيسر من العلبة وجدت كومة من فقرات الظهر والأضلاع وفي الجزء الأيمن عثرت على كومة أخرى من العظام الطويلة. بالرغم من أن معظم أسطح المفاصل كانت قد قضمتها الحيوانات، فقد كان جلياً أن عظمتي الفخذ كانتا موجودتين.

اللعنة.

أخرجت كل شيء من العلبة، وبحثت عن أي تناقضات، لكن كل شيء بدا طبيعياً. أعدت العظام إلى مكانها كما وضعت العلبة على الرف من جديد وقد أصبت بخيبة أمل. بعد أن غسلت يديَّ، توجهت إلى مكتبي وأنا عازمة على استجماع نفسي بتناول شطيرة الطون وعلبة من حلوى الهلام.

أدرت الكرسي، ووضعت رِجلاً فوق رجل على حافة النافذة، ونزعت الغطاء عن علبة الحلوى. كانت زميلة لي في جامعة كارولينا الشمالية في تشارلوت قد وضعت ملصقاً على بابها مفاده: *الحياة غير مؤكدة. تناول التحلية أولاً.*

لطالما اعتبرت هذه النصيحة جيدة.

تناولت الحلوى وأنا أحدِّق إلى النهر، وأفكاري تهيم على غير هدى. أحياناً يعمل عقلي بطريقة أفضل عندما أفرّج عن خواطري بحرية بدلاً من تجميعها داخل وعيي.

لم تكن عظام الجمجمة والساقين التي عثرنا عليها في سان بازيل هي الأجزاء المفقودة من جثة تمت استعادتها في وقت سابق. كان ذلك واضحاً. على الأقل لم تكن أي جثة قد وجدت في كيبيك.

حسناً.

ما لم يأتِ كلوديل باسمٍ، فستكون الخطوة التالية هي التوجه إلى مركز معلومات الشرطة الكَندية. الأمر بهذه البساطة.

إن لم ينجح ذلك، فسنذهب إلى مركز المعلومات الوطني للجريمة. لم يكن هناك ما يشير إلى أن الفتاة كانت من تلك المنطقة. ربما تكون قد سافرت شمالاً من الولايات المتحدة.

كان معالج آلي ماكبيل محقاً. كنت بحاجة إلى لحن رئيسي للأوقات التي أكون فيها مجهدة.

أمشي في الطريق محاولة التخفيف من حملي

ثمة عالم من المتاعب يشغلني

ربما

تمهلي، أنت تتحركين بسرعة

عليك أن تجعلي الصباح يطول

بيـــنما كنت أتناول الشطيرة لمعت صورة الهدية البشعة ليلة السبت في رأسي. ومرة أخرى شعرت بالبرد والقشعريرة.

انـــسي الموضـــوع. قد تكون عين حيوان. لقد نشرت صورتك في الجريدة ويمكـــن لأي مغفل أن يكون قد وضعها على السيارة كنوع من الدعابة. إن كان هناك من شخص يراقبني، فسيكون أحمق مريضاً ووحيداً.

أنا امرأة، راقبني —

قطعاً لا.

إنه يوم جميل في الحي...

يا الله.

هـــذه خطـــة العمـــل. سأنهي العمل على التقارير المتعلقة بغايتلي ومارتينو وأنهي تلك المتعلقة بالتوأم فايلنكورت. سأتحدث مع كلوديل. وبناء على تقريره ســـنتوجه إلى مركـــز معلومات الشرطة الكندية ثم إلى مركز المعلومات الوطني للجريمة.

كل شيء تحت السيطرة. هذا هو عملي. ليس من سبب يدعوني للتوتر.

بالكاد كانت تلك الأفكار قد تجسدت حين رن جرس الهاتف محطماً السكينة التي عملت جاهدة للوصول إليها.

16

صدر صوت نسائيٌّ "لديك اتصال من السيد كريز، انتظري رجاءً".

قبل أن أتمكن من إيقافها كان قد أصبح على الخط.

"آمل ألا تمانعي اتصالي بك في العمل".

كنت أمانع لكنني أمسكت لساني.

"كـــنت فقـــط أريد أن أقول إنني استمتعت فعلاً ليلة السبت وكنت آمل أن نجتمع سوياً".

بديع.

"هل ستكونين حرة لتناول العشاء في ليلة ما هذا الأسبوع؟".

"أنا آسفة، لكن هذا ليس ممكناً في الوقت الحاضر. أنا مشغولة جداً".

قد أكون حرة حتى نهاية الألفية التالية ولن أتعشى مع لايل كريز.

"ماذا عن الأسبوع المقبل؟".

"لا، لا أعتقد ذلك".

"أتفهَّم ذلك. هل أستطيع الحصول على ابن أختك كجائزة مواساة؟".

"ماذا؟".

"كيت، إنه فتى رائع".

رائع؟

"لــــديّ صديق يملك متجراً للدرّاجات النارية. لا بد من أن لديه مخزوناً من خمسة آلاف من معدات درّاجة هارلي دايفدسون النارية. أظن أن كيت سيجده مثيراً".

كان آخر ما أريده هو وضع ابن أختي الحساس تحت تأثير إعلامي لبق. لكن كان عليّ أن أوافق. سيستمتع كيت بالأمر.

"أنا واثقة من أنه سيفعل".

"إذاً، لن تمانعي اتصالي به؟".

"بالطبع". كما لا أمانع مرض الزحار.

بعـــد أن وضعت السماعة بخمس دقائق، ظهر كويكواتر عند بابـــي. رمقني بنظرته المعتادة ثم وضع ملفاً على مكتبـــي.

كنت فعلاً بحاجة إلى أن أستقر على لحن رئيسي.

"ما هذه؟".

"إنها استمارات".

"هل عليّ أن أملأها؟".

كان كويكواتر يحضّر نفسه ليتجاهل سؤالي حين انضم إلينا شريكه.

"أفهم أنك عدت خالي الوفاض".

"تمامـــاً كخزنة آل كابوني". أجاب كلوديل. "لم أجد أي حالة مطابقة، ولا حتى حالة مشابهة".

أشار إلى الرزمة على مكتبـــي.

"إن مـــلأت الأوراق، أســـتطيع إدخال البيانات إلى مركز معلومات الشرطة الكـــندية بيـــنما يدخل مارتن البيانات إلى المركز الوطني لمعلومات الجريمة. يعمل بيرجرون على أوصاف الأسنان".

إن مركـــز معلومات الشرطة الكندية والمركز الوطني لمعلومات الجريمة اللذين تديرهما وكالة الاستخبارات الأميركية هما عبارة عن قاعدة بيانات إلكترونية وطنية توفّر الحصول السريع على معلومات أساسية لتطبيق القانون. بالرغم من أنني كنت قد استخدمت مركز معلومات الشرطة الكندية مرات قليلة، فقد كنت على دراية أكبر بالنظام الأميركي.

بـــدأ المركز الوطني لمعلومات الجريمة العمل لأول مرة عام 1967 ببيانات عن ســـيارات مسروقة ولوحات السيارات والأسلحة والعقارات والأشخاص المطلوبين والهـــاربين. تمـــت إضافة ملفات أخرى خلال الأعوام، وتوسعت قاعدة البيانات

الأساسية التي كانت تضم عشرة ملفات فأصبحت تضم سبعة عشر ملفاً، كما أصبحت تشتمل على فهرس لتحديد التطابق بين الولايات، وملفات إدارة المخابرات الأميركية، وملف الهاربين الأجانب، وملف العصابات والإرهابيين العنيفين، وملفات تتعلق بالمفقودين ومجهولي الهوية.

يقع حاسوب المركز الوطني لمعلومات الجريمة في كلاركسبيرغ في فرجينيا الغربية وهو متصل بأقسام الشرطة ومكاتب عُمَد البلدات في كل الولايات المتحدة وكندا وبورتوريكو وجزر الفرجين في الولايات المتحدة. ويستطيع العاملون في تطبيق القانون فقط إدخال المعلومات. وهم بالتأكيد يقومون بذلك. في العام الأول لإنشائه سُجلت مليونا عملية. وهو الآن يتعامل مع هذا العدد من العمليات كل يوم.

يستُخدم ملف المركز الوطني لمعلومات الجريمة الذي أُنشأ عام 1975 لتحديد الأفراد غير *المطلوبين*، أولئك الذين يكون مكان وجودهم مجهولاً. فيمكن إدخال البيانات التي تتعلق بالقاصرين المفقودين والأشخاص المُعوّقين أو المُعرضين للخطر. كما أن ضحايا الاختطاف والاختفاء إثر كارثة يمكن أن يكونوا مؤهلين. يتم ملء استمارة من قِبَل أحد والدي المفقود أو الأوصياء عليه وطبيبه وطبيب الأسنان والعيون، ثم يتم إدخال هذه المعلومات من قِبَل القسم المحلي.

تمت إضافة ملف مجهولي الهوية عام 1983 لإيجاد طريقة لمطابقة البقايا التي عُثر عليها مع سجلات المفقودين في كل المناطق. يُسمح بإدخال معلومات تتعلق بالجثث مجهولة الهوية وأعضاء الجسم والأشخاص الأحياء وضحايا الكوارث إلى النظام.

كانت هذه هي الرزمة التي رماها كويكواتر على مكتبي.

"حين تملأين استمارة المركز الوطني لمعلومات الجريمة نستطيع أن نعمل على الشبكتين معاً. إنها المعلومات نفسها بشكل أساسي، مع اختلاف نظامي الترميز فقط. كم تحتاجين من الوقت؟".

"امنحني ساعة". كان لدي القليل لأدونه بوجود ثلاثة عظام معي فحسب.

حالما غادرا بدأت العمل على الاستمارة، ومن وقت إلى آخر كنت أتوقّف لأراجع دليل الرموز لإدخال المعلومات.

وضـــعت علامـــة في خانة المتوفين مجهولي الهوية. وكتبت حرف "هـــ" في الخانـــات 1 و9 و10 لرســـم أعضاء الجسم للدلالة على أن هيكل الرأس وعظام الفخـــذ اليمنى واليسرى قد استُعيدت بينما ملأت كل الخانات بالحرف "أ" للدلالة علـــى أنها أنثى و"ب" للإشارة إلى أنها بيضاء كما دوّنت معدل طولها التقريبـــي. وتركت خانة تاريخ الولادة وتاريخ الوفاة المتوقّع فارغة.

في قـــسم الأوصـــاف الشخصية كتبت عبارة "تحويلة بطينية دماغية" بشكل مختـــصر ووضـــعت علامة على ذلك البند في الاستمارة التكميلية. كان ذلك كل شيء. لم يكن هناك من كسر أو عاهة أو وشم أو شامة أو ندبة.

بما أنه لم تكن لديّ أي ملابس أو مجوهرات أو نظارة أو بصمات للأصابع أو فـــئة دم أو معلـــومات تـــتعلّق بأســـباب الوفاة، فقد ظلّت بقية الوثيقة خالية من المعلـــومات. كـــل ما استطعت إضافته كان تعليقات قليلة عن مكان العثور على الجثة.

كنت أملأ الخانات التي تتعلق باسم الوكالة ورقم القضية حين ظهر كويكواتر مـــن جديد. ناولته الاستمارة. أخذها وهزّ رأسه، وغادر من دون أن ينبس ببنت شفة.

ما كان خطب هذا الرجل؟

لمعت صورة في عقلي ثم اختفت. صورة عين منتفخة في مرطبان يحوي سائلاً هلامياً.

كويكواتر؟

غـــير ممكـــن. غـــير أنني قرَّرت ألا أذكر أيّ شيء عن الحادث لكلوديل أو لـــشريكه في عملية كركاجو. لكنت سألت رايان، ولكنت طلبت نصيحته، لكن رايان لم يكن موجوداً وكنت أنا وحيدة.

أنهـــيت العمـــل علـــى تقريـــرَي غايتلـــي ومارتينو وأوصلتهما إلى مكتب السكرتارية. حين عدت كان كلوديل يجلس في مكتبـــي وفي يده ورقة مطبوعة.

"كنتِ محقة بشأن العمر لكن ليس بشأن تاريخ الوفاة. عشر سنوات لم تكن كافية".

انتظرت أن يتابع كلامه.

"كان اسمها سافانا كلير أوسبري".

باللغة الفرنسية، كان القسم الثاني من اسم عائلتها يُلفظ مشدداً. لكن الاسم أوحى إليّ أن الفتاة ربما كانت جنوبية، أو على الأقل مولودة في الجنوب. لا يدعو الكـــثير من الناس خارج المنطقة الجنوبية الشرقية بناتهم باسم سافانا. جلست على كرسيّ وأنا أشعر بالارتياح والفضول.

"ومَن هي؟".

"شالوت في شمال كارولينا. أليست تلك مسقط رأسك؟".

"أنا من تشارلوت".

يجـــد الكنديون، كما العديد من الأميركيين، صعوبة في التمييز بين تشارلوت وتـــشارلتزفيل وبلـــدتي تشارلستون. لكن شالوت كانت بلدة ساحلية صغيرة غير مؤهلة لأن تكون جزءاً من الإرباك.

تابـــع كلوديل قراءة الورقة المطبوعة. "لقد تم الإبلاغ عن فقدانها في أيار عام 1984 بعد أسبوعين من ذكرى مولدها السادسة عشرة".

"هذا تحول سريع". قلت وأنا أهضم المعلومات.

"أجل".

انتظرت، لكنه لم يتابع. تكلمت من دون أن أظهر انـــزعاجي.

"سيد كلوديل، أي معلومات تملكها ستساعدني على تأكيد هذه الهوية".

بعد توقُّف قصير قال "كانت التحويلة والأسنان مميزة فأعطى الحاسوب الاسم مباشـــرة. اتصلت بقسم شرطة شالوت، وتحدّثت بالفعل مع الضابط المناوبة. كما ذكـــرت، فـــإن الأم قامت بالإبلاغ عن القضية ثم توقّفت عن متابعتها فجأة. في البداية كانت الصحافة محمومة ثم ماتت القضية".

"هل كانت فتاة مضطربة؟".

حلّ صمت أكبر.

"ليس لديها تاريخ مخدرات أو اضطرابات سلوكية. لقد سبّب استسقاء الرأس بعـــض الـــصعوبات التعلُّمية، وأثّر في بصرها، لكنها لم تكن متخلفة عقلياً. كانت تـــرتاد مدرســـة ثانوية عادية وكانت في حالة جيدة دراسياً. لم تكن تُعتبر هاربة محتملة أبداً".

"لكــن الفتاة كانت تدخل إلى المستشفى على نحو متكرر بسبب المشاكل مع الــتحويلة. يــبدو أن الجهــاز كــان يتعرض للانسداد فيضطرون إلى إدخالها إلى المستــشفى ومعالجــة المــشكلة. كانت تسبق هذه الحوادث فترات من الخمول والــصداع وأحــياناً الإرباك العقلي. إحدى النظريات تُفيد بأنها تعرضت للإرباك وتاهت".

"تاهت؟ خارج الكوكب؟ ما هي النظرية الأخرى؟".

"الأب".

فتح كلوديل دفتراً صغيراً للملاحظات ذا سلك لولبــي.

"دواين آلان أوسبري. رجل وسيم ذو تاريخ من حوادث الاعتقال أطول من ســكة الحديد العابرة لسيبيريا. في ذلك الوقت كان الروتين المنــزلي الذي يمارسه دوايــن يتمحور حول تناوله المشروب وضرب أفراد عائلته. بحسب الإفادة الأولى لــلأم والتي سحبتها لاحقاً، لطالما كره زوجها سافانا وساءت الأمور كلما كبرت الطفلة. لم يكن أمراً غريباً عليه أن يدفعها إلى الحائط ويضربها. يبدو أن دواين وجد ابنته مخيبة للآمال. كان يدعوها *الدماغ المائي*".

"وهم يعتقدون أنه قتل ابنته؟".

"مــن المحتمل أنه فعل ذلك. الشراب والغضب هما خليط مميت. تفيد النظرية بأن الأمور خرجت عن السيطرة فقتلها وتخلّص من الجثة".

"كيف انتهى بها الأمر في كيبيك؟".

"سؤال جيد يا دكتورة برينان".

وهنا نهض، ورمى الأصفاد على أكثر القمصان بياضاً رأيته منذ عقود. رمقته بنظرة قاسية لكنه كان قد خرج.

تنهدت وجلست على كرسيّ.

أراهن أنه سؤال جيد يا سيد كلوديل.

سأقوم بالإجابة عنه.

17

سحبت نفساً عميقاً. كالعادة، كان كلوديل قد أثار غضبـــي.

حـــين هدأت قليلاً نظرت إلى ساعتي. كانت تشير إلى الرابعة وأربعين دقيقة. كان الوقت متأخراً، لكن ربما استطعت الاتصال بكايت.

تحققت من مفكرتي، وطلبت رقم مقر المكتب الوطني للتحقيقات الفيدرالية. ردت كايت بروفي عند سماع أول رنة.

"مرحباً كايت. تمب تتحدّث".

"مرحَبًا أيتها الفتاة. هل عدت إلى ديكسي؟".

"لا، أنا في مونتريال".

"متى ستأتين إلى هنا كي نمرح قليلاً؟".

"لقد ولّت أيام مرحي يا كايت".

"آه، أنا آسفة، أعرف ذلك".

كنا قد التقينا أنا وكايت خلال فرصة الربيع حين كنت طالبة في السنة الأولى وكـــنت أتعاطـــى الشراب. لكنّ الفرق الآن أنني لم أعد في الثامنة عشرة و لم أكن على الشاطئ. بعد الثلاثين، أصبحت زوجة وأمّاً وأستاذة جامعية تحمل مسؤوليات تدريس وبحث مرهقة.

في وقـــت ما كنت قد أصبحت بطلة في التبرير، لكنني لم أنتبه إلى ذلك حين انـــضممت إلى صـــف الأخـــوة والأخوات الذين يمرون بحالة النكران. كأس من الشراب في المنـــزل مساءً. كأس من شراب الشعير بعد انتهاء الصفوف. حفل في

نهاية الأسبوع. لم أكن بحاجة إلى الشراب أبداً. لم أتناول الشراب وحدي أبداً. لم أتأخر على العمل أبداً. لم يكن ذلك مشكلة.

لكـــن بعد ذلك أصبح الكأس زجاجة و لم أعد بحاجة إلى الصحبة عند تناول الـــشراب في آخر الليل. هكذا يخدعك باكوس. ليس عليك أن تدفع رسم دخول ولا حـــدًّا أدنى لطلب المشروبات. وقبل أن تدري تجد نفسك في السرير بعد ظهر يوم سبت مشرق بينما تلعب ابنتك كرة القدم، ويشجع الأهل الآخرون أبناءهم.

لقد انتهى ذلك العرض و لم أكن على وشك رفع الستارة.

"مـــن الغريب أنك اتصلت". قالت كايت. "فقد كنت للتو أتحدث مع أحد محققينا عن الدرّاجين الذين أعدت جمع جثثهم في الثمانينيات".

تذكرت تلك القضايا. كان مقاولان قد ارتكبا خطأ الإتجار بالمخدرات على أرض يدّعـــي وُدعاء الجحيم ملكيتهم لها. وقد وُجدت بقايا جثثهم في أكياس من النايلون، وطُلب مني فرز جثث كل من الفريقين.

كان التوجه نحو الطب الشرعي الجنائي الحديث حافزاً لي. حتى ذلك الوقت كـــنت أتعامـــل مع الهياكل العظمية التي يتم نبشها من مواقع أثرية وأقوم بفحص العظـــام لأحدد أنماط الأمراض، وأقدّر متوسط العمر في فترة ما قبل التاريخ. كان ذلك أمراً رائعاً لكنه غير وثيق الصلة بالأحداث المعاصرة.

حين بدأت العمل كمستشارة للباحث الطبـــي في كارولينا الشمالية شعرت بحماســـة لم أختـــبرها في عملي السابق. كانت قضية الدرّاجين التي ذكرتها كايت كالقـــضايا التي تلتها ملحة كما لم تكن الوفيات في العصور القديمة. كنت أستطيع مـــنح اســـم لمن ليس له اسم. كنت أستطيع تأمين عائلة وخاتمة. كان باستطاعتي الاشـــتراك في الجهـــود المؤدية إلى تطبيق القانون وذلك للحدّ من القتل في شوارع أميركـــا وتحديد ومحاكمة الفاعلين. كنت قد غيّرت مركز نشاطي المهني، وأهملت حياتي الشخصية و لم ألتفت إلى أي من الجبهتين بعد ذلك.

سألت، "كيف انتهى بك الأمر في حلقة مراجعة قضية توليو؟".

"لقـــد قدت اثنين من المحللين الذين يعملون معي إلى كوانتيكو من أجل القيام بدورة تدريبية. وبما أنني كنت هناك، فقد قرّرت أن أبقى لأعرف ما استجدّ".

"وما كان ذلك؟".

"عـــدا عـــن حقيقة أن الدرّاجين يقتلون بعضهم بعضاً بخفة أكبر من معظم النوادي الاجتماعية، فلا جديد".

"لا أعتقد أنني عملت في قضية تتعلق بدرّاجين من كارولينا منذ سنوات. من يوجد على الساحة هذه الأيام؟".

"لا يزال لدينا ثلاثة من الأربعة الكبار".

"أجـــل ســـيدتي. لا وجود لقطّاع الطرقات بعد. يعمّ الهدوء منذ مدة، لكن ما أدراك؟ قد تتغيّر الأمور الشهر المقبل حين يجري الوُدعاء سباقهم على شاطئ ميرتل".

"إن الوضع مضطرب هنا، لكنني لا أتصل الآن لهذا السبب".

"آه؟".

"هل سمعت يوماً بشابة تدعى سافانا كلير أوسبري؟".

عمّ صمت طويل. عبر الأميال بدا الاتصال كالمحيط في صدفة بحرية.

"هل هذه دعابة من نوع ما؟".

"على الإطلاق".

سمعتها تأخذ نفساً عميقاً.

"إن اختفاء أوسبري كان إحدى القضايا التي عملت فيها لصالح المكتب. كان ذلـــك منذ زمن طويل. كانت سافانا أوسبري فتاة في السادسة عشرة من عمرها وكانت تعاني الكثير من المشاكل الطبيّة. لم تكن تتسكع برفقة حشد صاخب و لم تـــتعاطَ المخدرات. بعد ظهر أحد الأيام غادرت المنـــزل و لم يرَها أحد بعد ذلك. على الأقل تلك كانت القصة".

"أنت لا تعتقدين أنها هربت؟".

"شكّت الشرطة المحلية في الأب، لكن لم يستطع أحد إثبات ذلك".

"هل تعتقدين بأنه كان متورطاً؟".

"الأمر ممكن. كانت فتاة خجولة، تضع نظارة سميكة. ونادراً ما كانت تخرج و لم تـــواعد أحداً. وكان الكل يعرف بأن الأب كان يضربها باستمرار كأنها كيس للملاكمة". كان صوتها يملأه الاحتقار. "كان يجب أن يُسجن الرجل. وقد سُجن بالفعل، لكن بعد مدة. فقد أُوقف بتهمة تعاطي المخدّرات كما أعتقد. ومات بعد خمس سنوات من اختفاء ابنته".

ما قالته بعد ذلك صعقني مثل ضربة على الصدر.

"لقـــد كان وغداً وكانت هي فتاة مثيرة للشفقة بشكل سبب لي الاضطراب فعلاً. لقد احتفظتُ بعظامها كل هذه السنوات".

"ماذا قلت؟" أمسكت بسماعة الهاتف وأنا بالكاد أتنفس.

"لم يوافـــق الأهـــل علـــى هذا أبداً، لكنني أعرف أن هذه عظامها. ما زلت أحتفظ بها في المكتب. يتصل دوك بـــي من وقت إلى آخر، لكنني دائماً ما أطلب منه الاحتفاظ بهذه العظام".

"هل وجدت بقاياها؟".

"بعـــد تسعة أشهر من اختفاء سافانا، ظهر هيكل عظمي لأنثى قرب شاطئ ميرتـــل. سلّط ذلك الضوء على دواين أوسبري. لم يكن عاملاً ثابتاً أبداً، إلا أنه في الـــوقت الـــذي اختفت فيه ابنته تقريباً كان يقوم بإيصال البضائع إلى مصنع محليّ لفطائر الجبن. وفي اليوم الذي اختفت فيه ابنته قام الأب برحلة إلى شاطئ ميرتل".

أصبتُ بصدمة جعلتني عاجزة عن تركيب سؤال.

"لكن هل تأكّدت من أن تلك كانت بقاياها؟".

"كـــلا، كان الكثير من العظام مفقوداً وكان ما وجدناه تالفاً للغاية. وبالطبع لم يكن تحليل الحمض النووي في ذلك الحين معروفاً. لِمَ تسألين عن سافانا أوسبري؟".

"هل وجدتم جمجمة؟".

"كـــلا، تلك كانت المشكلة الأساسية. كانت الضحية قد رُميت في الغابة ثم تمّت تغطيتها بلوح من التنك المجعد. سحبت الحيوانات أجزاءً من الجثة ونشرتها في كـــل المكـــان. لم يتم العثور على الجمجمة والفكّين أبداً، وظننا أن الحيوانات قد جـــرتها بعـــيداً. كانـــت العظام التي بقيت تحت اللوح سليمة لكن من دون فائدة كـــبيرة، وكانت بقية الهيكل العظمي قد مُضغت إلى حدٍّ جعل من الصعب معرفة أي شـــيء باستثناء الجنس. كان عالم أمراض يقوم بدراسة الحالة في ذلك الوقت. وقد ذكر في تقريره عدم وجود أي شيء يشير إلى العمر أو الطول أو العِرق".

لم يكـــن عـــالم أمراض ليعرف عن التقدّم في العمر المجهري أو عن احتساب طول القامة من العظام الطويلة الجزئية. ليس هذا بعملٍ جيد أيها الطبيب.

سألتها، "لماذا تعتقدين أنها سافانا؟".

"لقـــد وجدنا تعويذة فضية صغيرة في المنطقة القريبة من موقع العظام. كانت علـــى شـــكل طائـــرٍ من نوع ما. بالرغم من أن الأم أنكرت ذلك فقد استطعت الاســـتنتاج من ردّ فعلها أنها تعرفت إلى ذلك الشيء. لاحقاً قمت ببعض الأبحاث. كانت التعويذة صورة مطابقة عن الصقر صائد السمك".

انتظرت.

"وهذا الطائر معروف باسم أوسبري".

أخبرتها عن الجمجمة وعظام الفخذ في مونتريال.

"يا الله".

"هل ما زالت الأم موجودة في المنطقة؟".

"أصبح كل شيء ممكناً منذ استنسخوا تلك النعجة. سأكتشف ذلك. هل ما زلت تحتفظين بالملف؟".

"تستطيعين المراهنة على هذا؟".

"وماذا عن صور الأشعة لما بعد الوفاة؟".

"أملك عدداً كبيراً منها".

اتخذتُ قراراً سريعاً.

"أحضري تلك العظام يا كايت، أنا قادمة إليك".

صـــرّح باتيـــنو الرحلة وقمت أنا بالحجز في رحلة صباحية إلى رالي. تناولت وكيت عشاءً متأخراً تلك الليلة وتجنب كلانا ذكر الرزمة في الردهة والتي كنت قد أحضرتها من المختبر لآخذها معي. كان كيت يتطلّع إلى نـــزهة الغد مع كريز و لم يتأثر بغيابـــي.

كانت الطائرة تعج بالمجموعة المعهودة من الطلاب ورجال الأعمال ولاعبـــي الغولـــف في نهايـــة الأسبوع. حدّقت خارج النافذة بينما كان المضيفون يقدمون القهـــوة والمـــرطبات، وتمنيت لو كنت أنا أيضاً متوجهة إلى باينهارست أو مارش هاربـــور أو أويـــستر بـــاي. كنت أتمنى لو كنت أقوم بأي شيء باستثناء التحليل المقيت لعظام فتاة مراهقة.

نظـــرت إلى الحقيـــبة الرياضـــية تحت المقعد الأمامي. بدت غير مؤذية على الإطـــلاق، لكنني تساءلت عمّا يمكن أن يفكر فيه الركاب الآخرون إن هم عرفوا

بطبـــيعة محتوياتها. لقد طرتُ من مطار دورفال مرات تكفي كي يتوقف العاملون على آلة التصوير الشعاعية عن طلب تفسير. تساءلت عمّا سيكون الأمر عليه عند مغادرة رالي.

في الخارج كانت شمس الصباح تلوّن الغيوم بلون رمادي متلألئ. حين خرجنا من الغيوم استطعت رؤية ظل طائرة صغيرة في موازاة الطائرة التي أستقلّها.

أجل. هكذا هو الأمر كما أعتقد. هكذا كنت أرى الفتاة عند قدميّ. بالرغم مـــن أنه كان لديّ اسم الآن، فقد بقيت في خيالي ظلاً من دون شكل. كنت آمل أن تحوّل هذه الرحلة تلك الصورة إلى تحديد واضح لهويتها.

18

لاقـــتني كايت في مطار رالي دورام، وتوجهنا مباشرة إلى المختبر. كانت قد أحـــضرت الـــبقايا من مكتب الطبيب الشرعي في شابل هيل، وأمّنت غرفة حيث يمكننا العمل. إن كانت ستأخذ عينات من أجل إجراء تحليل الحمض النووي، يجب على كل الفرقاء أن يُجمعوا على أن هذا الترتيب هو الأكثر فعالية.

لبـــست القفـــازين، وفضضت رزمتي، بينما أحضرت كايت صندوقاً أبيض طويلاً من خزانة مقفلة. وضعته على الطاولة وتراجعت. كنت أشعر بالتوتر المعتاد في صدري وأنا أفك الخيط الرفيع، وأفتح الصندوق.

قمـــت بتـــرتيب العظام قطعة بعد الأخرى، وأنا أضع كل واحدة في مكانها التشريحي الصحيح. الأضلاع. فقرات الظهر. الحوض. العظام الطويلة.

كان الأخصائي في علم الأمراض محقاً في تقييمه للأذى الذي ألحقته الحيوانات بالعظام. كانت حيوانات القمّامة قد قضمت الكثير من اللحم بحيث لم تترك حافّة أو رأســاً أو مفصلاً على أي من العظام باستثناء الأصغر منها. كان التصاق العظام العانـــية ورؤوس العظم الحرقفي مختفياً بالكامل، وقد بقيت أجزاء من عظم النحر فقط. لكن ثمة حقيقة واحدة كانت جلية.

كانت عظمتا الفخذ الاثنتان مفقودتين.

أضـــفت العظام التي جئت بها من سان بازيل إلى تلك الملقاة على الطاولة. لم تكمّل تلك العظام الهيكلَ العظمي، لكنها لم تكن مطابقة لأي عنصر.

تكلمت كايت أولاً.

"تبدو متناسبة في الحجم وتكوُّن العضل. لا بدّ أنها كانت صغيرة الحجم".

"لقد حسبت أن طولها يبلغ حوالى خمس أقدام وإنشين باستخدام عظم الفخذ. لنرَ ماذا يعطينا عظم الساق الأكبر". أشرتُ إلى علامتين على الجذع. "ثمة صيغة تسمح لنا باستخدام هذا الجزء فقط".

قمت بقياس عظم الفخذ، ثم أجريت عملية الحساب. كان مجال الخطأ كبيراً لكنه كان يحصر الطول الذي قدّرته باستخدام عظم الفخذ. حين عرضت الرسم على كايت توجّهت إلى طاولة جانبية، وقلّبت بإبهامها صفحات ملف أكثر سماكةً من دليل هاتف مانهاتن.

"هذا هو. كان طول سافانا يبلغ خمس أقدام وإنشاً وثلاثة أرباع".

قلّبت عدداً أكبر من الصفحات ثم سحبت مغلفاً بقياس 7 × 5 وفضّت منه العديد من الصور.

تكلّمت بينما كانت تتفحّص صورة.

"لقد كان أمراً مؤلماً للغاية. لم يكن معظم رفاق سافانا يملكون أدنى فكرة عمن كانت. كما أن شالوت ليست بالمنطقة الكبيرة. أمّا الأولاد الذين تعرّفوا إلى اسمها أو صورتها فلم يتمكنوا من إخبارنا بأي شيء عنها. لقد كانت واحدة من أولئك الذين لا يتذكرهم أحد. ولدت عام 1968. توفيت عام 1984".

أمسكت كايت بصورة.

"لقد عاشت الفتاة حياة صعبة. عائلة بائسة. من دون أصدقاء. على كل حال، من المؤكّد أنها لم تكن كبيرة الحجم".

نظرت إلى الصورة، وشعرت بفيض من الحنان.

كانت الفتاة تجلس على بطانية وتمسك بيد هزيلة بطنها بينما امتدّت كف يدها الأخرى لتتجنب ملتقط الصورة. كانت ترتدي ثوب سباحة من قطعة واحدة تظهر بشرتها الشاحبة التي تكاد تكون زرقاء اللون. كانت تخبئ وجهها لكن الكاميرا استطاعت التقاط صورة وجهها وهي تنظر إلى الأعلى بعينين كبيرتين خلف نظارة سميكة. في البعيد، كنت أستطيع رؤية الخط الأفقي للأمواج حيث تلتقي بالشاطئ.

بينما كنت أحدّق إلى الوجه الضعيف الشاحب شعرت بالألم يعتصرني. ما

الدّافع المحرّض للاعتداء على شخص بهذا الضعف؟ هل قام غريب بتهديدها بسكين ثم خنقها وتركها للكلاب؟ متى أدركت أنها ستموت؟ هل صرخت برعب وهي تعلم أن ما من أحد سيسمع صراخها؟ هل ماتت في منزلها وسُحبت منه ثم رُميت؟ وحين أغلقت عينيها للمرة الأخيرة، هل شعرت بالرّعب أو الاستسلام، بالحقد أو بالخدر أو بمجرّد الذّهول؟ هل شعرت بالألم؟

"... قارني ملامح الجمجمة".

كانت كايت تسحب صور الأشعة من مغلف بني كبير، وتضعها على جهاز مضيء مثبت إلى الحائط.

"هذه سلسلة من الصور التي التُقطت للجمجمة قبل أربعة أشهر فقط من اختفاء سافانا".

سحبتُ صور الأشعة التي كانت بحوزتي من الحقيبة الرياضية، وثبتُّها إلى جانب صور المستشفى. بدأتُ بصور الوجه وقارنتُ شكل الجيوب الأمامية. هذه الفراغات التي تقع فوق محجري العينين، بكل أحجامها وأشكالها، هي تماماً كبصمات الأصابع، خاصّة بكل فرد.

كانت جيوب سافانا ترتفع إلى جبينها مثل ريشة على رأس ببغاء، وقد تطابق تكوين الجمجمة في صور الأشعة التي التقطت في المستشفى مع تكوين الجمجمة في صوري. كما ظهرت الفجوة التي سبّبها المثقاب واضحة في كل صورة، وقد تطابق الحجم والموقع في صور ما قبل وما بعد الوفاة.

لم يكن هناك من شك في أن الجمجمة التي تم نبشها في سان بازيل تعود لسافانا أوسبري. لكن هل نستطيع أن نربط الجمجمة وعظم الفخذ بالهيكل العظمي الجزئي الذي وُجد قرب شاطئ ميرتل؟

قبل مغادرتي مونتريال كنت قد انتزعت قطعة من جذع أحد عظام الفخذ كما كنت قد انتزعت ضرساً من الفك الأعلى في الجمجمة لإجراء تحاليل للحمض النووي من أجل تأكيد هوية الضحية في حال تم العثور على أقارب أو تمت استعادة عينات من النسيج أو الدم في فترة ما قبل الوفاة. بما أن تحليل الحمض النووي قد أصبح غير ضروري الآن بسبب الأدلة التي قدّمتها الأسنان والصور الشعاعية، فقد كان لديّ هدف آخر.

اســـتخدمت منـــشاراً للعظام لأقطع جزءاً بحجم إنشٍ واحد من عظم الساق الأكـــبر ومن عظم الساق الخارجي الذي كانت كايت قد احتفظت به كل تلك السنوات. راقبتني بصمت بينما كان النصل الدائري ينخر في العظم الجاف وينشر رذاذاً من البودرة البيضاء.

"من غير المحتمل أن يكون المستشفى قد احتفظ بعينات بعد كل هذا الوقت".

وافقت قائلة "صحيح، لكن قد يحصل ذلك".

كان ذلك صحيحاً. حصىً صفراوية لاكتشاف بداية السرطان، لطخات دم. لقد وُجد حمضٌ نووي قديم في كل أنواع الأماكن الغريبة.

"ماذا لو لم يكن هناك أقرباء؟".

"إن قارنّـــا التتابع في عظام ميرتل بيتش مع التتابع الذي وجد في عظام سان بازيل العظيم، فسنعرف على الأقل هل كانت كل البقايا تعود لنفس الشخص. في هذه الحالة نكون قد تعرّفنا إلى عظام شاطئ ميرتل لأننا نملك هوية أكيدة لجمجمة مونتريال. لكنني أودّ إجراء فحص للحمض النووي".

"ماذا لو لم يكن هناك حمض نووي؟".

"لديّ شرائح مجهرية أخذتها من أحد عظام الفخذ في سان بازيل. حين أعود سأقوم بالأمر نفسه مع هذه العينات، ثم سأفحص كل شيء تحت مكبّر فعّال".

"وبماذا سيخبرك هذا؟".

"بالعمـــر مثلاً. سأرى هل هو متطابق بين مجموعتي البقايا. كما سأبحث عن تفاصيل قد تكون مفيدة في البنية المجهرية".

كانـــت الساعة تقارب الواحدة حين صنّفنا العينات الأربع وأعطيناها أرقاماً. كانت كايت قد أنجزت المعاملات الضرورية لتسليمي إياها. قرّرنا أن نتناول غداءً ســـريعاً قبل أن نعالج ملف القضية. أخبرتني ما كان معروفاً عن الساعات الأخيرة لـــسافانا أوســـبري بينما كنا نتناول فطائر اللحم والجبن والبطاطا المقلية في مطعم وندي المحليّ.

بحسب أهل الفتاة، كان أسبوع سافانا روتينياً. كانت صحتها جيدة، وكانت تتطلّع إلى مناسبة ما في مدرستها، بالرغم من أنهم لم يستطيعوا تذكّر تلك المناسبة. يـــوم اختفائها كانت تمضي بداية بعد الظهر في الاستعداد لامتحان في الرياضيات،

لكـــنها لم تـــبدُ قلقـــةً بشأنه. قرابة الثانية قالت إنها تحتاج إلى شيء من الصيدلية، وغادرت المنـــزل سيراً. لم يروها بعد ذلك أبداً.

أنهت كايت كلامها قائلةً "على الأقل هذه كانت قصة الوالد".

"كان في البيت ذلك اليوم؟".

"حتى حوالى الثالثة والنصف حين حمّل بضاعة في ديلنغتون قبل أن يتوجه نحو شاطئ ميرتل. وقد أكّد مديره على وقت المغادرة. تأخر قليلاً في توصيل البضاعة، لكنه ألقى اللّوم على زحمة السير".

"هل تمكّنت من تفتيش البيت أو الشاحنة؟".

"كـــلا. لم يكـــن لدينا أي دليل ضده، لذلك لم نتمكن من إصدار مذكرة تفتيش".

"ماذا عن الأم؟".

"بريندا، إنها موضوع آخر".

قضمت كايت قطعة من شطيرتها، ثم مسحت فمها بمنديل ورقيّ.

"كانـــت بـــريندا تعمل ذلك اليوم. أعتقد أنها كانت تعمل في تنظيف غرف الفـــنادق. بحسب إفادتها، حين عادت من العمل عند الخامسة كان المنـــزل فارغاً. لم تـــشعر بالقلق حتى حلّ الظلام ولم تكن سافانا قد اتصلت أو وصلت إلى البيت بعـــد. بحلـــول منتـــصف الليل، كانت الأم قد أُصيبت بالهلع، وأبلغت عن فقدان ابنتها".

شربت زجاجة المرطبات حتى آخرها.

"كانت بريندا متعاونة لحوالى يومين، ثم انقلبت بشكل كامل، وصرّحت بأن ابنتها قد غادرت مع أصدقاء لها. مذ ذاك الوقت أصبح الكلام معها عديم الفائدة. كـــان قسم شرطة شالوت هو الذي اتصل بنا، وحصل على المعلومات من أطباء سافانا وطبيب أسنانها لإدخالها إلى مركز معلومات الجريمة الوطني. عادة يكون هذا عمل الأهل أو الأوصياء".

"ولماذا انقلبت؟".

"ربما هددها دواين".

"ماذا حدث له؟".

"بعـــد حوالى خمس سنوات من اختفاء سافانا، لا بد من أن دواين اشتاق إلى الجبال. فقاد سيارته طوال الطريق صعوداً نحو تشيمني روك ليحتفل بالرابع من تموز مع أصدقائه بالتخييم وتناول الشراب. خلال ليلته الثانية هناك قاد سيارته إلى البلدة وهـــو تحت تأثير الشراب فدفع بنفسه عن الطريق السريع وانقلبت فوقه السيارة. فهمت أنهم حين عثروا عليه كان قطر رأسه أكبر من قطر إطار سيارة احتياطي".

جمعـــت كايـــت الأوراق التي كانت تلفّ طعامها ووضعتها وسط صينيتها، وابتعدت عن الطاولة.

"مـــات التحقـــيق إلى حدّ كبير مع دواين". قالت وهي تدفع بكل شيء إلى مكبّ للنفايات.

خـــرجنا مـــن المطعم إلى فناء صغير حيث حيّانا رجل أسود كبير يعتمر قبعة اليانكيـــز بالتحية المعهودة. كان يروي الأزهار بخرطوم للحدائق، وامتزجت رائحة التراب الرطب والبتونية مع رائحة دهون الطبخ.

انعكست شمس بعد الظهر على الإسمنت ودفّأت رأسي وكتفيّ بينما كنا نعبر موقـــف السيارات إلى سيارة كايت. حين ثبّتنا حزاميّ الأمان سألتها، "هل تظنين أنه قتلها؟".

عمّ الصمت قبل أن تجيب.

"لا أعرف يا تمب. بعض الأشياء مفقودة".

انتظرت بينما كانت تستجمع أفكارها.

"كان دواين أوسبري يعاني من الإدمان وكان وضيعاً مثل ثعبان، لكن حقيقة أنـــه عاش في شالوت تعني أن قرية ما قد حرمت من أحمق شرعيّ لها. أعني أن هذا الـــرجل كـــان غبياً. لم أظن أبداً أنه يستطيع أن يقتل ابنته وينقل جثتها إلى مدينة أخـــرى ثم يخفي آثار فعلته بالكامل. لم يكن يملك هذا الذكاء. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت أحداث عديدة تجري ذلك الأسبوع".

"مثل؟".

"كل عام في منتصف أيار يجري سباق للدرّاجات على شاطئ ميرتل وهو سباق إجـــباري لفروع وُدعاء الجحيم في الجنوب. كما يأتي العديد من الهمجيين أيضاً. ذلك الأسبوع كان المكان يعج بالجميع من الدرّاجين الخارجين على القانون إلى الروبـــي".

الروبـــــي؟ لا يمكـــن أن تقصد الاسم بالمعنى المستخدم في مونتريال حيث نستعمل الكلمة بدلاً من كلمة وينو العامية.

"إنهـــم الدرّاجـــون الأثرياء في المدينة. على كل حال، هكذا انتهت القضية. اعتقد رئيسي في العمل بإمكانية تورط إحدى العصابات".

"حقاً؟".

" لم نجد أي علاقة أبداً".

"ماذا تظنين أنت؟".

"لا أعرف يا تمب. تقع شالوت على الطريق السريع رقم 17، الطريق المؤدي إلى شاطئ ميرتل حيث يوجد عشرات الفنادق ومطاعم الوجبات السريعة. مع كل حـــركة الـــسير المـــتوجهة نحو جنوب كارولينا ذلك الأسبوع يمكن أن تكون قد اصـــطدمت بمـــريض نفـــسي يـــنعطف عن الطريق السريع بحثاً عن وجبة دجاج وكعك".

"لكن لِمَ يقتلها؟" عرفت أن سؤالي كان غبياً حالما طرحته.

"يُقـــتل الناس بسبب قيادتهم، أو بسبب ارتدائهم اللون الأحمر حيث يتسكّع أفراد العصابة الزرقاء، أو بسبب شراء منتج ما من الممون الخطأ. ربما قتلها أحدهم فقط لأنها تضع نظارة".

أو من دون أي سبب على الإطلاق، مثل إميلي آن توسان.

حين عدنا إلى المختبر فتحنا الملف، وشرعنا نتفحّص الوثائق. سجلات طبية. سجلات الأسنان، سجلات الهاتف. سجلات التوقيف. نصوص المقابلات، تقارير عن الطواف في الجوار. ملاحظات بخط اليد دوّنت خلال عمليات المراقبة.

كان المحققون من شالوت والمحققون من مكتب الدولة للتحقيق هم الذين قد لاحقوا كل خيط. حتى الجيران شاركوا بجهودهم. فتشت الفِرقُ في البرك والأنهار والغابـــات. كل هذا من دون جدوى. كانت سافانا أوسبري قد غادرت منـــزلها واختفت.

بعـــد تـــسعة أشهر على اختفاء سافانا، تم العثور على بقايا في منطقة شاطئ ميرتل. اتصل المحقق في أسباب الوفيات المشتبه فيها في مقاطعة هوري بالسلطات في كاروليـــنا الشمالية، وأرسل العظام إلى تشابل هيل ظنّاً منه بأن العظام التي وُجدت

لها علاقة بقضية أوسبري. أظهر تقرير المحقق الطبـــي تماثلاً، لكن تم استنتاج أن أي تأكيد لهوية الهيكل العظمي لم يكن ممكناً. رسمياً، لم يتم العثور على أي أثر لسافانا.

تمّ إدخال آخر معلومة إلى الملف في 10 تموز 1984. بعد وفاة دواين أوسبري أُعيد استجواب زوجته. تمسّكت بريندا بالقصة التي مفادها أن ابنتها قد هربت.

أنهيـــنا الملـــف بعـــد السابعة. أُصيبت عيناي بالإرهاق وظهري بالألم جرّاء الـــساعات التي أمضيتها منحنية فوق خط صغير وسيئ. كنت متعبة ومُثبطة العزيمة وقد فاتتني طائرتي. ولم أكن قد عرفت شيئاً تقريباً. أصدرت كايت تنهيدة أخبرتني بأنها كانت على نفس الصفحة.

سألتها، "ماذا الآن؟".

"الآن يجـــب أن نجد لك مكاناً كي تمكثي فيه، ونتناول عشاء خفيفاً، ونفكّر في كيفيّة المتابعة من هنا".

بدت تلك خطة جيدة.

حجزت غرفة في نـــزل رد روف على الطريق I-40 كما حجزت مكاناً على طائـــرة الـــصباح. ثم حاولـــت الاتصال بكيت لكنه لم يجب. شعرت بالدهشة، وتـــركت رسالة ورقم هاتفي الخلوي. حين أنهيت حزمت عظام كلّ منا واتجهت نحو شارع غارنر إلى مكتب كايت.

كـــان البناء الذي يضم مكتب الدولة للتحقيق متناقضاً بشكل حادّ مع مختبر الجريمة فوق العصري. بينما كان الأخير عبارة عن بناء عالٍ جداً من الأسمنت معقّم وفعـــال، كـــان بناء المقر المؤلف من طابقين فقط أحمر أنيقاً مزيناً بزخارف قشدية اللـــون. كما كان مُحاطاً بأراضٍ مشذّبة وينسجم بشكل أفضل مع متجر التحف الصغير المواجه له من المبنى الحجري الأثري الضخم الموجود في الشارع.

ركنّا السيارة على الجادة الرئيسية، واستعدنا رزمتينا، وتوجهنا نحو المبنى. إلى الـــيمين كـــان هناك سياج دائري تحدّه نباتات القطيفة والبنفسج. وارتفعت ثلاثة أعمـــدة من وسط الحديقة مثل الأشرعة على حاجز خشبـــي مربّع. كنت أستطيع سماع الصوت الصادر عن القماش وقعقعة الحديد بينما كان ضابط في الزي الرسمي ينـــزل آخر الأعلام. كانت الشمس تضيء ظهره جزئياً وهي تسقط تحت سقف مركز قريب لخفر الطريق العام.

مـــررنا عـــبر الـــباب الزجاجي الذي كُتب عليه من الأعلى *قسم العدالة في كارولـيـــنا الشمالية*، *مكتب التحقيق في الولاية*، وصعدنا السلالم إلى الطابق الثاني بعـــد أن عطّلنا جهاز الأمن. مرة أخرى وضعنا العظام في مكان آمن، هذه المرة في خزانة مقفلة في مكتب كايت الصغير.

"ماذا تودين أن تأكلي؟".

"اللحـــم". قلـــت مـــن دون تـــردد "اللحم الأحمر الذي يتخلّله دهن أبيض حقيقي".

"لقد تناولنا شطائر اللحم بالجبن على الغداء".

"صـــحيح. لكنني قرأت للتو نظرية تطوّر رجال الكهوف إلى مخلوقات بشرية عـــصرية. يـــبدو أن مفتاح الانتقال كان الدهن المبالغ فيه في نظامهم الغذائي. ربما يساعد زوج من الأضلاع الكبيرة عمليات التفكير لدينا".

"لقد اقتنعت".

كـــان اللحم فكرة جيدة. أو ربما كانت الاستراحة من الطباعة غير الواضحة على وثائق مصورة فقط هي السبب. حين وصل شرابنا كنا قد ركّزنا على السؤال الأساسي.

كانـــت العظام في مونتريال تعود لسافانا من دون شك. لكن لم يكن مؤكداً بعـــد إن كانت العظام التي وجدت هنا تعود لها. هل سافرت فتاة مريضة تعاني من مشاكل في النظر وشخصية خجولة في السادسة عشرة من عمرها 1500 ميل شمال منـــــزلها إلى بلد آخر وماتت هناك؟ أو هل أخذ أحدهم بعض وليس كل العظام التي تعود لفتاة ميتة من ولاية كارولينا إلى مونتريال ودفنها هناك؟

إن كانت الوفاة قد حدثت في مونتريال فإن العظام التي وُجدت على شاطئ ميرتل لم تكن لسافانا.

بالرغم من أن كايت لم تقتنع بهذه النظرية، فإنها اعترفت بإمكانيتها.

إن كانـــت العظام التي عُثر عليها على شاطئ ميرتل تعود لسافانا، فإن جزءاً من الهيكل العظمي قد نُقل من مكانه.

كـــنت قد درست صور الموقع و لم أجد شيئاً يدعو للقلق. بدا التحلّل متوافقاً مـــع فتـــرة تسعة أشهر وفترة ما بعد الوفاة التي توافقت مع تاريخ اختفاء سافانا.

بعكـــس الحفرة عند منتدى الأفاعي، فإن هذا الموقع لم يعطِ أي مؤشر لعملية دفن ثانوية.

قدّم هذا الافتراض عدة إمكانيات.

سافانا ماتت على شاطئ ميرتل.

سافانا ماتت في مكان آخر ثم نُقلت جثتها إلى شاطئ ميرتل.

قُطِّعت أوصال جسد سافانا، ونُقلت أجزاء منه أو تُركت في شاطئ ميرتل ثم تمّ فصل عظام الجمجمة والساقين ونقلت إلى كندا.

لكـــن إن تمّ فصل أجزاء الجثة عمداً، لِمَ لم تكن هناك أي علامات للجروح على أي من العظام؟

بقـــي السؤال الأهم: كيف انتهى الأمر بسافانا جثة كاملة أو مقسّمة حيّة أو ميتة في كيبيك؟

"هل تظنين أهم سيُعيدون فتح القضية؟" سألتها بينما كنا ننتظر الفاتورة.

"أشـــك في ذلـــك. كان الكل مقتنعاً بأن دواين قتل ابنته. كان التحقيق قد توقّف قبل وقت طويل من حادثه، لكن موته أقفله فعلياً".

ناولت النادل بطاقة ائتماني متجاهلة احتجاجات كايت.

"ماذا الآن؟".

قالت، "إليك ما أفكّر فيه. أولاً، كان هذا تلاعباً بالفاتورة".

أجل، أجل. أوعزت لها بالمتابعة بإشارة من يدي.

"لقد عُثر على جمجمة سافانا في أرض تابعة للدرّاجين في كيبيك".

كانت تعدّ النقاط على أصابعها.

"والأفاعي عبارة عن نادٍ تابع لوُدعاء الجحيم، صحيح؟".

أطرقت برأسي موافقة.

"كان أعضاء الوُدعاء يجتمعون على الطريق السريع قريباً جداً من مسقط رأس سافانا خلال الأسبوع الذي اختفت فيه".

انضم إصبع ثالث إلى الإصبعين الآخرين.

"لقد ظهر هيكلها العظمي في منتزه شاطئ ميرتل العام، وهو على بعد مرمى حجر من جادة بارتي".

التقت عيناها بعينيّ.

"يبدو أن الموضوع يستحق التحقيق".

"لكنك قمت بذلك بالفعل".

"ماذا تقترحين؟".

"كانــت بداية الثمانينيات فترة مهمة للدرّاجين في كارولينا. دعينا نسحب ملفات العصابات التي بحوزتي، ونرى ما يمكننا ملاحظته".

"هل تعود هذه الملفات إلى هذا الوقت؟".

"إن جمــع المعلــومات التاريخية هو إحدى مهماتي. كما أن الأعمال غالباً ما تكون مهمة في تحقيقات ريكو، خاصة جرائم القتل القديمة".

كانــت تشير إلى قانون المنظمات الفاسدة التي تمارس عمليات الابتزاز وهو القانون الذي وقّعه نيكسون عام 1970. كان غالباً ما يُستخدم في ملاحقة الجريمة المنظمة.

"بالاضــافة إلى ذلك، فإن أفراد العصابات غالباً ما يتنقّلون بين الفروع ومن المفيد معرفة من كان موجوداً في أي موقع في وقت معين حين تبحثين عن شهود. لدي أطنان من المعلومات تتضمن صوراً وشرائط فيديو".

"لديّ الليل بطوله". قلتُ وأنا أفتح ذراعيّ واسعاً.

"لنذهب ونتحقّق من الدرّاجين".

هــذا مــا قمــنا به حتى رنّ هاتفي الخلوي عند الساعة 5:23 صباحاً. كان الاتصال من مونتريال.

19

لم تكن شقق الشمس مشمسة كما يدل اسمها. لكن تسمية المكان بالنسبة إلى صفاته الفعلية سيكون تسويقاً سيئاً. كان المبنى مظلماً وكئيباً وقد ظلّل السُّخام نوافذه التي أغلقتها عقود من الصيانة المهملة. كانت الشرفات الصغيرة التي برزت من كل طوابقه الثلاثة ملفوفة بألواح فيروزية وتغصّ بشوايات صدئة وكراسي حدائق رخيصة وسلال بلاستيكية للنفايات بالإضافة إلى أنواع متعددة من المعدات الرياضية. كانت أُصُص الزهور موضوعة على شرفة أو اثنتين وكانت محتوياتها بنية اللون وذابلة منذ فصول عدة مضت.

لكن لم يكن أحد ليستطيع لوم نظام التدفئة. يوم ذهبت إلى كارولينا الشمالية كان الربيع قد حلّ أخيراً في كيبيك وكانت الحرارة قد ارتفعت إلى 68 درجة فهرنهايت. كانت الحرارة أعلى من ذلك الآن، لكن أجهزة التكييف ظلّت تعمل ببسالة رافعة درجة الحرارة إلى أكثر من 80 درجة في الداخل. اختلط الحر مع رائحة العفن مما سبّبَ شعوراً بالغثيان وعدم القدرة على التنفس بعمق.

من مكاني، كان بإمكاني رؤية ما بداخل الغرف التي تؤلف الشقة الصغيرة القذرة. كان المطبخ يقع إلى يساري فيما كانت غرفة الجلوس تقع إلى يميني وغرفة النوم والحمام مباشرة أمامي. بدا المكان وكأن شاغله كان يعرض أغراض بيته للبيع، بالرغم من أن القذارة والرائحة النتنة كانتا لتثبطا عزيمة أكثر صيّادي الصفقات نشاطاً.

تكدّست المعدات والمجلات والكتب ذات الأغلفة الورقية والزجاجات والأدوات الكهربائية المعطلة فوق كل سطح مرتفع، كما غصّت الأرض بمعدات

وقطع السيارات والدرّاجات والإطارات وعلب الكرتون وعصيّ الهوكي وأكياس النايلون المربوطة بشرائط معدنية. ارتفع هرم من عبوات الشراب تقريباً إلى السقف عـــند الطرف الأخير من غرفة المعيشة والتفّت أطراف ملصقات ممزقة معلّقة على الحـــائط علـــى كلا الجانبين. كان الملصق على اليمين يصور إعلاناً لحفل موسيقيّ بتاريخ 17 تموز 1983.

حـــسبما رأيـــت كان الأثاث الوحيد الموجود للاستخدام العملي يتألّف من طاولة من خشب الفورميكا وكرسي واحد في المطبخ وسرير مزدوج في غرفة النوم وكنـــبة في غـــرفة المعيشة. وكانت هناك جثة تحتلّ الكنبة ورأسها عبارة عن كتلة حمراء مشوّهة فوق جذع وأطراف متفحّمة. داخل اللحم كنت أستطيع رؤية عظام الوجه محطّمة وجزء من الأنف مع نصف شارب وعين كاملة. كان الفك السفلي مرتخياً لكنه كان سليماً ويبرز منه لسان تحوّل لونه إلى البنفسجي وأسنان متعفنة قد اصطبغت باللون البني.

كـــان أحـــدهم قـــد جمـــع أجزاء العظام والدماغ ووضعها في كيس محكم الإغلاق. وقد أُلقي الكيس في حجر الرجل وكأنه عُيّن لحراسة دماغه الخاص، كما التصقت بجانب الكنبة قطعة كبيرة من الجلد ناعمة ولامعة كبطن سمك نهري.

كـــان المـــيت يجلس بمواجهة جهاز تلفاز صغير ثُبتت عليه حمالة للمعاطف لاســـتبدال هوائـــي مكسور. كان أحد طرفيها ملتوياً وموجهاً نحو رأسه كإصبع شـــاهد يـــشير إلى ضالته. لم يكن أحد قد كلّف نفسه عناء إغلاق جهاز التلفاز وكـــنت أستطيع سماع مونتيل يتحدث إلى النساء اللواتي سرقت أمهاتهن عشاقهن. تساءلت عما كان المتحدثون سيظنون بمشاهدهم الرهيب.

قام واحد من قسم التعرف إلى الهوية بنفض الغبار من غرفة النوم بحثاً عن أي بـــصمات كامنة، فيما قام آخر بالأمر نفسه في المطبخ. وشغلت ثالثة كاميرا فيديو وراحـــت تمـــرّ على كل غرفة ببطء ثم تقرّب العدسة لتلتقط صوراً قريبة لمجموعة الخـــردة. قبل أن أصل إلى هناك، كانت قد التقطت عشرات الصور الفوتوغرافية للضحية ومحيطه الكئيب.

كـــان لامانش قد جاء ورحل. بما أن الجثة لم تكن قد احترقت إلى حدٍّ كبير، وكان التحلّل متوسط الدرجة فقط، فإن وجودي لم يكن ضرورياً فعلاً، لكن هذا

الأمـــر لم يكن واضحاً في المراحل المبكرة. كانت التقارير الأولية قد وصفت جثة وحـــريقاً، فتمّ استدعائي كما أُجريت ترتيبات النقل. حين تمّ تقييم مسرح الجريمة كنت قد انتقلت من رالي، وكان من أبسط الأمور أن أتابع الخطة الأساسية. كان كويكواتر قد أقلني من المطار وأحضرني إلى هنا.

تقـــع شقق الشمس إلى الجهة الجنوبية الغربية من وسط المدينة في شارع صغير يمر شـــرقي جـــادة شارل فوا. كانت المنطقة المجاورة المعروفة ببوان سان شارل تقع على جزيرة مونتريال، لذا، فإن الجريمة كانت تقع على عاتق مجتمع مونتريال المدني.

وقف ميشال تشاربونو عند الطرف الآخر من الغرفة وقد أصبح وجهه وردياً بلون دواء البيتبو بيسمول، وتجمّع شعره في خصلات شائكة رطبة. لم يكن يرتدي ســـترة، وكان العرق قد أغرق ياقة قميصه كما كانت ربطة عنقه تتدلى تحت الزر الأعلـــى المفتوح لقميصه. كانت ربطة عنقه قصيرة جداً حتى وهي مرخية. راقبته يسحب منديلاً من جيبه ويمسح به جبينه.

أخـــبرني تشاربونو مرة أنه كان يعمل في حقول النفط في تكساس حين كان مراهقاً. بالرغم من أنه كان يحب حياة راعي البقر، إلاّ أن الحرّ ربح في نهاية الأمر، فعـــاد إلى موطنه في شيكوتيمي، وفي نهاية المطاف توجه إلى مونتريال حيث انضم إلى قوة الشرطة في المدينة.

في تلك اللحظة خرج كويكواتر من المطبخ. كان الضحية معروفاً بعلاقاته مع رجال العصابات، لذا، فإن عملية كركاجو كانت مرتبطة بهذه الجريمة.

انـــضم ضابط الأمن إلى تشاربونو ووقف الاثنان يراقبان فريقاً يقوم بفحص بقـــع الدم في زاوية خلف الضحية. حمل رونالد غيلبرت مسطرة باللونين الأبيض والـــرمادي علـــى شكل زاوية مستقيمة بمواجهة الحائط فيما قام رجل أصغر منه بالـــتقاط صـــور فوتوغـــرافية وصور فيديو. أعادا التقاط الصور باستخدام خط عامودي، ثم انتقل غيلبرت إلى المسماك الجرار، وأخذ سلسلة من القياسات. أدخل المعلومات إلى حاسوب محمول، ثم عاد إلى المسطرة الخاصة بمسرح الجريمة والمسماك الجرار. المزيد من الصور الفوتوغرافية. المزيد من القياسات. كان الدم في كل مكان يلطّـــخ السقف والجدران، ويرقّش الأشياء المكدسة تجاه إزار الجدران. بدا وكأن الاثنين سيستغرقان وقتاً طويلاً في مهمتهما هذه.

أخذت نفساً عميقاً، واقتربت من المحققين.

"صباح الخير. كيف الحال؟".

"مـــرحباً يـــا دكتورة. كيف حال العمل؟" كانت إنكليزية تشاربونو خليطاً غريباً من لهجة كيبيك ولكنة تكساس، وكانت الأخيرة بمعظمها باطلة.

"صباح الخير يا سيد كويكواتر".

اســـتدار كويكواتـــر قلـــيلاً وقد بدا منـــزعجاً من اضطراره إلى الاعتراف بوجـــودي، ثم عاد بانتباهه إلى فريق بقع الدم. كانوا يقومون بتصوير غيتار سمعي متّكـــئ بشكل عامودي على قفص صدئ للعصافير. خلف القفص كان بإمكاني رؤية قبعة رياضية مثبتة على الحائط.

سألت تشاربونو "أين كلوديل؟".

"إنـــه يتفقد مشتبهاً فيه، لكنه سيكون هنا عما قريب. هؤلاء الرجال مهمون بالفعـــل، ألـــيس كـــذلك؟" امتلأ صوت تشاربونو بالاشمئزاز. "لديهم الصفات الأخلاقية التي تملكها خنفساء الروث".

"أهي جريمة تتعلق بالعصابات؟".

"أجـــل. ذلك الرجل الذي لا يبدو بحالة جيدة هناك هو إيف ديجاردن، ولقبه الشارعي هو شيروكي. لقد كان أحد الأعضاء المفترسين".

"من يكون هؤلاء؟".

"المفترسون، هم نادٍ آخر تابع لوُدعاء الجحيم".

"كالأفاعي".

"لقد فهمت".

"إذاً، كانت هذه ضربة آلة الصخر؟".

"ربمـــا، بالرغم من أنني أدرك أن شيروكي لم يكن عضواً فاعلاً منذ سنوات. لقـــد كان يعاني من مشاكل في كبده. لا. لقد كان يعاني من سرطان في القولون. نعم، هذا هو. وهو أمر ليس مفاجئاً إذا أخذنا في الاعتبار كمية الشراب الموجودة لدى هؤلاء الرجال".

"ماذا فعل ليثير غضب المعارضة؟".

"لقد كان شيروكي يدير نوعاً من تجارة قطع الغيار".

حين قام تشاربونو بإشارة شاملة استطعت رؤية قوس قاتم تحت إبطه. "لكن يبدو أن تجارة أضراس العجلات المسننة والمكربن لم تكن تدرّ ربحاً كافياً. لقد عثرنا علـــى كيلوغرامين من المخدرات مخبأة في دُرج الملابس الدّاخلية لهذا الرجل العظيم الـــشجاع. لا بد من أنّه كان مكاناً آمناً بما أنه وكما يبدو لم يغير ملابسه الدّاخلية أبـــداً. على كل حال، ربما كان هذا ما ألهم الزيارة المفاجئة. لكن، من يعلم؟ ربما كان ذلك انتقاماً لضربة ماركوت".

"العنكبوت".

أطرق تشاربونو برأسه.

"هل كانت هناك أي علامات للدخول عنوة؟".

"ثمة زجاج نافذة مكسور في غرفة النوم، لكنهم لم يدخلوا بهذه الطريقة".

"ليس فعلاً؟".

"معظم الأجزاء موجودة في الممر. يبدو أن النافذة قد كُسرت من الداخل".

"ومن قام بذلك؟".

رفع كفيه بإشارة إلى أنه لا يعرف شيئاً.

"إذاً، كيف دخل القاتل؟".

"لا بد من أنه أدخلهم".

"ولِمَ يفعل ذلك؟".

"كـــان شيروكي ماكراً كالثّعلب وأقل لطفاً منه بقليل. لكنه عاش أكثر من المتوقع وكان ربما قد بدأ يشعر بأنه لا يُقاوَم".

"باستثناء السرطان".

"صحيح. دعيني أريك شيئاً".

عبر تشاربونو الغرفة إلى الجثة وتبعته. كانت الرائحة أقوى عن قرب، وكانت مـــزيجاً مثيراً للغثيان من الصوف المتفحم والبنـــزين والبراز واللحم المتعفن. سحب منديله ووضعه فوق أنفه.

"انظري إلى الأوشام". قال بصوت مكبوت.

كانـــت يد شيروكي اليمنى في حجره فيما كانت يده اليسرى تتّخذ زاوية غريبة عـــبر مـــسند الكنـــبة وأصابعه تتدلى نحو السجادة. بالرغم من وجود طبقة سميكة من

الـــسُّخام فقـــد كانـــت مجموعة من الجماجم تبدو واضحة على معصمه الأيمن. كان مجموعها خمس عشرة جمجمة مرتّبة على شكل هرم كالأضاحي الغامضة الموجودة في الكهوف الأوروبية. لكن هذه التذكارات أظهرت فَرقاً فَشِلَ أسلافنا سكان الكهوف في إحداثه. كان لثلاث عشرة جمجمة عيون سوداء، بينما حملت اثنتان عيوناً حمراء.

"تبدو كمشط مسدس". أزال تشاربونو المنديل عن فمه لوقت يسمح له بالكلام فقط. "اللون الأسود يشير إلى أنه قتل رجلاً، أما الأحمر فيعني أنه قتل امرأة".

"من الغباء إعلان الأمر".

"أجـــل، لكـــن رجلنا هذا ينتمي إلى المدرسة القديمة. اليوم يصغون أكثر إلى محاميهم".

مـــن خلال طريقة الانتفاخ وانـــزلاق الجلد خمّنت بأن الرجل كان قد توفي قبل يومين.

"كيف تم العثور عليه؟".

"كالمعتاد، اشتكى أحد الجيران من رائحة كريهة. من المدهش أن يتمكّن أحد من التمييز مع كل هذه القذارة".

نظرت إلى الجثة مجدّداً. باستثناء الأسنان البشعة والشارب، كان من المستحيل إدراك مـــا كان عليه شكل الرجل. كان ما تبقى من رأسه يرتكز على ظهر الكنبة وقـــد لطّخت بقعة قاتمة كالزهرة التنجيد وراءه. تمكنت من رؤية رصاصات بندقية الرش في اللحم الذي كان يشكل وجهه.

"كالمؤثرات الخاصة؟".

أشـــار تـــشاربونو إلى السجادة الصغيرة المحبوكة تحت قدمي الضحية. كانت محـــروقة على نحو سيئ كما كان الجانب السفلي من الكنبة. كان شيروكي نفسه أســـود اللـــون بـــسبب الدخان، كما كانت يده اليسرى المتدلية وطيات سرواله الجينـــــز وجـــزمته المحروقة سوداء أيضاً. لكن باستثناء ذلك كان هناك القليل من الخراب بسبب الحريق.

كان أحدهم قد أشعل حريقاً أمام الكنبة، ودلّت رائحة البنـــزين المتبقية على اســـتخدام مسرع لإشعال النار. ربما ابتلعت ألسنة اللهب الجثة لكنها ما لبثت أن خمدت بعد أن نفد الوقود. بحلول ذلك الوقت كان القتلة قد رحلوا.

رفع تشاربونو المنديل مرة أخرى.

"إنهـــا ضربة درّاجين نموذجية. حطّم الهدف ثم أشعل الجثة. لكن لا بد من أن هذا الفريق فشل في الصف الذي يدرّس مبادئ جرائم الإحراق".

"لِـــمَ فتح هذا الرجل الباب لشخص آخر إن كان يتاجر بالمخدرات في الفناء الخلفي؟".

"قـــد يكـــون ســـرطان القولون قد أثّر في دماغه، أو ربما يكون قد أفرط في تعاطي المخدرات. وربما كان يعاني من أوهام السَّواء".

"هل من الممكن أن يكون ناديه الخاص هو المتورط؟".

"لن تكون المرة الأولى".

وصـــل كلوديل في تلك اللحظة، واعتذر تشاربونو لينضم إلى زملائه. كنت أشـــعر بالفـــضول حول المشتبه فيه الذي كان يستجوبه، إلاّ أنني لم أود أن أكون ضـــمن فريق كلوديل وكويكواتر، فانتقلت إلى الجانب الأبعد من الغرفة، وعدت لمـــراقبة محلّلي بقع الدم. كانوا قد انتهوا من الحائط الغربـــي، ويلفون الزاوية نحو الجنوب.

بالـــرغم مـــن أنني وقفت أبعد ما يمكن عن الجثة، إلا أن الرائحة في الغرفة كانـــت قد أصبحت غير محتملة. كما أن تشاربونو كان محقاً. كانت الجثة أحد العناصر فقط في الخليط المقزز من العفن الفطري وزيت المحرك والشراب والعرق وســـنوات من الطبخ السيئ. كان من الصعب تخيل إمكانية العيش في جو فاسد كهذا.

نظرت إلى ساعتي. كانت تشير إلى الثانية وخمس عشرة دقيقة. بدأت التفكير في تاكسي فاستدرت نحو الشباك خلفي.

كان شيروكي يقطن في الطابق الأول، ولم تكن شرفته تعلو أكثر من ستّ أقـــدام عـــن الرصـــيف. من خلال الزجاج الوسخ كان بإمكاني رؤية أسطول المـــرتحلين بحـــثاً عـــن المتعة، والشاحنات الصغيرة، والسيارات التي لا تحمل أي إشـــارات. كـــان الجيران يقفون في مجموعات أو يراقبون ما يحدث من شرفات المـــباني المجـــاورة. وقد أضافت سياراتُ الصحافة والشاحناتُ الصغيرة الفوضى والإرباكَ في الشارع الصغير.

تـــوقفت ســـيارة المشرحة بينما كنت أتفحص الجمهور، وقفز مرافقان من الـــسيارة، وفتحا الباب الخلفي، وسحبا حمالة. قاما بتثبيت العجلات في أمكنتها ودفعا الحمالة المدولبة عبر الممر الأمامي القصير إلى مدخل المبنى وفي طريقهما مرّا بـــين رقـــع مُـــثلمة من الوحل امتلأت كل منها بمياه مستقرة، كما لمعت على ســـطحها بقعـــة زلقـــة ذات لون متقزح. أمر لطيف. إنها الباحة الأمامية لشقق الشمس.

خـــلال ثـــوانٍ قرع فريق النقل الباب. أدخلهم كلوديل، ثم انضم إلى الفريق مجـــدّداً. توجهت نحوَ المحققين وأنا أشجع نفسي على الشعور بالصلابة. لم يقاطع كلوديل روايته عن المقابلة التي أجراها مع المشتبه فيه الرئيسي.

"هـــل تظـــنون أن هـــذا الجدار في حالة فوضى؟" أشار كلوديل إلى الزاوية الجنوبـــية الغربية حيث كان فريق استعادة الأدلة لا يزال يقيس ويصوّر بقع الدم. "إن سترة هذا الرجل تبدو وكأنه ارتداها في المسلخ في فناء الماشية. بالطبع لا يملك الصرصور الصغير العقل بما يكفي لينتزع أجنحة عثة".

سأل تشاربونو "لِمَ كان يتمسك بها؟".

"ربما كان دنيئاً لدرجة تمنعه من فراق الجلد. وقد ظن أننا لن نربطه بالجريمة أبداً. لكنه أخذ الوقت كي يمسحها ويخبئها تحت السرير احتياطياً".

"وقد شوهد هنا مساء الاثنين؟".

"مباشرة بعد منتصف الليل".

"هذا يتطابق مع تقدير لامانش لوقت الوفاة. وما هي روايته؟".

"إنه لا يتذكر جيداً. يبدو أن جورج يشرب الكثير من الشراب".

"هل له أي علاقة بالضحية؟".

"لقـــد كان جورج أحد المتسكعين التابعين للهمجيين لسنوات وهم يدعونه يقـــوم بالقيادة وممارسة بعض تجارة الحشيش، لذا، فهو يظن أنه مهم. لكن موقعه متدنٍ في الهرم ويحتاج إلى أنبوب ليساعده على التنفس".

نـــادى أحد العاملين كلوديل، ثم أشار إليه المحقق بالذهاب. فتح أحد الرجال كيـــساً للجثث ووضعه على الحمالة فيما لفّ الآخر كيساً ورقياً بني اللون على يد شيروكي اليسرى.

بينما كنت أراقب كلوديل، شعرت بالدهشة إذ بدا وكأنه في غير مكانه. كانت جبهته خالية من العرق، وشعره في حالة مثالية والثنيات على سرواله حادة كشفرات آلة الحلاقة. كان أشبه ببقعة أرماني في وسط كابوس.

"ربما اعتبر الضربة فرصته الكبيرة للتقدم". قال تشاربونو.

أجاب كلوديل "من دون شك. لكن لن يبقى جورج دورسي طليقاً لمدة طويلة".

سأل كويكواتر "هل من أدلة كافية لاعتقاله؟".

"سأعتقله بتهمة الاشتباه في البصق إذا اضطررت. علمت من مصادري أن دورسي أعلن منذ وقت قريب أنه يبحث عن عمل وأنه قد يبحث عنه في أي مكان. لقد ربطناه بضربة أخرى، فنُشرت صُوَره في المنطقة. رأى شاهد دورسي هنا وقت إطلاق النار، وحين أتيت لأناقش هذه الحقيقة، وجدت ملابس دورسي الخارجية مغطاة بالدم. هل يبدو هذا قذراً لكم؟".

في تلك اللحظة انطلق لاسلكي كلوديل بصوت مشوش. فتوجه نحو الباب، وأصغى، ثم تكلّم وأشار إلى كويكواتر. تبادل الاثنان الكلام، ثم استدار كويكواتر نحو تشاربونو، وأشار إليّ ثم إلى الباب. حين أشار إليه تشاربونو بعلامة النصر، لوّح كويكواتر بيده، وخرج إلى القاعة، وانضم كلوديل إلينا مجدّداً.

عظيم. لقد تم تجاهلي وكأنني الأخت الصغرى لأحدهما.

ثمة نوعان من المشاعر التي تسبب لي الاهتياج: الشعور بأنني محاصرة، والشعور بأنني عديمة الفائدة. كنت أختبر النوعين مما جعلني أشعر بالارتباك.

كما أن شيئاً في مشهد الجريمة أثار حنقي. كنت أعلم أنني لا أنتمي إلى هذا المكان، لكنني بقيت أتذكر الشرائح التي رأيتها في مقر كركاجو. كان هناك خطب ما في ما كنت أشاهده.

فليذهبا إلى الجحيم. لم أطلب المجيء إلى هنا.

"أليس هذا مختلفاً بعض الشيء عن الطريقة العادية التي يتبعونها في القتل؟".

التفت كلوديل نحوي فيما اتخذ وجهه ذلك التعبير البارد المعتاد.

"عفواً؟".

"أليست عملية إطلاق النار غير دقيقة بالنسبة إلى ضربة درّاجين؟".

رفع تشاربونو أحد حاجبيه وهز بكتفيه الاثنتين. لم يقل كلوديل شيئاً.

"إنـــه وضع مضطرب للغاية هنا". تابعت مصممة على المشاركة. "في القضايا التي قمت بمراجعتها كانت الضربات تنفّذ بعناية ودقة".

"قد تحدث أمور كثيرة". قال تشاربونو. "ربما تعرض منفذ الجريمة للمقاطعة".

"هـــذا ما أعنيه. ألا يقوم الدرّاجون بإجراء أبحاث حول ضحاياهم، ويختارون مواقع يعلمون أنهم لن يتعرضوا للمقاطعة فيها؟".

جـــاء صـــوت كلـــوديل بارداً: "بوجود درّاج ميت ذي عمل حر في تجارة المخدرات، لن نحتاج إلى أن نفتش كي نعثر على القاتل".

"كمـــا لا يجـــدر بنا أن نتوقّف عن البحث حين تشير النظرية الأولى إليهم". قلت متهكّمة.

رماني كلوديل بنظرة تحمل صبراً نافذاً للغاية.

"قـــد تجيدين نبش الجثث وقياس العظام يا سيّدة برينان. لكن هذه المهارات ليست في قلب هذا التحقيق الجنائي".

"مـــن الصعوبة بمكان العثور على قاتل ما لم تعرف المقتول يا سيد كلوديل. هل ستقوم بإعادة تركيب وجهه؟" اشتعل وجهي غضباً.

"لن تكون هذه مشكلة هنا. يجب أن تكون بصمات الأصابع كافية".

كنت أعرف ذلك، لكن غرور كلوديل أظهر الأسوأ فيّ.

عقد تشاربونو ذراعيه، وزفر نفساً عميقاً.

تفقّـــد كلوديل ساعته، ورأيت وميض الزر الذهبـــي في طرف كمّ القميص. ثم أنـــزل يده إلى جانبه.

"المحقق - الرقيب تشاربونو وأنا سنوصلك". أشار صوته إلى نيته عدم مناقشة القضية أكثر في هذا الوقت.

"شكراً لك".

عـــبرنا الغـــرفة، وألقيت نظرة سريعة على الكنبة حيث مات إيف شيروكي ديجاردن. كانت فارغة الآن، لكن غيمة خمرية اللون كانت تشير إلى المكان حيث كان رأسه متكئاً. وقد التوى جدولان قاتمان في مكان كل شحمة أذن مثل مخالب طير كاسر يتعطّش إلى القتل.

أمسك كلوديل بالباب، وخرجت إلى الممر، وأنا أمسك بحقائبي بإحكام جعل أظافري تنغرز في باطن يديّ. كنت لا أزال منزعجة من موقف كلوديل المتعالي، فلم أستطع مقاومة السخرية مرة أخيرة بينما كنت أمر بجانبه.

"كما تعرف يا سيد كلوديل، أنا صلة وصل المختبر بعملية كركاجو. لديك التزام مهني بمشاركتي أفكارك ومعلوماتك، أعجبك ذلك أم لم يعجبك، وأنا لا أتوقع شيئاً أقل من هذا".

بهذه الكلمات مشيت نحو القاعة، ونزلت نحو ضوء الشمس.

20

بالـــرغم مـــن أننا كنا نقود السيارة في ضوء الشمس الساطع، فإن أفكاري كانـــت مظلمة. حين تطوّعت في وحدة كركاجو، كان ذلك للمساعدة على حلّ قضية قتل إميلي آن، وليس للانضمام إلى نادي جريمة اليوم. جلست في الخلف فيما كـــان عقلـــي يتـــنقل بـــين إيف شيروكي ديجاردن وسافانا كلير أوسبري، وهما الضحيتان المختلفان اختلاف تشارلز مانسون وشوغر بلم فيري.

لكن سافانا لم تكن قد رقصت مع آريال أو بوك، ولم أستطع أن أزيل صورة الفتاة ذات رجلي العنكبوت في ثوب السباحة الفضفاضة من رأسي. بقيت أتساءل عن الشبكة السامة التي جُذبت إليها.

كـــان الـــرعب الـــذي تـــركناه للتو يلاحقني أيضاً. بالرغم من أن الثنائي الديناميكـــي في المقعد الأمامي كان مقتنعاً بأن مقتل شيروكي كان ضربة درّاجين، فـــإن شـــيئاً ما في المشهد كان غير منطقي. لم يكن ذلك من ضمن عملي، لكن شعوري بعدم الارتياح ظلّ يلازمني ويخز رأسي.

ســـافانا وشـــيروكي. شيروكي وسافانا. ورونالد ودونالد فايلنكورت، وروبرت غايتلـــي وفـــيلكس مارتينو. وإميلي آن توسان، الفتاة الصغيرة التي كانت ترقص وتتزلج وتحـــب أكـــل الكعك المحمص. كانت حياة هؤلاء الأشخاص تبدو غير مرتبطة، وكان الرابط الوحيد الذي يجمعهم هو رابط ما بعد الموت، وهو رابط اختلقته الملفات الجنائية.

لم يـــتكلم أحد منا. بين الحين والآخر كان المذياع يصدر صوت تشوش في أثناء تغيير الإذاعات.

في نفق فيل ماري تعرضنا لكمين من زحمة السيارات الخارجة إلى شارع بري لفتـــرة وجيزة. نظرت إلى أسطول السيارات المتجهة نحو المدينة القديمة، وعاد إليّ الشعور بالكآبة. لماذا كنت مضطرة إلى التعامل مع السيد عابس وشريكه مع عظام فتاة ميتة عند قدميّ ومشهد الدرّاجين المشوهين في رأسي؟ لماذا لم أكن متجهة إلى ساحة جاك كارتييه، وأفكّر في العشاء أو أرقص أو أتناول الشراب مع حبيب؟

لكنني لم أكن لأستطيع تحمل لذة الشراب.

و لم يكن لديّ من حبيب.

رايان.

ضـــعي الموضوع جانباً يا برينان. هذا الاتجاه من التفكير سيأخذك من الكآبة إلى الاكتـــئاب. ثمة حقيقة بسيطة واحدة وهي أنك أنت من اخترت هذه الحياة. كـــان بإمكانك أن تجعلي تحليل العظام الذي تقومين به يقتصر على أعمال النبش الأثرية أو الصفوف حيث تتكلمين أنت ويصغون إليك. لقد طلبت هذا وحصلت عليه، فتوقفي عن التأمّل والتفكير وقومي بعملك.

حـــين توقف تشاربونو عند مبنى شرطة كيبيك شكرته باقتضاب، وأغلقت الـــباب بقوة، واتجهت نحو المدخل الرئيسي للمبنى. قبل أن أصل إلى نهاية السياج الحديدي، رنّ هاتفي الخلوي، فوضعت حقيبتي الرياضية على الرصيف، وأخرجت هاتفي من حقيبة اليد.

"خالتي تمب؟".

"مرحباً كيت".

شـــعرت بالارتياح والانـــزعاج معاً لسماع صوته، بالرغم من أنني كنت قد اتـــصلت مـــرات عـــدة مـــنذ غادرت إلى رالي، إلا أن كيت لم يرد على أيّ من مكالماتي.

"هل تلقيت رسائلي؟".

"أجل. كان التوقيت سيئاً. كنت في الخارج، وحين عدت خلدت إلى النوم. اعتقدت أنك لا تريدين أن أتصل بك في هذا الوقت المتأخر".

انتظرت.

"كنت مع لايل".

"ليومين؟".

"الرجل لا بأس به".

لا بأس؟

"ذهبنا إلى متجر الدرّاجات. يا الله، لم يكن يبالغ. لديهم أشياء لعينة أكثر من مصنع هارلي هناك. آخ. آسف".

"هم".

وضعت حقيبة اليد بجانب الحقيبة الرياضية، ودوّرت كتفيَّ لأعالج تشنجاً. كانت موسيقى الهيب هوب تصدح من سيارة كبيرة على الجانب المواجه لبارثيني. كان السائق يجلس جانبياً وإحدى يديه تغطي عجلة القيادة بينما كانت الأخرى تضرب بلطفٍ على الجزء الخلفي من المقعد.

أخبرتُ كيت بأنني سأكون في المنزل بحلول السادسة. "قل لي ما تود أن تأكله، وسأقوم بتحضيره كي نتناول العشاء سوياً".

"لهذا السبب أتصل بك. قال لايل إنه سيصطحبني إلى أستديو التلفاز كي أشاهدهم يقدمون العرض الليلة".

ظهر رجل من شقة في مبنى عبر الشارع، ونزل ببطء على السلالم، وقد تدلت سيجارة من فمه. بدا شعره وكأنه كان في موقع حدث فيه انفجار. كان بعضه منتصباً ومتكتّلاً وقد استقرّت بعض الخصل المعقودة على جبينه. كان يرتدي سترة من الجينز- الدنيم من دون كمين، أظهرت ذراعين تمتلئان بالأوشام لدرجة أنهما بدتا زرقاوين من حيث كنت أقف.

سحب الرجل الدخان إلى رئتيه فيما راح يتفحّص الشارع. وقعت عيناه عليّ، ثم ضاقت كعيني كلب صيد صغير يرى جرذاً. نفث الدخان من منخريه في جدولين، ثم رمى عقب السيجارة، وعبر الرصيف وركب السيارة مع عاشق الموسيقى. شعرت بقشعريرة فيما كان الاثنان ينطلقان بالرغم من دفء شمس بعد الظهر.

"هل شاهدتها شخصياً؟".

"ما هي؟".

"الأخبار. هل كنت يوماً في المحطة حين قاموا بتقديمها فعلياً؟".

"أجل. إنه أمر مثير".
"إذاً، إن لم يكن لديك مانع، أود أن أذهب حقاً".
"طبعاً. يبدو الأمر ممتعاً. أنا متعبة على كل حال".
"هل اكتشفت هويتها؟".
لم أفهم ما يعنيه بسبب انتقاله إلى موضوع آخر.
"الفتاة. هل كانت من اعتقدت أنها تكون؟".
"أجل".
"هذا رائع. هل يمكنني أن أخبر لايل؟".
"الأمـــر لـــيس رسمـــياً بعد. يُستحسن أن ننتظر حتى يأذن المحقق في أسباب الوفيات بنشر اسمها".
"حسنا. أراك لاحقاً".
"حسناً".
"هل أنت متأكدة؟".
"لا بأس يا كيت. لقد هجرني رجال أقوى منك بكثير".
"آه. اضربـــي على الوتر الحساس".
"إلى اللقاء".
لايل كريز. هل كان ذلك الوغد سيتملّق ابن أختي ليحصل على معلومات لم يستطع الحصول عليها مني مباشرة؟
في الأعلـــى قمت بحفظ بقايا سافانا في خزانة الأدلة، وأعطيت مجموعة من نماذج العظـــام لدينـــيس، وهو التقني في علم الأنسجة. كان سيستخدم مشراحاً كي يقطع شرائح بسماكة أقل من مئة مكرومتر ثم يلطّخها ويضعها على شرائح لتحليلها.
أخـــذت المجموعة الأخرى إلى قسم الحمض النووي. بينما كنت هناك سألت عـــن العـــين. شعرت بشريط من التوتر يرتفع ببطء من الجزء الخلفي من رأسي، فبدأت أفرك رقبتي.
"أتعانين من الصداع؟" سألتني العاملة التقنية حين عادت.
"قليلاً".
لم تكن النتائج قد وصلت بعد.

بعد ذلك أبلغت لامانش بتقدّمي في العمل. لم يقاطعني بينما كنت أخبره عن لقائي بكايت وأريه صور ونسخ سجلات المستشفى.

حين أنهيت نـــزع نظّارته، ودلّك كرتين بيضاويتين حمراوين على جسر أنفه، ثم مال إلى الوراء وقد خلا وجهه من المشاعر التي يسببها الموت عادة.

"سأتصل بمكتب المحقق في أسباب الوفيات".

"أشكرك".

"هل ناقشت هذه الأمور مع العاملين في قضية كركاجو؟".

"لقـــد ذكرت الأمر لكويكواتر، لكن حالياً الجميع يركّزون على جريمة قتل شيروكي ديجاردن".

كـــان ذلـــك تقليلاً من أهمية ما جرى. حين أخبرت كويكواتر في السيارة، بالكاد كان يصغي إليّ.

أضفت قائلة "سأتحدث مع روي غداً".

"أيظن العميل في كارولينا الشمالية أن هذه الطفلة قد قُتلت من قبل أعضاء في عصابة ما؟".

"كايت بروفي. إنها تظن أن هذا احتمال كبير".

"هل تعرف عن أي روابط بين عصابات كيبيك وشاطئ ميرتل؟".

"كلا".

سحب لامانش نفساً عميقاً ثم زفر.

"لقد مر وقت طويل على العام 1984".

بيـــنما كنت جالسة في مواجهة رئيسي أصغي إلى فرنسيته الدقيقة، وأرى نهر سان لورنس في الخلفية، كان عليّ أن أعترف بأن نظرية كارولينا بدت غريبة حتى بالنسبة إليّ. ما بدا صحيحاً جداً في رالي أصبح اليوم وكأنه حلم من الذاكرة حيث لا أستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال.

"كـــان يجب أن نتوقف عن الحديث حول جثة شيروكي في الحريق حين تلقيت الاتـــصال، لكن العميلة بروفي أعارتني الكثير من المواد من ملفات مكتب التحقيق في الولاية، بما فيها صور قديمة. سآخذ كل شيء إلى كركاجو غداً، وسنرى ما يحدث".

وضع لامانش نظارته مجدّداً.

"قد يكون الهيكل العظمي في كارولينا غير مرتبط بالقضية".

"أعرف ذلك".

"متى ستتوفّر نتائج تحليل الحمض النووي؟".

قاومت رغبتي في تحريك عينيّ، لكنني كنت متأكدة من أن الإحباط كان يبدو جلياً في صوتي.

"لقــد تأخرت النتائج بسبب قضية التوأمين اللذين تعرضا للتفجير، كما أنهم رفــضوا إعطائــي أي تقديرات". تذكرت النظرة التي رمقني بها التقني حين رأى تاريخ وفاة سافانا.

"وكما ذكرت، فإن تاريخ وفاتها ليس حديثاً بالضبط".

أطرق لامانش برأسه.

قــال "لكــنه مــوت غير مفسّر، كما أن البقايا وجدت في كيبيك، لذلك سنتعامل مع الأمر باعتباره جريمة قتل. نرجو أن تفعل شرطة كيبيك الأمر نفسه".

في تلــك اللحظة رن جرس الهاتف. جمعت الأوراق فيما كان يتحدث. حين وضع السماعة قلت "إن قضية شيروكي لا تتلاءم مع النمط الحديث الموجود هنا، لكن من يعلم لم يقتل الناس".

أجــاب وهــو يخــربش شيئاً على دفتر صغير أصفر فيما كان عقله لا يزال مشغولاً بالمحادثة الهاتفية. أو ربما ظن أنني كنت أتحدث عن أمر آخر.

"قــد يكون السيد كلوديل فظاً من وقت إلى آخر، لكنه في النهاية سيعود إلى جادة الصواب".

ماذا كان يعني بذلك بحق الله؟

قــبل أن أتمكن من السؤال رنّ جرس الهاتف مجدّداً. تناول لامانش السماعة، وأصغى، ثم أمسك بها على صدره.

"هل كان هناك شيء آخر؟".

كان يصرفني بطريقة لطيفة.

كــنت مــشغولة بتعليق لامانش حول كلوديل حتى كدت أصطدم بجوسلين العاملــة المؤقتة بينما كنت أغادر مكتبه، وأتجه نحو مكتبــي. كانت تضع قرطين ذوي خرز في أذنيها، وكانت خصلات شعرها بلون البنفسج الأرجواني.

بينما كنا ندور حول بعضنا بعضاً، ونعيد تنظيم حمولتنا من الأوراق، أدهشني مـــرة أخـــرى بـــياض بـــشرتها. تحت الضوء الأبيض بدا جفناها السفليان بلون الأرجـــوان، وكانت بشرتها شاحبة كالجزء الداخلي لقشرة الليمون. للحظة ظننت أن جوسلين ربما كانت مهقاء.

لسبب ما شعرت بأنني مضطرة إلى التكلم معها.

"كيف حال العمل يا جوسلين؟".

حدقت إليّ بنظرة لم أستطع تفسيرها.

"أرجو ألاّ تكوني قد وجدت العمل في المختبر مرهقاً؟".

"أستطيع القيام بالعمل".

"نعم، بالطبع تستطيعين. عنيت فقط أنه من الصعب أن تكوني الفتاة الجديدة في الحي".

بيـــنما كانـــت تفـــتح فمها لتقول شيئاً ظهرت سكرتيرة من مكتب مجاور. أسرعت جوسلين نحو القاعة.

يـــا الله. بإمكان هذه الفتاة أن تستفيد من مدرسة ألعاب الخفة. ربما يجب أن تحصل على صفقة اثنين بسعر واحد لها ولكويكواتر.

أمضيت بقية فترة بعد الظهر أنظّف مكتبـــي من قصاصات الرسائل. رميت دعوات الإعلام، وأعدت تلك الصادرة عن سلطة تطبيق القانون.

تفحـــصت طلـــباً مـــن بيليتيي وهو أقدم الإخصائيين في علم الأمراض في المختـــبر. كانَ مالك أحد المنازل قد وجد عظاماً في أوترمونت حين حفر حفرة في القـــبو لديـــه. كانت البقايا قديمة ومكسّرة، لكن بيليتيي لم يكن واثقاً بأنها آدمية.

لم يكن هناك من شيء مستعجل.

كـــان مكتبـــــي مرتباً إلى حدٍّ معقول، فقدت سيارتي إلى البيت، وأمضيت أمسية ساحرة أخرى في أقدم مدينة فرنسية في أميركا الشمالية.

بيتزا وحمام ومباراة بيسبول.

بقـــي بيردي ساهراً حتى الجولة الثامنة، ثم تكوّر على سرير غرفة الضيوف. حين ذهبت إلى النوم عند الحادية عشرة والربع، تمطّى وانتقل إلى مقعد غرفتي.

غفوت على الفور تقريباً، وحلمت بسيناريوهات متقطّعة غير ذات معنى. كان كيت يلوّح من مركب وبجانبه أندرو رايان. كانت إيزابيل تقدّم طعام العشاء. وكان شيروكي ديجاردن من دون رأس يلتقط قطعاً من اللحم ويرميها في كيس من النايلون.

حين أتى كيت، تململت في فراشي قليلاً، لكنني كنت مترنّحة جداً كي أناديه. كان لا يزال يتلمّس الأشياء في المطبخ حين غرقت مجدّداً في النسيان.

في الصباح التالي كنت أراجع عظام بيليتيي حين أتى دينيس إلى مختبري.

"ها هي النجمة!".

النجمة؟

آه لا.

فتح نسخة من صحيفة مونتريال وأراني صورة لي في منتدى الأفاعي. بجانب الصورة كانت هناك قصة مقالة صغيرة تروي استرجاع جثتي غايتلي ومارتينو وتقدّم الهيكل العظمي الثالث، بحسب المحقق في أسباب الوفيات، على أنه يعود لسافانا كلير أوسبري، وهي الفتاة الأميركية ذات الستة عشر عاماً والمفقودة منذ عام 1984. وقد عرّف العنوان عني بأنني عضو في وحدة كركاجو.

"هل هذه ترقية أم تجريد من الرتبة؟".

ابتسمتُ وأنا أتساءل إن كان كويكواتر وكلوديل سيريان الخطأ كترقية أو تجريد من الرتبة، ثم تابعت الفرز. حتى الآن، كنت منهمكة بأكثر مما كنت قد خطّطت له.

بحلول العاشرة كنت قد أنهيت العمل على العظام، وكتبت نصاً مفصلاً يفيد بأن هذه العظام آدمية.

أخذت التقرير إلى الوحدة المتعلقة بأمانة السر، ثم إلى مكتبي، وطلبت مقر كركاجو. كان جاك روي يحضر اجتماعاً، ولن يكون حراً حتى وقت متأخر من بعد الظهر. تركت اسمي ورقم هاتفي. ثم جرّبت الاتصال بكلوديل، وتركت نفس الرسالة. ثم تشاربونو. نفس الاسم، نفس الرقم. أرجوكم اتصلوا. فكّرت في استخدام الهاتف الرنّان، ولكنني قرّرت أن الوضع ليس طارئاً إلى هذا الحدّ.

بإحباط لففت شعري، وتفحصت النهر.

لم أكن أستطيع معاينة البنية المجهرية لعظام شاطئ ميرتل لأن الشرائح لم تكن جاهزة. الله وحده يعلم متى سأحصل على نتائج تحليل الحمض النووي، أو إن كان هناك من شيء لأتتبّعه.

فكّـــرت في الاتــصال بكايـــت بروفي، لكنني لم أكن أود أن أضغط عليها. بالإضــافة إلى ذلك، فقد كانت هي مهتمة بقضية أوسبري بقدر اهتمامي. وأكثر. إن هي اكتشفت شيئاً فستطلعني عليه.

ماذا الآن؟

كـــان لامــــانش في الأسفل يقوم بتشريح جثة شيروكي. كان بإمكاني القيام بزيارة مفاجئة، وربما تعزيز شكوكي حول عملية القتل.

لن أفعل. لم أكن متحمسة لفكرة دراسة جثة درّاج آخر ممدّدة على طاولة.

قرّرت أن أنظّم المواد التي أعطتني إياها كايت. كنت قد غادرت المكان على عجلـــة من أمري لدرجة أنني لم أتفحّصها. كنا قد قمنا بتقييم سريع ووضّبنا كل شيء في حقيبتي ووقّعنا وثيقة الحيازة وسابقنا الوقت للّحاق بالطائرة.

أفــرغت محــتويات الحقيـــبة على مكتبــي، وكدّست الصور إلى يساري والملفات إلى يميني. اخترت مغلفاً بنياً، وقمت بإفراغ عدة صور بقياس 5 × 7 على دفتـــر تــسجيل الأحداث مؤقتاً، وقلبت إحداها. كان مكتوباً على ظهرها تاريخ التقاطها والموقع والحدث والاسم وعدة أرقام مرجعية.

قلـــبت الـــصورة مجدّداً، وحدّقت إلى وجه مارتن *ديلوكس* ديلوتشيو والذي كُرِّم في 23 تموز 1993 خلال سباق إلى ويلمنغتون في كارولينا الشمالية.

كانت عينا الشخص في الصورة مختبئتين وراء عدستين قاتمتين وقد لف منديل مفـــتول رأســـه. كانت سترة الجينـــز التي يرتديها تحمل شكل الجمجمة المكشرة والمكـــابس المتـــصالبة لنادي الدرّاجين الخارجين على القانون. عرّفت الدرّاجة في الأسفل مالكها على أنه عضو في فرع لينكسينغتون.

ظهـــرت عضلات الدرّاج منتفخة وفكّاه مرتخيين وقد برزت كرشه الضخمة تحـــت السترة. كانت الكاميرا قد التقطت صورته وهو يفرشخ خروفاً قوياً ويحمل عـــبوة شراب في يده اليسرى وقد علا تعبير أبله وجهه. بدا ديلوكس وكأنه يحتاج إلى تعليمات حول استخدام ورق الحمام.

كـــنت أهـــمّ بالمتابعة حين رنّ جرس الهاتف. وضعت ألي روبن هود بجانب ديلوكس، ورفعت السماعة، وأنا آمل أنه روي.

لم يكن ذلك روي.

سأل صوت أجش عني، وقد أسقط التشديد من نهاية اسمي الأول ولكنه لفظ الاســـم الـــثاني على نحو صحيح. كان الرجل غريباً ومن الواضح أنه كان ناطقاً بالإنكليزية. أجبت بالإنكليزية.

"الدكتورة برينان تتحدث".

توقّـــف عن الكلام لفترة طويلة سمعت خلالها أصوات قعقعة وما بدا أنه نظام يعود لعنوان عام.

ردّدت قائلة: "هذه الدكتورة برينان".

سمعت صوت أحدهم يستعدّ للكلام ثم يتنفّس. أخيراً قال صوت "أنا جورج دورسي".

"نعم؟" تذكّر عقلي الأسماء من دون أن يستقر على أحد.

"أأنت من نبش تلك الجثث؟".

لم أعـــد أسمع أصوات القعقعة هذه، وكأن جورج دورسي قد غطّى السماعة بكفه.

"أجل".

"لقد رأيت اسمك في جريدة اليوم".

"ســـيد دورســـي، إذا كنت تملك معلومات عن هؤلاء الأشخاص فيجب أن تتكلّم مع أحد الضباط المحققين".

فليـــتعامل كلـــوديل أو كويكواتـــر مـــع عرض السيرك الذي يتبع إعلان الأخبار.

"ألا تعملين أنت على قضية كركاجو؟".

"ليس بالمعنى الذي تقصده. إنّ الضابط المحقق ـــ".

"إن ذلك الوغد يرفع رأسه عالياً لدرجة أنه يحتاج إلى سونار كي يجده".

جذب ذلك انتباهي.

"هل تحدّثت إلى ضابط الأمن كويكواتر؟".

"لا أســتطيع التكلم مع أي من الأوغاد بينما يقوم المتخلّف كلوديل بالضغط عليّ؟".

"عفواً؟".

"إنه يطمح إلى مركز أعلى فأجلس أنا هنا".

للحظة لم ينطق أحدنا بكلمة. بدا الاتصال وكأنه قادم من غواصة.

"ربما يقوم بإعداد شيء لمحطة سي أن أن".

كنت قد بدأت أفقد صبري، لكنني لم أودّ المجازفة بخسارة معلومات قد تكون مفيدة.

"هل تتصل بشأن الهياكل التي نُبشت في سان بازيل؟".

سمعت ضحجة مختنقة ثم قال "لا".

عند ذلك بالتحديد تعرّفت على الاسم.

كان جورج دورسي هو المشتبه فيه الذي اعتقله كلوديل.

"هل تم توجيه التهمة إليك يا سيد دورسي؟".

"كلا".

"إذاً، لِمَ يحتفظون بك سجيناً؟".

"حين أمسكوا بــي كنت أحمل كمية من الميثامفيتامين".

"ولِمَ تتصل بــي؟".

"لأن أحــداً من هؤلاء الأوغاد لن يصغي إليّ. لم أقتل شيروكي. كان ذلك عملاً غير متقن".

شعرت بنبضاتي تتسارع.

"ماذا تقصد؟".

"لا يهتم الأخوة بعملهم بتلك الطريقة".

"هل تقصد أن جريمة قتل شيروكي غير مرتبطة بالعصابات؟".

"أجل".

"إذاً، من قتله؟".

"تعالي إلى هنا، وسأخبرك بكل شيء".

لم أقل شيئاً. كان صوت نفس دورسي عالياً في الصمت.

"لكن هذه لن تكون خدعة من جانب واحد".

"ليس لدي سبب لأثق بك".

"وأنـــت لـــست بالضبط خياري لامرأة العام، لكن هؤلاء الأوغاد يرفضون الإصغاء إليّ. لقد أطلقوا اليوم رجال الشرطة الحمقى ووضعوني مباشرة على شاطئ أوماها".

"لقـــد تأثرت بمعلوماتك عن التاريخ يا سيد دورسي، لكن لِمَ يجب عليّ أن أصدقك"؟

"هل لديك خيار آخر؟".

تركت السؤال معلقاً للحظة. كان دورسي خاسراً من دون شك، لكنه كان محقاً. ولم يبدُ أن أحداً يود التحدّث إليّ اليوم.

نظرت إلى ساعتي. كانت الحادية عشرة وعشرين دقيقة.

"سأكون هناك في غضون ساعة".

21

ينقسم المجتمع المدني في مونتريال، لأسباب أمنية، إلى أربعة أقسام، لكل منها مقـــر للتدخل السكني، إضافة إلى قسمي التحاًليل والتحقيقات ومركز للاعتقال. ويـــتم حجـــز أولـــئك المشتبه فيهم المعتقلين بسبب ارتكابهم جريمة قتل أو اعتداء جنـــسي في مـــرفق يقع قرب قصر فرساي، في نهاية الطرف الشرقي للمدينة، فيما ينتظـــر المشبوهون الآخرون كافة استدعاء المحكمة في أحد فروع السجون الأربعة. أمـــا دورســـي فقـــد ذهـــب إلى مـــرفقه المحلي في أوب الجنوب بسبب حيازته الميثامفيتامين.

يقـــع المقـــر أوب الجـــنوب عند تقاطع شارع غي وجادة رينيه ليفيك على مـــشارف وسط المدينة. وتَسود في هذا القطاع اللغتان الفرنسية والإنكليزية، لكن هـــناك بعـــض اللغـــات المُتداولة الأخرى كالصينية الشمالية والإستوائية والعربية واليونانـــية. وهـــو قطاع انفصالي وفيدرالي يَضُّم شتى أنواع الناس، الأثرياء منهم والمتشردين، التلامذة وسماسرة البورصة، المهاجرين والكنديين من أصل فرنسي.

كما يضُّم أوب الجنوب دور العبادة والمشارب والمحال ومتاجر المواد الإباحية والمنازل والشقق ذات السلالم. وقد وقعت جرائم القتل التي تعرضت لها إميلي آن توسان وإيف شيروكي ديجاردن ضمن حدود هذا المكان.

بيـــنما كـــنت أعبر شارع غي إلى موقف السيارات، مررت بمجموعة عمَّال يحملون لافتات ذات شعارات. وقد انتشروا على طول الرصيف من المبنى المجاور، وهـــم من العمَّال اليدويين الذين يتقاضون أجوراً متدنية، وقد أقاموا احتجاجاً بغية

المطالبة بزيادة أجورهم، فتمنيت لهم الحظ الوفير. ربما يعود ذلك إلى عدم الاستقرار السياسي، أو لعله الاقتصاد الكندي بشكل عام، إذ كانت مقاطعة كيبيك تمرّ بأزمة مالية بسبب تخفيض الميزانيات وقطع الخدمات. لم أكن قد حصلت على زيادة مالية منذ سبعة أعوام.

دخلت من الباب الرئيسي، وتوجّهت نحو طاولة إلى يميني.

قلت للحارسة المناوبة: "لقد جئت لرؤية جورج دورسي". فوضَعت قطعة الحلوى جانباً، ورمقتني بنظرة ملؤها الضجر.

"هل اسمك موجود على اللائحة؟".

"أنا تمبرانس برينان. لقد طلب السجين رؤيتي".

ففركت يديها المكتنزتين ببعضهما للتأكد من إزالة الفتات، وبعدها أدخلت معلومة ما عبر لوحة المفاتيح. انعكس ضوء الشاشة على نظارتها فيما انحنت إلى الأمام لقراءة النص. كما انعكس النص على كل من العدستين عند تحريكه صعوداً ونزولاً. حينها توقفت قليلاً ثم تكلّمت مجدّداً من دون أن تنظر إليّ وقالت:

"كركاجو؟" لا يمكن لرالف نادر أن يكون أكثر شبهة.

"أممم". هذا ما ظنته صحيفة لو جورنال.

"هل تحملين بطاقة هوية؟".

نظرت نحوي، وأريتها بطاقة العبور الخاصة بمبنى شرطة كيبيك.

"أليس من شارة؟".

"لطالما كانت هذه كافية".

"إذاً، عليك أن توقعي وتَتركي أغراضك هنا".

قلّبت بضع صفحات في دفتر، وكتَبَت شيئاً، ثم مرّرت إليّ القلم. فكتبتُ التاريخ واسمي. ونزعت حقيبتي عن كتفي، وناولتها إياها عبر الطاولة.

"لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة".

حَفظت الآنسة كابكيك حقيبتي في خزانة معدنية، والتقطَت هاتفاً، وقالت بضع كلمات. وبعد مرور عشر دقائق، تحرك مفتاح في باب معدنيّ أخضر إلى يساري. ثم انفتح الباب، ولوّح إليّ حارس بالدخول. كان هزيلاً جداً، يتدلى زيّه عن جسده كالثياب على مشجب.

تَفحَّـــصني الحارس الثاني بجهاز لكشف المعادن، وأشار إليّ كي أتبعه. كانت المفاتيح تُصدر خشخشةً فوق حزامه ونحن في طريقنا نحو ممر تُضيئه مصابيح مُشعة وترصـــده كـــاميرات للمراقبة مثبتة في السقف والجدار. مباشرة أمامي تمكنت من رؤيـــة زنـــــزانة كبيرة ذات نافذة مقابلة للقاعة التي كنت فيها وقضبان خضراء مُقابلـــة لقاعة أخرى. في الداخل كان ستة رجال مستلقين على مقاعد خشبية، أو جالسين على الأرض أو نائمين، أو ملتصقين بالجدران كالقرود الأسرى.

قـــرب ذلـــك النـــضد الآخر في زنـــزانة السكارى كان هنالك باب معدني أخضر آخر كتب عليه *قسم الزنـــزانات* بالخط الأبيض العريض. كان أحد الحراس يضع صُرَّةً في إحدى شبكات المهاجع، وكانت هذه تحمل الأحرف الثلاثة الأخيرة مـــن الأبجدية. شَكَكتُ في أن السيد خافيير في طريقه إلى الوصول، وهو لن يرى حزامه أو مجوهراته أو نظارته أو أي من أغراضه الشخصية الأخرى حتى مغادرته.

"الـــرجل هنا في الداخل". قال الحارس وهو يدفع ذقنه باتجاه باب كُتب عليه *مقـــابلات المحامين* والذي يستخدمه المحامون. وأدرَكتُ أن دورسي سَيمر عبر باب مُماثل كُتب عليه *لإجراء المقابلات*، خاص بالمعتقلين.

شـــكرت الحـــارس، ودخلت غرفة صغيرة غير مُصمَّمة لرفع الروح المعنوية للسجين أو الزائر بتاتاً إذ كانت الجدران مطلية باللون الأصفر ومزخرفة بالأخضر. أمّا أثاث الغرفة فقد كان عبارة عن طاولة طويلة حمراء من الفينيل ومقعد خشبـــي مُثبت بأرض الغرفة وهاتف حائط.

جلس جورج دورسي مُقابل نافذة مستطيلة كبيرة، مُنحَنِيَ الظهر وقد تدلّت يداه بين ركبتيه.

قال الحارس: "اضغطي على الزر حين تنتهين".

بعدها أغلق الباب وأصبحنا بمفردنا.

لم يتحـــرك دورســـي، بيدَ أن عينيه تسمَّرتا عليّ فيما كنت أعبر الغرفة إلى الطاولة، وأرفع سماعة الهاتف.

برعـــشة اعتـــرت جسدي جلست إلى الطاولة وثنيت يديَّ فوقها وأنا أرى أمامـــي رجلاً هزيلاً يكاد جسمه أن يكون كالعود. أما وجهه فقد كان يميزه أنف محدب وشفتان رقيقتان وندبة تبدأ عند صدغه الأيسر لِتُدوِّر خده، ثم تعود لتختفي

بين شعر لحيته الأشبه بالريش المنفوش الذي يُحيط بفمه. كان حليق الرأس باستثناء سهم داكن لامع ينتهي عند نهاية الندبة.

انتظـــرته حتى يرفع سماعة الهاتف ويكسر الصمت. كنت أسمع أصوات قعقعة حديـــد خارج غرفتنا الصغيرة. وبالرغم من حدة تحديقه، بدا لي دورسي وكأنه لم ينم منذ فترة.

بعـــد جهـــد جهـــيد ابتسم دورسي، فتوارت شفتاه، وبانت مكانهما أسنان صغيرة صفراء، بيد أن عينيه خلتا من المرح. وبحركة حمقاء انتزع سماعة الهاتف من مكانها ووضعها على أذنه.

"لديك جرأة الرجال أيتها السيدة لتأتي إلى هنا".

هززت بكتفيَّ استهجاناً.

"هل لديك سجائر؟".

"لا أدخن السجائر".

فـــسحب رجلـــيه، وثـــنى أصابع قدميه، وهزَّ ساقيه صعوداً ونـــزولاً على كعبـــــي قدميه. وغرق في الصمت مجدّداً، ثم قال: "لا علاقة لي بذاك العمل الذي حدث في بوان سان شارل".

"إذاً، هذا ما تقوله". وتخيلت المشهد الرهيب في شقق الشمس.

"هذا الأحمق كلوديل يحاول القضاء عليَّ. ويظن أنه إذا أرهقني بشكل كافٍ فسأعترف بالقضاء على شيروكي".

اشتد الاهتزاز.

"التحري – الرقيب كلوديل بكل بساطة يؤدي واجبه".

"التحري – الرقيب كلوديل عاجز عن فعل أي شيء بطريقة صائبة". كانت هنالك أوقات وافقت فيها على هذا التقييم.

"هل كنت تعرف شيروكي ديجاردن؟".

"لقد سمعت عنه".

ومرّر إصبعه جيئة وذهاباً على طول أخدود في الطاولة. "هل عرفت بأنه كان يتعاطى تجارة الممنوعات؟".

هزَّ دورسي كتفيه استهجاناً.

بقيت منتظرة.

"ربما كانت البضاعة للاستخدام الشخصي. بالطبع تُدركين قصدي، مواد طبية، فقد سمعت أنه كان يُعاني من مشاكل صحية".

مرّر إصبعه عبر الشعر الذي يغطي ذقنه، ثم عاد ليتسلى بالأخدود.

"لقد شوهدت في مبنى ديجاردن في الوقت الذي رُميَ فيه بالرصاص، وقد وُجدت سترة مغطاة بالدم في شقتك".

"هذه السترة ليست لي".

"والقفاز لم يكن أبداً ملكاً لأوجي أيضاً".

"أيّ أبله سيحتفظ بتذكار بعد ارتكابه للجريمة؟".

كانت لديه وجهة نظر.

"لِمَ كنت في ذلك الحي؟".

"هذا شأني".

وانحنى نحو الأمام بقوة، وبسط ساعديه فوق الطاولة. وثب قلبي وثبة، بيد أنني لم أجفل.

"وهذا لا شأن له بتصفية شيروكي".

لاحظت أن عينيه تضيقان، وتساءلت عن السيناريو الذي يُعدّه لي.

سيطر الهدوء من جديد.

"هل تعرف من قتله يا جورج؟".

كانت هذه غلطة.

"آه، مرحاً". عقد أصابعه، وأسند ذقنه على ظهر يده. وأضاف: "هل أستطيع مناداتك بتمب؟".

"هذه ليست جلسة اجتماعية. لقد طلبت اللقاء".

استدار دورسي نحو الجانب الآخر، ومدَّ رجله نحو الحائط. كان يُلاعب شريط الهاتف بيد بينما كان يركل إزار الحائط بحذائه الذي كان رباطه مفكوكاً. أما خارج الغرفة فكنت أسمع صوت رجل يُنادي على شخص يُدعى مارك. انتظرت. وأخيراً قلت: "انظر، أنا سأخبرك، كانت هذه الضربة أشبه ببرنامج ساعة الهواة، والشيء الوحيد المفقود هو تيد ماك".

فاســـتدار دورسي نحوي، وحدّق إليّ طويلاً حتى أغض طرفي. ثم توقّف عن الـــتحديق، وفـــتح أصابعه وأغلقها مرات عدة. شاهدت الأحرف ت ل ع تتغير أشكالها على عقد أصابعه.

"وبعد؟".

"لم يكن هذا البرنامج عالي الجودة. هذا كل ما لديَّ لأقوله الآن".

"إذاً، لن أستطيع مساعدتك. كنا قد جزمنا سابقاً أنها ضربة غير مُتقنة".

تقدم دورسي إلى الأمام مجدّداً، وبسط ساعديه على الطاولة.

"قد يظن صديقك كلوديل أنني مجرد أحمق، ولكنه مخطئ في شيء واحد، فأنا لست بغبيٍّ، ولا هم أيضاً".

لم أُشِر إلى أنه عدّد نقطتين خطأ.

"إنه معجب بك لهذا السبب".

اقترب دورسي من الزجاج كثيراً، وألصق وجهه به إلى درجة أنني تمكّنت من رؤية الرؤوس السوداء في مسام أنفه.

"إنها كذبة لعينة، أنا لم أقتل شيروكي".

نظـــرت إلى الوجه الذي يبعد عني سنتيمترات قليلة، وللحظة سقط القناع، فـــرأيت الخـــوف وعدم اليقين. ورأيت أمراً آخر في تلك العينين الداكنتين. رأيت الصدق.

ثم ضاق جفناه، وعاد المُتبجح مجدّداً.

"سأدخل في صلب الموضوع مباشرةً. أنتم لا تُحبون الطريقة التي نعمل بها أنا وأصـــدقائي. حسناً، هذا عادل. وأنا لا أحب عملكم الصالح الفارغ، أظن أن هذا عـــادل بشكل كاف. ولكن دعيني أخبرك شيئاً. استمروا في الضغط عليّ وسيبقى من نفّذ عملية شيروكي طليقاً".

"هل هذا كل ما تستطيع إخباري به يا سيد دورسي؟".

حدّقت عيناه إلى عينيّ. كنت أستطيع الشعور ببغضه.

قـــال وهو يتفحص أظافر أصابعه بلامبالاة مزيفة: "ربما أحجمت عن الإدلاء بمعلومات إضافية".

"بشأن ماذا؟".

"لـــن أخـــبرك بـــأي شيء، لكن جثة شيروكي ليست الوحيدة التي احتلّت الأخبار مؤخراً".

تـــسابقت الأفكار في ذهني. فهل يقصد بحديثه سبايدر ماركوت؟ هل يعرف هوية قتلة إميلي آن توسان؟

قبل أن أتمكن من طرح الأسئلة، عاد دورسي إلى الوراء مجدّداً، ورسم ضحكة لفّت زاويتي فمه.

"هل من أمر مضحك تريد مشاركتي إياه؟".

وضع دورسي يده تحت ذقنه، فالتفّت لحيته حول أصابعه. نقل سماعة الهاتف إلى الأذن الأخرى.

"أخبرني برميل القيح أن يخفف من الضغط في قضيّتي".

وقفت وهممت بالمغادرة، غير أن الجملة التالية جمّدتني في مكاني.

"تعاوني معي وسأعطيك الفتاة".

"أي فتاة؟" سألته وأنا أدعي الهدوء في صوتي.

"الشيء الصغير الجميل الذي نبشته".

حدقت إليه بغضب جعل قلبـــي يضرب بقوة.

قلت بصوت كفحيح الأفعى: "أخبرني بما تعرفه".

"هل نعقد صفقة؟" وظهرت أسنان الجرذ الصغيرة والعينان الداكنتان كحلقة دانت التاسعة.

"أنت تكذب".

رفع حاجبيه وكف يده الفارغة.

"لكن الحقيقة هي الركن الأساسي في حياتي".

"بِع تفاهاتك في مكان آخر يا دورسي".

أعـــدت السماعة إلى مكانها بعنف وأنا أرتجف غضباً، ثم استدرت، وضغطت علـــى الـــزر بقوة. لم أستطع سماع إضافة دورسي الساخرة الأخيرة، لكنني رأيت وجهه بينما مررت بغضب قرب الحارس. كانت شفتاه واضحتين.

سيتصل بـــي مجدّداً.

اســـتغرق طـــريق العـــودة حوالى الساعة. كان حادث قد تسبب في إقفال

الطرقات كافة باستثناء أحد الخطوط الشرقية للشارع رقم 720 وكان صف السيارات في نفق فيل ماري يمتد لأميال عدة. حين أدركت حقيقة الوضع، لم يكن الرجوع إلى الوراء خياراً متاحاً. ولم يكن بالإمكان فعل شيء سوى الزحف مع بقية السائقين المحبطين. وقد حال النفق الضيّق دون وجود إرسال في جهاز الراديو، فلم يكن هنالك منَ أمر يسليني. كان دورسي يحتلّ كل تفكيري.

لقد كان متقلباً كالماء البارد الذي يقع على المشواة الساخنة، ولكن هل من الممكن أن يكون هذا الرجل بريئاً؟

تذكرت العينين ولحظة سقوط القناع.

أمسكت ناقل السرعة وحرّكته إنشاً إلى الأمام ثم أعدته إلى نقطة التعادل.

هل كان كلوديل غير مصيب؟

لن تكون هذه المرة الأولى.

راقبت سيارة إسعاف تشق طريقها من الجهة اليمنى، وقد انعكس ضوؤها الأحمر المتقطع على جدار النفق.

ماذا كان كلوديل ليقول عندما يعلم بأني ذهبت إلى السجن؟

كان هذا سهلاً.

نقرت بأصابعي على المقود.

هل كان دورسي حقاً يعلم شيئاً عن سافانا أوسبري؟

حركت ناقل السرعة، وتقدّمت مسافة سيارة.

أم كان مجرد متملّق آخر يُلفّق المعلومات ليبتدع صفقة يُنقذ بها نفسه؟

لم أكن أملك أي جواب.

رأيت وجه دورسي. كان يمثل الاحتقار الرجولي والسخرية اللااجتماعية.

كان الرجل مثيراً للاشمئزاز. مع ذلك، في تلك الهنيهة كنت متأكدة من أنني رأيت الحقيقة. هل يمكنني تصديقه؟ هل أحتاج إلى أن أصدقه؟ إن قام بتزويد الشرطة بمعلومات مثبّتة ببراهين عن سافانا أوسبري مقابل توسيع شبكة التحقيقات بشأن جريمة شيروكي، إذاً، ما الذي ينقص؟ ولكن هل يمكن القيام بذلك؟ بالطبع ليس من خلال كلوديل.

بعد مرور أربعين دقيقة، دنوت من مكان الحادث. كانت هناك سيارة ملقاة علـــى جانبها وأخرى مقابل جدار النفق، وكانت المصابيح الأمامية تُشير في الاتجاه المعــاكس. كان الرصيف يلمع بسبب حطام الزجاج، وكانت الشرطة وسيارات الإســعاف قــد طوّقت مكان الحادث كمقصورات القطار. وفيما كنت أُشاهد العمــال يرفعون السيارة المقلوبة تساءلت إن كان شاغلها يقصد نفس المكان الذي أقصده.

أخـــيراً، أصبحت حرة، فانطلقت بسرعة قصوى عبر النفق، وخرجت من دو لـــورتمير، ثم تقدمت مسافة قصيرة لأصل إلى المختبر. عندما خرجت من المصعد في الطابـــق الثاني عشر، أدركت أن هنالك خطباً ما. فلم يكن هناك أحد في مكتب الاســتقبال كما كان الهاتف يُصدر رنيناً قوياً يُثير الانتباه. بدأت بالعدّ فيما كنت أعبر الردهة.

خمسة. توقّف الرنين. ثم عاد مجدّداً.

أدخلت بطاقة العبور التي أحملها، فانفتح الباب الزجاجي. في الداخل كانت مـــوظفة الاســتقبال تقـــف قرب حمام النساء وتنظر بعينين حمراوين، وكرة من المـــناديل الورقـــية في يدها. كانت إحدى السكرتيرات تُطمئنها، واضعة ذراعها حول كتفيها.

علـــى امتداد القاعة وقف أناس في مجموعات يتحادثون في ما بينهم بأصوات منخفضة ووجوه متوترة. كان المشهد أشبه بغرفة انتظار العمليات الجراحية.

مشهد آخر يعيدني إلى الماضي.

منذ خمسة عشر عاماً كنت قد تركت كاتي برعاية أختي فيما كنت في مَهمة. وفـــيما كـــنت أعبر الزاوية للوصول إلى الشارع المقصود، خالجتني مشاعر الخوف عينها وفورة الأدرينالين نفسها.

ذكـــريات مـــشتتة. هاري والجيران يقفون في الممر. ووجه أختي، والماسكارا تجري على خديّها الباهتين وهي تفرك بيديها.

أين كانت كاتي؟

أرجوك يا الله. ليس كاتي. أي شيء. ولكن ليس طفلتي.

كانت عيون الجيران تملأها الشفقة وهم يشاهدونني أترجّل من سيارتي.

كان ماكداف قد انطلق وعبر أمام سيارة من طراز بويك. لقد مات الكلب. تنفـــست الصعداء، ثم شعرت بالحزن. لكن كان باستطاعتي تحمّل الأمر. فقد كان كلبـــي هو الذي مات وليس طفلتي.

شعرت بالفزع نفسه عندما نظرت إلى زملائي.

ماذا حدث هنا؟

تمكّنت من رؤية مارسيل مورين يتحدث إلى جان بيليتيي من خلال المجموعة الثانية من الأبواب الزجاجية، ففتحت الباب، وهرعت إلى القاعة.

وما إن سمعا خطوات قدميَّ حتى صمتا ونظرا إليّ.

فسألتهما: "ماذا هنالك؟".

"دكـــتور لامـــانش". كانت عينا مورين تلمعان عاطفة. "لقد انهار في أثناء تشريحه جثة شيروكي ديجاردن".

"متى؟".

"كان يعمل بمفرده في وقت استراحة الغداء، وعندما عادت ليزا وجدته ممدداً على الأرض. كان فاقد الوعي وبالكاد يتنفس".

"هل وضعه سيئ؟".

أصدر بيليتيي صوتاً من حنجرته.

وهزّ مورين برأسه.

"الوضع برمته يعود إلى الله سبحانه وتعالى".

22

كـــان أول أمـــر قمـــت به نهار الجمعة هو اتصالي بالمستشفى. كانت حالة لامـــانش مـــستقرة إلا أنه أُبقي في قسم العناية المشدّدة، و لم يُسمَح للزوار برؤيته. كما رفضت الممرضة الإفصاح عن حالته.

شعرت أن لا حول لي ولا قوة. طلبت زهوراً، وبعدها استحممت وارتديت ملابسي.

كـــان باب غرفة كيت مقفلاً. لم أكن قد تحدثت معه منذ نهار الأربعاء، كما لم أكـــن واثقـــة من مكان وجوده في الليلة السابقة. وعندما وصلت إلى المنـــزل، وجـــدت ملاحظة على الثلاجة مفادها أنه سيتأخر الليلة خارجاً. أي لم يكن هناك من داعٍ لانتظاره.

فلم أنتظره.

بيـــنما كنت أُعِدّ القهوة تذكّرت أنني أريد الاتصال بهاري. فمع أن ابن أختي قد ناهز التاسعة عشرةَ من عمره وتجاوز سن الرعاية القانونية، فقد أردت أن أكون واضحة بشأن مدى الرعاية المتوقعة ومدتها المرجوّة.

كان كيت يتمطى ببطء. وكان البراد محشواً بالبيتزا المثلّجة والسندويشات الجاهـــزة والـــنقانق ومرطباناتٍ الحبوب المطبوخة وعبوات مشروب الميلّو يالّو. أمـــا الطاولـــة فقـــد كانت ملأى بلفائف البطاطا بطعم الجبن ورقائق الناتشو والكعـــك المُحَلّـــى وعُلَب كرتون رقائق الذرة من نوع لاكي تشارمز وكوكو بافس.

في غـــرفة الجلـــوس، كان التلفاز قد تحوّل إلى سوني بلاي ستايشن. وكانت الأســـلاك الكهـــربائية تفترش الأرض كالمعكرونة المتشابكة، كما كانت الأقراص المدمجـــة مُكدّسة فوق طاولة الطعام ومُبعثرة مقابل الموقد. وقد ملأت أحد المقاعد كـــومة كبيرة من سراويل الجينـــز المُجعدة والجوارب وسراويل الرياضة وعُلقت قبعة على جانب مقعد آخر. كما وجدتُ زوجين من أحذية رعاة البقر مطروحين في الصالة حيث تمَّ رميهما.

كان منظر المكان يوحي وكأنني أعيش مع غارث بروكس.

قمـــت باستبدال ملاحظة كيت بأخرى كتبت فيها أنني سأكون في المنـــزل عند الساعة الخامسة وأنني أرجو رفقته المؤنسة وقت العشاء. ثُم عُدت إلى عملي.

كان الجو في المختبر كئيباً كالمرة السابقة. أعلن مورين في الاجتماع الصباحي أنه قد تحدّث مع زوجة لامانش التي أخبرته بأن زوجها لا يزال في غيبوبة مع العلم بـــأن مؤشـــراته الحـــيوية في حالة مستقرة، وقد عزا الأطباء حالته إلى صدمة قلبية المنـــشأ. كما أنها ذكرت بأنها ستقوم بالاتصال بنا إذا حدث أي تغيير. أما القضايا اليومية الأخرى فقد تمّت مناقشتها بسرعة وهدوء من دون جو المزاح المعهود.

كانـــت شـــجرة قـــد سقطت في دولارد دي أورمو على رجل مما أدى إلى ســـحقه. وقـــد عُثر على زوجين ميتين في الفراش في بوان - أو - ترامبل، وهما ضـــحيتا جـــريمة انـــتحار واضحة. كما غسلت الأمواج جثة امرأة قرب نهر دي بريري.

لن يتمَّ تحويل أي شيء للطب الشرعي. هذا أمر جيد، إذ يُبقيني حرة لأتفرغ للمَهـــام التي أوكلتني بها كايت بروفي. وإن كان جاك روي مُتفرغاً، فسأذهب إلى مقر كركاجو الرئيسي وأعرف رأيه بالقضية.

عندما انتهى الاجتماع، أخذت كوب القهوة الخاص بـــي، وذهبت لأشربه. كـــان رونالـــد غيلبرت بجانب الطاولة يتحدّث مع واحد من التقنيين الحديثين في قـــسمه الخـــاص. لم أكن أعرف اسم الشاب، لكنني استطعت تمييزه لأنه كان في مسرح جريمة شيروكي يُساعد غيلبرت في ما يتعلّق ببقع الدماء.

بيـــنما كنت أنتظر دوري بقرب آلة القهوة، سَمِعت مقتطفات من حديثهما وأدركت أنهما يُناقشان قضية شيروكي. فحبست أنفاسي لاستراق السمع.

"كــلا، حمداً لله، فالمسألة ليست بكل هذا التعقيد. لقد قمت باكتشاف مهم في أول عمل لك".

"أظن أن هذا حظ المبتدئين".

"أودّ التحدث مع لامانش من القلب إلى القلب قبل كتابة هذا التقرير، ولكن أظن أن هذا لن يحدث".

"كيف حاله؟".

هزّ غيلبرت كتفيه، وحرّك قهوته، ثم قوّس العود الخشبـي الصغير ورماه في سلة النفايات.

بيــنما كــنت أشــاهدهما يُغادران، تذكرت شقة شيروكي، وشعرت مجدّداً بالقلــق. لم يشعر أحدٌ بغرابة هذه الجريمة واختلاف نوعها. ولكن لِمَ كنت مرتابة إلى هذا الحد؟ ما الذي بدا غريباً؟ لم تكن لديّ أي أجوبة عن أسئلتي.

مــلأت كوبـــي بالقهوة، وأضفت القشدة، ثم عُدت إلى مكتبـي حيث رحت أرتشف القهوة وأتأمل، قدمايَ على العتبة، وعيناي على مركب يسير ببطءٍ في النهر.

ما الذي بدا غريباً في مسرح جريمة شيروكي؟ ألم يكن هناك أثر للاقتحام أو للدخول عنوة؟ إذاً، فقد كانت الضحية راضية...

وإن يكـــن؟! فهـــذه الأمـــور قـــد تحدث، ولكن ما كان ذلك؟ إطلاق نار عـــشوائيًّا؟... ربما كان تشاربونو على حق، من المحتمل أن خطأً ما قد حدث وأن الجـــاني قد هرب. حتى الخطط الجيدة قد تفشل بسبب سوء التنفيذ. خذ العبرة من فضيحة واترغايت.

أخذت رشفة.

ماذا عنى غيلبرت "بالاكتشاف المهم"؟

رشفة أخرى.

ما الذي كان معقداً إلى هذا الحد؟

رشفة أخرى أيضاً.

ما الذي كان يريد مناقشته مع لامانش؟

لن يضرَّ السؤال.

تذكر فضيحة واترغايت.

وجـــدت غيلبرت أمام شاشة حاسوب. حين طرقت الباب، استدار ونظر إليّ مـــن فـــوق نظارة ذات إطار معدني. كان الشعر البنيّ المجعد يغطي رأسه ووجنتيه وذقنه ليمنحه مظهر بطل من أبطال الأساطير اليونانية.

"هل لديك دقيقة؟".

"طبعاً، قدر ما تشائين".

أشار إليّ بالدخول، وسحب كرسيّاً إلى جانب كرسيه.

"الموضوع يتعلق بقضية شيروكي ديجاردن".

"أجل، رأيتك في مسرح الجريمة. لماذا تعملين على هذه القضية بالذات؟".

"لقد كنت هناك لأن التقارير الأولية أشارت إلى جثة محترقة، لكنه تبيّن لاحقاً أن وضع الضحية لم يكن سيئاً".

"لم يكن سيئاً؟! لقد بدا كلوحة زيتية مرسومة بنسيج المخ".

"حـــسناً، في الحقـــيقة نعـــم، وهذا ما أودّ التحدث معك بشأنه. لقد أردت الـــتحدث مع الدكتور لامانش عن ذلك، ولكن بالطبع ذلك غير ممكن في الوقت الحاضر".

بدا حائراً.

"إن التحـــرّيّين اللذين يعملان على قضية شيروكي مقتنعان بأنها كانت ضربة درّاج".

تـــردّدت قليلاً، غير واثقة كيف أُعبِّر عن تحفظاتي بواسطة الكلمات. "ثمة أمر غريب يشغل تفكيري ولا أستطيع فهمه بالكامل، وهو يتعلّق بمسرح الجريمة".

"أمر غريب؟".

شـــرحت في هـــذه الجلسة القصيرة مهمتي في عملية كركاجو وما رأيته في جلسة الإحاطة بالمعلومات.

"أُدرك أنـــني مـــا زلـــت مبتدئة، وربما هذا هو السبب. من المحتمل أنني أرى الأمور بطريقة مختلفة".

"وبماذا تُخبرك عيناك؟".

"إن عملية شيروكي كانت جريمة غير متقنة".

"وهل هنالك أمر آخر؟".

"نعم، الضحية كانت شخصاً قذراً أيضاً، يبدو أن شيروكي تعرّف إلى قاتله. هل يبدو ذلك كعضو عصابة سابق يتفرّد ببيع المخدرات في ساحة العصابة؟".

لم أذكـــر دورسي أو ادعاءاته بالبراءة. افترضت أن عدم التحدّث كثيراً عن زياراتي للسجن هو الخيار الأفضل.

نظر إليّ غيلبرت طويلاً ثم ابتسم.

"يظن كلوديل أنك امرأة مزعجة ومتطفّلة".

"وأنا أكنُّ له التقدير نفسه".

أرجع رأسه إلى الخلف، وضحك ثم غدا وجهه جدياً.

"ماذا تعرفين عن تحليل ترشاش الدم؟".

"لا أعرف الكثير". اعترفت بذلك.

"هل أنت جاهزة لدورة قصيرة مكثفة؟".

أومأتُ برأسي.

"حسناً، هيا بنا".

رجـــع إلى الـــوراء، ونظـــر إلى الـــسقف ليُقرر بلا شك من أين سيبدأ وكيف سيُلخّص سنوات من الخبرة في درس قصير. أستطيع تخيّله يفعل الأمر ذاته أمام المحلّفين.

"تكـــون قطـــرة الدم التي تسقط حرّة كروية الشكل نتيجة لتأثيرات الجاذبية والتوتـــر السطحي. تخيّلي الأمر عندما تنخزين إصبعك. يتكاثر الدم على الجانب السفلي إلى أن تتحرّر القطرة وتسقط. يبدو هذا بسيطاً. أليس كذلك؟".

"نعم".

"ولكنه ليس بالأمر البسيط. فجميع أنواع القوى المضادة تعمل في آن معاً، إذ إن قـــوة الجاذبـــية ووزن الدم المتزايد يشدان بقطرة الدم نحو الأسفل. وفي الوقت عيـــنه، يُحاول التوتر السطحي للدم المكشوف تصغير مساحة قطرة الدم الخارجية وسحبها نحو الأعلى".

وضع علامات اقتباس حول الأفعال.

"فقـــط عندما تتجاوز قوى السحب قوى الشدّ تتحرّر قطرة الدم. كما تمتدّ بشكل مبدئيّ، لكنها تنبسط بعد سقوطها بسبب مقاومة الهواء. إذ إن قوى جذب

التوتـــر الـــسطحي داخل القطرة تجعلها تتّخذ شكلاً بأقل قدر ممكن من المساحة الـــسطحية. هكـــذا تتّخذ قطرات الدم شكلاً كروياً وليس كشكل قطرات الدمع كمـــا يجـــري تـــصوّرها عادة. الشكل هو من أحد الأمور المهمة التي نأخذها في الاعتبار عند تحليل ترشاش الدم".

"يـــأتي ترشاش الدم نتيجة قوة تضرب الدم الثابت. وقد يكون في بركة على الرصـــيف، أو داخل رأس الضحية. فعندما تحدث الضربة، يندفع الدم في قطرات تُدعى ترشاش الدم، وهي تنتقل في الهواء على شكل كريات".

أطرقت برأسي.

"وعـــندما تصطدم هذه الكريات بسطح ما تُخلّف أشكالاً متوقّعة من الآثار. يهـــتم تحليل أنماط بقع الدم بفحص البقع الناتجة عن قطرات الدم غير النموذجية. وتتغيّر أشكال بقع الدم وآثاره عادة بفعل الضربات العنيفة".

"إن هدف تحليل أنماط بُقَع الدم هو العمل بدءاً من مسرح الجريمة وصولاً إلى إعـــادة تنظيم مجريات الأحداث التي حصلت. ماذا حدث بالضبط؟ وبأي ترتيب زمـــني؟ من كان يقف في هذا المكان؟ وما السلاح الذي تمّ استخدامه؟ أي أجسام تمّ تحريكها؟ من أجل الإجابة عن هذه الأسئلة، نلجأ إلى البحث في ما أدى إلى تَغيُّر قطرات الدم الموجودة".

"وهذا أمر في غاية التعقيد". بدأ يعدُّ النقاط على أصابعه. "على سبيل المثال، علينـــا أن نأخذ خصائص الهدف في الاعتبار. فالدم سَيتصرّف بطريقة مختلفة عند ارتطامه بسطح أملس أو ذي ملمس معين".

النقطة الثانية.

"الـــشكل. بمـــا أن نسبة طول العيّنة وعرضها يعكسان بدقة زاوية ارتطامها بصرف النظر عن السطح الذي اصطدمت به، فإننا نفحص بحذر شكل العيّنات".

نقطة أخرى.

"حجم البُقَع. تنتجُ البقع الكبيرة من تحرك قوى صغيرة أو بطيئة الحركة، بينما تنتج القوى الأكبر أو الأسرع بقعاً أصغر".

ثم توقّف وهو يضغط بإبهامه على إصبعه الرابع.

"هل ما زلت تُتابعيني؟".

"نـــتحدث عـــادة عـــن ارتطام بقع الدم الصغيرة بسرعة منخفضة ومتوسطة وعالية، علماً بأن هذه المصطلحات هي في الواقع نسبية".

"أعطني أمثلة على ذلك".

"سأفعل ما هو أفضل من ذلك، تعالي معي".

اصـــطحبني إلى أسفل القاعة إلى براد فولاذي، وسحب قنّينة سعة ليتر واحد تحمل العنوان *سونغ دو بوف*.

شرح قائلاً: "هذا دم بقر".

تبعـــته خلال ممر ضيق يُفضي إلى باب لا يحمل أي علامة، ودخلنا غرفة من دون نوافذ حيث أُلصقت صحائف كبيرة من الورق الأبيض على معظم الأسطح.

بـــدت الغرفة الصغيرة كموقع مذبحة. كانت الدماء متجمّعة على طول إزار أحد الجدران، ومرشوشة على نحو متفاوت على الجدران كافة، وكانت تتقطّر من بقـــع دمـــاء ذات أحجام مختلفة على مستوى الركبة في الزاوية الأبعد. تمكنت من رؤية ملاحظات مكتوبة بقلم رصاص فوق كل بقعة دم.

قـــال غيلبرت وهو يضع القنينة على الأرض: "هذه الغرفة الخاصة بنا لتحليل ترشاش الدم. راقبـــي".

أزال غطـــاء القنينة، وغمس عوداً خشبيّاً داخلها، ثم ترك الدم يتقطّر منه على الورقة تحت قدميه.

"يقتـــرن ترشاش الدماء ذو السرعة البطيئة بالقطرات التي تسقط على السطح مـــن دون أن تكون متأثرة بأي قوة، تماماً كالدم المتقطّر. إن حجم قطر الترشاش النموذجـــي يكـــون أكثر من ثلاثة ملّيمترات. وفي هذه الحالة تتراوح سرعة الدم الذي يتحرك ببطء بين قوة شد الجاذبية الطبيعية وخمس أقدام في الثانية الواحدة".

قمت بفحص البقع الدائرية الصغيرة التي أحدثها.

"ويـــنجم ترشـــاش الـــدم ذو الـــسرعة المتوسطة عن أفعال معيّنة كالضرب والإصـــابات الحادة الواضحة أو الطعنات. فيبدأ الدم بالتحرك بطريقة أسرع، أي بسرعة تتراوح بين خمس أقدام وخمس وعشرين قدماً في الثانية الواحدة".

فـــيما كـــان يقـــول ذلك، سكب كمية صغيرة من الدم في طبق وأشار إليّ بالتراجع إلى الوراء، ثم صوّب عوداً خشبياً إليه. فطار الدم عالياً واصطدم بالحائط.

أومأ إليّ غيلبرت بالتقدم مُشيراً إلى عدة بُقَع. كانت أصغر من تلك الموجودة تحت قدميه.

"هــل ترين ترشاش الدم هذا؟ بالإجمال يكون معدل حجم الترشاش الناجم عــن الــسرعة المتوسطة أقل من ذلك، إذ يتراوح قطره بين ملّيمتر واحد وأربعة ملّيمترات".

ألقى العود من يده.

"ولكــن الــبُقَع ليست بهذه الدقة كما هو الحال مع ترشاش الدّم ذي التأثير العالي. تعالي وألقِي نظرة على ذلك".

توجهنا نحو الحائط البعيد حيث أشار إلى مكان بدا وكأنه مرشوش بالطلاء.

"إن آثار الترشاش الناجم عن السرعة العالية يعني أن السرعة أكبر من مئة قدم بالثانــية الــواحدة، وهو ينتج من إطلاق نار أو انفجارات أو حوادث ميكانيكية. وهــذا أشــبه بالــضباب، إذ إن متوسط قطر الترشاش الواحد هو أقل من ملّيمتر واحد".

"لكن لا تفهميني بطريقة غير صحيحة، فليس بالضرورة أن يقع كل ترشاش للــدم بدقة ضمن واحدة من الفئات آنفة الذكر. إذ إن الدم المرشوش أو المُوّجه قد يُسبب في تعقيد الصورة".

"وكيف ذلك؟".

"في الواقــع هــذه أشكال ترشاش ناتج من سرعة بطيئة إلى سرعة متوسطة، لكنها تختلف عن تلك التي وصفتها للتو. على سبيل المثال، فإن ترشاش الدم يحدث في حال داس أحدهم في بركة دم موجودة أصلاً. مما يترك رشّات دم طويلة وضيقة تُحيط ببقعة مركزية، بالإضافة إلى عدد قليل جداً من البُقع الدائرية".

"يــأتي الدم المرشوش نتيجة لركض أحدهم في بركة دماء أو ضربها بقدمه أو بيده. كما ينتج هذا الشكل من تدفّق الدم من الشرايين أو ضرب الرأس بالأرض. مــرة أخــرى تتّخذ رشات الدم أشكالاً طويلة شوكية تتشعّب من بُقعة رئيسية. ولكن في هذه الحالة تكون حدود البقعة الرئيسية مشوهة".

"يتــرك الدم الذي يرميه السلاح أنماطاً أخرى من الدماء. دعيني أريكِ كيف يتم ذلك".

عاد إلى العود الخشبي، وغمّسه في القنينة، ثم لوّح به على شكل قوس. ففرّ الدم من رأس العود واصطدم بالحائط إلى يمينه. اقتربت، ودرست البُقَع.

"تكون هذه النقاط أصغر من تلك التي تكون في الترشاش النموذجي ذي السرعة البطيئة، وكلما ازدادت القوة، كانت قطرات الدم أصغر حجماً. وبما أنه جرى قذف الدم من جسم متحرك، فإن رشات الدم تظهر بشكل خطوط مستقيمة أو ملتوية قليلاً، كما أن قطرات الدم تكون متشابهة إلى حدٍّ ما في كل مكان".

"إذاً، يمكنك أن تحدّد طبيعة الاعتداء بناءً على شكل رشات الدم وحجمها؟".

"أجل، وفي معظم الحالات نستطيع تحديد مكان الاعتداء بالضبط. لنعد إلى مكتبي وسأريك شيئاً آخر".

حين أصبحنا أمام شاشة الحاسوب مرة أخرى، وضع أصابعه على لوحة المفاتيح وأدخل كلمةً ما.

"لقد رأيتِنا نصور أشرطة فيديو للدم في شقة الضحية، أليس كذلك؟".

"نعم".

"لقد استخدمنا آلة تصوير بسيطة، ولكن بإمكانك استخدام آلة تصوير رقمية. وقد قمنا بتسجيل أماكن بقع الدم كافة مستخدمين مقياساً مدرجاً وخطاً عامودياً".

"ولِمَ الخط العامودي؟".

"يستخدمها البرنامج بغية تحديد الاتجاه العامودي للطخة الدم".

ضغط غيلبرت على أحد المفاتيح، فظهرت على الشاشة مجموعة أشكال إهليليجية بنية اللون.

"يتم إدخال الصّوَر الموجودة على أشرطة الفيديو إلى الحاسوب ويمكن تشغيلها على الشاشة. وتُنتزع الصور المفردة وتسجل على القرص الثابت كصور نقطية. ويقوم برنامج معين بعرض صورة كل بقعة على حِدة لنتمكن من أخذ القياسات. وتستخدم هذه القياسات لاحتساب زاويتين: زاوية الاتجاه وزاوية التأثير".

ثم ضـــغط مجدّداً لمرات عدّة على لوحة المفاتيح فظهر شكل بيضاوي مرّكب فوق بقعة الدم في وسط الشاشة. وأشار غيلبرت إليه.

"إن اتجـــاه المحور الرئيسي للقطع الناقص بالنسبة إلى أداة قياس استقامة الحائط يُحدّد زاوية اتجاه أو درجة مغايرة البقعة. وقد يتراوح معدل هذه الدرجة بين صفر و360.

"أما زاوية الارتطام، أو ألفا، فيتراوح معدلها بين صفر وتسعين درجة. ويمكن احتساب ذلك من خلال شكل القطع الناقص".

"ولِمَ ذلك؟".

"تذكـــري أنه حين تنتقل قطرة الدم عبر الهواء تكون كروية الشكل، ولكن عـــندما تـــرتطم بجسم صلب تنبسط وتترك آثاراً. يحدث ذلك لأن أسفل القطرة يضرب السطح".

ومثّل بيده الضربة العنيفة.

"يكون الأثر صغيراً في البدء عند ارتطام القطرة، ثم يأخذ في الاتساع، وتكون النقطة الأوسع في الوسط، وهو الجزء الأكبر من القطرة. ثم يضيق الأثر تدريجياً إلى أن يضمحلّ تماماً. هل ترين هذا الشيء هنا؟".

أشـــار إلى شـــكل بيضاوي ينتهي بنقطة صغيرة عند أحد أطرافه. كان يبدو كالعديد من الأشكال التي رأيتها في غرفة ترشاش الدم.

"يبدو كعلامة تعجب".

"هـــذا مـــا يُدعى بالضبط. ففي بعض الأحيان، تنفصل نقطة دم صغيرة عن القطـــرة الأساسية، وتثب باتجاه رأس أثر اللطخة. عند النظر إلى هذا الترشاش من الأعلى، يبدو إما كالشّرغوف أو كعلامة التعجب، إذ يعتمد ذلك على مجرد كون الطـــرف البعـــيد ممدوداً أو إن كان جزءاً صغيراً منفصلاً تماماً. وفي كلتا الحالتين، يكون اتجاه الحركة واضحاً".

"تشير النقطة باتجاه حركة القطرة".

"تمامـــاً، يقـــوم البرنامج بتحضير ملف يتضمّن قيمة الزاوية لكل بقعة جرى تحلـــيلها. ومـــن تلـــك المعلومات يتم احتساب النقطة الأساسية. وصدّقيني، إنّ استخدام الحاسوب هو أسرع بأشواط من طريقة استخدام السلك القديمة".

"أوضح من فضلك".

"عذراً، وفقاً لطريقة استخدام السلك، يتم إحكام ربط السلك بالسطح عند موقع البقعة وبعدها يتم تمديده بالاتجاه المقدر لمسار الحركة. ويتم تكرار ذلك على عـــدة بقع من الدم حول مسرح الجريمة. وينتج عن الأمر ظهور نمط من الأسلاك التي تبتعد عن الترشاش باتجاه مصدر الدم. وتعتبر اللوحة الأساسية نقطة تلاقي كل الأسلاك. بيد أن هذا الإجراء يستغرق الكثير من الوقت ويفسح مجالاً كبيراً للخطأ. بدلاً من احتساب كل ذلك يدوياً، يقوم الحاسوب برسم أسلاك عامودية افتراضية يتم احتسابها وفقاً للبيانات".

حرّك أصابعه فوق لوحة المفاتيح، وظهرت صورة جديدة على الشاشة تحمل رسمـــاً بيانـــياً. كمـــا شكّلت عشرات الخطوط نمطاً على شكل الحرف X، وقد تقاطعت في ما بينها لتكوّن شكل قوس هندسي.

"هذه نظرة عامة لمجموعة أسلاك افتراضية مبنية على اثني عشر ترشاشاً للدم. مـــن الصعب فهم وجهة النظر هذه من خلال استخدام أسلاك حقيقية، بالرغم من أنها أكثر نفعاً".

ضـــغط علـــى المفاتيح مجدّداً، فظهرت صورة أخرى. في هذه الصورة كانت الخطوط تتداخل مع بعضها بعضاً من أعلى اليسار إلى أسفل اليمين لتلتقي في نقطة عند ثلثي المسافة في أسفل الشاشة، ثم تعود لتنتشر قليلاً كسيقان باقة زهور يابسة.

"بإمكان البرنامج إنتاج صورة جانبية، وهذا أمر ضروري لتقدير مدى ارتفاع مصدر الدم. وبجمع المشهدين، تحصلين على فكرة دقيقة عن نقطة الالتقاء وبالتالي عن موقع الضحية".

مال غيلبرت إلى الوراء ونظر إليّ قائلاً:

"الآن ماذا تريدين أن تعرفي عن مسرح جريمة شيروكي؟".

"أي شيء تستطيع إخباري به".

للأربعـــين دقيقة التالية كنت أصغي وأشاهد وأقاطعه فقط لطلب التوضيح. كان غيلبرت صبوراً وشاملاً في شرحه بينما كان يأخذني إلى حوض الدم في الشقة.

مـــا قاله زاد اقتناعي بأن كلوديل كان يقودنا في الاتجاه غير الصحيح على نحو خطير.

23

كانـــت الشاشة تمتلئ بمئات النقَاط الصغيرة كلوحة الدم التي رأيتها في غرفة غيلبرت لفحص الدم، وقد انتشر في وسطها رذاذ صغير من اللحم والعظام.

"أنـــت تنظـــرين الآن إلى قسم من الحائط الشمالي الذي يقع مباشرة خلف كرسي الضحية، وهذه رشات البُقَع الأمامية".

"رشات البُقَع الأمامية؟".

"نتجت رشات الدم هذه عن الرصاصات التي اخترقت رأس شيروكي. والدم الذي ينتج جراء جرح داخلي يُدعى رشات الدم. انظري إلى ذلك".

وضـــغط غيلبرت على مفتاح فملأت الشاشة صورة جديدة أشبه برذاذٍ من الدم، تفتقر إلى كُتل النسيج الكبيرة المستديرة وتتباعد الرشات في ما بينها.

"لقـــد تم الـــتقاط هـــذه الصورة من جانب التلفاز حيث ضرب الرصاص شيروكي وفرَّ الدم من الخلف".

"وهل أُطلِق النار عليه وهو جالس على الكرسيّ؟".

"نعم".

وضغط مرات إضافية على أزرار مختلفة في لوحة المفاتيح، فاستُبدِلَت الصورة بمـــشهد الكرسيّ حيث تم إيجاد الجثة، وقد انطلق خطان بشكل قطريٍ من الحائط والتلفاز ليتقاطعا في نقطة فوق رأس المقعد.

"لكـــن الطلق الناريّ قد فعل فعله، وإن لم يمت مباشرة، فقد كان على شفير الموت. انظري إلى ذلك".

مــــرة أخرى راح يضغط أزراراً مختلفة فظهرت صورة أخرى تحوي بُقعاً أكبر ذات أحجام متفاوتة.

"هذه رشات الدم الناتجة عن سرعة متوسطة وقد كانت منتشرة في جميع أنحاء الزاوية الشمالية الغربية للشقة".

"ولكن ــ".

"انتظري قليلاً".

جلَــبَ إطاراً آخر يُظهر البُقَع بشكل أكبر إلى حدٍّ ما من تلك التي رأيتها في الــصور الــسابقة ولكن بأحجام متقاربة نسبياً. وقد تنوّعت أشكالها بين حلقات مستديرة وأشكال بيضاوية.

وعــندما ضغط غيلبرت على أحد الأزرار وقام بتكبير الصورة، استطعت أن أرى أن معظم هذه الرشات موزعة على طول خط متقوس تتمدّد بضع قطرات على جانبيه.

"هذه رشات دم على السقف".

"على السقف؟".

"هــذا مــا ندعوه بالدم المطروح. وهو نتيجة دم مقذوف من جسم متحرك كالعود الذي بحوزتي. فعندما يُلوّح المهاجم بسلاحه، يقوم بردّه نحو الخلف بحركة مباغتة، ثم يُعيد الكَرّة ويعكس الاتجاه ليُسدِّد الضربة التالية. فتفرّ معظم كمية الدم نتــيجة ردّ الضربة إذا كانت بالقوة الكافية لتحقيق ذلك على الأقل. كما يمكن أن تنحدر كمية قليلة من الدم نحو الأسفل".

وأشار إلى قطرات دم في منتصف بقع الدماء.

"نتجت هذه العينات من تسرب الدم بطريقة معاكسة، أي نحو الخلف".

كما أشار إلى عدة قطرات تنبسط على طرفي القوس.

"أما هذه العينات فهي نتيجة انحدار الدم نحو الأسفل".

استغرقت بعض الوقت لأفهم ذلك.

"إذاً، هل تعني بأنه تعرّض للضرب قبل إطلاق النار عليه؟".

"هــذا أحــد آثار بُقع الدماء الخمس التي استطعنا تحديدها. بشكل عام، إذا افترضنا أن الإصابة بجروح سطحية هي المصدر الوحيد للدم، أو المصدر الأول له، يبقى عدد آثار بقع الدم يُساوي عدد الضربات زائد اثنين".

"ولِمَ زائد اثنين؟".

"لم يحدث أي نـــزف للدماء عند الضربة الأولى. أما عند الضربة الثانية، فقد تطايـــر الـــدم بواسطة السلاح نحو الأعلى وترامى عندما قام المهاجم بردّ يده إلى الوراء ليُسدّد الضربة الثالثة".

"حسناً".

"وقـــد وُجدت هذه العينات الناتجة عن السرعة المتوسطة على أسفل الجدران وعلى الفضلات المكوّمة في الزاوية".

ضـــغط على لوحة المفاتيح، فظهرت صورة لخطوط مسار أخرى عند نقطة تعلو عن الأرض مسافة تقل عن قدمين.

"مـــن وجهـــة نظـــري، لقـــد تم ضربه قرب زاوية الغرفة فوقع أرضاً، ثم تعـــرّض للـــضرب علـــى نحو متكرّر. وبعدها تم وضعه في الكرسيّ وأطلق عليه الرصاص".

"بِمَ تمّ ضربه؟".

زمَّ شفتيه ثمّ قال: "أوففففف... هذا ليس شأني".

"لِمَ تعرّض للضرب العنيف قبل إطلاق النار عليه؟".

"حتماً هذا ليس من شأني".

"ولكن إذا تم جرّه، ألن يترك ذلك آثاراً؟".

"مـــن المحـــتمل أن يكـــون المعتدي قد مسحها. بالإضافة إلى ذلك، كان هـــنالك الكـــثير من الدماء في كل مكان، فضلاً عن كثرة الناس المتواجدين في مـــسرح الجـــريمة، لـــذا، أمسى الاعتماد على الآثار الموجودة على الأرض بلا جدوى".

"وعلاوة على ذلك، فقد ساهم الحريق في إخفاء بعضها".

"لكن هنالك السجادة على الأقل. بإمكاننا استخدام ضوء *لومينوت* لكشف الدم، لكن ذلك لن يغيّر ما أراه من هذه العينات".

لقد كنت أفكّر في ذلك عندما تكلم مجدّداً.

"هنالك أمر آخر".

"هل هنالك المزيد؟".

مرة أخرى ضغط على أزرار لوحة المفاتيح، ومن جديد ملأت الشاشة صورة أشبه بغيمة من عينات الدم الناتجة عن السرعة العالية، غير أن جزءاً من هذه الغيمة كان مفقوداً بالكامل، تماماً كلوحة مركبة فُقدت منها قطعة.

"هذه طلقة أخرى على الحائط خلف رأس الضحية".

"تبدو الصورة وكأن أحداً شطر قطعة منها".

"هــذه تُدعــى فجــوة في العيّنة وتظهر عندما يوقف جسم ما مسار الدم ثم يختفي".

"أيّ جسم؟".

"لا أعرف".

"من يُخفيه؟".

"لا أعرف".

فــيما كــنت عائدة إلى مكتبــي مسرعة، كانت كلمات دورسي تتعالى في ذهني مع صور غيلبرت.

ضربة هاو. أياً كان من قام بعملية شيروكي، فسيبقى طليقاً.

أخذت الهاتف، وطلبت رقماً، فأخبرني السكرتير أن جاك روي قد سافر إلى فالــدور وبأنني لن أجده قبل يوم الاثنين. سألت عن كلوديل وقد نفد صبري، فلم يكــن موجــوداً ولا حتى شريكه في قضية كركاجو. ففكّرت في استخدام جهاز النداء الآلي، وبعثت برسائل إلى الجميع، إذ لم أعتبر تلك حالة طارئة كفاية.

ما إن أعدت السماعة إلى مكانها حتى رن الهاتف.

"هل ينبغي أن أرسل أكبر سلة فاكهة في العالم؟".

"مرحباً هاري".

بدت أختي كالعادة وكأنها أتمت لتوها عملاً ما يتطلب جهداً قوياً.

"لــمَ تلهثين؟".

"أَكيدو".

لم أستفسر عن ذلك.

"هل يجعلك ولدي ترغبين في العودة إلى الشرب لمواساة نفسك؟".

"إنه بخير يا هاري".

"هل أنت دائمة المرح على هذا النحو أيام الجمعة؟".

"سمعت للتو شيئاً مزعجاً. ماذا هنالك؟".

"ظننت أنك تعرفين أن كيت وهاورد تشجارا مجدّداً".

"ماذا؟".

شككت في ذلك كثيراً، لكنني لم أشأ الضغط على ابن أختي.

"نعم، بسبب بطاقة الغولف مرة أخرى".

تذكرت ذلك المشهد عندما كان كيت في عمر الخامسة عشرة حين سرق عربة من المتجر في نادي هاورد الريفي. ووُجِدَت في الصباح التالي والماء يغمر نصفها عند الحفرة رقم 15، إلى جانب نصف زجاجة من الشراب في القسم الخلفي. فاستشاط الوالد غضباً فيما كان الولد يثمل طيلة الليل. وبعد مرور أسبوع، ظهر كيت في تشارلوت، وكان مديوناً لسائق التاكسي بستة وتسعين دولاراً، إذ لم ينجح في تأمين توصيلة مجانية عند آخر محطة له. ولكن سرعان ما تصالح كيت وكاتي وبقي ابن أختي طيلة الصيف.

"لماذا تشاجرا؟".

"لا أعرف بالضبط، لكن الأمر يتعلّق بعدة صيد. هل يُحاول تحسين سلوكه؟".

"في الواقع لم ألاحظ ذلك كثيراً، أظنه يتعرف إلى أصدقاء هنا".

"أنت تعرفين كيت. حسناً، سأكون ممتنة جداً لو سمحت لكيت أن يبقى لبعض الوقت. أظن أنه ووالده يحتاجان إلى بعض الوقت وإلى وجود مسافة بينهما".

"ألا يعيش هاورد قرب أوستن؟".

"بلى".

"وأليسَ كيت معك في هيوستون؟" تبدو هذه مسافة كافية من وجهة نظري.

"بلى يا تمب، وهذه هي المشكلة. لدي رحلة إلى المكسيك وقد خطّطت لها منذ زمن، ومن المفترض أن أغادر غداً. وإذا ألغيت الرحلة فسأخسر المال، كما سيغضب أنطونيو كثيراً. ولكن بالطبع قولي ما تريدين وسأنفذه".

"أه... أممم".

تساءلت ما إذا كان من رابط بين أنطونيو وأكيدو. هنالك رجل جديد في حياة هاري، مما يعني عادة أمراً جديداً لتهتم به.

"لا أُطيق أن أترك كيت في منزلي لمدة أسبوع من دون إشراف، وفي الوقت الحالي لا أستطيع إرساله إلى والده. وبما أنه يقيم عندك الآن وتقولين إنه ليس هناك من مشكلة...".

تركت الجملة تنساب.

"أنت تعرفين أنني أرحب بإقامة كيت معي". لكن ليس بالضرورة هذا الأسبوع، قلت في نفسي.

"لكن يا تمب إذا كان هذا الأمر الصغير جداً يزعجك، أخبريني بذلك وأنا سأُلغي الرحلة بطريقة أسرع من...".

"أُريد أن أعرف مدى الإشراف الأبوي المتوقع".

"إشراف أبوي؟".

بدت في حيرة تامة.

"أقصد مَهمَة التوجيه أو الرقابة الأبوية، إنها مَهمة دقيقة، ولكن هل يستوجب الوضع القيام بها؟".

"كوني واقعية يا تمب، كيت في التاسعة عشرة من عمره. بإمكانك الإشراف عليه بقدر ما تشائين، لكن ذلك الصبي قد وُلِدَ ليمضيَ وقته في اللهو والرقص. جل ما أريده هو الاطمئنان عليه يومياً والتأكد من أنه في حالة صحية جيدة، وبأنه ليس مطلوباً من قبل السُلطات. كما أريد أن أطمئِنَّ بأنه لا يستخدم منزلي كمركز اجتماع للشمالى القاصرين. فكما تعلمين لم يكبر كيت في عائلة بارتريدج".

لم أستطع قط استيعاب عائلة بارتريدج.

"لكن ذلك لا يعني أن تعفيه من المهام المنزلية كافة، بل تأكدي من أنه يُحسِن توضيب أغراضه وبأنه يغسل الصحون من وقت إلى آخر".

تخيلت مشهد الملابس المكوّمة في غرفة الجلوس.

"في الحقيقة سأقوم بالاتصال به شخصياً والتأكد من أنه يُدرك حقيقة أن منزلك ليس بمرفأ دخول لأي متاع قديم يريد إقحامه في المنزل".

"إلى متى ستبقين في المكسيك؟".

"سأمكث هناك لعشرة أيام".

"وماذا لو أراد العودة إلى المنــزل قبل عودتك؟".

"لا مشكلة في ذلك، فقد أعطاه هاورد حوالى ألف ومئة بطاقة ائتمان. ولكن دعيه يُدرِك أن عودته الباكرة تعني عودته إلى أوستن وليس إلى هيوستن. ولا تدعيه فريســة الإحباط بل ساعديه للتغلب عليه، فأنت جيدة في ذلك وتُتقنين تأدية دور الأخت الكبيرة بشكل جيد. أنت تعرفين مدى ولع كيت بك".

تملُّق جيد يا هاري.

"سأتذكر ذلك عندما يُرهن فضة جدته. أتمنى لك وقتاً طيباً وأرجو أن تتركي رقماً للاتصال بك عند الحاجة".

حين أقفلت الخط، ظهر كلوديل عند المدخل بوجه مشدود تكاد عظامه تنفر منه. ورأيته يتوجّه إلى الكرسي مقابل مكتبــي.

جيّد جداً.

"صباح الخير يا سيد كلوديل".

لم أتوقع ردّ التحية، وهو لم يردّها.

"لقد قمت بزيارة غير شرعية إلى السجن".

سألته بكل براءة: "هل أخبرك السيد دورسي عن المحادثة التي أجريناها؟".

"لقد قمت باستجواب سجيني".

"هل يُعدّ من ممتلكاتك الشخصية؟".

جاهد كلوديل للمحافظة على نبرة صوته: "أنت لست محققة جنائية ولا حتى تحرية".

"لا شأن لك في قضيتي".

"دورسي استدعاني".

"كان ينبغي عليك أن تبلّغي عن ذلك".

"لقد طلب مقابلتي لأنه شعر بأنك لن تُصغي إليه".

"إنه يستغلك من أجل التدخل في تحقيقاتي".

"لِمَ لا تأخذ في الاعتبار أنك قد تكون على خطأ يا كلوديل؟".

"هذا خارج إطار صلاحياتك، ولستُ مضطراً إلى الشرح لك".
"لقد كان اعتقالك لدورسي مبنيًّا على أساس ضعيف".
"لكن هذا شأني أيتها السيدة وليس من شأنك التدخل فيه".
"أنت مقتنع أن شيروكي قُتل على أيدي الدرّاجين". وأضفتُ بطريقة مباشرة: "أنا مكلّفة وقتياً بمتابعة عملية كركاجو".
فرد كلوديل وهو بالكاد يستطيع إخفاء غضبه: "أنا أفعل ما في وسعي لأغير ذلك".
فشعرت أن الدم تصاعد إلى وجنتيَّ: "حقاً".
"لـــن أُنـــاقِش هـــذا الموضوع معك يا سيدة برينان، وأرجو ألاّ تتدخلي في تحقيقاتي وأن تبقي بعيدة عن ذلك".
"أنا لا أَتلقى الأوامر منكَ".
"حسناً، سنرى ذلك".
"لقد عَمِلنا سوياً ذات مرة وحقّقنا نجاحاً جيداً".
"لكن ذلك لا يجعلك مُحققة أو يُخوّلك التصرف مباشرة في قضية قد كُلّفت أنا بها".
"أنـــت تُـــبالغ في الاســـتخفاف بــــي إلى درجة لا تستطيع تخيّلها يا سيد كلوديل".
فانتصب في وقفته وخفض ذقنه وأخذ نفساً عميقاً، وعندما تحدّث مجدّداً كان صوته هادئاً.
"أي أخذ وردّ في هذا الموضوع هو بلا جدوى".
وافقته على ذلك.
مشى باتجاه الباب، وظهره صلب كظهر فارس. استدار ورفع ذقنه، ثم تكلم وأنفه متجه نحو الأسفل.
"هنالك أمر واحد ينبغي عليك أن تعرفيه يا سيدة برينان".
انتظرت.
"لقد تمّ اتّهام جورج دورسي بجريمة قتل من الدرجة الأولى هذا الصباح".
كانت كلماته باردة جداً، غير أنني شعرت بحرّ يغمر الغرفة كافة. ثم غادر.

أخـــذت نفـــساً عميقاً جداً. ثم أرخيت أصابعي وجلست أُحدّق إلى أولاد يلعبون في ساحة المدرسة على بعد اثني عشر طابقاً.

كنت غاضبة جداً بسبب دورسي. وشعرت بالإحباط بسبب كلوديل ورفضه العنـــيد للإصـــغاء إليّ. شعرت بالانكسار لأن هذا الرجل قد اتخذ خطوات ليُلغي تفويضي بمتابعة عملية كركاجو.

لقد كنت غاضبة من كلوديل، غير أني غضبت أكثر من نفسي لأني فقدت السيطرة على أعصابـــي في أثناء مشادتي مع كلوديل. فكرهت نفسي لذلك، لكن الأمر كان أكبر من ذلك بكثير.

فالحقـــيقة هـــي أن كلـــوديل يُهدّدني وأنا ألتمس موافقته بالرغم من كرهي الاعتراف بذلك.

كـــنت أعتقد أنني أملك أساساً جيداً بسبب عملي معه في السابق، لكنه من الواضح أن هذا الرجل ينظر إليّ باستخفاف. وهذا يُحدث فرقاً.

شعرت بالضيق لذلك. كما كنت أعرف أن عدم إبلاغه بمقابلة دورسي كان خطـــأً، إذ إن العمـــل في فِرَق التحقيقات يتطلّب مشاركة المعلومات كافة. وهذا صحيح.

مـــن جهـــة أخرى، عرفت أن كلوديل لن يشملني ضمن فريق التحقيقات، لـــذلك اختـــرت ألاّ أخبره. لقد كان أحد كبار المحقيقين الذين يعملون في قضية شيروكي. ولكنني بتصرفاتي هذه زوّدته بسلاحٍ ليستخدمه ضدي.

"تباً له".

حـــولّت نظـــري عـــن لعـــب الكرة في الأسفل، ورحت أتفحص محتويات مكتبـــــي. هـــنالك العديد من الموضوعات التي يجب معالجتها، فضلاً عن ملفات عليَّ توقيعها للتخلص من الرفاة.

هنالك رسائل هاتفية وحقيبة مليئة بمعلومات عن الدرّاجين.

توقّـــف نظري عند رزمة من النسخ المصورة المكدسة فوق خزانة في الزاوية. رائع. منذ أشهر وأنا أؤجل العمل عليها. فقرّرت أن أُبعِد تفكيري عن جلبة العظام والدرّاجين والتحقيقات بغية تجديد معلوماتي حول القضايا القديمة.

هذا ما قمت به حتى انتهاء الدوام.

في طريق العودة إلى المنزل، مررت بمتجر مترو في شارع بابينو، واشتريت المكونات اللازمة لصنع صلصة البوتانسكا. تساءلت هل كان كيت يُحب سمك الأنشوفة، ولكنني ابتعته على أي حال. سأتصرّف كما أفعل عادة حين أقدّم إلى كاتي طبقاً أجنبياً. ولكنني لن أخبر كيت بذلك.

كان طبق المساء غير ذي أهمية. وعندما وصلت إلى الشقة، لم يرحّب بي أحد سوى بيردي.

كانت الثياب والأحذية موضوعة بترتيب، وقد غطّت باقة أزهار بحجم جزيرة رود أيلاند طاولة الطعام. كما وجدت ملاحظة على البراد.

كان ابن أختي آسفاً جداً لأن لديه خططاً أخرى لا يستطيع تأجيلها. رسم وجهاً حزيناً. لكنه يعدني بتمضية نهار السبت كاملاً برفقتي. رسم وجهاً سعيداً.

رميت الأغراض على طاولة المطبخ، وتوجهت نحو غرفة النوم، وخلعت حذائي.

تباً. أي نوع من الحياة هذه؟ أمسية جمعة أخرى برفقة القط والتلفاز.

ربما يرغب كلوديل في العشاء معي. سيجعل ذلك يومي سعيداً.

خلعت ثياب العمل، وألقيتها على الكرسي، ولبست سروال جينز وكنزة فضفاضة.

هذا خطأك يا برينان، فأنت لست ملكة الأناقة.

وضعت حذائي في خزانة الأحذية، وكسرت ظفراً علق فيها.

لم أتذكّر أنني شعرت بالإحباط يوماً إلى هذه الدرجة أو حتى بالوحدة الشديدة.

ثم خطرت في بالي فكرة.

اتصلي برايان.

كلا، لن أفعل.

ذهبت إلى المطبخ، وبدأت بإفراغ أكياس البقالة ووجه رايان يملأ عقلي.

هيا اتصلي.

كان هذا من الماضي.

تذكرت علامة لديه في عظمة الترقوة من الجهة اليُسرى، عضلة مقوّرة كانت تُمسّد وجنتيّ، مما يُعطيني شعوراً رائعاً بالأمان والسكينة والحماية.

اتصلي به.

فعلت ذلك.

هيا تحدّثي إليه.

لكنني لا أريد سماع أعذار واهية وأكاذيب.

ربما هو بريء.

جين برتراند قالت إن الدليل كان قاطعاً.

انهار عزمي على مكالمته حين وصلت إلى الطماطم المعلبة. أنهيت عملية إفراغ الأكياس وطويتها ووضعتها تحت الحوض، ملأت صحن بيردي، ثم توجّهت نحو الهاتف الموجود في غرفة الجلوس.

عندما رأيت الضوء انقبضت معدتي بعض الشيء.

ضغطت الزر.

إيزابيل.

كان الهبوط أشبه بهبوط رياضي بعد وثبة فاشلة.

إن هنالك رسالتين لم تتمّ محوهما.

ضغطت على الزر مرة أخرى آملة أن يكون كيت قد سمعهما ونسي أن يمحوهما.

كانت الرسالة الأولى من هاري تبحث عن ابنها.

وكانت الرسالة الأخرى موجهة إلى كيت أيضاً. وبينما كنت أستمع إليها، اقشعر شعر جسمي، وتجمّدت أنفاسي في حلقي.

24

بعـــد أن أخفقت في محاولة فك رموز الرسالة المشوّشة المرسلة إلى كيت من شـــخص يدعـــى الـــواعظ حـــول اجتماع ما، استنتجت أن لهذه الرسالة علاقة بـــدرّاجات هـــارلي، لكن ليس تلك التي يملكها أحد نوادي الدرّاجات النارية في الضواحي. فكّرت في الانتظار إلاّ أنني قرّرت عكس ذلك.

وبـــتهوّر اتـــصلت بـــرايان فـــردّ مجيبه الآلي. خلدت إلى النوم، وأنا أشعر بالكآبة.

وانتابتني التشنجات خلال نومي، فاتخذت أفكاري أشكالاً متعددة الألوان، ثم أخـــذت تتجمّع لتشكل صوراً واضحة لتعود وتنفصل عن بعضها بعضاً، وتشكل أنماطاً لا تحمل أي معنى. وقد كانت معظم المشاهد تتعلّق بابن أختي.

كـــيت يقود شاحنته الصغيرة عبر نفق من الأشجار. كيت والورد يفيض بين يديه. كيت يقود درّاجة هارلي وسافانا أوسبري تركب الدرّاجة خلفه ويحيط بهما الدرّاجون من الجانبين.

عـــند نقطة معينة سمعت صفارة جهاز الأمن. لاحقاً سمعت صوت التقيؤ، ثم صوت المياه في المرحاض.

عرض اللاوعي لديّ اقتراحات للحن معين بين المشاهد القصيرة التي تضمّنت ابـــن أخـــتي. وقـــد كانـــت الموسيقى أشبه بالبراغيث في السجادة: متى دخلت، فسيستحيل طردها.

ارقص، ارقص، أينما كنت...

بعدئـــذ اســـتيقظت على لون رمادي باهت يضيء حوافّ النافذة. **غطّيت** وجهي بوسادةٍ، ووضعت يديّ فوقها، وجذبت ركبتي إلى صدري.

قال: أنا سيد الرقص...

استـــسلمت عـــند الثامنة. لَمَ أنـــزعج؟ فكّرت أن العناء ليس في الاستيقاظ باكـــراً بل في وجوب الاستيقاظ باكراً. لم أكن مضطرة إلى الاستيقاظ باكراً، إلا أنني اخترت ذلك.

رمـــيت بأغطية السرير بعيداً، وارتديت الملابس ذاتها التي اخترتها لعشية يوم الجمعـــة بـــرفقة بيردي. ثمة فلسفة بريننانية مفادها: حين لا تكون متأكداً إلى أين سيأخذك النهار فلا تتأنق.

فـــيما كانت آلة القهوة تحضّر قهوة الكونا الأصلية استرقت النظر من خلال الأبـــواب الفرنسية. كان المطر ينهمر بغزارة مضيفاً شيئاً من اللمعان على جذوع وأغـــصان الأشـــجار ومراقصاً الأوراق والشجيرات ليتجمع في بقع منخفضة على قرميد الفناء. لم ترتسم ملامح الفرح سوى على براعم الزعفران.

من كنت أمازح؟ فهذا الصباح وُلِد للنوم فحسب.

أما أنت فلا. إذاً، افعلي شيئاً آخر.

ألقيت سترة على كتفي، وعدوت إلى الزاوية لشراء جريدة الغازيت. حين عدت كان بيردي متكوّراً على كرسي في غرفة الطعام جاهزاً لممارسة طقوس يوم السبت.

سكبت لنفسي بعضاً من حبوب الشوفان الهشة، وأضفت الحليب، ووضعت الـــزبدية إلى جانب الصحيفة، ثم أحضرت القهوة، واستقررت في مكاني استعداداً لفتـــرة طويلة من القراءة. راقبني بيردي وهو مطمئن إلى أن فضلات الحبوب كافة ستكون من نصيبه.

كانت هيئة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة قد شنّت هجوماً عنيفاً على كندا بسبب سوء معاملتها للسكان الأصليين.

ارقص، ارقص...

كان حزب المساواة يحتفل بالذكرى العاشرة لتأسيسه.

فتـــساءلت: مـــا كـــان يدعو للاحتفال؟ فهم لم يفوزوا ولو بمقعد واحد في الجمعية الوطنية في الانتخابات السابقة. لقد ولدت المساواة بسبب أزمة اللغة، بيد

أنـــه لم يـــتم التطرق إلى تلك القضية علنياً خلال العقد الماضي، وقد كان الحزب متعلقاً بحبال الهواء. كانوا بحاجة إلى ثورة لغوية أخرى.

كانت قناة لاشين ستخضع لتحسين يكلّف عدّة ملايين من الدولارات. تلك كانت الأخبار الجيدة.

بيـــنما كـــنت أملأ كوبـــي من جديد، وأعطي بيردي حليبه، تخيّلت المكان حـــيث تزلجتُ وكيت الأحد الماضي. كان ممر الدرّاجات الهوائية يمر بمحاذاة القناة المائـــية الـــتي يبلغ طولها تسعة أميال، وهي عبارة عن ممر مائي تملأه المواد السامة والرواسب الطينية الصناعية. بيد أنه لم يكن دائماً قناة للمجاري.

في أحد الأيام كانت القناة التي بنيت في العام 1821 للالتفاف على منحدرات نهر لاشين والسماح للسفن بالإبحار من أوروبا مباشرة إلى البحيرات العظمى جزءاً لا يتجـــزّأ مـــن اقتـــصاد المدينة. وقد تغيّر واقع الحال عندما تمّ افتتاح طريق سان لورنس البحري في العام 1959. فامتلأ مصبّ القناة، فضلاً عن عدد من الأحواض النهـــرية، بالتراب الذي تمت إزالته جرّاء إنشاء نظام مترو الأنفاق، في نهاية الأمر تم إغـــلاق القـــناة أمام الملاحة. لقد أُهملت الأحياء المحيطة، وباستثناء استحداث ممر الـــدرّاجات الهوائية، فقد كانت القناة خاضعة للتجاهل، وقد لوّثها قرن من رمي النفايات الصناعية فيها.

أما خطط إنعاش جنوب غرب المدينة فقد كانت تسير على قدم وساق. على غـــرار منتـــزه مون رويال الذي قام بتصميمه فريدريك لو أولمستد منذ زهاء مئة وخمس وعشرين سنة، كانت القناة ستصبح محوراً لنهضة القطاع بأكمله.

ربما حان الوقت لشراء شقة جديدة.

جلست مجدّداً إلى الطاولة، وقلبت الصحيفة على صفحة أخرى.

كان على شرطة الخيالة الكندية الملكية اقتطاع أكثر من واحد وعشرين مليون دولار أميركي من ميزانيتها لتغطية نفقات ارتفاع الرواتب. أما الحكومة الفيدرالية فكانت ستتكلّف بدفع جزء من المبلغ فحسب.

فكّرت في العمال اليدويين وهم يتظاهرون في شارع غي.

حظّاً سعيداً.

خسر فريق أكسبوس أمام فريق ميتس 10-3.

آخ. لـــربما استحق بياتزا مبلغ الواحد والتسعين مليون دولار الذي كان بيغ آبل قد دفعه له.

كان خبر استدعاء دورسي إلى المحكمة بشأن التهم الجديدة وارداً في الصفحة الخامسة إلى جانب قصة تتناول جرائم الإنترنت. أما الأمر الوحيد الذي علمته فهو أنه قد استدعي في وقت متأخر من بعد ظهر يوم الجمعة، ومن ثم تم نقله من أوب الجنوب إلى سجن المقاطعة في منطقة ريفيردي بريري.

عـــند العاشرة اتصلت بالمستشفى. فأفادت السيدة لامانش بأن حالة زوجها مـــستقرة بالـــرغم مـــن عدم تواصله مع محيطه. شكرتني بتهذيب رافضة عرضي بالمساعدة. كانت تبدو مرهقة، فتمنيت أن تكون بناها بالقرب منها لدعمها.

فـــرزت الثـــياب، وغسلت الملابس البيضاء. بعد ذلك ارتديت سروال كرة الـــسلة القـــصير وقميصاً قطنياً، وربطت شريط حذائي. مشيت إلى تقاطع ماكاي وسان كاثرين، واستقللت المصعد إلى قاعة الرياضة في الطابق العلوي.

شـــغّلت آلـــة المشي لمدة عشرين دقيقة، وأنهيت تدريبـــي على جهاز صعود الـــدرج لعـــشر دقائق إضافية. ومن ثم رفعت الأوزان لمدة نصف ساعة. هذا هو روتـــيني المعتاد. دخول، فتمرين، فمغادرة. لهذا أحب قاعة ستونـــز الرياضية. إذ لـــيس هناك من عروض عالية التقنية أو من مدربين شخصيين. كما أن هناك أقل قدر ممكن من الألياف اللدنة.

عـــندما خـــرجت كان المطر قد توقّف عن الهطول، والسُحب قد تفكّكت، فظهرت بقعة زرقاء واعدة فوق الجبل.

وصلت إلى المنـــزل إلى نفس المكان الهادئ الذي تركته. كان بيردي قد غفا بعد أن تناول زبدية الحبوب والحليب، أما ابن أختي كان قد غفا إثر تناوله شيئاً، لم أشأ التفكير فيه.

ارقص، ارقص...

تفقدت المجيب الآلي، إلاّ أن ضوء الرسائل الواردة لم يكن يشير إلى شيء. لم أكـــن قـــد تلقـــيت جواباً من رايان. كما كان الحال مع كل الاتصالات الأخيرة الواردة إلى رقمه، لم تكن آلته تعاود الاتصال.

حسناً يا رايان. لقد وصلت الرسالة بوضوح.

اغتسلت، وارتديت ملابس جديدة، لأجلس بعدئذ إلى طاولة غرفة الطعام. قمت بتنظيم كل ما كانت كايت قد أقرضتني إياه، الصورَ إلى اليسار والمستندات إلى اليمين. وبدأت مجدّداً بالصور.

ألقيت نظرة سريعة على صور مارتن *ديلوكس* ديلوتشيو وألي *روبن هود*، ثم على عشرات الأعضاء الذين ينتمون إلى الجنس نفسه، ويمتازون بلحىً وشوارب قصيرة وغير مشذّبة. ثمّ انتقلت إلى المغلّف الثاني.

سقطت الصور الملونة على الطاولة. كانت معظم الصور تتّسم بالضبابية، وكان الأشخاص فيها غير واضحين، وكأن الصور التقطت بشكل خفيّ وبسرعة. لذا، قمت بالتدقيق.

كانت الخلفيات متوقعة. من مواقف السيارات، إلى أحواض السباحة في الفنادق الصغيرة، إلى أماكن الشواء. بيد أن طابع الهواة في هذه الصور أضاف إليها شيئاً من الإثارة والحياة اللتين تفتقر إليهما صور المراقبة التي تلتقطها الشرطة.

بينما كنت أقلّب الصور لاحظت وجود بعض الأحداث التي قام بالتقاطها السيّاح والباعة والسائقون المارون من دون قصد. كانت كل واحدة منها تروي قصة لقاءات غير متوقّعة ومفترقات طرقات عشوائية لما هو عادي وما هو غير واضح. التقطت الكاميرا صوراً للحظات من السحر والخوف.

اخترت إحدى الصور، وتفحّصتها عن قرب. محطة إيسو. وستة رجال على درّاجات هارلي على مسافة عشرين ياردة فحسب من عدسة التصوير ومسافة دهر منها. كنت أستطيع الشعور بإعجاب المصور وشعوره بالإغواء والاشمئزاز معاً من هالة الدرّاج الخارج على القانون.

طوال الساعة التالية قمت بتفحّص رزمة المغلفات. سواء أكانت الشرطة أو المواطن العادي هو من التقط تلك الصور، فقد كانت الأحداث والمشاركين فيها على تشابهٍ إلى حدٍّ مملٍّ من ستورجيز وجنوب داكوتا وشاطئ دايتونا إلى فلوريدا. السباقات، مواقع التخييم، تجمعات المقايضة، المشارب. وبحلول الساعة الواحدة كنت قد اكتفيت.

كان الوقت قد حان للتحدّث مع كيت.

في محاولـــة مـــني لاســـتجماع قواي لإجراء الحوار، توجهت إلى باب غرفة الضيوف، وطرقت الباب.

لا جواب.

طرقت الباب بقوة أكبر.

"كيت؟".

"نعم؟".

"لقد تجاوزت الساعة الواحدة. أودّ التكلم معك".

"أممم".

"هل أنت مستيقظ؟".

"أممم، همم".

"لا تعد إلى النوم".

"أعطيني خمس دقائق".

"أتودّ تناول طعام الفطور أم الغداء؟".

"أجل".

اعتبرت تلك موافقة على الاقتراح الأخير وهو المفضل لديّ. أعددت شطائر اللحم والجبن وأضفت إليها مخلّلات دلي. وبينما كنت أجمع مواد كايت كي أفسح مجالاً على الطاولة، سمعت صوت باب الغرفة ينفتح، ثم صوت حركة في الحمام.

عـــندما ظهر ابن أختي كدت أفقد تصميمي. فقد كان اللون الأحمر يحيط بعينيه، وكان وجهه بلون دقيق الشوفان المطهو. كما كان شعره مسرحاً كجيم كيري.

"صباح الخير يا خالتي".

عندما رفع كلتا يديه ليفرك بهما وجهه، ظهرت حدود وشم من كمّ قميصه.

"إنه بعد الظهر".

"أعتذر. لقد عدت متأخراً".

"نعم. أتريد شطيرة من اللحم؟".

"بالطبع". ثم سأل بصوت أجش: "ألديكِ أي مشروب غازي؟".

"منخفض السعرات الحرارية".

"رائع".

أخـــذت عبوتين من مشروب الصودا، وانضممت إليه إلى الطاولة. كان ينظر إلى الشطيرة كمن ينظر إلى صرصور مسحوق.

شجعته قائلة: "ستشعر بتحسن إذا أكلت".

"أحتاج إلى أن أستيقظ فقط. إنني بخير".

بـــدا في صحة جيدة، تماماً كمن أصيب بالجدري. وحين اقتربت منه، تمكّنت مـــن رؤيـــة عروق صغيرة تمرّ في بياض عينيه، كما تمكّنت من شم رائحة الدخان الملتصقة بشعره.

"هذه أنا يا كيت. لقد مررت بهذه التجربة".

كـــان هـــذا صـــحيحاً، وكنت أدرك ما كان يمر به. تذكرت الشعور بآثار الـــشراب يدبُّ في مجرى دمي، ويحرق معدتي، ويصيب الأوعية الدموية المتمدّدة في دماغي بعنف، ويجعل الفم جافاً، واليدين مرتعشتين، ويمنح شعوراً بأن أحدهم قد أفرغ الرصاص في المنطقة الواقعة تحت عظام صدري.

فـــرك كـــيت عينيه، ثم مدّ يده ليمسّد رأس بيردي. كنت أدرك أنه يتمنى لو كان في مكان آخر.

"سيساعدك الطعام".

"إنني بخير".

"حاول تناول هذه الشطيرة".

نظر إليّ وابتسم. لكنه حالما شعر بالارتياح تدلى طرف فمه الذي فقد القدرة على الاحتفاظ بذاك المجهود من دون توجيه واعٍ. قضم مقداراً ضئيلاً من الشطيرة.

"أمم". فتح عبوة الشراب الغازي، وأعاد رأسه إلى الوراء ليبتلع الشراب.

كـــان واضحاً أنه لا يرغب في السفر إلى الوجهة ذاتها معي. كما أنني لم أرد ذلـــك أيضاً. ربما لم يكن هناك من مشكلة. فهو في التاسعة عشرة من عمره. وقد أمضى ليلة رائعة. كان يعاني من آثار الشراب. كلنا مررنا بهذه التجربة.

ثم تذكّرت الرسالة الهاتفية. والوشم الجديد.

كانت هناك بعض المسائل العالقة، وكان علينا أن نناقشها.

عرفت أن ما سأقوله لن يُحدث فرقاً كبيراً. وربما لن يحدث أي فرق. فهو لا يـــزال صـــغيراً وغضاً. كما *وُلِدَ لممارسة الرقص* وفقاً لمفهوم هاري. ولكنني كنت مدينة له بالمحاولة.

سألته: "من هو الواعظ؟".

نظـــر إليَّ فـــيما كـــان يفتل عبوة الشراب الغازي ذات السعرات الحرارية المنخفضة على الطاولة.

"إنه مجرد رجل التقيت به".

"أين التقيت به؟".

"في متجر هارلي، عندما ذهبت برفقة لايل".

"أي نوع من الأشخاص هو؟".

هزّ بكتفيه محاولاً التهرب من سؤالي، "ليس أحداً مميزاً، إنه مجرد شخص قابلته".

"لقد ترك لك رسالة".

"حقاً؟".

"نعم، اسمعها بنفسك، فأنا لم أتمكّن من ترجمتها".

"أه نعم، فهو لديه حالة خاصة".

كان هذا تقليلاً من أهمية الأمر.

"كيف ذلك؟".

"لا أعـــرف، إنه موجود هناك. لكنه يقود درّاجة من طراز 1964 ذات محرك بالهد حقيقي". تناول جرعة كبيرة من شرابه ثم قال: "آسف لأنني جعلتك تنتظرين حـــتى ســـاعة متأخرة من الليل البارحة. هل وجدت الملاحظة التي تركتها؟" كان يُحاول تغيير الموضوع.

"نعم. وما كان ذلك الحدث المُهِم؟".

قـــال مـــن دون أي تعبير: "مباراة ملاكمة". كان وجهه ثابتاً كثبات عجين الخبز، وأشبه بلونه.

"هل تُتابع مباريات الملاكمة؟".

"ليس كثيراً، ولكن رفاقي يفعلون ذلك، فذهبت معهم".

"أيُّ رِفاق؟".

"بعض الأشخاص الذين التقيت بهم".

"التقيت بهم في متجر هارلي".

هزّ كتفيه.

"وماذا عن الوشم؟".

"إنه رائع، أليس كذلك؟".

رفـــع كمّـــه، فظهر وشم على هيئة عقرب يعتمر شيئاً يُشبه الخوذة، ويَبسط رجليه فوق عضلات ذراعه اليسرى.

"ماذا يُفترَض أن يعني ذلك؟".

"إنه لا يعني شيئاً، إنه مجرد وشم مخيف".

كان عليَّ أن أوافقه الرأي.

"ستقتلني أمك".

"لدى هاري وشم فوق ردفها الأيسر".

قال ذلك بلكنة بريطانية.

قال، أنا سيد الرقص...

لم يـــتكلّم أحـــدنا لمدة من الوقت. أكلت شطيرتي بينما كان كيت لا يزال يلـــتقطها بيده، ويأخذ قضمة منها ثم يتناول جرعة كبيرة من مشروبه الغازي ذي السعرات الحرارية المنخفضة.

سألني وهو يُرجِع كرسيه إلى الوراء، ويفتل عبوته الفارغة: "هل تريدين عبوة أخرى؟".

"كلا، شكراً لك".

حين عاد خضت في الموضوع مجدّداً.

"كم شَرِبت ليلة البارحة؟".

"شـــربت الكثير". وفرك رأسه بقوة بيديه، فتغيّر شعره من تسريحة كيري إلى تـــسريحة ألفافا. "لكنني تناولت شراب الشعير فقط يا خالتي تمب وليس شيئاً آخر. كما أن إقامتي شرعية هنا".

"شربت شراب الشعير فقط؟".

أنـــزل يديه، ونظر إليّ كي يتأكّد من أنه فهم قصدي.

"إذا كـــان هنالك من أمر واحد تستطيعين فيه الاعتماد عليَّ فهو رفضي التام للمخدرات. ربما لم يكن جسدي رائعاً، لكنني أبقيه منطقة خالية من المخدرات".

"أنـــا سعيدة جداً لسماع ذلك". لقد كنت حقاً كذلك. "ماذا بشأن الواعظ ومجموعته؟".

"هيا. عيشي ودعي الآخرين يعيشون".
"لكن الأمور لا تجري على هذا النحو دوماً يا كيت".
هيا، اسأليه.
"هل أولئك الرجال درّاجون؟".
"طــبعاً، لــذلك فالأمر برمّته أشبه بديزني لاند بالنسبة إليّ، فالجميع يقودون درّاجات هارلي النارية".
حاولي مرة أخرى.
"هل ينتمون إلى ناد ما؟".
"أنــا لا أطرح عليهم أسئلة مماثلة يا خالتي تمب، وإذا كنت تسألين هل كانوا يــرتدون ألــواناً، فالجواب هو كلا. هل يتسكّعون مع أناس يفعلون ذلك؟ على الأرجح نعم، لكنني لن أبيع نفسي لوُدعاء الجحيم إذا كان ذلك ما يُثير قلقك".
"كيت، أولئك الدرّاجون الخارجون على القانون لا يميزون بين الهاوين وبين أولــئك الذين يطمحون إلى عضوية شرعية. فإن شعروا أنك قد تشكل خطراً ولو ضــئيلاً علــيهم أو بأنــك مصدر إزعاج لهم ولو حتى طفيف، فسيمضغونك ثم يبصقونك بعيداً. وأنا لا أريد أن يحدث ذلك لك".
"هل أبدو أبله؟".
"تبدو كَمَن في التاسعة عشرة من عمره، قادم من هيوستن، مفتون بدرّاجات هارلي وصاحب نظرة رومانسية للأبطال المتوحشين".
"ماذا؟".
"فيلم ستانلي كرامر؟".
لم يفهم ما عنيته.
"مارلون براندو؟".
"لقد سمعت عن براندو".
"لا يهم".
"جلّ ما في الأمر أنني أشعر بالحرية وأمضي وقتاً طيباً".
"كــذلك يــشعر الكلب الذي يضع رأسه خارج نافذة السيارة حتى يرتطم دماغه بعامود للكهرباء أو بكابينة الهاتف".

"إنهم ليسوا بذلك السوء الذي تتخيلينه".

"إن أولئك الدرّاجين منحلّون أخلاقياً وهم ليسوا بذلك السوء فقط، بل أسوأ من ذلك".

"إن لبعض ما يقولونه معنىً. على كل حال، أنا أعرف ما أفعله".

"كــلا، أنــت لا تعــرف. لقد عرفتُ أكثر مما رغبتُ في معرفته عن أولئك الــرجال في الأسبوعين الماضيين، وكلّها أمورٌ فظيعة. بالطبع يوزعون الألعاب على الأطفــال مرة في السنة، لكن الدرّاجين سفاحون يحتقرون القانون، ولديهم ميول فطرية إلى الشرّ".

"ما هو الأمر الفظيع الذي يقومون به؟".

"هم أناس مستهترون وغدّارون ويؤذون الضعفاء".

"ماذا يفعلون؟ أيغتصبون ناذرات العفة؟ أيطلقون النار على الناس في المقاهي ومطاعم الوجبات السريعة؟".

"أولاً، يبيعون المخدرات".

"كذلك يفعل إيلي ليلي".

"علاوة على ذلك، فهم يزرعون قنابل تسفك دم الأطفال والنساء، ويحبسون رجــالاً في صــناديق السيارات، ويقودونهم إلى مناطق بعيدة ثم يفجّرون أدمغتهم. كمــا ينشرون خصومهم بالمناشير، ويحزمون بقاياهم ويضعونها في أكياس القمامة، ويلقون بها من رصيف المراكب".

"يا الله، جلّ ما فعلناه هو احتساء بعض شراب الشعير".

"أنت لا تنتمي إلى ذلك العالم القذر".

"ذهبت لمشاهدة مباراة ملاكمة!".

حدّقت العينان الخضراوان إلى عينيّ، ثم ارتعش أحد جفنيه السفليين، وضغط بعينيه ليغمضهما. وخفض ذقنه، وفرك صدغيه بإصبعين من يديه. حسبت أن الدم يجري أضعاف المرات خلف محجري عينيه.

"أنت تعرف يا كيت أنني أحبك بقدر ما أحب ابنتي".

بالــرغم مــن أنه تجنّب النظر إلى عينيَّ إلا أنني شعرت بالانــزعاج في انحناء ظهره.

تابعــت كلامــي: "أنا أثق بك، وأنت تُدرك ذلك أيضاً. ولكنني أريدك أن تكــون متــيقظاً لأولئك الناس وما هم عليه في الحقيقة. إذ سيستغلون اهتمامك بدرّاجات هارلي، ويكسبون ثقتك، ثم يطلبون منك خدمة صغيرة تكون جزءاً من عملية غير قانونية، إلا أنك لن تشعر حتى بذلك".

لم يــتكلّم أحد منا لمدة طويلة من الزمن. وفي الخارج كانت العصافير تتقاتل للحــصول على كيس من الحبوب كنت قد علّقته في الفناء. أخيراً تكلّم كيت من دون أن ينظر إلى الأعلى: "وأنت يا خالتي تمب، ما الذي تقومين به؟".

"المعذرة؟".

"أنت تخوضين رحلةً ما هذه الأيام".

لم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا يريد التوصّل إليه.

"أحييك من البالوعة. مرحباً بك".

"عمّ تتحدث؟".

"أنــت تلعبين معي تلك اللعبة القديمة السخيفة. تسمحين لي برؤية هذا الأمر وتخفين ذاك".

"أُخفي ماذا؟".

كان يحدّق إليّ مباشرة الآن، وبياض عينيه يبدو كالمياه الدامية.

"لقــد سمعــت محادثــتك في أثناء العشاء في الأسبوع الماضي، ورأيت العين وأغراضــك الغامضة الصغيرة، وشاهدتك وأنت تتسلّلين في رحلتك السرية. وأنت قلــت ذلــك بنفسك. لقد رأيت من القذارة في الأسبوعين الماضيين أكثر مما يراه معظم الناس طيلة حياتهم".

دار برأسه بعيداً، ثم عاد ليفتل عبوة المشروب الغازي.

"أنــت تريدين معرفة كل شيء عني، ولكن حين أسألك عمّا تفعلينه تقومين بإسكاتي".

"كيت، أنا...".

"وهنالك ما هو أهم من ذلك. ثمة أمر مريب يتعلّق بذلك الرجل المدعو رايان يجعلك متوترة أكثر من مبشر عند دفع الضرائب".

شعرت بشفتي تنفرجان، لكن لم تصدر أي كلمة عنهما.

"لقد وضعتني في كرسي الاعتراف لأنك تظنّين أنني أحقن عروقي بالمواد الكيميائية، بينما لا تدعينني أطرح عليك أي سؤال".

أذهلني كلامه إلى درجة عجزت معها عن الكلام. أشاح كيت بنظره عني، وشدّ بأسنانه العلوية على شفته السفلى وهو يشعر بالحرج من العاطفة التي سمح بإظهارها. لمعت خيوط الشمس عبر ستارة الموسلين خلفه راسمة ظلاً لرأسه على خلفية الضوء الساطع.

"أنا لا أتذمّر، لكنك كنت الشخص الوحيد الذي كان يُصغي إليَّ في مراحل نموّي. وكانت هاري..." قلب كفي يديه، ثم عقد أصابعه وكأنه يلتمس الكلمات الملائمة: "حسناً هاري كانت هاري. لكنك كنت تصغين إليّ وتتحدّثين معي، أنت الوحيدة التي كانت تفعل ذلك. أما الآن فأنت تعاملينني وكأنني شخص غبيّ".

كان مُحقاً بعض الشيء. فعندما كان يُبدي كيت الاهتمام، كنت أتهرّب، وأبتعد متجنّبة الإفصاح عن أي معلومات ذات معنى. فأنا أعيش وحدي ولا أناقش قضايا العمل مع أحد خارج المختبر. لذا أقوم بطريقة آلية بصرف أي أسئلة كهذه قد تُطرح في جلسة اجتماعية. بعد ذلك، هذا الصباح، وعلى نحو غير متوقّع، طلبت منه تقريراً عن نشاطاته.

"ما تقوله عادل وليس عادلاً في نفس الوقت. لقد أجّلت بعض الإجابات التي كان يمكن أن أعطيها، غير أنني مضطرة أيضاً إلى عدم مناقشة القضايا المفتوحة أو التحقيقات الجارية مع أحد. هذا من متطلبات عملي وليس تحفظاً شخصياً من جانبي. ولكن هل تريد حقاً أن تعرف ماذا أفعل؟".

هزّ كتفيه.

"لا يهم".

نظرت إلى ساعتي.

"لِمَ لا تذهب للاستحمام فيما أقوم بالتنظيف هنا، وبعدها نتمشّى باتجاه الجبل، وسأخبرك ببعض الأمور، حسناً؟".

أجاب بصوت بالكاد كان مسموعاً: "حسناً".

بيد أن قراري لم يكن حسناً أبداً.

25

يدعـــوه السكان المحليون *بالجبل*، لكن هذا المرتفع الصغير يبعد كل البعد عن القِمَـــم الـــصخرية لجبال روكي أو القِمَم الخضراء لجبال كارولينا سموكيز. فجبل مونت - رويال هو عبارة عن آثار بركان قديم صقلته الدهور وحوّلته إلى منحنيات ناعمة. وهو يقع في قلب المدينة كجسد دبٍّ ضخم غرق في سبات عميق.

بالـــرغم من افتقار هذا الجبل إلى العلوّ الشاهق والدراما الجيولوجية، فهو يمنح مديـــنة مونتريال أكثر من اسمها، إذ يُعَدُّ العامود الفِقَري الذي تتعلّق به المدينة. تقع جامعـــة ماكغـــيل على منحدراته الشرقية، وفي الجِهة المقابلة له تماماً تقع ضاحية ويست ماونت الناطقة باللغة الإنكليزية. وتحتلّ جامعة مونتريال والحي الفرنسي في أوترمون الجهة الشمالية من الجبل. أما مباشرة في الأسفل، فيقع وسط المدينة، وهو موقـــع انـــصهار للغات المتعدّدة ويتضمّن أماكن سكنية وشركات صناعية ومالية، فضلاً عن أماكن اللهو والتسلية.

يحفـــل هـــذا الجبل بالمتنـــزّهات والمقابر والنتوءات المتداخلة في البحر. وهو يتميّـــز بطـــرقاته المشجرّة وصخوره المكسوة بالطحالب. كما أنه يغصّ بالسيّاح والمحـــبين والعَـــدّائين والمتنـــزهين خلال أشهر الصيف الغالية. وهو يشكّل ساحة للمتـــزلجين والمتـــزحلقين في الـــشتاء. أما بالنسبة إليّ، كما هو بالنسبة إلى سكان مونتريال كافة، فهو الملاذ الوحيد من ضوضاء المدينة وجلبتها.

بحلول بداية بعد الظهر، كان الجو قد أصبح دافئاً والسماء صافية تماماً. رحتُ أتمـــشّى أنا وكيت عبر دو ميسونُفو، ثم توجّهنا صعوداً إلى درامون. صعدنا درجاً

خشبياً يقع إلى يمين مبنى طويل ودائري ذي قاعدة منحنية أشبه بمقدمة سفينة حربية من الإسمنت إلى جادة الصنوبر.

سألني كيت: "ما هو ذلك المبنى؟".

"إنه مبنى ماكنتاير الطبـــي. وهو جزء من ماكغيل".

"يبدو كمبنى الكابيتول في لوس أنجلوس".

"أمممممم".

عـــند منتـــصف الدرجات الخشبية، أصبح الهواء ثقيلاً محمّلاً برائحة الظربان الحادة.

قلت موضّحة: "لا بد من أنها الظربان".

أجـــاب كـــيت وهو يفرك أنفه: "يبدو اسمها جميلاً في اللغة الفرنسية، لكن رائحتها كرائحة عجوز حقير عادي من تكساس. ما رأيك في أن نُسرع الخطى؟".

"حسناً". كنت قد بدأت ألهث بسبب الصعود الحاد.

حـــين بلغنا القمة، عبرنا جادة الصنوبر، ثم تابعنا سيرنا في درب ترابيٍّ متعرّج إلى درج مـــن الإسمنت، صعدنا الدرج، ثم درنا في منعطف حادٍّ إلى اليمين، وتابعنا المـــشي إلى أن وجدنا مجموعة أخرى من الدرجات الخشبية التي تؤدي مباشرة إلى الجرف.

عـــندما بلغنا قمة الجبل، كنت أفكّر جدّياً في مزيل الرجفان القلبـــي. عندما توقّفت لألتقط أنفاسي، كان كيت مأخوذاً بتفحّص الجبل. فانتظرت حتى هدأت دقات قلبـــي، ثم انضممت إليه عند الدرابزين.

قـــال كـــيت وهـــو يحدّق بعينين نصف مغمضتين إلى زوج من المؤشرات النحاسية التي اصطفّت عند خزان ماكتافيش: "هذا رائع".

لقد كان محقاً، فالمنظر من أعلى القمة في غاية الروعة، أشبه بمسرح دائري في مديـــنة في طور النمو. في الجهة الأمامية كانت ناطحات السحاب والأبنية الشاهقة والمـــداخن ورؤوس دور العـــبادة تعلو في وسط المدينة. وفي الجهة الخلفية ظهرت أرصـــفة الميـــناء وشريان المدينة الرئيسيّ، وهو نهر سان لورانس. وفي الأفق البعيد لاحـــت قمـــتا جبل سان برونو وسان هيلاري وعند سفحيهما لاحت البلدات الشمالية.

أخـــذ كـــيت يراقب كل مؤشر، وأشرت إلى المعالم التي اعتقدت أنها قد تثير اهـــتمامه. ســـاحة فـــيل ماري، ملعب ماكغيل لكرة القدم، ومستشفى فيكتوريا الملكي، ومعهد ومستشفى مونتريال للأمراض العصبية.

ذكـــرني مشهد مجموعة الأبنية بكارولين راسل ومحادثتنا بشأن التحويلة. حين فكّرت في سافانا أوسبري انتابني الحزن المألوف.

"هيا يا كيت، سأخبرك بما كنت أفعله".

صـــعدنا درجـــات حجرية واسعة، وتابعنا طريقنا بين الدرّاجات الملقاة على جانبـــيها، واســـتقررنا على أحد المقاعد الخشبية التي كانت تحيط بمدخل الكوخ بشكل جانبـــي. كان الحَمَامُ فوقنا يهدل بهدوء في الروافد الخشبية الثقيلة.

"من أين أبدأ؟".

"من البداية".

"إجابة ذكية. حسناً".

لكن كيف ابتدأت كل هذه الأمور؟

"هـــناك مـــا يُثير الريبة في مقاطعة كيبيك يتعلّق باستضافتها حرب الدرّاجين الناشطة الوحيدة في العالم اليوم".

"تقـــصدين الأمر المتعلّق بوُدعاء الجحيم وهو الأمر الذي تحدّثت عنه في أثناء العشاء مع إيزابيل".

"تماماً. فهذه العصابات تتصارع بغية السيطرة الكلية على تجارة المخدرات".

"أي نوع من المخدرات؟".

"كوكايين في الغالب، بالإضافة إلى بعض الماريجوانا والحشيش".

ظهـــرت حافلـــة مـــن السائحين اليابانيين الذين شقّوا طريقهم نحو السياج الحديدي، ثم بدأوا يصوّرون أنفسهم في مجموعات مختلفة.

"لقـــد تورّطت في الأمر منذ حوالى أسبوعين. تعرّض عضوان من الهمجيين، وهـــم عـــبارة عن نادٍ تابع لآلة الصخر، للتفجير في أثناء محاولتهما تفجير منتدى الأفاعي في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة".

"من هما المفجّران اللذان تعرّضا للتفجير؟".

"أخوان توأمان هما لو كليك ولو كلاك فايلنكورت".

"هل يعمل نادي الأفاعي مع نادي وُدعاء الجحيم؟".

"نعم، فقد تمّ القبض على القناص الذي قتلهما...".

"قناص من الأفاعي. يعجبني ذلك".

"لقـــد أدّت التحقـــيقات المتعلّقة بالقناص إلى استعادة اثنتين من الجثث التي تحدثنا عنها في أثناء ذلك العشاء".

"هل تمّ دفن الرجلين قرب منتدى الأفاعي؟".

"نعم".

"أين يقع هذا المنتدى؟".

"في سان بازيل لو غراند". ظهرت نظرة غريبة على وجهه لكنه لم ينبس بكلمة.

"جـــرى تحديـــد هوية الجثتين في وقت لاحق وهما عائدتان لعضوين في أحد نوادي الدرّاجين الخارجين على القانون وهو يُدعى تارانتولاس. لم يعد من وجود له في الوقت الحالي، لكنه كان ناشطاً في السبعينيات والثمانينيات".

"ماذا عن عظام الفتاة التي وجدها هناك؟".

"لقـــد تمّ التعرف إليها بصفتها سافانا كلير أوسبري من شالوت في كارولينا الجنوبـــية. لهذا السبب ذهبت إلى رالي. وقد كانت سافانا في السادسة عشرة من عمرها عند اختفائها في العام 1984".

"من قتلها؟".

"ليتني كنت أعرف".

"كيف وصلت إلى هنا؟".

"لا أملـــك إجابة أيضاً. ولكن دعني أستعيد مجريات الأحداث لدقيقة. فقبل الاكتـــشافات التي جرت في بازيل لو غراند، حدثت هنالك جريمة قتل أخرى. تمّ إطلاق النار على ضابط النظام التابع للأفاعي المدعو ريتشارد ماركوت *العنكبوت* في مـــرأب للسيارات خارج منـــزله. ويُحتمل أن تكون هذه ضربة انتقامية قام بها الهمجيون انتقاماً للتوأمين كليك وكلاك".

"لقد وفّر هذا بعض المال على دافعي الضرائب".

"حتماً، ولكن تذكّر الضريبة التي دفعها الناس. فقد أُصيبت فتاةٌ خلال تبادل إطلاق النار".

"هـــذا صـــحيح. كانت في التاسعة من عمرها". كانت عيناه مركزتين على وجهي مباشرة.

"وقد لقيَت حتفها، أليس كذلك؟".

أومأت برأسي.

"قُتلَت إميلي آن توسان يوم قمت أنت وهاورد بإيصال بيردي".

"يا للهول".

"مـــنذ ذلـــك الوقت أقوم بملاحقة أدلة الطبّ الشرعي المتعلقة بجرائم هؤلاء الدرّاجين. بإمكانك الآن أن تتفهّم عدم تحمّسي لأصدقائك الجدد".

"وعدم ارتياحك للوشم أيضاً. لقد رأيت أموراً فظيعة".

"هنالك المزيد".

نظـــرت إلى وجهـــه. فبالـــرغم من الحزن الذي ظلّله، كانت عيناه تلمعان كتغريدة عصفور.

"وفي الأسبوع الماضي، تعرّض درّاج آخر يُدعى إيف شيروكي ديجاردن للقتل".

"إلى أي نادٍ ينتمي؟".

"كان أحد الضواري وينتمي إلى وُدعاء الجحيم".

"إذاً، فقد كان الهمجيون يعادلون النتيجة انتقاماً لمقتل التوأمين؟".

"ربمـــا، لكن المشكلة أن شيروكي هو رجل عجوز و لم يكن ناشطاً في الفترة الأخيرة. كما يبدو أنه كان يُدير تجارته الخاصة بالكوكايين".

"إذاً، فمن المحتمل أن يكون أعضاء النادي الذي ينتمي إليه قد قاموا بقتله؟".

"أجـــل، لكنـــنا لا نملـــك كـــل الأدلة. فنحن لا نعرف فحسب. كما أن التحقيقات تسير ببطء الآن".

وأخبرته عن لامانش.

"أمر سيئ، ربما استطاعوا الوصول إليه أيضاً".

"من؟".

"وُدعـــاء الجحيم. فعلى الأرجح كان سيكتشف شيئاً في تلك الجثة لم يُريدوا اكتشافه".

"لا أعتقد ذلك يا كيت".

"ربما قاموا بتسميمه بنوع من السم الذي لا يترك أي أثر".

"كان في غرفة تشريح الجثث وتلك منطقة آمنة".

"يمكـــن أن يكون هناك جاسوس في مختبرك. أنت تعلمين أنهم يفعلون ذلك. يقومون بتعيين موظفين تابعين لهم في الداخل".

"يا لخيالك الواسع". وضحكت. "دعنا لا ننجرف بعيداً".

اســـتدار، ونظـــر عبر السائحين اليابانيين إلى القمم الضبابية في البعيد. فتح أحدهم باباً خلفنا فجفل الحمام، وطار عن الدرج.

"يا الله، ما هذا يا خالتي تمب، أشعر بأنني حقير بالفعل. مديرك مريض، وأنت تحاولين التقاط عدة كرات بيد واحدة بمحاولاتك متابعة عدد لا يحصى من الجرائم المنفصلة في آن معاً. وأنا ماذا أفعل؟ آتي وأرمي سمكة ميتة على طاولة مطبخك، ثم أذهب للتجول واللهو في المدينة".

كان اليابانيون يتّجهون نحونا.

"وأنـــا كـــنت مشغولة جداً لأتابع ما كنت تفعله، على كلّ حال، هل أنت جاهز للنـــزهة؟".

"أنا أعيش كي أتنـــزّه".

درنا حول الكوخ، وانطلقنا في أحد الطرقات الترابية العديدة التي تنخر الجبل. مـــشينا بضمت لمدة من الوقت نشاهد السناجب تعدو فوق أوراق السنة المنصرمة متحمّـــسة لقدوم الربيع. وتعالت في الأشجار فوقنا أصوات العصافير وهي تزقزق وتغـــرد. عـــند نقطة معينة توقفنا للاستماع إلى رجل عجوز يؤدي نسخة مسجّلة ومعدلـــة لأغنية *الفرح*. كان يعزف بكل تركيز يملكه متذوّقاً للسيمفونيات بمعطفه الطويل وقلنسوته التي غطّت أذنيه.

بيـــنما كـــنا نتّجه غرباً، لاحت في الأفق قبّة لوراتوار سان جوزيف. رويت لكـــيت قـــصة قلب الأب أندريه الذي سُرِق من مذبح دار العبادة، وأصبح محط اهتمام المطاردات. في النهاية ظهر العضو في مختبرنا، وقد تمّ حفظه في مقر أكثر أمناً في عمق دار العبادة.

في الجنوب ارتفع البرج الأصفر للمدرسة التقنية التابعة لجامعة مونتريال، في نفس الموقع الذي جرت فيه مذبحة أسفرت عن إزهاق أرواح ثلاث عشرة امرأة

في العـــام 1990. كـــان يومـــنا جميلاً، فلم أرغب في إفساده بالحديث عن قصة كهذه.

كـــنا نتّجه نـــزولاً حين تطرّق كيت إلى موضوع لم أرغب في التحدّث عنه أيضاً.

"إذاً، من هو هذا الشاب المدعو رايان؟".

تجنّبت إعطاء جواب واضح: "إنه مجرد صديق".

"لقد تحدّثت هاري عنه. إنه تحرٍّ، أليس كذلك؟".

"نعم. يعمل مع شرطة المقاطعة".

لقـــد عـــرّفتُ رايان إلى أختي خلال إقامتها في مونتريال. تطايرت الشرارات عندها، لكنني غادرت المدينة مباشرة و لم أعرف إن كان قد حدث أي شيء. وبعد ذلك تجنّبت رايان لمدة طويلة، ولكنني لم أسأل أبداً.

"وماذا عنه؟".

"لقد تورط في بعض المتاعب".

"أي نوع من المتاعب؟".

مـــرّت عربة خيل في الطريق فوقنا، وكانت تتحرّك في الاتجاه الذي أتينا منه. سمعت صوت السائق يتمتم واللجام يطقطق على رقبة الحصان.

"يُحتمل أنه تورط بالمخدرات".

"هل تقصدين تعاطي المخدرات؟".

"لا بل بيعها". بدا الارتجاف في صوتي بالرغم من محاولتي إخفاء ذلك.

"آه".

خفت صوت حوافر الحصان وهدأ.

"أنت هتمين لأمر ذلك الرجل، أليس كذلك؟".

"نعم".

"أيهمك أكثر من عمي بيت؟".

"هذا ليس سؤالاً عادلاً يا كيت".

"آسف".

سألته محاولة تغيير الموضوع: "ماذا حدث لتلك السمكة؟".

"إنها في الثلاجة".

"حسناً إليك ما سنفعله، سنضع سمكة السلمون هذه في المايكروويف، ونطالع كتاب الدرّاجين بينما يذوب عنها الثلج. ثم نرميها في المشواة هذه الليلة، ونذهب إلى متجر هورلي لشراء بعض المشروبات".

"إنها سمكة سلمون، باستثناء ذلك فهي خطّة جيدة".

نـــــزلنا بقية الطريق، مجتازين ساحة مونتريال العامة، وتابعنا نـــزولاً مروراً بكوت دي نيج. وعند أسفل الجبل، استدرت، ونظرت نحو القمة.

26

يعـــتمد شعب البراوان على أعمال البستنة لتأمين قوتهم، ويُقيمون في بيوت طـــويلة في قُرىً خاصة بهم في جزيرة بورنيو. خلال تدريسي مادة المدخل إلى علم الإنـــسان، اتخذت هذا الشعب كنموذج للممارسات الغربية المنافية للعقل المتعلّقة بدفن الموتى.

لـــدى هـــذا الشعب العديد من المعتقدات. فهم يعتقدون أن أرواح موتاهم تنطلق إلى حياة الآخرة بعدما تتحلّل أجسادهم فقط.

اســـتغرق ذوبان الثلج عن السمكة وقتاً طويلاً بدا وكأنه دهر. وفي غضون ذلك، بحثتُ وكيت داخل مجموعة كايت.

كان سيلفستر يرقد داخل تابوته، وقد كان شارباه وسالفاه موزّعة على خدَّيه بطـــريقة متناسقة كما كانت يداه مثنيتين بكل ورع وخشوع على سترته الجلدية السوداء. وقد جثم عشرة رجال يلبسون سراويل الجينـــز وينتعلون الجِزَم في نصف دائـــرة، بينما كان أربعة رجال يحفّون بالتابوت. كانوا يبدون كجمعية أخوية في حفل بادي ميرفي، إذا استثنينا طريقة لبسهم ومظهرهم الرث.

وقـــد امـــتدت باقات من الورود الأنيقة على طول الصورة لتشكّل مزهرية صـــغيرة تحمل تعازياً من الزهور كُتِبَ على إحداها *سليك* بخط أزرق على خلفية صفراء، وعلى أخرى *وداعاً يا برنارد سيلفستر* بألوان زهرية وحمراء. كما ارتفعت وراء الـــتابوت أزهـــار القـــرنفل مُشَكّلة رقم *13* ومتباهية بارتباط *سليك* بأنواع المخدرات من حشيش وغيره.

لكـــن المـــشهد الأفضل كان ذلك المستطيل في أعلى اليمين وهو عبارة عن فسيفساء تويجية لدرّاجة وراكبها تُظهر تفاصيل. حاولت قراءة الشعارات المكتوبة فوق الخوذة وتحت العجلة الأمامية لكنني عجزت عن ذلك.

سأل كيت: "هل تعرفين شيئاً عن سليك؟".

"لا يبدو أنه مميز".

"نعم، ليس حتى بين تلك المجموعة القذرة المتنافرة". قَلبَ الصورة وقال: "هذا الرجل قضى نحبه عندما كنت أنا في الثالثة من عمري".

كانت هنالك صورتان إضافيتان لمأتم سليك، وقد أُخِذتَ كلتاهما من مكانين مخـــتلفين؛ واحدة في المقبرة والأخرى على درج دار العبادة. وقد ظهر فيهما عدد كـــبير مـــن المعزين الذين يعتمرون قبعات تصل حتى الحواجب وعصائب امتدَّت لتغطيَ أفواههم.

"لا بد من أن الصورة التي تحملها تأتي من مجموعة خاصة". ثم مرَّرت لكيت الـــصور الأخرى: "كما أعتقد أن الشرطة قد التقطت هاتين الصورتين، إذ يبدو أن المفجوعين غير متحمسين لإظهار وجوههم".

"هـــذه الدرّاجة النارية تحفة رائعة من معدن الكروميوم والفولاذ الصلب. لا عجب في أن ذلك الرجل قد ذهب بها مباشرة إلى القبر".

مشيت حول الطاولة، وربَّتُّ على كتفيه.

"تبدو عادية بالنسبة إليّ".

"نعـــم هذا ما أقصده، قوة خام. ربما بدأ هذا الرجل باستخدام درّاجة قمامة ثم...".

"درّاجة قمامة؟".

"نعم، إنها درّاجة بوليسية قديمة، ربما من طراز أف أل أيتش الخاص بالتجول. وقـــد أزال عـــنها الأشياء غير الأساسية مثل الحاجز الزجاجي والقضبان الحديدية والمكـــان المخـــصّص لحقائـــب السفر، وقام باستبدالها بقطع أكثر عصرية صُنعت خصيصاً له".

"مثل ماذا؟" إذ إنها تبدو لي كدرّاجة بالية من دون أي قطع جيدة.

أشار كيت إلى بعض القِطَع في الدرّاجة الموجودة إلى جانب القبر.

"مـــثل العجلـــة الأمامـــية الرفيعة وخزان البنـــزين الأشبه بالتابوت والدفاع الخلفـــي المتمايل والمقعد الخلفي المُدبَّب. وهذه القطع هي الأروع، إذ إنها تشعرك بأنك تركبين على المحرك".

وأشار إلى العجلة الأمامية.

"كما قام بمدِّ الطرف الأمامي وزيادة قضيبين من الحديد".

افترضت أنه يتحدّث عن القضيبين الطويلين الممتدين من المقود.

"وانظري إلى روعة هيكل هذه الدرّاجة النارية والدهان الخاص الذي يغطيها! أتمنى لو أستطيع رؤيتها عن قرب، فهذه الآلة هي تُحفة فنية ولا ينقصها من الكمال سوى إضافة مسند خلفي".

"و لَمَ ذلك؟".

"إنه مسند للظهر".

كانت الدرّاجة غريبة بالفعل، ولكن ليس بقدر غرابة صاحبها. إذ كان يضع أســاور جلديـــة ويلـــبس صدرية من قماش الجينـــز ذات أزرار ورقعات هارلي دايفدســـون المتـــنوعة ويلبس السروال الخاص برعاة البقر. وقد كان كثيف الشعر كوحوش الغابة. كان يبدو كعرض للخطر المتجوّل.

"سأذهب لأتفقد سمكة السلمون مجدّداً. إن كانت لا تزال متجمّدة فسنضعها في المايكروويف ليذوب عنها الثلج".

كانت السمكة لا تزال متجمّدة، فوضعناها في المايكروويف، ومن ثم ألقيناها علـــى المشواة لإضافة نكهة نهائية من الفحم إليها. وبعد ذلك، دهنت الفاصولياء الخضراء ببعض الزبدة، وخلطت السلطة، فيما قام كيت بتقطيع السمكة وتقديمها.

كـــنا قـــد فتحنا مناديل المائدة للتو حين رنّ الهاتف. فأجبت، وإذا بصوت رجولي أجش يسأل عن ابن أختي. فمرّرت له سماعة الهاتف من دون أن أنطق بأي كلمة.

"أهلاً يا صاح، ما الأمر؟".

حدَّق كيت إلى بقعة على زجاج الطاولة.

"لا، فلتذهبوا أنتم، أنا لا أستطيع الذهاب".

صمت لبرهة.

"غير ممكن". غيَّر موقعه، ومسح البقعة بإبهامه.

"ليس هذه المرة".

كنت أستطيع سماع صوت الطرف الآخر بالرغم من أن أذن ابن أختي كانت تحجب الصوت الذي بدا أجشّ كصوت كلب غاضب محبوس في قبو. تقلّصت أعصاب معدتي.

"حسناً، هذا هو الوضع الآن".

علا الصوت المكبوت وخفت مهتاجاً.

ترك كيت المائدة متجنّباً النظر إلى عينيَّ وتوجه نحو الصالة حيث لا أستطيع سماعه.

غرزت الشوكة في حبة فاصولياء، ومضغتها وابتلعتها. ثم كرّرت ذلك بطريقة آلية، لكن شهيتي كانت قد تبخرت. وبعد تناولي خمس لقمات، عاد كيت.

أحسَست بألم في صدري لِما رأيته من نظرة خيّمت على وجهه. وددت لو أضمّه بذراعيَّ، وأسرّح له شعره، وأحاول التخفيف من ألمه كما كنت أفعل عندما كان طفلاً صغيراً. ولكن مهما كان ما حدث الآن، فهو ليس بجرح بسيط في الركبة. وحتى لو سمح لي بذلك، فأنا أعلم بأن لفتي ستشعره بعدم الارتياح. كنت أشعر بمدى توتره، بيد أنني كنت عاجزة عن التخفيف عنه.

منحني ابتسامة عريضة، وهزّ كتفيه وكفيه، ثم غرق في طبق السمك.

حدّقت إلى أعلى رأسه. وأخيراً رفع رأسه، ونظر إليّ.

"إنه لذيذ". ابتلع طعامه وتناول الشاي المثلج وقال: "أجل، لقد كان هذا أحدهم، ولا، لن أذهب".

عادت إليَّ شهيتي فجأةً.

جاء الاتصال الثاني حين كنا نُنهي تنظيف المائدة. أجاب كيت، لكنني لم أتمكن من سماع شيء بسبب صوت آلة جلي الصحون والماء المتدفق. خلال دقائق قليلة، عاد كيت إلى باب المطبخ.

"هذا لايل يدعونا إلى سوق لبيع السلع نهار الغد، إذ كنت قد عبّرت أمامه عن رغبتي في زيارة هذه الأسواق".

"سوق لبيع السلع؟".

"حسناً، هو سوق لبيع السلع الرخيصة والمستعملة في مكان يُدعى هودسون، لكن لايل لم يودّ أن أقول لك أي نوع من الأسواق هو ظناً منه بأنك لن ترغبـــي في الذهاب".

لم يكـــن للكـــلام المزدوج من تأثير كبير في ردي. ومع أن رحلة كهذه إلى هودسون ستكون ممتعة، إلا أنها لم تكن لتُساوي ثمن تمضية فترة بعض الظهر برفقة كريز.

"اذهـــب يا كيت، فالمكان جميل جداً هناك في بلد الخيل. أما أنا فسأبقى هنا لإنهاء بعض الأعمال التي كنت أؤجل القيام بها".

"مثل ماذا؟".

"أظن أنني سأذهب لتصفيف شعري غداً".

"حسناً".

عـــاد كيت إلى غرفة الجلوس بينما أنهيت تنظيف المائدة. لم أستطع أن أصدّق شـــعوري بالارتـــياح بشأن مرافقة ابن أختي للايل كريز. فهذا الرجل كان متملقاً كبائع لزيت الثعابين من ماتاموروس.

ولِمَ قد يهتم كريز بفتى في التاسعة عشرة من عمره؟ لم يكن لديَّ أدنى شك في أن كيت يُدرك كيفية التعامل مع هذا الغبـــي الصغير، ولكنني تعهدت الاتصال بإيزابيل، لأطرح عليها بعض الأسئلة.

حدثت نفسي قائلة: *خذي الأمور بروية؛ صففي شعرك، واذهبـــي لمشاهدة عازفي الكمان*.

مشرب هيرلي هو أكثر المشارب في مونتريال شبهاً بالمشارب الإيرلندية. ومع أنـــني لا أفـــرط في تناول المشروبات، فإن جيناتي الغيلية لا تزال تستمتع بالأجواء هناك.

أُعجـــب كيت بالمكان كما أعجبت به أمه. لكن من الصعب أن تشعر بالكآبة بوجـــود عازف الكمان والماندولين والراقصين الذين يمرحون ويقفزون كنيجينسكاي يعاني من اضطراب عصبـــي. بقينا في المشرب حتى ما بعد منتصف الليل.

عـــندما أتـــى لايل كريز في الصباح التالي، كنت أُقلّب بتكاسل الصور التي كنت وكيت قد تركناها على الطاولة في الليلة السابقة.

سأل كريز وهو يدخل المنـــزل: "كيف الحال؟". كان يلبس سروالاً كاكيّ اللـــون وقميـــصاً أبـــيض ذا كمين طويلين وسترة واقية تحمل شارة أخبار التلفاز الكندي على الجهة اليُسرى لصدره. كان شعره يبدو أشبه بقالب من البلاستيك.

"بخير. ماذا عنك؟" تحدثنا باللغة الإنكليزية.

"لا أستطيع التذمّر".

"قال كيت إنه سيكون جاهزاً خلال بضع دقائق. لقد تأخر في النوم قليلاً".

ضحك كريز قائلاً: "لا مشكلة". ثم ابتسم لي ابتسامة ذات معنى.

لم أبادله الابتسامة.

"هل ترغب في بعض القهوة؟".

"لا شـــكراً، لقـــد تـــناولت ثلاثة أكواب هذا الصباح". ظهرت الكثير من الأسنان المتوّجة، ثم أضاف: "الطقس رائع في الخارج اليوم، أأنت واثقة من أنك لن تغيري رأيك؟".

"لا، لديّ العديد من الأشياء التي عليَّ القيام بها. شكراً لدعوتك".

"حسناً، ربما في المرة القادمة".

مستحيل، قلت في نفسي.

وقفـــنا للحظـــة لا نعرف كيف نتابع حديثنا. وجالت عينا كريز في الغرفة، وحطّت على صورة كاتي.

"هل هذه ابنتك؟".

"نعم".

"إنها جميلة جداً. هل هي تلميذة؟".

"نعم".

وضع الصورة مكانها، وانتقلت عيناه إلى غرفة الطعام.

"هذه باقة جميلة، لا بدّ من أن لديك معجباً".

محاولة جيدة.

"هل لي بشمّها؟".

هـــززت برأسي. كان كريز مرحباً به في منـــزلي تماماً كروح شريرة. توجّه نحو الورود وشمها.

"أحـــبُّ وورود الربيع". عاد بعينيه إلى صور كايت وقال: "أرى بأنك **تقومين** ببعض الأبحاث".

"هل ترغب في الجلوس؟" وأشرت إلى الكنبة في غرفة الجلوس.

تناول كريز إحدى الصور، ثم ردّها، واختار أخرى.

قـــال مـــن دون أن ينظـــر إليّ: "لا بد من أنك تعملين في التحقيق في قضية شيروكي ديجاردن".

"بشكل عرضي فقط". قلت ذلك، وتحرّكت مسرعة لأجمع الصور.

تنهّد بعمق وقال: "إن العالم برمته يُصبح مجنوناً".

"ربما". ومددتُ يدي له كي يسلّمني صورة جنازة سيلفستر.

أشرت إلى الكنبة قائلة: "أرجو أن تتفضّل بالجلوس".

جلس كريز، وعقد رجليه.

"أصحيح ما سمعته عن اهام دورسي، ونقله إلى ريفيري بريري؟".

"لقد سمعت بذلك".

"هل تظنين أنه الفاعل؟".

هذا الرجل لا يستسلم أبداً.

"أنا لست معنية بالتحقيقات بشكل فعلي".

"ماذا عن الفتاة أوسبري، هل من شيء جديد بشأنها؟".

فكّرت قائلة، *ماذا لو تحطّم وجهك؟*

في هـــذه اللحظـــة ظهـــر ابن أختي وهو يبدو كراعي بقر حضريّ بسروال الجينـــز وجزمته وقبعته الضخمة. نهضت واقفة.

"من المؤكّد أنكما تريدان الذهاب إلى السوق باكراً قبل نفاد السلع الجيدة".

سأل كيت: "أي سلع جيدة؟".

"طعوم السمك وقمصان ألفيس".

"في الواقع أنا أبحث عن مادونا بلاستيكية".

"جرّب دار العبادة الكبرى".

"أريد مادونا الأخرى".

قلت مشيرة بإصبعي نحوه: "توخَّ الحذر".

"الحـــذر هو اسمي الأوسط، كريستوفر حذر هوارد. ويدعوني أصدقائي باسم ك. ح" ونقف بإصبعين حافة قبعته.

"صحيح!".

بيـــنما كـــان كريز يودعني، وضع إحدى يديه على كتفي، ونـــزل بها إلى ذراعي، ثم ضغط فوق مرفقي. وقال بنظرة ذات معنى: "انتبهي إلى نفسك".

بعد ذلك، أخذت حماماً مطولاً.

لاحقـــاً تفقّـــدت بريدي الإلكتروني، وكنت قد فركت نفسي، وفاحت مني رائحـــة خـــشب الصندل. لم أجد أي رسائل مهمة. قدّمت بعض الاقتراحات إلى طلابـــــي ردّاً على بعض المسائل، وأرسلت رسالة عبرت فيها عن رأيي إلى عالم للأمـــراض كان يستعلم عن شكل جمجمة غريبة. كما قمت بالإجابة عن رسائل بنات أخي الثلاث في شيكاغو اللواتي كنَّ مولعات بالحاسوب. وفي النهاية شكرت زميلـــي في معهـــد علـــم الأمراض التابع للقوات المسلحة والذي أرسل إليّ صوراً مسلية.

عـــند الواحدة والنصف أغلقت بريدي الإلكتروني، واتصلت بإيزابيل، لكنها كالعادة لم تكن موجودة.

بحـــثت عـــن ســـبب ما لأخرج من المنـــزل. فذهبت لشراء القريدس من المـــسمكة. بالكاد كنت قد عبرت مجموعة واحدة من الأبنية حين استوقفتني صور لمصفّف شعر يُدعى سيمون.

حـــدّقت إلى صـــورة المرأة في الأبيض والأسود. كانت تبدو رائعة. كانت تسريحتها عصرية وأنيقة وفي الوقت عينه مرتّبة ومرحة.

يا الله يا برينان. تبدين كصورة لإعلانات الشامبو. بعد قليل ستقولين لنفسك إنك تستحقين تسريحة الشعر تلك.

كنت قد أخبرت كيت بالفعل بأن لدي موعداً لتصفيف شعري.

تفحّصت الملصق، وأنا أخمّن الوقت الذي سيستغرقه الاعتناء بالتسريحة. ظننت أنه قد يتجاوز الدقائق العشر التي حدّدتها لنفسي.

بدأت بالتحرك بعيداً حين رأيت انعكاس صورتي على الزجاج. ما رأيته كان صورة امرأة تبعد كثيراً عن السيدة في الملصق.

متى كانت المرة الأخيرة التي جرّبت فيها مظهراً جديداً؟

منذ سنوات.

كان صالون الحلاقة هذا يعرض حسماً خاصاً بيوم الأحد.

إنـــه حسم بقيمة خمسة دولارات كندية. حسناً بإمكاني توفير ثلاثة دولارات أميركية ونصف.

يمكن للتسريحة الجديدة أن ترفع من معنوياتي.

لكنها يمكن أن تكون كارثة أيضاً.

الشعر ينمو من جديد.

هذا الكلام أتى مباشرة من أمي.

دفعت الباب، ودخلت.

بعـــد بـــضع ســـاعات، كـــنت في منـــزلي، أتناول العشاء، وأشاهد قناة ديسكوفري. على الشاشة كانت ذكور من حيوانات الكنغر تتصارع لجذب انتباه الناس. وقرب المدفأة كان بيردي يرمقني صامتاً بنظرات فضولية.

"الشعر ينمو مرة أخرى يا بيردي".

أخـــذت قطعـــة من القريدس، وتناولتها متمنية لو أن شعري ينمو قبل عودة كيت إلى المنـــزل.

أخبرته: "يمكنني الاستفادة من دعمك".

إن كـــان من المفترض أن تُساهم تسريحة شعري في رفع معنوياتي، فقد كانت هـــذه التجـــربة بمثابة كارثة. فمنذ عودتي إلى المنـــزل وأنا أفكّر في طرائق لأتجنب الظهور في العلن. وبالطبع بفضل التطور في مجال الاتصالات كنت أملك العديد من الخيارات البديلة. إذ يمكنني استخدام الهاتف والفاكس والبريد الإلكتروني. والكثير من القبعات.

بحلـــول الـــساعة العاشرة، كنت أشعر بإحباط كالذي شعرت به في أمسية الجمعة. فقد كنت أعمل فوق طاقتي، ولا أحصل على أي تشجيع أو تقدير. كما تبيّن أن ذاك الذي لم يصبح حبيبـــي أبداً قد فضّل اللصوص على رجال الشرطة. كان مديري قد انهار، وابن أختي في الخارج برفقة رجل حقير. وكنت أبدو وكأنني تعرّضت لهجوم جزازة الأعشاب.

ثم رنّ الهاتف، وازدادت الأمور سوءاً بشكل فظيع.

"كلوديل يتكلم".

"نعم". أجبت بالإنكليزية، فقد أفقدتني المفاجأة القدرة على التحول إلى اللغة الفرنسية.

"ظننت أنه يجب أن تعرفي بشأن تعرّض جورج دورسي للهجوم منذ ساعتين".

"من هاجمه؟".

"لقد مات يا سيدة بريننان. وقد قُتل بسبب تطفلك".

"بسبب تطفلي؟".

كنت أتكلم مع نفسي.

بقيت مشوشة الذهن طيلة تلك الأمسية وعاجزة عن ربط أفكاري. بالكاد انتبهت إلى كيت حين عاد وأخبرني بأنه أمضى وقتاً ممتعاً.

"قُتِل بسبب تطفلك". هذا ليس عدلاً. كان جورج دورسي قد طلب مقابلتي.

ماذا لو كان قد طلب مقابلة كلوديل أو تشاربونو أو كويكواتر؟ كانت هذه جريمة قتل داخل السجن لشخص كان يُسبب تهديداً للآخرين. يمكن أن تحدث هذه الأمور وأنا لست السبب في ذلك. لم يكن كلوديل عادلاً.

بقيت طوال الليل أتقلّب وأردّد: "هذا ليس عدلاً".

27

بحلـــول الـــسابعة والنصف من صباح اليوم التالي كنت قد وصلتُ إلى مكان عملي. كان المبنى هادئاً كالقبر، و لم يكن الآخرون سيصلون قبل ساعة على الأقل. راقني الهدوء، فخطّطت لأن أستفيد منه إلى أقصى حدّ.

دخلـــتُ مكتبـــي، ولبست الرداء الخاص بالمختبر، ثم توجّهت إلى مختبر علم الإنسان. فتحت باب غرفة التخزين، وسحبتُ الصندوق الذي يحوي رفاة سافانا. تعمّدت المباشرة بعملي تاركة لكلوديل إثارة قضيته على النحو الذي يختاره.

وضعت الجمجمة وعظام الفخذ على الطاولة، وباشرت العملية الشاقة بإعادة فحـــص كـــل ملّيميتر من العظام باستخدام عدسة مكبرة وضوء قوي. بالرغم من شكي في ذلك، فقد كنت آمل بأن أجد شيئاً فاتني في السابق، ربما شقّاً أو كشطاً صغيراً قد يدلّني على كيفية انفصال العظام عن باقي الجسد.

كـــنت لا أزال أعمـــل علـــى ذلك حين طرق أحدهم الباب. نظرت وإذ بكلـــوديل يقف خلف الزجاج. كعادته، كان يقف منتصب القامة وشعره مصفّف بشكل مثالي كصورة إعلانية لدوغلاس فيربانكس.

قلت وأنا أفتح الباب: "يا لها من ربطة عنق جميلة".

كانت جميلة بالفعل ذات لون بنفسجي باهت، ربما حريرية ومصمّمة من قبل دار للأزياء. اختيار يُناسب سترته ذات القماش التويدي.

تمتم بكل الوداعة التي يمتلكها كلب مقاتل: "شكراً".

وضعت عظم الفخذ جانباً، ثم أطفأت الضوء القوي وخطوت نحو المغسلة.

بعد ذلك سألته وأنا أغسل يديَّ: "ماذا حدث لدورسي؟".

فأجاب: "تمّت مهاجمته بواسطة مفك للبراغي من نوع فيليبس. كان الحارس في الخــــارج يقـــوم بالقراءة فيما كان دورسي يستحم. ربما كان يقرأ ما فاته من مجلاته المهنية".

مرّت في خيالي صورة الرجل ذي أسنان الجرذ الصغيرة.

"لاحــــظ الحــــارس تغــــييراً في صـــوت المياه، فذهب ليُلقي نظرة. فوجد دورســــي ملقــــىً على وجهه تحت المياه الجارية وفي أعلى جسمه ثمانية وعشرون ثقباً".

"يا الله".

تابــــع كلـــوديل: "لكن دورسي لم يَمُت مباشرة، فقد باح ببعض الأفكار في الطريق إلى المستشفى، وهذا ما دفعني للمجيء إلى هنا".

بحثت عن منديل ورقي، وقد فاجأتني صراحته.

" لم يفهم المسعف ما قاله كاملاً، غير أنه التقط كلمة واحدة".

رفع كلوديل ذقنه قليلاً.

"برينان".

تجمّدت يداي.

"هل هذا كل شيء؟".

"قال إنه كان مشغولاً بإنقاذ حياة دورسي، لكنه استطاع تذكر الاسم بسبب كلبه".

"بسبب كلبه؟".

"لديه كلب صيد إيرلندي يُدعى برينان".

"هذا اسم شائع".

"ربمــــا في غالواي وليس هنا. لقد تحدّثتِ مع دورسي بشأن جريمة شيروكي ديجاردن، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح. ولكن لا أحد يعلم شيئاً بشأن ذلك".

"ما عدا الجميع في السجن".

"لقد كنا في غرفة خاصة بالاستجواب".

كان كلوديل صامتاً. وتخيّلتُ الممر وخزّان الصرف الصحي اللذين كانا على بعد عشر أقدام فقط.

"أعتقد أنني ربما كنت مراقبة".

"نعم. فهؤلاء يجدون طريقة للانتقام".

"للانتقام ممّن؟".

"دورسي كان همجيّاً متسكّعاً، ولم يكن رفاقه ليفرحوا لو هم اعتقدوا أنه قام بأي محاولة فردية للدفاع عن نفسه".

شعرت بالتّوتر يتصاعد إلى رأسي لمجرد تفكيري في أنني تسبّبت بهذا الهجوم.

فقلـــتُ له بينما كنت أجمع المنديل وأرميه في القمامة: "لا أعتقد أن دورسي قتل شيروكي".

"لا تعتقدين ذلك؟".

"كلا".

"أعتقد أن دورسي ادّعى أنه بريء كأرنب الفصح".

"نعم. ولكن هنالك المزيد".

رمقني بنظرة غامضة، ثم عقد ذراعيه فوق صدره.

"حسناً، دعيني أسمع ما لديك".

فأخبرته عن ترشاش الدم.

"هل يبدو ذلك كضربة درّاجين؟".

"قد لا تجري الأمور كما يجب".

"هل يستخدمون الهراوات؟ ألا يدخل القاتل المحترف وهو يطلق الرصاص؟".

"كان الدرّاج الأخير الذي تمّ سحبه من النهر قد تعرّض للضرب بالمطرقة حتى الموت، شأنه شأن حارسه الشخصي".

"كـــنت أفكّـــر في النمط الفارغ خلف رأس شيروكي. ماذا لوكان قد قُتِلَ بسبب ما تمّ إزالته؟".

"لقـــد كـــان هنالك العديد من الناس في مكان الجريمة، فربما اصطدم أحدهم بذلك الشيء الذي أُزيل أو ربما سرقه الجار".

"لكنه كان مغطىً بالدماء".

"سأكلّمها بشأن ذلك على كل حال". كان من الواضح أن صبر كلوديل بدأ ينفد، وهو صبر محدود في أحسن الأحوال.

سألت بإصرار: "ولِمَ قد يسمح شيروكي لأحد بالدخول؟".

"ربما كان القاتل صديقاً من الأيام الماضية".

هذا معقول.

"هل توصلتم إلى شيء عبر دراسة حركة المقذوفات؟".

هزّ رأسه.

"من يترأس التحقيقات المتعلقة بسبايدر ماركوت؟".

"انتقلت تلك التحقيقات مع قضية الفتاة الصغيرة إلى عهدة كوريسك".

سيبويكز.

"هل هناك من أمر جديد؟".

رفع كلوديل كفيه.

"لّمح دورسي في حديثه إلى أن لديه ما يريد المساومة عليه بشأن ذلك".

"سيقول أولئك المنحطّون أي شيء لإنقاذ أنفسهم".

نظر إلى كم قميصه، والتقط عنه ذرة غير موجودة.

"هناك أمر أريد مناقشته معك".

"حقاً؟".

في تلك اللحظة، سمعنا صوت الباب يُفتح في المختبر المجاور معلناً وصول التقنيين.

"هلا ذهبنا...؟" وحرّك رأسه باتجاه مكتبـــي.

قدتـــه إلى مكتبـــي، وجلست إلى طاولة المكتب والفضول يعتريني. وعندما استقرّ قبالتي، سحب من جيبه الداخلي صورة ووضعها فوق دفتر الملاحظات.

كانـــت هذه الصورة تختلف قليلاً عن مجموعة صور كايت للدرّاجين، إذ إن هذه الدرّاجات كانت حديثة الطراز وأفضل جودة. وكان هناك أمر آخر.

كان كيت يقف وسط مجموعة من الرجال الذين يرتدون السترات الجلدية.

عرفت السؤال الذي يريد طرحه من تعابير وجهه.

"لقد تمّ التقاط هذه الصورة الأسبوع الماضي في مؤسسة تُدعى لا تافيرن دي رابيد". ثم نظر إليّ وقال: "هذا ابن أختك، أليس كذلك؟".

فأجبته باقتضاب: "وإن يكن! أنا لا أرى ما يثير الشك".

"إنهم آلة الصخر".

وضع صورة ثانية أمامي. كنت قد بدأت أسأم الشريط السينمائي للدرّاجين.

مجدّداً رأيت كيت في الصورة يركب درّاجة هارلي، ويتحدّث مع درّاجين آخرين. كان رفيقاه حليقي الرأس، لكنهما كانا يضعان عصبتين على رأسيهما وينتعلان جزمتين ويرتديان صدريتين من قماش الجينز. على ظهر كل واحد منهما كنت أستطيع رؤية صورة شخص مسلح يعتمر قبعة مكسيكية كبيرة. وقد كُتِب أعلى الصورة كلمة بانديدوس، كما كتبت كلمة هيوستن أسفل الصورة.

"لقد تمّ التقاط هذه الصورة في سوق السلع في معرض مدينة غالفستون".

جاء صوتي عالياً ومشدوداً: "وإلامَ تلمّح؟".

"لا شيء، أردت أن أريك الصور فقط".

"حسناً".

عبس كلوديل، وعقد ذراعيه، ونظر إليّ بتركيز تام.

ثنيتُ يديَّ لأُخفي ارتجافهما.

"يعيش ابن أختي في تكساس. اشترى له والده مؤخّراً درّاجة نارية من نوع هارلي دايفدسون. وقد أصبح مفتوناً بثقافة الدرّاجات، هذا كل ما في الأمر".

"لم يعد ركوب الدرّاجات يعني مجرد ممارسة هواية القيادة في الهواء الطلق في هذه الأيام".

"أدرك ذلك، لكنني واثقة بأنها كانت مجرد صدفة. سأتحدّث مع كيت بشأن ذلك".

وسلّمته الصور.

"لدى قسم الشرطة في هيوستون شخص يدعى كريستوفر هوارد".

لو استطعت الوصول إلى هاري في تلك اللحظة لكنت ارتكبت جريمة.

"هل تمّ اعتقاله؟".

"نعم، قبل أربعة أشهر، بسبب حيازته للمخدرات".

لا عجب في أن والده كان قد نقله إلى الغابات الشمالية.

"أدركُ أن النـــصيحة ليست ذات قيمة في المطلق". وتابع قائلاً: "لكن توخي الحذر".

"مِمَّ؟".

نظـــر إليّ لـــوقت طويل، حائراً من دون شك إذ كان يجدر به أن يفضي إليّ بمكنونات نفسه.

"في الواقـــع استطاع الطبيب أن يلتقط كلمتين". رنّ الهاتف، ولكنني تجاهلته. فتابع: "فتى بريننان".

شعرت وكأن أحداً أشعل في صدري ناراً. هل يعرفون بشأن كاتي أو كيت؟ أشحت بنظري لئلا يرى كلوديل خوفي.

"ماذا تعني؟".

هزّ كلوديل بكتفيه.

"هل كان ذلك تهديداً أم تحذيراً؟".

"قال المسعف بأنه لا يصغي إلى مرضاه بينما يقوم بمعالجتهم".

حدّقت إلى الحائط.

"إذاً، ماذا تقترح؟".

"لا أريد أن أخيفك، لكنني وضابط الأمن كويكواتر نعتقد...".

"أه نعـــم، كويكواتر، يا له من رجل مضحك". قاطعته بعبارة ساخرة أثارها الغضب والخوف.

"إنه محقّق جيد".

"إنه غبـــي، في كل مرة أتحدث فيها معه يتصرّف كرجل أصمّ".

"هو بالفعل أصمّ".

"ماذا؟".

"كويكواتر أصمّ".

بحثتُ عن إجابة ولكنني لم أجد كلمة واحدة لأقولها.

"في الواقع أصبح أصمّ. هناك فرق".

"وكيف أصبح أصمّ؟".

"تلقّـــى ضربة على أسفل رأسه بأنبوب حديديّ بينما كان يفضّ نـــزاعاً في الشارع، وتمّ رميه ببندقية صاعقة حتى فرغت بطارياتها من الشحن".

"متى حدث ذلك؟".

"منذ حوالى عامين".

"وهذا ما جعله أصمَّ؟".

"إلى حدٍّ ما".

"هل سيشفى ويعاود السمع؟".

"إنه يأمل في ذلك".

"وكيف يقوم بمهامه؟".

"بطريقة جيدة للغاية".

"أقصد، كيف يتواصل مع الآخرين؟".

"إن كويكواتـــر هـــو أحد أسرع الناس الذين التقيت بهم تعلّماً وحفظاً. لقد أخبروني بأنه تعلّم قراءة الشفاه في مدة قصيرة جداً، وهو شخص استثنائيّ. وفي ما يـــتعلّق بالاتـــصالات البعـــيدة، فهو يقوم باستخدام البريد الإلكتروني والفاكس، بالإضافة إلى آ. ك. ب".

"آ. ك. ب؟".

"إنـــه اختـــصار للآلة الكاتبة عن بعد. بشكل أساسي هي عبارة عن لوحة مفاتيح ووصلة سمعيّة في جهاز واحد. في منـــزله لديه قطعة خاصة متّصلة بحاسوبه تُتـــيح لـــه التواصل على نفس موجة رمز البودو التلغرافي كأي آلة كاتبة عادية. ويتّـــصل الفاكس والآلة الكاتبة بخط الهاتف نفسه، غير أنه يستخدم جهاز تحويلٍ كافـــة لتمييز رسائل الفاكس الواردة وإرسالها إلى آلة الفاكس ويحوّل الاتصالات الأخرى كافة إلى الآلة الكاتبة. ولدينا نفس التجهيزات والبرامج في المقرّ الرئيسي، لذلك ليست لديه أي مشكلة في التواصل".

"وماذا يفعل عندما يكون في الخارج؟".

"لديه آلة كاتبة محمولة تعمل بواسطة البطارية".

"وكيف يتحدّث مع الآخرين من دون الآلة الكاتبة، أو يتحدّث معكَ حين لا تكون موجوداً في المقرّ الرئيسي؟".

"هنالك خدمة معتمدة تعمل كوسيط، إذ يقوم جهاز معين بتلقّي الاتصال ثم يطـــبع ما يقوله الشخص الذي يسمع. وإن كان الشخص أصمّ، يقوم هذا الجهاز بقراءة ما يطبعه الشخص الأصمّ بصوت عالٍ. لكن كويكواتر يتكلّم بشكل واضح لذلك لا يحتاج إلى طباعة كلامه".

كـــان عقلي يصارع ليستوعب كل ذلك. تخيّلت كويكواتر في نادي الأفاعي ثمّ في غرفة المؤتمرات في كوانتيكو.

"لكـــن مهمـــته في كوانتيكو شملت تقديم تقرير عمّا تعلّمه، فكيف يستطيع كـــتابة ملاحظات وقراءة الشفاه في آن معاً؟ وكيف يعرف ما يُقال عندما تخفت الأنوار؟ أو عندما لا يتمكّن من رؤية المتكّلم؟".

"يـــستطيع كويكواتر أن يشرح ذلك أفضل مني. إنه يستخدم شيئاً هو عبارة عـــن خدمة الحاسوب المساعد على الترجمة الفورية. يقوم الجهاز بتسجيل ما يُقال علـــى آلة اختزال، ويحوّلها إلى كلمات تظهر فوراً على شاشة الجهاز. ويُعتمد هذا النظام عينه في البث المتلفز المباشر. ولدى مكتب التحقيقات الفيدرالي نظام مماثل، كمـــا يمكن إجراء الاتصال من أي مكان حتى وإن كان جهاز التسجيل في موقع معيّن وكويكواتر في موقع آخر".

"عبر استخدام الهاتف والحاسوب الشخصي؟".

لم أفصح عمّا يجول في ذهني. فقد كان إعداد تقرير في مؤتمر أو اجتماع أمراً مفهوماً، ولكن كيف يستطيع ضابط أمن أصمّ أن يحمي نفسه إذا تعرّض للاعتداء من الخلف؟

"الشرطي كويكواتر هو ضابط ماهر وملتزم. وقد أُصيب وهو يؤدي واجبه، ولا أحد يعرف إن كان قد فقد سمعه بشكل دائم أم لا. من الواضح أنه لا يستطيع القيام بكل ما كان يفعله في الماضي، لكنه لا يزال يستطيع أن يعمل قدر طاقته".

كنت على وشك أن أعود بالحديث إلى دورسي عندما وقف كلوديل ووضع ورقة على مكتبـــي. استجمعت قواي لتلقي المزيد من الأخبار السيئة.

قال: "هذا تقرير الحمض النووي للدم الذي وُجد على سترة دورسي".

لم أكن بحاجة إلى النظر في التقرير، فتعبير وجه كلوديل أخبرني عن محتواه.

28

حين غادر كلوديل، بقيت جالسة هناك بينما راحت أفكاري تدور حول المحادثة التي أنهيناها للتو.

إن فحص الحمض النووي لا شكّ فيه. كانت السترة مغطاة بدم الضحية، مما يعني أن دورسي قتل شيروكي كما كان كلوديل يعتقد. هل قام بذلك حقاً؟ لكن دورسي قال إن هذه السترة ليست سترته.

لم يكن ذلك الرجل يعرف شيئاً عن سافانا أوسبري. كان يحتال عليَّ لإنقاذ نفسه، وقد انطلت عليَّ الحيلة.

كما أن زيارتي للسجن تسبّبت بمقتل دورسي. أيُعقَل ذلك؟ هل قُتِل لأنه كان القاتل، أم قُتِل لأنه ليس القاتل؟ في الحالتين مات لأن أحدهم خشي مما قد يبوح لي به.

شعرت بحرارة داخل جفنيَّ.

لا تبكي، إياكِ أن تجرؤي على البكاء. حبست دموعي بصعوبة.

كانت هناك مَسألة كويكواتر. لقد كان يقرأ شفتيَّ و لم يكن يُحدّق إليّ. إذاً، من الذي أساء معاملة الآخر. ولكن كيف كان لي أن أعرف عن وضعه؟

وكيت. هل كانت صور المراقبة تلك مجرد صدفة فعلاً كما قلت، أم أن كيت متورّط مع البانديدوس؟ وهل هذا يُفسر مسألة الواعظ؟ هل كان السبب الحقيقي لمجيئه إلى هنا غير مرتبط بغضبه من والده؟ أو بتعلّقه بخالته الغبية؟

والعين. هل حقاً وجدها كيت على زجاج السيارة الأمامي؟

لقد حصل كلوديل على تقريره. اللعنة، أين كان تقريري؟

ضربتُ بكفّ يدي على دفتر الملاحظات، وقفزت واقفة. رحت أشق طريقي بين طاقم الموظفين الذين يحملون الأوراق والملفات، وبين التقنيين الذين يجرّون عربات العيّنات. توجّهتُ نحو الردهة، واستقللت المصعد إلى الطابق الثالث عشر مباشرة إلى قسم تحليل الحمض النووي. عثرت على هدفي منحنياً فوق أنبوب اختبار في الطرف البعيد من المختبر، فدخلت وأغلقت الباب.

حيّاني روبرت غانيي: "صباح الخير يا تمب، كيف حالك؟".

"بخير".

"يبدو شعرك مختلفاً". كان شعره مجعداً وأسود اللون، بالرغم من أنه يميل إلى اللون الرمادي عند صدغيه. كان يُبقيه قصيراً ومسرحاً بعناية.

"نعم".

"هل ستدعينه ينمو مجدّداً؟".

أجبته: "من الصعب أن أمنع نموّه".

فتمتم وهو يضع جانباً أنبوباً زجاجياً: "يبدو جميلاً من دون شك". وتابعَ: "أظن أن هذه السترة ستُثبِّتُ التهمة على دورسي. في الواقع، ابتسم كلوديل عندما أخبرته بذلك. حسناً، لقد كاد أن يبتسم. لقد ارتعشت شفتاه".

"كنت أتساءل هل لديك الوقت لتقوم بالمقارنة التي طلبتها".

"تلك التي لا تحمل رقماً، أليس كذلك؟".

أومأتُ برأسي.

"قضية العين؟".

أومأت برأسي مرة أخرى.

"لتتمّ مقارنتها مع القضية التي تحمل الرقم المتسلسل 37729 في مختبر مونتريال الشرعي".

"نعم". لطالما أذهلتني قدرته على حفظ أرقام القضايا.

"انتظري قليلاً".

توجه غانيي نحو مجموعة من الملفات، ثم بحث وسِطَها، وسحب ملفاً. انتظرت فيما كان يلقي نظرة سريعة على المحتويات.

"تمّ إنجاز المقارنة، لكن التقرير غير مكتوب".
"وماذا بعد؟".
"إنها متطابقة".
"من دون أي شك؟".
رفع حاجبيه: "بالتأكيد. فعيّنات الأنسجة والعين تعود إلى الشخص ذاته".
أو إلى الشخصين، في حال وجود توأم. هذا ما فكرتُ فيه.
شكرته، وعدت مسرعة إلى مكتبـــي.
كانـــت شكوكي في مكانها. فالعين تعود إلى أحد التوأمين فايلنكورت. وربما قد عثر عليها عضو من الأفاعي في مكان الجريمة، واحتفظ بها لسبب مروّع. ولكن من الذي وضعها على سيارتي؟
سمعتُ رنين الهاتف قبل أن أصل إلى باب مكتبـــي، فاندفعت مسرعة أطوي الخطوات القليلة الأخيرة. كان ذلك مارسيل مورين يتّصل من الطابق السفلي.
"افتقدناك في الاجتماع الصباحي".
"آسفة لذلك".
دخـــل مباشـــرة في صلب الموضوع. كنت أسمع عبر الهاتف أصوات منشار سترايكر.
"لقـــد وصلت سفينة إلى المرفأ منذ أسبوعين، وتمّ إفراغ العديد من حاويات الحمولة بغية إصلاحها".
"هل تقصد سفينة كبيرة تحمل ثماني عشرة حاوية؟".
"نعم. والبارحة فتح العمال الحاوية الأخيرة ووجدوا جثة. يعتقد القبطان أنها على الأرجح تعود إلى مسافر غير شرعي يختبئ في السفينة، لكنه لا يملك أي تفسير آخر".
"ما هو مكان تسجيل هذه السفينة؟".
"ماليـــزيا. بـــدأت بتـــشريح الجثة، لكن الرفاة متحلّلة على نحو سيئ وليس بمقدوري أن أفعل الكثير، لذا أريدك أن تلقي نظرة عليها".
"سأنـــزل بعد قليل".
عندما وضعت السماعة، ذهبت إلى المختبر، وجدت جوسلين، العاملة المؤقتة، منحنـــية فـــوق طاولة عملي. وكانت فاتنة المدرسة تلبس جوارب نسائية شبكيّة

وتنورة جلدية قصيرة إلى حدٍّ يظهر معه الطرف الأسود لكل جورب. لدى سماعها صوت الباب استقامت واستدارت.

"طلب مني الدكتور مورين أن أعطيك هذا".

مدّت ذراعها، وتأرجح قرطاها كالأراجيح الصغيرة في ساحة المدرسة. كان بإمكان عصفور أن يحطَّ على كل قرط.

اقتــربت مــنها، وأخــذت الطلــب، وأنا أتساءل لِمَ لم يتركه مورين على مكتبــي.

قالت بصوت منخفض ذي نغمة رتيبة لم أستطع أن أعرف إن كانت تسخر مــني أم لا: "تسريحة شعر رائعة". كان وجهها يبدو شاحباً أكثر من المعتاد، وقد أحاطت بعينيها هالتان حمراوان اتشح أسفلهما بخطوط سوداء.

"شكراً يا جوسلين".

تمهّلتُ قليلاً إذ لم أرغب في التطفل، ثم سألتها: "هل أنت بخير؟".

نظــرت إليّ وكــأن ســؤالي أربكها. هزَّت بكتفها وقالت: "تُزعجني جداً الحساسية في الربيع، ولكنني بخير".

بنظــرة غامــضة أخيرة انطلقت جوسلين مسرعة خارج المختبر. أعدتُ رفاة أوســبري إلى صندوقها، وأمضيتُ بقية الصباح في العمل على الهارب الماليزي. لم يكــن مورين يُبالغ بشأن رفاته، فقد كانت كتل الأنسجة اللينة الموجودة في كيس الجثة مليئة بالدود.

عند الظهر عدت إلى مكتبــي لأجد كيت يجلس على كرسيّي عاقداً رجليه على حافة النافذة وقبعة فرانك سيناترا على الجزء الخلفي من رأسه.

ســألته وأنا أحاول أن أخفي دهشتي: "كيف وصلت إلى هذا الطابق؟" كنت قد نسيت تماماً موعد الغداء الذي رتّبناه معاً.

حــرّك تــصريح الزائرين المعلّق على ياقته وقال: "تركتُ رخصة القيادة مع الحــارس فسمح لي بالدخول. وكنت أجلس في الردهة حين أشفقت عليّ إحدى السيدات وأحضرتني إلى هنا".

أنــزل رجليه، واستدار نحوي.

"يا لهذا الشيء الذي أراه".

لا بد من أنه رأى شيئاً يلطّخ وجهي.

"لا تسيئي فهمي. قصة شعرك مذهلة". ووَجَّه سبابتيه نحوي مضيفاً: "تبدين أصغر سناً".

"هيا بنا".

قلـــتُ ذلك وأنا أستعيد سترتي عن مشجب الثياب وقد سمعت تعليقات أكثر من اللازم بشأن شعري.

حــدّثني ابـــن أخـــتي في المطعم في أثناء تناول الشطائر والبطاطس المقلية عـــن تمـــضيته يوم الأحد برفقة لايل كريز. وكان الأمر البارز هو شراءه للقبعة، لكـــنه لم يذكـــر أي شيء عن مادونا أو عن طعوم السمك. وبعد عودهما إلى مونتـــريال، تناولا اللحم المقدّد في مطعم بِن، ثم أخذه كريز إلى غرفة الأخبار في الإذاعة.

"عمّ تتحدثان أنتما الاثنان؟".

"هـــذا الـــرجل رائـــع بالفعل". جاء صوته مكبوتاً بين شرائح اللحم الباردة والجـــبن، ثم تابع: "كما أن مدى معرفته بالبث الإذاعي أمر مذهل، فضلاً عن أنه ملمٌ بالدرّاجات النارية أيضاً".

"هل طرح عليك العديد من الأسئلة؟".

تساءلت إلى أي حدّ كان كريز يستغل كيت للحصول على معلومات بشأن القضايا التي أعمل عليها. فحرب الدرّاجين كانت آخر أخبار الساعة.

ســـحب كيت منديلاً ورقياً من علبة معدنية عند آخر الطاولة، ومسح الزيت عن ذقنه.

"طرح عليَّ بعض الأسئلة".

"بشأن ماذا؟".

كوّر المنديل الورقي بين أصابعه، وبحث عن منديل آخر.

"بشأن أمور عديدة، كريز رجل مذهل ويهتمّ بكل شيء".

جعلـــني شيء في صوت ابن أختي أشعر بأنه قد بدأ بجعل لايل كريز في مرتبة لا تعلـــوها مرتبة أخرى. حسناً، أستطيع تقبّل ذلك، فبالرغم من أن الرجل متملّق، فإنه يتغلّب على صورة الواعظ.

بعد انتهائنا من تناول الغداء، أصرّ كيت على مرافقتي إلى المختبر. وبالرغم من لهفتي إلى العودة للعمل على تشريح الجثة، ألزمته بجولة قصيرة. فأنا أيضاً بإمكاني أن أكون عظيمة.

تفـــوّه كيت بملاحظتين فقط خلال جولتنا. ذكرتهما لاحقاً، وعاقبت نفسي لعدم انتباهي.

ســـأل كيت بعدما رأى جوسلين أمام آلة التصوير: "من تكون غريبة الأطوار هذه؟".

"عاملة في قسم السجلات".

"أراهن أنها تعاني من مشكلة ما".

"تعاني من مشاكل الحساسية".

"صحيح، الرذاذ الخاص بالأنف".

أمـــا الملاحظة الأخرى فقد أدلى بها في قسم المقذوفات عندما وصف مجموعة الأسلحة النارية بالجميلة.

حين غادر كيت عُدت إلى العمل على ذلك المسافر خلسة في السفينة. بحلول الـــرابعة والنـــصف كنت قد أنهيت فحصي الأولي وخلصتُ إلى أن الجثة تعود إلى ذكـــر في أواخـــر العقد الثاني من عمره. كما قمت بتشريح العظام وإرسالها إلى الطابـــق العلـــوي بغـــية غليها. بعد ذلك اغتسلت، وبدّلت ملابسي، وعدتُ إلى مكتبـــي.

كنت أتناول سترتي حين لمحت صورة ملونة موضوعة على دفتر ملاحظاتي.

أمر رائع، قلت في نفسي. إنه أمر جديد. إذ لم أكن قد رأيت أي صورة منذ ساعتين على الأقل.

تناولت الصورة معتقدة أنها ربما تتعلّق بكلوديل.

لكنها لم تكن هكذا.

بالـــرغم مـــن أن هـــذه اللقطة كانت قديمة وكانت شبكة من الشقوق قد أفـــسدت سطح الصورة، إلا أن ألوانها كانت لا تزال جيدة. كانت صورة جماعية قـــد الـــتقطت في منطقة مخصّصة للنـــزهات أو في مخيم ما. في المقدمة، كان هناك حـــشد من الرجال والنساء يجتمعون حول طاولات خشبية متخذين شكل حدوة

الحصان. كانت الأرض مغطاة بالزجاجات والعُلَب الفارغة. أما الطاولات فكانت حافلة بحقائب الظهر والبرادات الصغيرة والعديد من الحزم والأكياس الورقية. وفي الخلف علت أشجار الصنوبر الكثيفة، لكنها كانت مبتورة من جانب الصورة العلوي.

كما كان هناك كيس بقالة كبير مقابل قائمة إحدى الطاولات، وقد ظهر مباشرة قبالة عدسة الكاميرا، لذا لفت انتباهي الشعار الموجود عليه.

"بيغلي، ويغلي".

قلبتُ الصورة لكنني لم أجد شيئاً.

علّقت سترتي مجدّداً، وسحبت العدسة المكبرة، وجلستُ أتفحّص الصورة. خلال ثوانٍ وجدت تأكيداً على رجل ضخم يبدو كالأحمق يرتدي صدريّة جينز ويضع قفازين جلديّين من دون أصابع. امتدت ذراع نحو صدره مظهرة شارة معقوفة وأضواء البرق والأحرف الشاعرية "ت. ل. ع". فيما كانت يد كونغ قد طمست جزءاً من قميصه، كانت الكلمات في الأسفل مقروءة بشكل واضح.

"شاطئ ميرتل".

بالكاد كنت ألتقط أنفاسي حين بدأت بتفحّص الأشخاص في الصورة عن قرب. رحت أحرك العدسة ببطء فوق الصورة لأدقّق في كل وجه يظهر بوضوح.

خلال ثوانٍ وجدتها. كانت نصف مختفية بين بحر من القبعات والرؤوس كثيفة الشعر مستندة بجسدها الصغير إلى شجرة، وقد التفّت أغصان صغيرة حول خصرها. وكان رأسها مائلاً، لكن شعاعاً من الشمس ظهر قبالة العدسة مباشرة حاجباً ملامحها.

سافانا كلير أوسبري.

بالرغم من أنني لم أتمكن من قراءة تعبير وجهها، لكنني شعرت بشيء من التوتر في جسدها. وتساءلت هل كان ذلك إثارة أم خوفاً أم خجلاً...؟!

تابعت عملي.

كان الرجل الواقف إلى يمين سافانا يبدو كشخصية من كتاب *حياة وموت كورماك الشاعر الإسكندنافي*. فقد كان ذا شعر طويل يمتدّ حتى كتفيه ولحية طويلة تصل إلى نصف صدره. كان كورماك يظهر في الصورة رافعاً ذقنه وعبوة من شراب الشعير تضغط على شفتيه.

أمـــا رفيقها الذي ظهر إلى جانبها من الجهة الأخرى فقد كان طويلاً جداً ذا شـــعر قصير ولحية وشاربين مشعّثين. وكان وجهه مختفياً بين الظلال مما جعل بطنه هو الجزء الأكثر وضوحاً. وقد بدا بطنه وكأن ضمادة تتدلّى على شكل لفات فوق مـــشبك الحزام البيضاوي حيث تمكّنت من رؤية بضعة حروف. فحرّكت العدسة صـــعوداً ونـــزولاً في محاولة مني لقراءة هذه الرسالة، لكن بطنه الكبير كان يحجب جزءاً كبيراً منها.

شـــعرت بالإحباط، فرفعت العدسة عن جذعه، لأتفحّص وجهه مرة أخرى علّي أن أتوصَّل إلى شيء ما. لا شيء. عدتُ للتحديق إلى الحزام، وألصقت وجهي بالزجاج.

خطرت في بالي أفكار متشابكة. ها قد وجدتها. عدت إلى الوجه مجدّداً. هل يُعقَل ذلك؟

لا، فهذا الرجل كان أضخم بكثير.

ولكـــن ربمـــا. لا أقدر أن أجزم بشيء، فقد وصلت إلى هناك متأخرة وكان الكثير من الضرر قد حدث.

لكن هنالك وجه شبه.

هل كان جورج دورسي يعرف شيئاً في النهاية؟

وبقلب يخفق بشدة، تناولت الهاتف.

29

عــندما أجــاب كلوديل على الهاتف، عرّفت عن نفسي، ودخلت في صلب الموضوع مباشرة.

"ثمـة أمـر لم أخـبرك بشأنه. في أثناء محادثتي مع دورسي، لم يكن سبايدر ماركـوت الشخص الوحيد الذي ذكره، بل ادّعى أن لديه معلومات حول سافانا أوسبري".

"تقصدين الفتاة الصغيرة عينها التي وجدناها في شارع سان بازيل لو غراند؟".

"نعم، وأظنّ أنه كان يقول الحقيقة".

"بالطبع، فهذه سمة دورسي".

تجاهلتُ السخرية في تعليقه.

"هل تركت لي صورة على مكتبـي؟".

"كلا".

"أحدهم ترك لي صورة قديمة التُقطت في أثناء تجمع للدرّاجين".

"على الأرجح اجتماع".

"يبدو وكأنه متنـزّه أو مخيم".

"حسناً".

أخـذت نفـساً عمـيقاً، لأخفي ارتجاف صوتي وتابعت: "سافانا أوسبري موجودة في الصورة".

"حقاً؟" أخبرتني نبرة صوته أنه لم يصدق ذلك.

"من دون شك".

"وما علاقة ذلك بدورسي؟".

"تمّ التقاط هذه الصورة على شاطئ ميرتل".

"كيف عرفتِ ذلك؟".

"أحدهم على الأقل يلبس قميص شاطئ ميرتل".

"وابني أيضاً لديه قميص عليه صور رؤساء مدينة كنساس".

"بإمكاني التمييز ما بين نبات سلطان الجبل وبين النبات المتسلّق يا سيد كلوديل. وقد تعرّفت إلى شعار بيغلي ويغلي على أحد أكياس البقالة".

"ما هو البيغلي ويغلي؟".

"إنها سلسلة متاجر كبيرة لها عدّة فروع في منطقة شاطئ ميرتل".

"لماذا يقوم أحد باختيار شعار بيغلي ويغلي لمتجره...؟".

"من المحتمل أن يكون شيروكي ديجاردن من بين المتنزهين".

سادت لحظة من الصمت.

"ما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟".

"لأن ذلك الرجل يضع مشبك حزام يحمل اسم شيروكي".

"كيف يبدو ذلك الرجل؟".

أجبته غاضبةً: "يبدو مثل ذلك الحيوان المفترس المقيّد بسلسلة داخل حديقة الحيوانات، والذي يتمّ إسكاته بقطع كبيرة من اللحم".

كان شكّه يزعجني.

"أقصد هل يُشبه الرجل الذي في الصورة شيروكي ديجاردن؟".

"إن ملامحه ليست واضحة، كما أنني لم أرَ وجه شيروكي سليماً من قبل".

سادت لحظة صمت أخرى أعقبها صوت زفير.

"حسناً، سأحضر بعض الصور لديجاردن وأمرّ صباحَ غدٍ".

"بإمكاننا محاولة تحسين الصورة".

"نعم، ولكن يجب أن يتم ذلك بسرعة كبيرة. فنحن نواجه صعوبات كثيرة بسبب جريمة قتل دورسي وفريق العمل برمته في حالة حذر".

عدتُ إلى المنزل ومشاعر الشكّ الذاتي تعذبني.

لقد تعرّضت للخداع من قبل دورسي، وسذاجتي أدّت إلى مقتله. ماذا لو لم يكـــن الرجل الذي في الصورة هو شيروكي؟ من الواضح أن لدى كلوديل بعض التحفظات. وإن كنت مخطئة، ستكون لديه أسباب إضافية ليقتنع بأنني حمقاء.

ســـبق وأخطأت الحكم على كويكواتر شريكه في تحقيقات عملية كركاجو. فهل يُعقل أنني أخطأت الحكم على رايان وابن أختي أيضاً؟

مـــن أين أتت هذه الصورة إلى مكتبـــي؟ لِمَ ظهرت من دون ملاحظة مرفقة أو اتـــصال هاتفـــي؟ ربما وضعها أحد المحققين أو العاملين في المختبر، إذ لا يُسمَح لأحد آخر بالدخول.

كنت أقود بطريقة آلية، وأنا بالكاد ألاحظ حركة المرور من حولي.

هـــل أقوم بزيارة مفاجأة لرايان؟ هل سيفتح الباب؟ ربما لا. فقد عزل رايان نفسه لأنه فضَّل أن تجري الأمور بهذه الطريقة. ولكن كيف يكون ذلك حقيقياً؟ لا أزال غير مصدّقة أن ذلك الرجل كان مجرماً.

وهـــل كيت متورط مع البانديدوس؟ بقضية مخدرات؟ هل هو في خطر ما؟ ماذا كان يحاول دورسي أن يقول للطبيب؟

هـــل يُحتمل أن كاتي تواجه خطراً ما من عصابات الدرّاجين في سفينة على بعد آلاف الأميال؟ كانت رسالتها الأخيرة قد وصلت من بينانغ.

هـــل أضحك على نفسي؟ قُتل دورسي وهو في عهدة حارس مسلّح داخل سجن المقاطعة. فإن أراد الدرّاجون أن تكون بخطر، فستكون.

ضربت مقود السيارة بعقب يدي.

"اللعنة!".

لم يكـــن في وسعي فعل شيء في ما يتعلق برايان وكاتي، لكنني كنت أستطيع مساعدة ابن أختي. فأخذت عهداً على نفسي بأن أنهي هذا الموضوع مع كيت قبل غروب الشمس وقبل شروقها، فكّرت في ذلك وأنا أتّجه نحو المنحدر الذي يؤدي إلى المـــبنى الـــذي أسكن فيه. إذ لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن موعد رجوع كيت، لكنني قرّرت أن أنتظره.

لم يكـــن ذلـــك ضـــرورياً. فعندما دخلت الشقة، رحَّب بـــي كيت، كما استقبلتني رائحة الكمون والكركم: "مرحباً يا خالتي تمب".

أجبته وأنا أرمي حقيبتي عند المدخل: "أشمُّ رائحة شهية".

كـــان ابـــن أختي والقطة مستلقيين على الكنبة، وصفحات جريدة الصباح تُحـــيط بهما. وكان جهاز سوني بلاي ستايشن قد أُعيد وصله بالتلفاز وقد تمايلت الأسلاك المتشابكة على الأرض.

"مررت بمطعم لاميزون دو كاري. اعتقدتُ أنه دوري في الطبخ".

أخرج السماعتين من أذنيه ووضعهما حول رقبته. كنت أستطيع سماع صوت أغنية الميت المُمتن.

"عظيم. ماذا أحضرت من المطعم؟".

"لحظة واحدة".

قفـــز واقفاً، ورمى بالسماعتين على الكنبة. فانتفض بيردي حين اقترب منه صوت جيري غارسيا. أحضر كيت إيصالاً وعدّد تسعة أصناف.

"هل تتوقّع حضور أحد أعضاء الهيئة التشريعية في الولاية؟".

"كـــلا يا سيدتي، كل ما في الأمر أنني لم أعرف ما تحبين، فأحضرت أطباقاً متنوعة من المطابخ الإقليمية".

لفظ الكلمات الأخيرة بلهجة تقلّد بإتقان لهجة صاحب المطعم.

أضـــاف عائداً إلى استعمال لهجة تكساس: "لا تقلقي، سنأكل هذه الأطعمة كافة".

"دعني أبدّل ملابسي ثم نتناول الطعام".

"انتظري. يجب أن تري هذا أولاً".

بحـــث في الجريدة المبعثرة ليجد الصفحة الوسطى، وحين وجدها طواها إلى نصفين وناولني إياها مشيراً إلى العنوان الرئيسي.

عصابة تقوم بقتل سجين

كـــان هـــذا المقال يلخّص الحقائق التي تُحيط بجريمة قتل دورسي، ويُشير إلـــيه بـــصفته المشتبه فيه الأول في عملية قتل أو إعدام إيف شيروكي ديجاردن. كمـــا وصـــف المقال دورسي على أنه عضو منتسب إلى الهمجيين، وشيروكي علـــى أنـــه عـــضو مـــن الوحوش بالرغم من أنه كان غير ناشط في السنوات الأخيرة.

قد ذُكِر في المقال أنه من المتوقّع أن مقتل دورسي حدث انتقاماً لمقتل ديجاردن. كما أُعيدَ مجدّداً ذكر جرائم قتل التوأم فايلنكورت وريتشارد سبايدر ماركوت وإميلي آن توسان. وقد أُفيد أن جنازة دورسي سَتجري ما إن يتمّ استلام الجثة من المحقّق في أسباب الوفيات.

ينتهي المقال بتصريح يتعلّق بمخاوف السلطات من تصعيدات عنيفة تلوح في الأفق لا سيما بشأن استغلال جنازة دورسي كفرصة مناسبة لمؤيدي الهمجيين من أجل تنفيذ الانتقام. لذلك ستأخذ الشرطة احتياطات إضافية في الأسابيع القادمة.

نظرت إلى كيت فوجدته يحدق إليّ.

"سيكون أمراً مثيراً إذا ذهبت إلى الجنازة".

"هذا مستحيل".

"لكن الشرطة ستُطوِّق المكان...".

"لن تذهب".

"وستكون الدرّاجات من طراز هارلي".

"لن تقترب من الجنازة".

"تخيّلي مشهد الدرّاجات الرائعة وهي تسير بخط مستقيم واحدة خلف الأخرى بسرعة البرق".

وقلّد حركة مقود الدرّاجة بيديه.

"كيت".

"ماذا؟".

كانت عيناه تلمعان من شدة حماسته.

"لا أريدك أن تكون في ذلك المكان".

"أنت تقلقين كثيراً يا خالتي تمب".

كم من مرة ردّدت كاتي ذلك؟!

"سأرتدي سروال الجينز وبعدها نتناول العشاء، كما أريد أن أسألك عن أمر ما".

فتحت الموضوع في أثناء تناولنا التحلية.

"أتى لزيارتي اليوم محقّق في عملية كركاجو".

"وماذا أيضاً؟".

أزال كيت الطبقة العلوية وغرف مقدار ملعقة من حلوى الأرز.

"يُفترض بك أن تأكل هذه الطبقة".

"تبدو كالفضة".

"إنها كذلك".

كنت أحاول المماطلة.

"أحضر معه مجموعة من الصور التي التقطتها الشرطة".

بدت عليه نظرات متسائلة. تناول المزيد من الحلوى.

"وتظهر أنت في هذه الصور".

أخفض ابن أختي ذقنه ورفع حاجبيه.

"تمّ التقاط هذه الصور في أرض للمعارض في مقاطعة غالفستون، وتظهر أنت برفقة أعضاء من نادي بانديدوس للدرّاجات النارية".

قال بابتسامة بلهاء: "آه فهمت. تقصدين أنني أمضي الوقت برفقة رفاق السوء".

"هل تفعل ذلك حقاً؟".

"أفعل ماذا؟".

"تخرج برفقة البانديدوس؟".

"خرجت برفقتهم تلك المرة فقط، لقد أجبروني على ذلك".

"هذا ليس مضحكاً يا كيت، لقد ظهرت في صور لتجّار المخدرات".

وضع الملعقة جانباً، وابتسم لي مرة أخرى ابتسامة عريضة، فلم أردّها.

"يا خالتي تمب، أنا أذهب إلى أسواق لبيع السلع الرخيصة وكذلك يفعل الدرّاجون. وأحياناً نذهب إلى السوق عينها، فنتحدّث عن درّاجات هارلي. هذا كل ما في الأمر".

أجبرت نفسي على التحدّث بهدوء: "قال المحقّق إنه تمّ القبض عليك بتهمة تتعلّق بالمخدرات".

تراجع إلى الخلف، ونفض ساقيه.

"آه عظيم، ذلك الأمر القذر مجدّداً".

"أي أمر؟".

جـــاء صوته قاسياً واختفى حس الدعابة: "يا الله. أنت أيضاً تظنّين أنني أزوّد روضة الأطفال بالمخدرات".

انتظرت.

"قمت بشراء محفظة بعشرة دولارات لصديقة لأنها كانت قد نسيت محفظتها في المنـــــزل. وقبل أن أعطيها الماريجوانا أوقفني شرطيٌّ بسبب مخالفة سير، ووجد تلك الأشياء في جيبـــي. هل يمكن أن يحدث ذلك لتاجر مخدّرات محترف؟".

"لِمَ قام الشرطي بتفتيشك؟".

"كنت قد احتسيت بعض الشراب".

مــــرّر إصــبع قدمه الكبير فوق السجادة. كان إصبع قدمه الكبير طويلاً ذا عقدة كبيرة عند المفصل ومستطيل الشكل عند الظفر، تماماً كإصبع قدم أبـــي. شعرت بألم يعتصر قلبـــي عندما نظرت إليه، إذ إن كل خلية فيه كانت تذكرني بأبـــي.

"حـــسناً كـــنت قـــد احتسيت كمية كبيرة من الشراب، ولكنني لا أتعاطى المخدرات. يا الله أنت تتصرفين بالضبط مثل أبـــي الآن".

تـــصارعت مشاعر الحب والغضب للسيطرة على صوتي، فأجبته: "أو كأي والد".

"اسمعـــيني جـــيداً، لقد أدّيت عقوبة الخدمة الاجتماعية، وخضعت للبرنامج السخيف لإعادة التأهيل. ألن ترتاحوا أبداً؟".

بعد ذلك نهض عن كرسيه، وخرج من الغرفة. خلال ثوانٍ سمعتُ باب غرفة الضيوف يغلق بعنف.

أحسنتِ يا بريتان. فلتحصلي على مكافأة لإشرافك الأبوي الفعال.

نظّفـــتُ الطاولـــة، وأعـــدت تغلـــيف بقية الطعام. ثم قمت بتشغيل غسالة الصحون، وحاولت الاتصال بهاورد.

لم أتلق أي ردّ.

اللعـــنة علـــيك يـــا هاري لأنك لم تخبريني شيئاً عن هذه الأمور، ولأنك في المكسيك الآن.

حاولـــت الاتـــصال بإيزابيل لأسألها عن لايل كريز، فلم أتلقَّ إلا ردًّا من آلة التسجيل.

أمـــضيتُ بقية الأمسية وأنا أقرأ كتاب بات كونروي الذي كنت قد بدأت بقراءته قبل أسبوع.

لا شيء أفضل من التواجد في كارولينا.

كما هو متوقّع، كان كيت نائماً عندما ذهبت إلى العمل. هذا اليوم حضرت الاجتماع الصباحي.

عندما عدتُ إلى مكتبـــي، كان كلوديل ينتظرني هناك.

ســـألته بينما كنت أرمي ملف الصباح على طاولة مكتبـــي: "هل عرفت من قتل دورسي؟".

رمقني بنظرة يمكنها أن تجمّد الحمم البركانية، ثم ناولني مغلفاً.

جلست من دون أن أغلق درج مكتبـــي، وسلّمته صورة شاطئ ميرتل.

"من أين قلت إنك أتيت بهذه الصورة؟".

"لم أقل شيئاً، لأنني لا أعرف مصدرها".

أعطيته العدسة المكبرة.

"هل ظهرت وحسب؟".

"أجل".

تفحّصت عيناه الصورة.

"لاحظـــت وجـــودها الـــبارحة، لكنني لا أعرف بالضبط متى وُضِعَت على مكتبـــي".

بعـــد ثوانٍ قليلة ثبّت العدسة في مكانها، واقترب منها كلوديل ثم قال: "هل تتحدّثين عن الرجل الذي بجانب رأس زي زي؟".

قلـــتُ وقـــد فاجـــأني تلمـــيحه الموسيقي، إذ لطالما صنّفت كلوديل كرجل كلاسيكي للغاية. "دعني أرى".

فأراني الصورة، وأشار إلى الرجل.

"نعم. إن الفتاة التي تقف إلى جانبه هي سافانا أوسبري".

عاد إلى العدسة المكبرة.

"هل أنت واثقة من ذلك؟".

فأخـــرجت صورة من الكتاب السنوي كانت كايت قد أعطتني إياها. أخذ يتفحّـــصها ثم عاد إلى تفحّص الصورة التي التقطت في المتنـــزّه محركاً العدسة بكل الاتجاهات ليتفحّص كل تفصيل مثل معجب في ويمبلدون.

"أنتِ محقة".

"وماذا عن صاحب الحزام؟".

أشار إلى المغلف الذي في يدي: "كان ديجاردن رجلاً ضخماً قبل مرضه".

أخـــرجت الـــصور من المغلف، ولفّ كلوديل حول المكتب كي نتمكن من رؤيـــتها معـــاً. لم يكن وصفه بالرجل الضخم غير مناسب. والجزء الذي رأيته من جـــسده فـــوق الكرســـي كان تذكيراً بسيطاً لِما كان عليه يوماً جسد شيروكي ديجـــاردن. قبل أن يفتك السرطان بأحشائه ويفعل العلاج الكيميائي والمخدرات فعليهما. كان الرجل ضخماً كالإسفنج المنتفخ.

يغطي مغلف الصور فترة من السنين. فأتت اللحية وزالت، وظلّ خط شعره يتراجع، بيد أن بطنه ومعالم وجهه لم يتغيّرا كثيراً.

إلى أن أُصيب بالسرطان.

كان شيروكي قبل موته بستة أشهر يبدو كشبح شكله السابق، أصلع وهزيلاً جداً كشبح الموت. لو لم تكن هذه الصورة تحمل وصفاً، لم أكن لأتعرّف إلى هذا الرجل.

فـــيما كـــنت أتفحّص وجه شيروكي وأنتقل من صورة إلى صورة، تذكّرت قـــولاً قـــديماً للممثل براندو. لدي عينان كعيني خنـــزير ميت. هكذا وصف فيه نفسه في شيخوخته.

لا تقلق يا ماريون. هذا الرجل بالكاد يبدو مؤذياً ولئيماً ككلب شارع سرق شريحة لحم مشوية.

حاولنا جاهدين لكننا لم نتمكن من التأكد من أن المرحوم شيروكي الذي لم يُرثَ بعد هو الشخص الذي يضع الحزام على شاطئ ميرتل.

30

جمعــتُ صــور شيروكي وانتقلنا إلى قسم خاص بتقنيات ترميم الصور في الطابق السفلي. كنا قد قرّرنا أن أقوم أنا بمهمة ترميم الصور عبر استخدام برنامج خاص في الحاسوب إذ كنت مُلمّة به. وإن كان ذلك البرنامج غير ملائم، فسيقوم تقني بمساعدتنا ببرنامج أكثر تطوراً.

كانــوا يتوقّعون قدومنا، فأصبحت المعدات متوفّرة على الفور. نقر التقني زر تشغيل الآلة الماسحة الضوئية، وفتح البرنامج الملائم في الحاسوب ثم تركنا لمهمتنا.

وضــعتُ الصورة داخل الماسحة الضوئية، وصغّرت حجمها كي يتسع كل المــشهد ثم قمتُ بتحويلها إلى صورة رقمية وحفظتها في القرص المدمج. بعد ذلك فتحتُ الملف على صورة نــزهة شاطئ ميرتل.

عَمِلتُ على تكبير الجزء الذي يظهر فيه وجه الرجل الذي يرتدي الحزام حتى ملأت ملامــح وجهــه الشاشة. ثم أعدتُ ترميم الشقوق وقمت بتعديل الخطوط التي تتحكّم بدرجات الأحمر والأخضر والأزرق كما ضبطت حدّة الصورة وحدّدت أطرافها.

كـــان كلـــوديل يُراقب ما أقوم به بصمت في بادئ الأمر. وحين أثار عملي اهـــتمامه، بـــدأ بـــتقديم بعض الاقتراحات بالرغم من سخريته السابقة. كان كل تـــصحيح يغيّر في الأجزاء البارزة من الصورة والظلال والدّرجات المتوسطة محوّلاً منحنيات الوجه وسطحه ليُبرز التفاصيل غير الواضحة كافة في الصورة الأصلية.

في أقل من ساعة كنت قد أنهيتُ عملي، فجلسنا نتفحّص الصورة بإمعان. لم يكن هناك أي مجال للشك، فقد كان صاحب الحزام هو في الحقيقة إيف شيروكي ديجاردن.

ولكن ماذا يعني ذلك؟

تَكَلَّم كلوديل أولاً: "إذاً، كان شيروكي يعرف سافانا أوسبري".

وافقته على استنتاجه: "نعم يبدو ذلك صحيحاً".

كـــان كلوديل يُفكِّر بصوت عالٍ: "ودورسي قتله. ماذا كان يعرف دورسي ليساوم به برأيك؟".

"ربما قتل شيروكي سافانا وعرف دورسي بذلك".

مـــرة أخرى كان كلوديل يعبّر عن تساؤلاته بصوت عالٍ ولم يكن يتحدّث معي: "هل يُعقَل أنها أتت برفقته؟".

تخيّلت ذلك الوجه الصغير المرتبك وتلك العينين الواسعتين اللتين تريان العالم من خلف عدستين دائريتين. هززت رأسي.

"ليس طوعاً".

"ربمـــا قتلها شيروكي على شاطئ ميرتل ثم نقل الجثة إلى كيبيك". هذه المرة كان كلوديل يوجّه الحديث إليّ.

"لِمَ سيتكلّف عناء نقل الجثة كل هذه المسافة؟".

"ليُقلّل من فرص اكتشافها".

"هل يبدو ذلك تصرفاً نموذجياً بالنسبة إلى أولئك الأشخاص؟".

"كلا". كنتُ أرى في عينيه الحيرة والغضب.

أصررت على السؤال: "وأين الأجزاء المفقودة من جسدها؟".

"ربما قطع رأسها".

"وماذا عن قدميها؟".

نفض ذرة غبار غير ظاهرة عن كمّه، وعدّل ربطة عنقه وقال: "لا توجهي إليّ أسئلة كهذه".

"وكيف انتهى بها الأمر مدفونة قرب غايتلي ومارتينو؟".

لم يُجب كلوديل عن سؤالي.

"ولِمَن يعود الهيكل العظمي الذي وُجد في منطقة شاطئ ميرتل؟".

"هذا سؤال توجهينه إلى أصدقائك من مكتب تحقيقات الولاية".

بما أن كلوديل بدا راغباً في الكلام للمرة الأولى، فقد اقتنصت الفرصة وغيّرت مسار المحادثة.

"ربما لم تكن جريمة شيروكي من أجل الانتقام إطلاقاً".

"أجهل ما ترمين إليه تحديداً".

"أقصد أن مقتل شيروكي ربما كان يتعلّق باكتشاف قبر سافانا".

"هـــذا محتمل". نظر إلى ساعة يده، ثم وقف وأضاف: "ويُحتمل أيضاً أن تتمّ دعوتي للانضمام إلى فرقة ديكسي تشيكس، ولكن حتى ذلك الحين، يُستحسن أن ألقي القبض على بعض الشبان الأشقياء".

ماذا قصد بإشارته إلى تلك الفرقة الموسيقية الشعبية؟

بعد ذهاب كلوديل، قمتُ بحفظ النسخة الأصلية لصورة شاطئ ميرتل إضافة إلى النـــسخة المعدلة في قرص مدمج. ثم مسحت بعض الصور المختارة من مجموعة كايت، وأضفتها إلى القرص في حال أردت العمل على تعديلها في المنـــزل.

حين عدت إلى مكتبـــي اتصلتُ بقسم تحليل الحمض النووي. كنت أعرف الجـــواب، لكـــني كـــنت عاجزة عن تحمّل فكرة جولة أخرى عبر مجموعة صور لدرّاجين فرحين.

كنت محقة. اعتذر غانيي لأن التحاليل التي طلبتها لم تكن جاهزة. إذ لا يمكن لقـــضية تعـــود إلى العام 1984 أن تحظى بالأولوية، لكنهم كانوا يأملون أن يصلوا إليها قريباً.

حسناً. هذا عادل بما فيه الكفاية. رميت بالتحاليل المتعلّقة بالعين إلى الأمام.

أعـــدتُ سماعـــة الهاتف إلى مكانها، ولبستُ رداء المختبر بغية متابعة عملي. ينبغي أن تكون شرائح العينات جاهزة على الأقل.

وجدت دينيس يعمل على إدخال المعلومات عن بعض القضايا إلى الحاسوب في مختـــبر تحليل الأنسجة. انتظرته فيما كان يقرأ ملصقاً على إناء بلاستيكي تطفو بداخله أجزاء من القلب والكلى والطحال والرئة في سائل من الفورمالديهايد. نقر على عدة أزرار على لوحة المفاتيح، ثم أعاد الإناء إلى مكانه.

حين أخبرته بطلبـــي، ذهب إلى مكتبه، وأحضر إليّ صندوقاً بلاستيكياً أبيض صغيراً. فشكرته، وتوجّهتُ به نحو المجهر في المختبر الخاص بـــي.

كـــان دينيس قد جهّز الشرائح من عينات العظام التي كنت قد أحضرتها من رالي. وضعتُ قطعة من عظم الساق تحت العدسة المكبرة وسلطتُ عليها الضوء ثم تفحّصتها عبر عدسة المجهر. وبعد مضي ساعتين حصلتُ على مرادي.

كانـــت عيـــنات عظام الساق التي حصلتُ عليها من الهيكل العظمي مجهول الهوية الذي تعمل عليه كايت لا تتميّز عن تلك التي اقتطعتها من عظم فخذ سافانا وفقـــاً لتحليل الأنسجة. كما أن كل جزء صغير أسفر عن تقدير للعمر يتوافق مع عمر سافانا وقت اختفائها.

توافق. إنها الكلمة المفضلة لدى المحلّل الخبير.

هـــل تستطيعين تقديم دليل علمي لا يقبل الشك يُثبت أن العظام التي وُجِدَت على شاطئ ميرتل تعود إلى سافانا كلير أوسبري؟

كلا. لا أستطيع ذلك.

حسناً. هل تستطيعين الإثبات أن العظام التي وُجِدَت على شاطئ ميرتل تعود إلى فرد بنفس عمر سافانا كلير أوسبري؟

كلا. لا أستطيع فعل ذلك أيضاً.

إذاً، ماذا تستطيعين إخبار المحكمة يا دكتورة برينان؟

ســـتقولين إن العظـــام التي وجدت على شاطئ ميرتل تتوافق من حيث عمر الأنـــسجة والبنية المجهرية مع العظام الأخرى التي تمّ تحديد هوية صاحبتها على أنها سافانا كلير أوسبري.

أطفأت الضوء، ووضعتُ الغطاء البلاستيكي فوق العدسة.

كانت تلك بداية فقط.

ذهـــبتُ إلى المقر الرئيسي لعملية كركاجو بعد أن تناولت البيتزا النباتية وقت الغـــداء إضافة إلى كوب كبير من الحلوى المثلجة. كان مورين يهيِّئ جثة دورسي لتـــسليمها بعـــد أن أنهى عمله على تشريحها. وقد دعا جاك روي لعقد اجتماع لمناقشة التدابير الأمنية التي تتعلّق بجنازة دورسي، وطلب حضوري أيضاً.

تعود جذور دورسي إلى حي يقع جنوب شرق وسط المدينة التي تتميّز بالشوارع الـــضيقة والأزقـــة الأضـــيق، وبالشقق المزدحمة التي تقلّصها السلالم شديدة الانحدار والـــشرفات الـــصغيرة. ويمتدّ الشارع الرئيسي من الجهة الغربية، أما من الشرق فيقع هوشـــيلاغا ميزونوف، وهو موقع أكبر المعارك الدامية لحرب العصابات حالياً. يُسجل في هـــذه المقاطعة أعلى معدل لسرقة السيارات في المدينة. وبخلاف أغلب الأماكن في مونتـــريال، تـــشتهر هذه المنطقة بسمعتها السيئة وليس باسمها. وتُعتبر هذه المنطقة مقر

عصابة آلة الصخر كما هي موطن شرطة كيبيك. غالباً ما أحدّق إلى شوارعها وملاعبها وجسرها ومصبّ نهرها، إذ يقع مختبر العلوم الطبية والشرعية في وسطها.

كانت جنازة دورسي ستُقام على بعد أقل من ستة مبانٍ من بابنا. لذلك لم يكن في وسع الشرطة المغامرة بأي شكل من الأشكال، نظراً إلى حقيقة أن الشوارع ستغصّ بالمجرمين المحلّيين.

استخدم روي خارطة للجزيرة لتوضيح عملية انتشار الشرطة. كان الاحتفال الديني سيبدأ عند الثامنة صباحاً من نهار الجمعة في فولوم ولاريفيير. وبعد انتهاء الاحتفال الديني، سيتوجّه موكب التشييع شمالاً إلى شارع مونتريال ثم غرباً إلى أعلى الجبل لبلوغ المقبرة.

كما أبرز روي التفاصيل المتعلقة بتنظيم الحواجز وسيارات الشرطة والدوريات وقوات المراقبة كافة، وشرح الإجراءات كافة التي سيتمّ اتباعها من أجل هذا الحدث. كانت المنطقة المحيطة بدار العبادة ستخضع لإجراءات أمنية مشدّدة، كما كانت الطرقات الجانبية ستُقفَل في نقاط تقاطعها مع شارع مونتريال خلال مسيرة الجنازة. بالإضافة إلى ذلك، كانت مواكب من الشرطة ستحاصر الحشود في الجهة الشرقية من شارع مونتريال وتطوّقها، كما كانت ستتّخذ التدابير الأمنية القصوى في مكان المقبرة أيضاً.

لقد أُلغِيت المأذونيات والإجازات كافة، وطُلِبَ من الأفراد كافة الحضور إلى العمل نهار الجمعة.

عرض علينا روي بعض الصور عبر شاشة كبيرة، وافتتح عرضه بسيل من الشتائم، لكن التذمرات تلاشت ما إن ملأت الشاشة مشاهد من جنازات سابقة. تمكنّا من ملاحظة مجموعة من الأشخاص في صورة بعد أخرى يدخّنون على درج دار العبادة، ثمّ يقودون الدرّاجات في خطوط خلف العربات المحمّلة بالزهور المتجمّعة على جوانب القبور.

أخذت وجوه الحاضرين حولي تتغيّر وتتبدّل ألوانها من الزهري إلى الأصفر والأزرق مع ظهور كل صورة جديدة. مع عرض كل صورة كان المسلاط يهمهم فيما راح روي يعلّق بصوت رتيب مشيراً إلى موقع كل حدث وتاريخه ويخبرنا عن الأشخاص المعنيين.

كانـــت الغـــرفة دافئة وكان جزء كبير من دمي قد فارق دماغي ليعمل على هـــضم الطعام. بعد فترة قصيرة شعرتُ بنفسي أستسلم لتلك الرتابة. وبدأت أشعر بثقل في جفوني كما أحسست أن عنقي غير قادر على حمل رأسي. ثم بدأت أغفو.

لكن عندما ظهرت الصورة التالية استيقظت تماماً.

في هـــذه الـــصورة ظهر الدرّاجون عند نقطة تفتيش للشرطة. كان بعضهم راكبين درّاجة هارلي وبعضهم الآخر كانوا قد ترجلوا ليتمشوا قليلاً. وبالرغم من أن جمـــيعهم كانـــوا يضعون شعار الجمجمة على ستراهم ويعتمرون خوذ وُدعاء الجحـــيم، فقـــد تمكّـــنت من رؤية الكلمات على خوذتين فقط تظهران في أسفل الصورة. ظهر على إحداهما كلمة *دورهام* وعلى الأخرى كلمة *لاكسينغتون*. كما ظهرت كلمتا *شرطة المدينة* على شاحنة صفراء في خلفية الصورة. أما بقية الشعار المُعرّف فقد حجبه شكل مصوّر ملتحٍ يصوّر المصور، وإلى جانبه شيروكي ديجاردن يُحدّق بكل وقاحة إلى عدسة الكاميرا.

سألتُ روي: "أين التقطت هذه الصورة؟".

"في جنوب كارولينا".

"هذا شيروكي ديجاردن".

"نعم. لقد أمضى رئيس العصابة بعض الوقت في الجنوب في أوائل الثمانينيات".

جالت عيناي تتفحّصان المجموعة في الصورة ثم استقرّت على درّاجة وراكبها في طـــرف الصورة الخارجي. كان راكب الدرّاجة يدير ظهره حاجباً وجهه، لكن الدرّاجة ظهرت بوضوح تام، وبدت مألوفة بالنسبة إليّ.

فسألته: "من هذا الرجل في أقصى اليسار؟".

"تقصدين ذاك الذي يبيع المخدرات؟".

"نعم".

"لا أعرف".

قـــدّم إليّ كوريـــسك بعض المعلومات: "لقد رأيت هذا الرجل في عدد من الصور القديمة. لكن ليس من جديد. إنها صور قديمة".

"ماذا عن الدرّاجة؟".

"إنها تحفة فنية".

شكراً.

تلا عرض الصور مناقشةً لعملية نهار الجمعة. وعندما غادر المحقّقون، اقتربت من روي، وتحدّثت إليه.

"هل أستطيع استعارة صورة شيروكي ديجاردن؟".

"هل تفضلين نسخة مطبوعة عنها؟".

"بالطبع".

"هل لاحظت شيئاً يثير الاهتمام؟".

"تبدو تلك الدرّاجة مألوفة جداً".

"إنها من طراز هامر".

"نعم".

ذهبنا إلى مكتبه، وسحب ملفاً من خزانة معدنية، وقلّب فيه حتى وجد الصورة.

قـــال وهو يناولني الملف: "تأكدي أنهم لا يبدون الآن بنفس الهيئة. فمنهم من يـــرتدون الفيرساتـــشي ويملكون سلسلة من مطاعم الوجبات السريعة الآن. لقد جعلوا مَهمتنا أسهل عندما كانوا سكارى وقذرين".

"هل تركت صورة أخرى لجنوب كارولينا على مكتبـــي في اليومين الماضيين؟".

"كلا. أيجب أن أراها؟".

"إنها تُشبه الصورة التي أعطيتني إياها الآن، لكنها تتضمّن الفتاة أوسبري. لقد عرضتها على كلوديل".

"هذا أمر مثير للاهتمام. أنا متشوّق إلى سماع رأيه في ما يتعلق بذلك".

شكرته، واعدة إياه بأن أعيد إليه الصورة، ثم غادرت.

عـــندما وصلتُ إلى المختبر، توجّهت مباشرة إلى قسم ترميم الصور، وأضفتُ الـــصورة إلى القـــرص المدمج. ربما كان ذلك مجرّد حدس وربما سيؤدي إلى طريق مسدود، لكنني أردتُ مقارنة الصور.

تـــركت عملي عند الرابعة والنصف، وتوجّهت إلى مستشفى أوتيل ديو وأنا آمـــل أن تكـــون حالة لامانش قد تحسّنت كفاية لاستقبال الزائرين. لكنه كان لا يـــزال علـــى حاله من عدم التجاوب، كما كان الأطباء قد أبقوه في قسم العناية الفائقـــة الخـــاص بأمراض القلب حيث يُسمح لأفراد عائلته المقربين فقط بزيارته.

فشعرت بالعجز وطلبتُ باقة صغيرة من الورود من متجر الهدايا في المستشفى، ثم توجّهت إلى موقف السيارات.

في السيارة شغّلت المذياع، وضغطت زر مسح المحطات الذي توقّف لبرهة عند برنامج حواري. كان موضوع اليوم هو حرب الدرّاجين والجنازة القادمة وضحيتها الأخيرة. كان المذيع يستقبل اتصالات وتعليقات بشأن أداء الشرطة وترتيبات الجنازة، فثبّتُّ المحطة لأسمع ذلك.

تفاوتت آراء المتصلين بشأن سيطرة الشرطة على وضع العصابة. لكن الأمر الذي كان واضحاً تماماً هو مدى توتر المتصلين. كان الناس يتجنبون أحياء بكاملها. وكانت الأمهات يوصلن أطفالهن إلى المدارس بأنفسهن. وكان السكارى مثيرو الشغب في آخر الليل يغيّرون أماكن شربهم، ويتلفّتون خوفاً فيما كانوا يهرعون إلى سياراهم.

كما كان المتصلون غاضبين. كانوا يريدون لمدينتهم أن تتحرّر من خطر المغول المعاصر.

حين وصلت إلى المنزل كان كيت يتحدّث عبر الهاتف. فوضع السماعة على صدره ليخبرني أن هاري قد اتصلت من بويرتو فالارتا.

"ماذا قالت؟".

"نهاراً سعيداً بالإسبانية".

"هل أخذت الرقم؟".

"قالت إنها تقوم بجولة، لكنها ستتّصل مرة أخرى في وقت لاحق من هذا الأسبوع".

ثم تابع كيت محادثته مختفياً في غرفته.

"أحسنت يا هاري".

لم أُضيِّع الوقت في التفكير في أختي، وسحبتُ الصورة التي أعارني إياها روي ووضعتها على الطاولة. ثم بحثت في مجموعة كايت عن صورة جنازة الدرّاج برنارد سيلفستر التي تظهر فيها كلمة *سليك*. وقد جرت مراسم تلك الجنازة في منطقة الجنوب أيضاً. كنت مهتمة بشكل خاص بمشهد جانب القبر الذي تفحّصته وكيت.

بحثتُ في مجموعة الصور ثلاث مرات و لم أجد الصورة. تفقّدت كل شيء في حقيبتي وفي مكتبـــي. ثم بحثتُ في الأوراق الموجودة بجانب الحاسوب وداخل كل ملف أعطتني إياه كايت.

لم أجد الصورة في أي مكان.

كنت مشوّشة جداً، فسألتُ كيت إن كان قد استعارها، فأجاب بالنفي.

حسناً يا بريينان. حاولي أن تتذكّري متى رأيت الصور للمرة الأخيرة.

هل كان ذلك يوم السبت مع كيت؟

كلا.

كان ذلك نهار الأحد صباحاً.

بين يدي لايل كريز.

اعتراني الغضب، فأحسست بالنار تمتدّ إلى عنقي، وبأصابعي تنقبض.

"اللعنة على ذلك الحقير".

شعرت بالغضب من كريز وبغضب أكبر من نفسي.

بمـــا أنـــي أعيش بمفردي فقد اعتدت العمل على أمور تتعلّق بالتحقيقات في المنـــــزل، الأمـــر الذي لم يشجّعنا المختبر على القيام به. وها أنا الآن أفقد دليلاً محتملاً.

هدأت قليلاً، وتذكّرتُ ما قاله لي محقّق في إحدى المرات فيما كنا نعمل على جريمة قتل في تشارلوت. كانت وسائل الإعلام تُحاصر مبنىً يحترق فيما كنا نضع ما تبقى من عائلة تتألّف من أربعة أشخاص في الأكياس.

قال: "نظام الصحافة الحرة لدينا يشبه نظام الصرف الصحي، يسحب الجميع ويطحنهم ويقضي عليهم وبشكل خاص أولئك الذين لم يأخذوا جانب الحذر".

أنا لم أنتبه والآن عليَّ أن أسترجع تلك الصورة.

31

ذهـــبتُ إلى النادي الرياضي بغية التنفيس عن غضبـــي من كريز وحنقي من نفسي وخوفي على لامانش. فقطعت ثلاثة أميال على آلة المشي، ثم رفعتُ الأوزان لمدة ثلاثين دقيقة، وجلستُ في غرفة البخار لمدة عشر دقائق أخرى.

شعرتُ بتعب جسدي عند عودتي إلى المنـــزل سيراً على قدميّ عبر شارع سان كاثرين. مع ذلك لم يُفارق القلق ذهني. أجبرتُ نفسي على التفكير في أمور إيجابية.

أصبح الجو ضبابياً ورطباً. وكانت طيور النورس تصدر أصواتاً عالية وكأنّها تـــصرخ علـــى الغيوم الداكنة التي كانت سابحة فوق المدينة، آسرة رائحة نهر سان لورنس ومتسبّبة بظلام مبكر.

فكّـــرتُ في طيور المدينة. لِمَ تتقاتل الحمائم على فضلات المدينة فيما يفيض النهـــر بخيراته الطبيعية على بعد ميل واحد؟ وهل تنتمي طيور النورس والحمائم إلى الفصيلة ذاتها؟

ثم فكّـــرتُ في العشاء. وفي الألم الذي ينخر ركبتي اليسرى. وفي الفجوة التي أتحسّسها في ضرسي. وفي طرائق عدّة لأخفي شعري. لكنّ الحيّز الأكبر في تفكيري تركّز حول لايل كريز وتفهّمتُ غضب الأصوليين وعمال البريد. سأتصل به بغية استرجاع الصور وإن حاول ذلك الحقير اعتراض طريقي مجدّداً، فسأرتكب جريمة، وسيُنشر اسمي في الصحف والمجلات.

بيـــنما كـــنت ألف الزاوية المؤدية إلى شارعي رأيتُ خيالاً يتجه نحوي. كان رجلاً أبيض فقيراً يرتدي سترة جلدية ويبدو أشبه بضبع.

هل خرج من المبنى الذي أسكن فيه؟
كيت!
شعرتُ بضيق في صدري.
أســرعتُ الخطى، ومشيتُ في وسط الرصيف. استمر الرجل في خط سيره، واصــطدم بـــي على نحو أفقدني توازني فتعثّرت. نظرت إلى الأعلى، فرأيت عينين مظلمتين وقد زادهما ظلاماً طرف قبعة البيسبول. حدّقتُ إليهما.
انظر إلي أيها الغبـــي، فلتحفظ وجهي، لأنني لن أنسى وجهك.
نظر إلي وضمَّ شفتيه بشكل قبلة مبالغ فيها.
بقلـــب يخفق من شدة الهلع، أسرعت الخطى إلى المجمّع، ثم إلى داخل الرواق، وصعدت الدرج على عجل. فتحت الباب الأمامي بيدين مرتجفتين، واجتزت البهو مسرعة، وأدخلت المفتاح في باب شقتي.
كان كيت في المطبخ يضيف المعكرونة إلى الماء المغلي. وكانت هنالك زجاجة شراب فارغة بجانب الحوض وأخرى نصف فارغة عند مرفقه.
"كيت".
انتفضت يده لدى سماعه صوتي.
"مرحباً! كيف الحال؟".
حرّك المعكرونة بملعقة خشبية، وتناول جرعة من الشراب. كانت تحيته عادية لكن حركاته المتشنّجة عكست توتره.
لم أنبس ببنت شفة، وانتظرت أن يتابع كلامه.
"وجـــدت بعض الصلصة الجاهزة، صلصة الثوم المشوي والزيتون الأسود. قد لا تكون وجبة للذواقين، لكنني ظننتُ أنك قد ترغبين في تناول وجبة منـــزلية".
ورسم ابتسامته الخاصة المشرقة، ثم تناول جرعة أخرى من شراب مولسون.
"ماذا يجري؟".
"هناك مباراة لكرة السلة الليلة".
"أنت تعرف ماذا أقصد".
"حقاً؟".
"كيت". لم أحاول إخفاء انـــزعاجي.

"ما الذي تريدين معرفته؟ اسأليني يا سيدتي؟".

"هل أتى أحد إلى هنا في أثناء غيابـــي؟".

حرَّك المعكرونة، وطرق بالملعقة على جانب القدر. نظر إليَّ مباشرة، وتصاعد التوتر بيننا لبضع دقائق. ثم ضاقت زاويتا عينيه، وعاد يطرق الملعقة من جديد.

ثم التفت إليَّ وقال مضطرباً: "ما الأمر؟".

"رأيتُ شخصاً على الرصيف، واعتقدت أنه ربما خرج من هنا".

"لا أستطيع مساعدتك". ثم ابتسم ابتسامة بريئة أخرى. "أتحبين المعكرونة غير ناضجة تماماً يا سيدتي؟".

"كيت...".

"أنت تقلقين كثيراً يا خالتي تمب".

أصبحت هذه عبارة مألوفة لديّ.

"أما زلت تقابل أولئك الرجال من متجر الدرّاجات؟".

بسط كفيه ضاغطاً معصميه إلى بعضهما بعضاً.

"حسناً. أنا أستسلم. اعتقليني بتهمة التورط بالباستا المنظمة".

"هيا أجب عن سؤالي".

أصبح صوته عنيداً: "مَن عيَّنكِ لتطرحي عليَّ هذه الأسئلة يا سيدتي؟".

كـــان مـــن الواضح أنه لن يخبرني بشيء. دفعت بمخاوفي إلى زاوية في عقلي وأنا أعلم أنها لن تبقى هناك طويلاً. ذهبتُ إلى الغرفة لأبدل ثيابـــي وقد اتخذتُ قراري.

لا بد لكيت من أن يعود إلى هيوستن.

جلـــس كـــيت بعد العشاء أمام التلفاز. أما أنا فذهبتُ لأعمل على الحاسوب. كنتُ أفتح ملف صور كايت والصورة التي استعرتها من جاك روي عندما رنّ الهاتف.

أجـــاب كيت على الهاتف. تمكّنتُ من سماع صوت ضحك ومزاح، ولكن ســـرعان مـــا تبدّلت نبرة كيت. ومع أنني لم أتمكن من سماع الحديث، فقد كان انـــزعاج كيت واضحاً، إذ ارتفع صوته وبدا غاضباً. وسمعتُ صوت إعادة سماعة الهاتـــف بطريقة عنيفة. لم تمر دقيقة حتى ظهر كيت أمام باب غرفتي مضطرباً على نحو واضح.

"سأخرج لبعض الوقت يا خالتي".

"ستخرج؟".
"نعم".
"بصحبة من؟".
"بصحبة بعض الأصدقاء". ثمّ ابتسم ابتسامة صفراوية.
"هذا ليس جيداً يا كيت".
"آه أرجوك... لا تبدأي بذلك الآن".
بذلك توجّه مسرعاً إلى البهو.
"تباً".
قفزت واقفة، لكن كيت كان قد أصبح خارج الباب عندما دخلت إلى غرفة الجلوس.
"تباً".
ردّدت ذلك للتأكيد.
كنت على وشك اللحاق به حين رنّ الهاتف. أمسكت بالسماعة ظناً مني أنه نفس الشخص الذي اتصل بكيت منذ قليل.
أجبتُ بنبرة جافة: "من هناك؟".
"يـــا الله يا تمب. ربما يجدر بك الخضوع لبرنامج تمرين ما، فقد أصبحت فظة على الدوام".
"أين أنت يا هاري؟".
"أنا في ولاية جاليسكو العظيمة. بوينس نوتش...".
"لِمَ لم تخبريني عن مشاكل كيت في هيوستن؟".
"أي مشاكل؟".
كنت تقريباً أصرخ حين أجبتها: "أقصد الموضوع الصغير الذي يتعلّق باعتقاله بتهمة المخدرات".
"آه، أنت تتحدّثين عن ذلك".
"نعم ذلك الموضوع".
"أنـــا لا أعتقد أن ذلك كان خطأ كيت. لولا رفاق السوء الذين كان يخرج برفقتهم، لما تورّط في تلك الأمور".

"لكنه تورط في ذلك بالفعل يا هاري، ولديه الآن سابقة في سجلات الشرطة".

"حسناً لكنه لم يضطر إلى تمضية عقوبة في السجن. فقد تمكّن محامي هاورد من إخراجه وإبقائه تحت المراقبة وتأدية الخدمة الاجتماعية. لقد عمل هذا الصبي يا تمب خمس ليالٍ في ملجأ للمشردين. ونام وأكل وعاش هناك معهم. أعتقد أن ذلك كان كافياً كيٍ يأخذ فكرة جيدة عن حياة أولئك الأقل حظًّا ـــ".

"هل زار مرشداً اجتماعياًّ؟".

"لا حاجة إلى ذلك، كيت بخير. كانت مجرد غلطة طيش، وانتهى الأمر".

"قد تكون لديه مشكلة جدية".

"لقد خرج مع رفاق السوء، هذا كل ما في الأمر".

أردت أن أنفجر غضباً، ثم خطرت في بالي فكرة أخرى.

"هل يخضع كيت لمراقبة الشرطة؟".

"نعم، وهذا كل شيء، لذا، يبدو أن الأمر لا يستحق الذكر".

"ما هي شروط المراقبة التي يخضع لها؟".

"ماذا؟".

"هل هنالك أي قيود لما يمكن أن يفعله؟".

"نعم، لقد مُنِع من قيادة السيارة بعد منتصف الليل. ذلك كان محبطاً جداً بالنسبة إليه. آه، نعم، وهو لا يستطيع الاختلاط مع المجرمين". ذكرت الشرط الأخير بطريقة دراماتيكية مبالغ فيها، ثمّ أضافت باستهزاء: "وكأنه يتجوّل برفقة بوني وكلايد".

لطالما أذهلني عجز هاري عن استيعاب الواقع. كانت تتحدّث مع نباتاتها المنزلية، غير أنها لم تكن تملك أدنى فكرة عن كيفية التواصل مع ابنها.

"هل تُراقبين ما يفعله ومَن يُرافق؟".

"لن يقوم الفتى بسرقة مصرف يا تمب".

"ليس هذا ما أقصده".

"اسمعي، لا أريد مناقشة هذا الأمر بعد الآن".

كانت هاري أستاذة عظيمة في ترداد هذه الجملة.

بـــدأت محادثتـــنا تـــتحوّل إلى مشادة كلامية، و لم أرغب في مجاراتها. "عليَّ الذهاب يا هاري".

"حسناً، أردت التأكد من أنكما بخير. سأبقى على اتصال بكما".

"أرجو ذلك".

أنهـــيت الاتصال، وأخذت أفكّر في خياراتي لمدة خمس دقائق كاملة. لم أجد شيئاً مرضياً لكنني استقررت على خطّة في نهاية الأمر.

أمـــسكتُ بمفاتيحي، وتوجّهتُ إلى الخارج بعد أن بحثت في دليل الهاتف عن عنوان معين.

كانت حركة السير خفيفة، فوصلت إلى أونتاريو في غضون عشرين دقيقة. أوقفـــتُ محـــرك الـــسيارة، ونظرت حولي وقد انقبضت معدتي. كنت لأفضّل القـــيام بعملـــيات التـــرميم بالليزر لمدة عقد كامل من الزمن على خوض تلك المغامرة.

كان مشرب دي رابيد يقع في الجهة المقابلة لي تماماً، بين متجر لرسم الأوشام ومعـــرض للدرّاجات النارية. بدا المكان قذراً تعمّه الفوضى كما تذكّرته من خلال صور كيت التي أحضرها كلوديل إلى مكتبـــي.

أخفـــيت عبوة من رذاذ البهارات داخل جيب سترتي وخرجتُ من السيارة وأقفلـــتها ثم عبرتُ الشارع. كان بإمكاني الشعور بنبض الموسيقى يهزّ المشرب من الرصيف. وحين فتحتُ الباب شممت رائحة الدخان والعرق والشراب الفاسد.

في الـــداخل استقبلني حاجب المشرب، وأخذ يتفحّصني بإمعان. كان يرتدي قميصاً أسود كتبت عليه عبارة ***وُلدتُ كي أموت*** مزركشة على جمجمة صارخة.

قـــال لي بصوت مقزّز وهو ينظر إلى صدري: "عزيزتي، أظنّ أنني وقعت في حبك".

كـــان الـــرجل قد فقد عدّة أسنان، وكان يبدو كأحد أعضاء من السفاحين المجهولين. لم أردّ تحيته.

"عودي إلى ريمي حينما تكونين مستعدّة للحصول على أمر مميّز يا عزيزتي".

مرّر يده المكسوة بالشعر فوق ذراعي، وأشار إليّ بمتابعة سيري.

مررت بجانب ريمي وأنا أرغب في زيادة عدد أسنانه المفقودة.

بدا لي المكان وكأنه يقدّم مشروبات غير شرعية، كمشارب منطقة أبالاكيا. رأيت في الداخل طاولة بليارد وصندوقاً للموسيقى وتلفازاً مثبّتاً إلى إحدى الزوايا. وقد احتلّ المشرب أحد الجدران بينما احتلت الأكشاك جداراً آخر. أما باقي القاعة فكانت تمتلئ بالطاولات. كان المكان مظلماً لولا أضواء زينة الميلاد التي أحاطت بالمشرب والنوافذ الأماميّة.

عندما تكيّفت عيناي مع الظلمة تحرّكتُ بسرعة. كان الزبائن من الرجال المتوحشين القذرين ذوي الشعر الطويل. كانوا أشبه بأفراد من قبائل الغُوث في فيلم سينمائي. أما النساء فكان شعرهن ملبّداً بالهلام وكانت ملابسهن فاضحة.

لم أرَ كيت.

كنتُ في طريقي نحو الجزء الخلفي من القاعة عندما سمعتُ صوت صراخ شديد وركلٍ بالأقدام. أحنيتُ رأسي، وتقدّمتُ وسط بحر من البطون المليئة بشراب الشعير ثم وقفت منتصبة قرب أحد الجدران.

قرب المشرب انهار رجل أبله له حاجبا راسبوتين وخدان مقعران وسقط على الأرض. كان الدم يسيل على وجهه ملوثاً سترته والسلسلة الحديدية حول عنقه. في الجهة الأخرى من الطاولة الصغيرة أخذ رجل منتفخ الوجه يحدّق إليه. كان يحمل زجاجة شراب المولتون من عنقها، موجهاً إياها نحو خصمه ليبقيه بعيداً عنه. وبصرخة عالية، أمسك راسبوتين بأحد الكراسي وضرب خصمه به. سمعتُ صوت تحطّم الزجاج إثر ارتطام الرجل وزجاجة الشراب بالجدار الإسمنتي.

سرعان ما أصبحت الطاولات والكراسي خالية إذ تقدّم الزبائن كافة متلهفين إلى المشاركة في ما كان يحدث. فأتى الحاجب ريمي بمضرب بيسبول، وقفز إلى المشرب.

كنت قد اكتفيت بما رأيت في الداخل. فقرّرت انتظار كيت في الخارج.

كنت في منتصف الطريق نحو الباب حين أحكمت يدان الإمساك بأعلى ذراعيَّ. حاولتُ الإفلات، غير أن القبضة أصبحت أكثر إحكاماً، وأخذت تعتصر لحمي حتى العظم.

استدرتُ وأنا أستشيط غضباً، ونظرت إلى وجه أشبه بتماسيح المستنقعات يرتكز على رقبة ثخينة ذي عينين صغيرتين ناتئتين وفك طويل يضيق عند زاويتيه.

ضمَّ الرجل الذي أسرني شفتيه، وأطلق صفيراً مدوياً جمّد راسبوتين في مكانه، وســادت لحظة من الصمت والدهشة بينما حدّد هو والحاضرون مصدر الصفير. دندن جورج سترايت خلال الهدوء المفاجئ.

جاء صوت الرجل عالياً على نحو مفاجئ قائلاً: "توقّفوا عن هذا الهراء، لديَّ عرض أفضل. أحضر لي الزجاجة من تانك يا ريمي".

تــرك ريمي المشرب، وتقدّم بين المتعاركين، وقد ألقى مضرب البيسبول بخفة على كتفه. وضع إحدى قدميه فوق معصم تانك وضغط بقوة، فأفلت ما تبقى من الزجاجة. ثم ركل ريمي البقايا وأجبر تانك على الوقوف. بدأ تانك بالصراخ، لكن الرجل الذي يمسك بــي أسكته قائلاً:

"اخرس أيها الوغد واصغِ إليّ".

فأجابــه تانك وهو يترنّح: "هل توجّه هذا الكلام إليّ يا جي جي". ثم بسط رجليه لتحقيق توازن أفضل.

"بالتأكيد أيها الأبله".

فتح تانك فمه لكن جي جي تجاهله مرة أخرى.

"انظروا ماذا لدينا هنا أيها السادة".

أصــغى بعض الموجودين بوجوه خالية من أي تعبير بسبب تأثير الشراب أو الملــل، لكــن معظمهم أداروا ظهورهم. أنهى جورج أغنيته، ثم تولّت فرقة رولينغ ســتونــز الغناء. أما الساقي فعاد إلى سكب المشروبات. وبدأ الضجيج يتعالى من جديد.

صــرخ رجــل من المشرب: "يا له من أمر عظيم. لقد وجدت امرأة لا تتقيّأ عندما تنظر إليك".

تعالى الضحك.

أجابه جي جي بصوت أشبه بالأنين: "انظر جيداً أيها الذكي، هل سمعت مرة بالمرأة التي تعمل في فحص العظام؟".

"ومن يأبه لذلك؟".

كــان يصرخ وكأن عنقه مشدود بالأسلاك المعدنية: "أعني تلك التي نبشت حديقة نادي الأفاعي؟!".

فاستدار بعض الزبائن مجدّداً والحيرة تخيّم على وجوههم.

علا صوت جي جي مجاهداً ليسمعه الجميع: "أيها الحمقى، ألا يطالع أحدكم الصحف؟".

بينما عاد الآخرون إلى مشروبهم ومحادثاتهم تقدّم تانك نحونا وهو يبدي اهتماماً مبالغاً فيه كالسكارى. وقف أمامي مباشرة وهو بالكاد يتنفس ومرّر يده فوق خدي.

انتفضتُ مبتعدة عنه، لكنه أمسك بذقني، وقرّب وجهي من وجهه. فشعرت بالغثيان بسبب رائحة نفسه الكريهة.

"لكنها لا تبدو مخيفة لي".

لم أجب بشيء.

"ماذا تفعلين هنا أيتها المثيرة؟ هل تتنزهين في هذه الأحياء؟".

نظرتُ إلى عينيه مباشرة متجاهلة كلامه. قام تانك بتحسّس زمّام سترته باليد الأخرى. وعندما فتحه تمكّنت من رؤية عقب مسدس معلّق في حزامه. تسلّل الخوف إلى داخلي.

في الجهة الأخرى، تمكّنت من رؤية رجل يقوم عن كرسي المشرب، ويتحرّك في اتجاهنا. ثم اقترب وربّت على كتف تانك محيياً إياه.

"في استطاعتي من دون شك أن أحظى ببعض العظام هنا".

كان ذلك الرجل يرتدي سروالاً أسود فضفاضاً وصدريّة مفتوحة يظهر منها جلده الأبيض ويضع سلاسل ذهبيّة حول عنقه. كانت رسومات السجن تزيّن صدره وذراعيه، كما كانت نظارة شمسية كبيرة تغطي عينيه. أما عضلاته فكانت منتفخة بسبب الحقن بالهرمونات. وكان يتكلّم الفرنسية بلهجة ثقيلة.

أفلت تانك ذقني، وتعثّر إلى الوراء مشيراً إليّ: "هذه هي السافلة التي نبشت عظام غايتلي ومارتينو".

ابقي هادئة، قلت في نفسي.

"إن نبشت باسكال يا حلوتي، فستجدين أمراً أكثر أهمية".

عندما أزال باسكال النظارة الشمسية، ازداد خوفي. فقد كانت عيناه تلمعان بطريقة تستطيع المخدرات فقط أن تمنحها.

اقترب باسكال مني، لكنني تمكّنت من تحرير ذراع واحدة، وتحاشيت حركته.
حدّق إليّ بعينين واسعتين وقال: "ما الأمر؟".
فأجبت وأنا أتظاهر بشجاعة لم أكن أملكها: "فليكبح أحدكم لجام ذلك المتوحش".
ازداد غضب باسكال، فبرزت عضلات عنقه وذراعيه.
"من تكون هذه السافلة؟".
اقترب مني مجدّداً، لكنني أبعدت يده عني مرة أخرى. كنت كالمخدرة من شدّة خوفي، ولكن لم أستطع أن أدعهم يرون ذلك.
همست بصوت كالفحيح: "لعلك أتيت من بيت مضطرب حيث لا يستطيع أحد تهجئة كلمة "مهذب"، لذلك، فإنك لا تلام على عدم لياقتك. ولكن إياك أن تلمسني مجدّداً".
"تباً". شبك باسكال أصابعه، وشدّ قبضته.
فسأله تانك وهو يمدّ يده ليتناول مسدسه: "هل تريدني أن أقتلها؟".
فقال جي جي ضاحكاً: "اهدأي قليلاً أيتها السافلة وإلا ترك هؤلاء الرجال دماغك ملتصقاً بالجدار". ثم دفعني بعنف إلى الأمام، واختفى وسط الحشد.
بدأت بمحاولة الإفلات منهم، لكن باسكال تمكّن مني، وثبّت ذراعي بقوة خلف ظهري. شعرت بألم شديد في كتفي، وغشت الدموع عينيّ.
همس ريمي بصوت منخفض خالٍ من الإحساس: "ليس هنا يا باسكال، خذها إلى مكان آخر". كان يقف خلفه والمضرب على كتفه.
"لا مشكلة". لف باسكال ذراعه حول حنجرتي، وضغط عليَّ بجسده. فشعرت بشيء بارد وصلب على عنقي.
حاولت جاهدة الإفلات منه، لكن كل قوتي لم تكن كافية أمام قوة المخدرات التي تجري في عروقه.
زمجر باسكال: "هيا بنا، ستذهب هذه السافلة إلى دار الأوبرا الآن". وأخذ يدفعني بعنف، ويجرُّني إلى خلف المشرب.

32

"لا!" اعترضتُ بشدّة وقد غلب الذعر على اعتزامي البقاء هادئة.

قـــادني باسكال وسط الحشد بيد تضغط على حنجرتي وأخرى تلوي مرفقي بطـــريقة مؤلمة. كانت سكينته الحادة تتحرّك مع كل خطوة، فشعرت بالدم يسيل على جانب عنقي.

تـــسبب الخوف والغضب في إطلاق الأدرينالين في جسدي، أما دماغي فبدأ بإطلاق أوامر متضاربة.

افعلي كما يقول لك!

كلا، لا تذهبـــي معه!

نظـــرتُ حـــولي يائـــسة أبحـــث عـــن أي مصدر للنجدة. كان الساقي في المـــشرب يـــراقب خطواتـــنا ودخان السجائر يلفّ وجهه. كان صوت موسيقى الـــروك الشعبية يتعالى في الداخل. سمعتُ صفيراً وصياحاً، لكن الوجوه التي مررنا بهـــا كانـــت خالية من أي تعبير وغير مبالية. لم يكن أحد يكترث لما كان يحصل لي.

لا تدعيه يأخذك إلى الخارج!

صـــارعت وتلـــوّيت، بـــيد أن جهودي كانت عديمة الجدوى مقابل قوة باســـكال. فقـــد زاد من الضغط على حنجرتي، وجرّني خارجاً من باب خلفي وإلى الأســـفل علـــى درجـــات معدنية. أنبأني وقع الخطى أن تانك كان خلفنا مباشرة.

عـــندما وطأت قدماي الأرض، أخذت نفساً عميقاً، وحاولت الهروب. لكن باســـكال أحكم قبضته بشدّة حول عنقي. أخفضت رأسي يائسة، وعضضتُ يده بكل ما أوتيت من قوة.

فـــصرخ باســـكال وطـــرحني أرضـــاً. شعرت بالغثيان بسبب رائحة البول والرواســـب الطينية وأنا أتخبّط وسط كومة من النفايات الرطبة وأغطية زجاجات الـــشراب وأعقاب السجائر فيما كنت أحاول فتح زمّام جيبـــي كي أتناول عبوة الرذاذ.

أصـــدر باسكال صوتاً كالخوار: "يكفي أيتها الحقيرة". وركلني على ظهري بعنف.

اصطدم صدري بالأرض، فاندفع الهواء من رئتيَّ، ورأيت شرارات بيضاء تلمع أمام عينيّ.

اصرخي!...

لكن صدري كان يؤلمني بشدة، لذلك لم أتمكن من إصدار أي صوت.

تـــراجع الحذاء، ثم سمعتُ صوت خطى تتقدّم وباب سيارة يُفتح. كنت ألهث محاولة التقاط أنفاسي، وبدأت أجرُّ نفسي إلى الأمام فيما انـــزلق مرفقاي وركبتاي في الوحل.

"هل هذا يومك أيتها السافلة؟".

شعرت بمسدسٍ يمسّ صدغي، فتسمّرت في مكاني.

كان وجه تانك قريباً جداً مني، حتى استطعت أن أشمَّ رائحة نفسه الكريهة. وسمعت مجدّداً وقع خطى على الحصى.

"سيارة الليموزين في انتظارك. هيا يا تانك اجلبها إلى هنا".

فـــرفعني بـــيديه الخشنتين وكأنه يرفع سجادة ملفوفة. تلوّيت قدر استطاعتي للـــتملّص منه، ولكن من دون جدوى. كنت قد أصبحت مذعورة جداً، ورحت أبحث عن أي شخص في الزقاق، لكنني لم أرَ أحداً.

ابـــتعدت سطوح المنازل والنجوم عن نظري حين دُفِعتُ ورُميت في السيارة. صعد تانك في الخلف ووضع حذاءه على كتفي مقحماً وجهي في سجادة السيارة. فشعرت بالغثيان بسبب رائحة الغبار والشراب الفرنسي الجاف والسجائر والقيء.

أُغلقت الأبواب، ودار المحرّك، وانطلقت السيارة مسرعةً في الزقاق.

كنت محاصرة تماماً، وكنت أختنق.

حرّكت يديّ ورفعتهما إلى مستوى كتفيّ، فارتفعت القدم، وضرب ظهري كعب حذاء.

"إن حاولـــت إحداث أي جلبة فستنفجر الرصاصة في رأسك". كان صوت تانك قد أصبح قاسياً وأكثر وضوحاً مما كان عليه في المشرب.

كـــنت على يقين أن هذين الرجلين سيقتلانني من دون أي تردّد لأن الشراب والمخـــدرات قـــد أذكيا ميولهما الحاقدة. *فلا تستفزيهما إن لم يكن لديك فرصة للهروب*، قلت محدّثة نفسي. أحنيت رأسي وانتظرت.

كـــان باسكال يقود بطريقة جنونية. وراح يضرب دوّاسة البنـــزين والفرامل بحركات سريعة. فتأرجحت السيارة وتمايلت مما زاد من شعوري بالغثيان. لم يكن بإمكاني رؤية ما في الخارج، فأحصيت عدد المفارق التي دخلنا فيها.

حـــين تـــوقّفت السيارة، رفع تانك حذاءه عني، وفُتحت الأبواب ثم أُغلقت بعـــنف. سمعت أصواتاً وانفتح الباب الخلفي مرة أخرى. أَمسك باسكال بذراعيّ، وسحبني من السيارة.

كـــنت أصـــارع من أجل الحفاظ على توازني حين وقع نظري على تانك، فسَرَت في ظهري موجة من الرعب. كان يصوّب مسدساً من عيار 38 ملم. إلى رأســـي. كانـــت عيناه السوداوان تلمعان ترقّباً وتقدحان شراً في أضواء الشارع الزهـــرية الباهـــتة. فقاومـــتُ ميلي إلى استعطافه مدركة أن ذلك سيثير شهواته فقط.

دفعني باسكال بضع خطوات نحو مبنىً ذي سقف أخضر وجدار خارجي من القرميد. حين سحب مفتاحه، وفتح البوابة، ودفعني إلى الداخل تداعى الهدوء الذي جَهِدتُ لأظهر عليه.

اهربـــي! لا تذهبـــي إلى الداخل!

"لا!".

"تحركي أيتها الحمقاء".

"أرجوك لا!" كان قلبـــي يخفق بسرعة جنونية.

حاولـــت تثبيت قدميّ، لكن باسكال جرّني قسراً عبر الفناء باتجاه المنـــزل. وكان تانك خلفنا تماماً إذ كنت أشعر بمسدسه خلف رأسي، وأدركت أن الهروب بات مستحيلاً.

قلت وأنا شبه متشنّجة: "ماذا تريدان مني؟".

زمجـــر باســـكال قائلاً: "لست سوى سافلة، وسنريك ما لم تتوقّعيه حتى في أحلامك".

تحـــدّث باسكال عبر جهاز الاتصال الداخلي. سمعتُ صوتاً ناتجاً عن الحديد تلته نقرة زرٌّ، ثمّ فتح باسكال الباب الحديدي المدعّم بكتفه ودفعني إلى الداخل.

تمرُّ لحظات في حياة الإنسان حين يبدو واضحاً أن نهايته قريبة. فتزيد دقات قلبه، ويـــرتفع ضغط دمه، لكنه يعرف أن الدم سيراق قريباً وأنه لن يفيض أبداً مرة أخرى. ويبدأ عقله بالتأرجح بين إطلاق جهد يائس أخير وبين الرغبة في الاستسلام الكلي.

اختـــبرت هـــذا الشعور مرة أو مرتين في حياتي، بيد أنه لم يكن قوياً كما في تلـــك اللحظة. بينما كان باسكال يدفعني إلى داخل الردهة، كنت متأكدة من أنني لن أخرج من ذلك المكان حية. اختار دماغي التصرف بعنف.

استدرت، ولكمت وجه باسكال بكل ما أوتيت من قوة. شعرت أن شيئاً ما في وجهه قد تحطّم، لكنني هجمت عليه مرة أخرى بمرفقي وضربته تحت ذقنه. ارتدّ وجه باسكال إلى الخلف، فانـــزلقتُ من تحت ذراعه، وانطلقت عبر مدخل إلى يساري.

وجـــدت نفسي في غرفة شبيهة بملهى نادي الأفاعي في شارع سان بازيل لو غراند. نفس المشرب ونفس الأضواء البيضاء ونفس شاشات الفيديو، غير أن هذه كانت تعمل وتعكس نوراً أزرق بارداً في أرجاء المشرب وعلى وجوه الزبائن.

ركضت إلى الجهة البعيدة من طاولة البليارد، وأمسكت عصاً بيد، وتلمّست علبة الرذاذ الموضوعة في جيبـــي بالأخرى. أما عيناي فكانتا تبحثان عن أي باب أو نافذة.

كـــان هـــنالك رجلان يجلسان إلى المشرب، ورجلٌ آخر يقف خلفه. التفت الثلاثة عند سماعهم صوت باسكال. راقبوني أركض عبر الغرفة، ثم حوّلوا انتباههم مجدّداً نحو الباب الذي دخل منه باسكال وهو ينفث غضباً.

"سأقتل تلك السافلة، أين هي؟".

انعكس الضوء من الصالة بزاوية حادة على وجه باسكال لتبرز التجاعيد فيه وتلقي ظلالاً على عينيه وخدّيه.

"توقّفوا".

كـــان الـــصوت منخفضاً وقاسياً كالكوارتز، وقد جمّد باسكال في مكانه. جعلـــني صوت الباب الخارجي أدرك أن تانك اختار عدم التورط أكثر من ذلك. استرقت النظر لأرى الرجل الذي تكلّم.

كـــان يرتدي بزة رسمية وقميصاً وردياً مع ربطة عنق ملائمة. كان قد حصل علـــى لونه البرونـــزي من صالون للتجميل وكان على الأرجح يدفع ثمانين دولاراً لمصفف شعره عند كل زيارة. وقد زيَّنت يديه خواتم ضخمة.

لكن الرجل الواقف بجانبه كان هو من أوقف دقات قلبـــي.

كان أندرو رايان يرتدي سروالاً من الجينـــز وسترة رمادية تمَّ نـــزع كميها وينـــتعل جـــزمة عالية الساق. بدت عضلات وجهه قاسية ومتوترة، وقد خشّنت لحيته النامية وجنتيه وذقنه.

التقت عينا رايان بعينيّ فتوتر قليلاً، لكنه سرعان ما أشاح بنظره عني.

شـــعرت بالحـــرارة تتـــصاعد إلى عنقـــي وتجتاح وجنيَّ. ارتعشت قدماي، فاستندت إلى طاولة البليارد لأثبّت نفسي في مكاني.

بعـــد عدّة ثوانٍ، استدار رايان بكرسيه ومدّ رجليه باتجاهي راسماً على وجهه ابتسامة متكلّفة.

"ها هي الذكية السافلة".

"هـــل تعرف هذه الغبية؟" كان صوت باسكال يرتجف من الغضب. وكان الدم يسيل من أنفه فيمسحه بكمه.

أجـــاب رايـــان وهـــو يتناول علبة السجائر من جيبه وينقر عليها ليسحب سيجارة: "إنها الدكتورة صاحبة الشهادات العديدة".

كـــان الآخرون ينظرون إلى رايان وهو يضع سيجارته بين شفتيه، ويسحب عود ثقاب من تحت ورق السلوفان، ثم يشعلها وينفث دخانها.

كنت أنظر إليه أنا أيضاً، فقد كانت طريقة رايان بإمساك عود الثقاب والسيجارة مألوفة. شعرت بالدموع داخل جفنيّ. وصعدت من صدري تنهيدة صغيرة.

لِمَ هو هنا؟

كان يحمل السيجارة بين إبهامه وسبابته ويضغط طرف عود الثقاب بأسنانه. ثم ثــنى العــود ورمى به عبر الغرفة نحوي. شاهدت عود الثقاب يقع على الأرض الخضراء فتملّكني شعور بالغضب.

فلم أمسك نفسي ورميته بأفظع الشتائم.

"عليك اللعنة أيها الخائن السافل القذر، فلتذهب إلى الجحيم!".

مسح باسكال أنفه مرة أخرى وقال: "هل عرفت ما أعنيه! علينا تأديب تلك السافلة!".

أجابه رايان بعد أن سحب نفساً طويلاً من السيجارة: "هذه فكرة سيئة".

حدّق الرجل الذي يرتدي السترة الطويلة إلى رايان. مرّت ثوان طويلة ببطء. كــان جو التوتر الذي ساد الغرفة كافياً لإشعال أسهم نارية. ثم سأل بهدوء: "لِمَ تقول ذلك يا رايان؟".

"إنها شرطية". وسحب نفساً آخر من السيجارة. "والشرطة تلاحقك بسبب هذه الأعمال القذرة".

فتحدّاه باسكال قائلاً: "وماذا في ذلك؟ هل أنت خائف؟".

فنفخ رايان الدخان من فتحتي أنفه.

"اسمــع أيها الأحمق، لقد أخطأت التصرّف مرة مع إحدى المومسات، والآن تجرّ شرطية إلى هنا. إذا عبثت مع فرد من أفراد الشرطة، وتحديداً مع سيدة، فستأتي كل قوى الشرطة بحثاً عنك. قد لا تمانع أنت المخاطرة من أجل غولدلوكس ذات الـضفائر الشقراء، لكن كل البقية هنا يمانعون. إذ إن كل النشاطات التي نقوم بها ستتجمّد بينما تقوم الشرطة بتشريحنا بالكامل".

نظر باسكال إلى رايان وشرارات الغضب تتطاير من عينيه.

تــشنجت عضلات وجهه وارتعشت عينه وفمه. "لقد ضربتني تلك السافلة، لذا سألقنها درساً لن تنساه أبداً".

استمر الرجل صاحب السترة الطويلة في تفحص رايان بوجه خلا من التعبير. ثم التفت إلى باسكال.

قال بهدوء: "كلا، لن تقوم بذلك".

استشاط باسكال غيظاً، لكن رايان رفع يده قائلاً: "أتريد تلطيخها بالدماء؟... إذاً، راقبني".

توجّه رايان إلى آخر المشرب واختطف عبوة بلاستيكية حمراء، ودار حول طاولة البليارد ورفعها فوقي. ثم أخذ يضغط عليها، راسماً بيده أشكالاً دائرية فوق قميصي. لم أحرك ساكناً.

ضرب العبوة بعنف على الطاولة قائلاً: "اقرأي ذلك يا شكسبير".

نظرت إلى قميصي الذي تغطيه دوائر صلصة الطماطم. نظرت مجدّداً إلى وجه رايان، وقد خطرت في بالي كلمات عرفت أنني لن أستخدمها.

كانت ابتسامته المتكلّفة قد اختفت، وحدّقت عيناه الزرقاوان إلى عينيّ للحظة طويلة. نظر رايان إلى باسكال وقال: "لقد انتهى العرض".

كان البؤبؤان في عيني باسكال أوسع من أنبوب المجاري الأساسي. "ينتهي العرض عندما أقرّر أنا ذلك". وجّه باسكال اعتراضه إلى رفيق رايان.

"لا يحق لذلك الأحمق أن يكلّمني بهذه الطريقة. إنه ليس —".

"حسناً أنا من يقرّر انتهاء العرض، هيا ارحل من هنا". قال بصوت أقرب إلى الهمس.

عبس باسكال، وبرز شريان كبير على صدغه. ثم استدار، وترك الغرفة بعدما ألقى بشتيمة قذرة أخيرة.

كان الرجل ذو السترة الطويلة يراقب بصمت فيما عاد رايان إليّ.

"لقد كنتِ محظوظة، لكن لا تفهميني خطأ، إذ لم أفعل ذلك من أجلك". كان يشدّد على كلِ كلمة بتسديد لكمة إلى صدري. وتابع قائلاً: "واعلمي أنني لا أهتم بما يفعله بك باسكال".

ثم اقترب أكثر بحيث كنت أستطيع شمَّ رائحة عرقه، رائحة مألوفة كرائحة جسدي.

"إن مغامرة الليلة هي فجوة سوداء كبيرة في مخزن ذاكرتك. فلتنسي كل ما حدث". وأمسك بشعري وقرّب وجهي من وجهه: "إن تكلّمتِ فسأقود باسكال إليك بنفسي".

أفلتني بعد أن وجّه ضربة إلى صدري، فترنّحت إلى الوراء.

"سنفتح الآن البوابة، هيا اغربـــي من هنا".

ثم انـــضمّ رايان مجدّداً إلى الرجل عند المشرب، وسحب نفساً من سيجارته، ثم نقف عقبها على اللوح الفولاذي تحت النضد.

وضـــعت عـــصا البلـــيارد أرضاً من دون أن أنبس بكلمة، وهربت برجلين مـــرتجفتين. حين أصبحت خارج البوابة، أخيراً، سحبت عبوة الرذاذ من جيبـــي واســـتدرت ورشـــشت المنـــــزل بالرذاذ تنفيساً عن شعوري بالإحباط والإذلال والارتياح والغضب. تشبّثت بعبوة الرذاذ، وأنا أبكي وأسناني تصطكّ وانطلقت في الظلام.

كـــان المنتدى يبعد أقل من ستة مبان عن مشرب دي رابيد. ركضت قليلاً، وتعثّرت، لكنني لم أستغرق وقتاً طويلاً كيٍ أجد سيارتي. حين أصبحت في الداخل أقفلـــت الأبـــواب جيداً ثم جلست للحظة برجلين ترتجفان ويدين ترتعشان وعقل مخـــدَّر. أخذت نفساً عميقاً، وأجبرت نفسي على التحرك بحركات بطيئة محترسة. حزام الأمان، مشغل السيارة، ناقل السرعة، البنـــزين.

بالرغم من أن البرق كان يلمع، وقطرات المطر تضرب زجاج السيارة بعنف، فقـــد تجـــاوزت قوانين السرعة كافة وأنا في طريقي إلى المنـــزل. كانت أفكاري مشوّشة.

لقـــد وجّـــه رايان نصيحة جيدة إلى رفيقه. فأولئك الخارجون على القانون يحـــتاجون إلى ســـبب قويٌّ جداً للعبث مع شرطية مساعدة مثلي. إذ إن القصاص ســـيكون كبيراً وستتوقّف المنظمة عن العمل لفترة طويلة. ما لم يكن الشرطي قد تـــسبّب في خـــراب كـــبير، فلم يكن هناك من داعٍ للعبث معه، وقد فهم الرجل صـــاحب الـــسترة الطـــويلة ذلك الأمر. ولكن ماذا عن رايان؟ أكانت النصيحة الصادقة دافعه الأوحد؟

مـــاذا حـــدث للتو؟ هل قمت باعتراض طريقه في خضمّ حياته الجديدة؟ هل كـــان هـــناك بـــصفته أحـــد أفراد العصابة، أم أن لديه دوافع أخرى؟ ماذا عنت تصرفاته؟ هل قصد إذلالي ليخبرني أنه طوى صفحة حياته الماضية وبأنه الآن ينتمي إلى الجهة الأخرى، أم كان ذلك مجرد تمثيلية لأتمكّن من الخروج سالمة؟ هل عرّض نفسه للخطر؟

أدركت بأن عليّ إبلاغ الشرطة بما حدث، ولكن ما الفائدة من ذلك؟ لا بد مـــن أن طـــاقم عملية كركاجو يعرفون بأمر هذا المنتدى، ولا شك في أن لديهم ملفات عن تانك وباسكال.

زاد توتري ما إن تذكّرت طاقم عملية كركاجو وكلوديل وكويكواتر. ماذا سيكون ردّ فعلهم عندما يعلمون كيف رميت نفسي في التهلكة؟ هل سيعزّز ذلك رغبة كلوديل في استبعادي كصلة وصل مع الوحدة؟

ماذا لو كان رايان متخفياً؟ هل يمكن لتقرير الشرطة أن يفضح أمره؟

لم أملـــك أي إجابات عن أسئلتي، لكنني اتخذت قراراً حاسماً. لن أقوم بشيء قـــد يعرّض حياة أندرو رايان للخطر، بغضّ النظر عن دوافع الرجل. لن أُقدِم على أي فعـــل قـــد يؤذي أندرو رايان. وإن كان هنالك احتمال ولو بسيط أن يعرّض تقريـــر الشرطة حياته للخطر، فلن أبلّغ عن الحادثة. ثم فكّرت في تأجيل التفكير في ذلك إلى نهار غد.

عـــندما وصلت إلى المنـــزل، كان باب غرفة كيت مقفلاً، لكنني تمكّنت من سماع صوت الموسيقى عبر الحائط.

أحسنت يا خالتي. لهذا السبب لست شرطياً.

رميت ثيابـــي على أحد الكراسي، وآويت إلى السرير. فيما كنت أخلد إلى النوم خطرت في بالي فكرة... ماذا لو كان باسكال أخذني إلى مكان آخر؟؟!!... لم أتمكّن من النوم حتى ساعة متأخرة جداً.

33

صباح اليوم التالي، استيقظت متأخرة، قرابة الساعة العاشرة، مرهقةً ومنهكة القوى. أمضيتُ الصباح في معالجة نفسي بالأسبرين والشاي والحمام الساخن وأنا أحـــارب ذكريات الليلة السابقة. بالرغم من أن ظهري ورجليَّ أصيبت بالكدمات وأن عنقي تعرّض لجرح صغير، فإن وجهي نجا من أي أذىً تقريباً. بعد غداء متأخر أضفت المزيد من مساحيق التجميل، واخترت كنـــزة ذات ياقة عالية ثم ذهبت إلى المختبر حيث أمضيت يومي أقوم بأعمال روتينية. و لم أتقدّم بأي بلاغ.

عـــندما عدت إلى المنـــزل، تناولتُ عشاءً هادئاً مع كيت. لم تكن لديه أي أســئلة حـــول رحلتي في الليلة السابقة وافترضت أنه لم يلاحظ غيابـــي أساساً. فتجنّبت السؤال عن خروجه غاضباً، و لم يقدّم هو أي تفسيرات.

بعـــد العشاء، قرّرت القيام بغسل الملابس. فسحبت سلة الغسيل من الخزانة، وجمعـــت الملابس المتسخة بما فيها تلك التي كنت أرتديها في الليلة السابقة. فرزت الملابس، ثم وضعتها في الغسالة بعد أن وضعت تلك القطع التي تتطلّب عناية خاصة جانـــباً. انقبضت معدتي حين رفعت القميص الملطّخ بصلصة الطماطم، فقد كان المشهد لا يزال حياً في ذهني.

بسطت القميص، وبدأت بِرَش البقع، وصوت العبوة يطنّ في رأسي.

سأزيلك كالبقع أيها الحقير. ضغطت على المقبض. بفففف!

تخيّلت ابتسامة رايان المفتعلة، وتذكّرت إصبع يده وهو ينخر صدري.

ضغطت مجدّداً. بفففف!

اقرأي ذلك يا شكسبير! بففف!

تجمّدت يدي، وأمعنت النظر في الرسم. لم تكن الخطوط عشوائية، بل اتخذت شكل العدد ستة وستين بشكل دقيق.

اقرأي ذلك يا شكسبير. شكسبير. كان رايان مولعاً بقصائده الغنائية.

استرجعت ذكريات قديمة من أيام المدرسة الثانوية. الأستاذ توملينسون وصفّ اللغة الإنكليزية في آخر سنة.

هل كان ذلك ممكناً؟

أسـرعت إلى رفّ الكـتب في غرفة نومي، وسحبت مجلداً. *أعمال شكسبير الكاملـة*. بالكـاد كنت أتنفس حين فتحت الكتاب على قسم القصائد الغنائية، وقلّبت الصفحات بحثاً عن القصيدة رقم ستة وستين. بدأت بقراءة القصيدة.

هيا يا بيل، فلتكن هناك.

تجمّعت الدموع في عينيّ عندما قرأت البيت.

والعمل الصالح يلحق به العار ظلماً.

يلحق به العار ظلماً.

كانـت تلك رسالة من رايان. كان رايان يخبرني فيها أن الأمور ليست كما تبدو عليه.

فعل الصواب بشكل كامل...!!

إذاً، رايان لم يتحوّل عن مبادئه ليصبح شخصاً فاسداً!

ولكن ما الذي حدث؟

هل يعمل متخفياً؟

لِمَ لم يتصل بـي؟

لم يكن ليستطيع ذلك يا برينان. أنت تعرفين ذلك.

لم يكـن ذلك مهماً. فجأة صرت متأكدة بأن الشخص الذي أعرفه لا يزال موجـوداً في أعماق ذلك الرجل بغضّ النظر عمّا يفعله الآن. ولا بد من أن أعرف القصة كاملة في الوقت المناسب.

جـزمتُ بأنني لن أرفع تقريراً بما حدث في الليلة الماضية أبداً، إذ يستحيل أن أفعل شيئاً قد يكشف أمر رايان.

أغلقت الكتاب، وعدتُ إلى غرفة الغسيل. كنت أدرك أن العمليات السرية قد تدوم شهوراً أو حتى سنين، لكنني كنت الآن أعرف ما يجري على الأقل.

علت وجهي ابتسامة عريضة، وأنا أضع القميص في الغسالة. أستطيع الانتظار يا أندرو رايان. أستطيع الانتظار.

شعرت بسعادة لم أختبرها منذ أسابيع، فطردتُ شبح باسكال وتانك من مخيلتي، وعدتُ إلى الصور التي كنت قد تركتها في الليلة السابقة. كنت قد شغّلت القرص للتو حين ظهر كيت عند باب الغرفة.

"نسيت أن أخبرك أن إيزابيل قد اتصلت، أرادت التحدث معك قبل أن تغادر البلدة".

"إلى أين سترحل؟".

"لقد نسيت. لكن الأمر يتعلّق بجائزة ما".

"متى ستغادر؟".

"لقد نسيت".

"شكراً لك".

"ماذا تفعلين؟".

"أحاول تعديل بعض الصور القديمة لأتمكن من رؤية الوجوه بشكل واضح".

"وجوه مَن؟".

"سافانا أوسبري موجودة في إحدى هذه الصور بالإضافة إلى الرجل الذي قُتِلَ في الأسبوع الماضي".

"تقصدين ذلك الرجل الذي طُعِن في السجن؟".

"كلا بل الرجل الذي تعتقد الشرطة أنه كان ضحيته".

"أمر مثير".

دخل كيت إلى الغرفة.

"هل أستطيع رؤية الصور؟".

"حسناً، لا أظن أنها معلومات سرية خطيرة. بإمكانك الجلوس إلى جانبي شرط أن تعدني بعدم مناقشة ذلك مع أحد سواي".

أظهـــرت صـــورة شـــاطئ ميرتل على الشاشة، وأشرت إلى سافانا أوسبري وشيروكي ديجاردن.

"يا الله. هذا الرجل يبدو كمنبوذ من الصندوق العلمي لتمويل الحياة البرية".

ثم أشار إلى سافانا: "وهي بالتأكيد ليست زوجته".

"لا، لكـــنه لـــيس بأمر مستغرب أن يقوم الدرّاجون بتخدير فتيات صغيرات واحتجازهن رغماً عن إرادهّن".

"ولا يبدو أنها من مرتادي الشاطئ. يا الله! يبدو جسمها بلون غطاء السرير".

خطرت في بالي فكرة مهمة.

"أريدك أن ترى شيئاً يا كيت".

بـــدلت صـــورة شـــاطئ ميرتل، بالصورة التي تمّ التقاطها عند نقطة تفتيش الشرطة".

اقترب كيت، وتفحّص الصورة.

أشار إلى شيروكي قائلاً: "هل هذا هو الرجل ذاته؟".

"نعم".

"هل التُقطت هذه في دكسي أيضاً؟".

"في جنوب كارولينا".

"يبدو أنه حفل في الشارع".

جالـــت عيـــناهُ علـــى جميع مَن في الصورة ثم رست على الدرّاجة النارية في طرفها.

"متى أُخذَت هذه الصورة؟".

"لا أعرف. لِمَ تسأل؟".

"هذه هي الدرّاجة نفسها التي رأيناها في صورة الجنازة".

تسارعت نبضات قلبـــي.

"هل أنت متأكد؟".

"هـــذه أروع تحفـــة فنية رأيتها في حياتي من نوع حديد ميلووكي يا خالتي. بإمكانك أن تركبـــي على حافّة هذه العجلات".

"لهذا السبب كنت أسأل عن الصورة الأخرى".

"هل وجدها؟".

"كلا".

"لا يهم، إنها الدرّاجة نفسها".

"ما الذي يجعلك متأكداً من ذلك؟".

"هل بإمكانك تكبير الصورة؟".

قمت بتكبير ذلك الجزء من الصورة.

"يا الله، هذه درّاجة غالية الثمن".

"أخبرني بما يجعلك متأكداً أنها الدرّاجة ذاتها".

"كما أخبرتك سابقاً، كانت هذه درّاجة شرطة عادية للتجول من طراز أف أل أيـــتش. وقد جرى فكّ قطعها، واستبدالها بأخرى صنعت خصيصاً من أجلها. ليس ذلك هو الأمر المهم، بل طريقة استبدال هذه القطع".

راح يعـــدّد روائـــع الدرّاجة واحدة بعد الأخرى. "أراد هذا الرجل آلة خام فعلية، لذا غيّر المحرك واستبدله بمحرك أقوى".

لمس بإصبعه مقدمة الدرّاجة.

"وقـــد قام بتمديد قاعدة العجلات ورفع الطرف الأمامي عبر تركيب قاعدة متـــشعبّة. يا الله، لا بدّ من أنها أطول من القطع العادية بعشرين إنشاً. ومن المحتمل أنه قد أزال جزءاً من عنق الإطار. ولكن يجب عليه أن يكون متقناً عمله كي يزيل ذلك الجزء".

"لماذا؟".

"لأن أي خطـــأ صغير قد يؤدي إلى تحطّم الدرّاجة والموت على الإسمنت عند السرعة العالية".

أشــــار إلى مقـــود الدرّاجة: "لقد استخدم نوعاً من الحديد الصلب والفولاذ المُدّعم لرفع قاعدة المقود".

"ممم".

"إن الرجل الذي قام بذلك لم يكترث لتركيب مقعد مريح. فهو يجلس على مقعـــد ذي رفاصات خارجية، من دون مخفّف هيدروليكي للصدمات، إضافة إلى إطار خلفيّ صلب".

"إطار خلفيّ صلب؟".

"إنـــه إطـــار صلب من دون مخفّف خلفيّ للصدمات ذو طرف وهذا الإطار يدعى ***بالإطار الصلب*** لأن الجلوس عليه ليس مريحاً البتة".

أشـــار إلى مجمـــوعة مـــن القضبان في مقدمة الدرّاجة: "انظري إلى كلاّبات الطرقات السريعة".

لا بدّ من أن الارتباك بدا عليّ.

"لقـــد وضع كلاّبات إضافية في الأمام ومجموعة من المكابح وناقلات السرعة المصنوعة خصيصاً له في الأمام كي يتمكّن من مدّ رجليه. لا بدّ من أن هذا الرجل يعرف ما يفعله جيداً".

"وهـــل أنـــت مـــتأكد مـــن أنها الدرّاجة عينها التي كنا قد رأيناها عند قبر سيلفستر؟".

"نعم، هي الدرّاجة عينها، لكن ذلك ليس الدليل الوحيد لديّ".

كنت أشعر بذلك في داخلي، لكنني لم أقل شيئاً.

أشار كيت إلى خزان الوقود: "انظري إلى هذا. فقد صُنِعَ خزان الوقود بنوع معيّن من المواد. كيف يبدو ذلك لك؟".

قـــرّبتُ وجهـــي من الصورة. كان الطرف الأماميّ يبدو غريباً بالفعل، لكن الـــشكل لم يذكّرني بأي شيء. حدّقت إليه وأنا أجبر خلايا دماغي على استخراج معنىً من الشكل ذي الطرف المستدّق.

ثم رأيته.

سألتُ كيت: "هل هذا أمر غير اعتيادي؟".

"نعـــم، لم أرَ مـــن قـــبل درّاجة مثلها. هذا الرجل معتاد على إعادة تشكيل الدرّاجات".

حـــدّق كيت إلى الشاشة وقد تسمّر في مكانه، ثم قال: "وجدها، يضرب في الريح جالساً على رأس أفعى".

توقّـــف، وقد عبرت وجهه نظرة غريبة، واقترب من الشاشة ثم ابتعد عنها، وتقدّم مجدّداً كطائر وقع على حشرة غريبة.

"هل يمكن تكبير وجه هذا الرجل؟".

"الرجل الذي يركب الدرّاجة؟".

"نعم".

"ستتغبّش الصورة عند تكبيرها".

"حاولي".

فعلـــت، واتّـــبعت نفـــس الخطوات التي قمت بها مع كلوديل. بينما كانت الخطوط تتبدّل محوّلة النقاط إلى ملامح يمكن التعرف إليها ومعيدة ترتيبها في أنماط لا معنى لها من الألوان والأشكال، أدركت ما كان ابن أختي قد رآه.

خلال عشرين دقيقة كنت قد فعلت كل ما في وسعي. لكن أحدنا لم يتكلّم في أثناء ذلك الوقت. ثم كسرت الصمت.

"كيف تمكّنت من تمييزه؟".

"لست متأكداً، ربما كان فكّه، أو ربما أنفه ما استوقفني عندما كنت أشير إلى رأس الأفعى. قبل ذلك لم أكن قد لاحظت وجود الدرّاج".

حدّقـــنا إلى وجه الرجل الذي يركب الدرّاجة الرائعة. كان ينظر إلى الفضاء، وكأنّه ينوي القيام بعمل مهم.

"هل سبق أن ذَكَرَ أمامك بأنه يُرافق وُدعاء الجحيم؟".

"إنه لا يلبس أي ألوان خاصة".

"هل ذَكَرَ ذلك أمامك يا كيت؟".

تنهَّد ابن أختي.

"كلا".

"هل يخرج برفقتهم في الوقت الحاضر؟".

"أرجوك. لقد رأيتِ ذلك الرجل بنفسكِ".

نعم. لقد رأيت الرجل في شارع ريفيّ في سان بازيل لو غراند. وعلى طاولة العشاء. وفي نشرة أخبار المساء وفي منـــزلي.

كان الرجل الذي يركب الدرّاجة هو لايل كريز.

34

وَمَضَت في ذهني الصور والكلمات. وجه باسكال يتراءى بين الضوء الأبيض والظل، وجورج دورسي يتمتم اسمي لمسعف، وعين لامعة.

سألني كيت: "ماذا ستفعلين الآن؟".

"سأتصل بإيزابيل ومن ثمّ سأخلد إلى النوم". أغلقت البرنامج، وأعدت القرص إلى مكانه.

"هل هذا كل شيء؟".

"هذا كل شيء".

أحياناً حين تتخبّط الأفكار داخل رأسي، فإن أفضل استراتيجية هي الاستلقاء، وتركها تتّخذ شكلها.

"ألم يُثِر ذلك اهتمامك؟".

"كثيراً. وسأعرف هل كان للايل كريز علاقة بوُدعاء الجحيم، ولكن ليس الليلة".

"بإمكاني الاستفسار عن ذلك".

نبّهتُ كيت: "هذا تحديداً ما لا يجب عليك فعله. قد يكون رجلاً خطيراً ذا أصدقاء خطيرين".

شرد ذهنه، ثم نظر إلى الأرض، واستدار مبتعداً.

هزّ كتفيه متمتماً: "كما تشائين".

انتظرته ليدخل غرفته ويغلق الباب، ثم طلبت رقم إيزابيل. أجابت على الهاتف بعد أربع رنّات، وقد بدا أنها تلهث قليلاً.

"يـــا الله. كنت مدفونة في الجزء الخلفيّ من الخزانة. لقد أضعت حقيبتي الليلة الفائتة ولا أذكر في أي مكان. ولن يعوّضني عنها شيء".

"أنا بحاجة إلى بعض المعلومات يا إيزابيل".

بدا من لهجتي أنني لست بمزاج يسمح لي بمناقشة أغراض سفرها.

"نعم؟".

"أريد أن أعرف عن لايل كريز".

"آه منكِ يا تمب، عرفت أنك ستغيّرين رأيك أيتها العابثة".

"أخبريني عنه".

"أليس ظريفاً؟".

ظريف كدودة الطعام. هذا ما فكّرت فيه، لكنني لم أقل شيئاً.

"كما تعلمين، فهو يعمل كمحقّق صحفيّ في محطة التلفاز الكندي. هذا مثير جداً".

"منذ متى يقوم بذلك؟".

"منذ متى؟".

"نعم، منذ متى؟".

"يا الله، منذ زمن بعيد".

"أي حوالى كم سنة تحديداً؟".

"لا أعرف، ولكنني أراه على شاشة التلفاز منذ زمن بعيد".

"ماذا كان يعمل قبل ذلك؟".

"قبل ذلك؟".

"نعم، ماذا كان يفعل قبل عمله في محطة التلفاز الكندي؟" كان ذلك أصعب من استجواب جورج دورسي.

"دعيني أتذكّر". سمعتُ صوت تكتكة ناعمة، وتصوّرت الأظافر المطلية وهي تنقر علـــى السماعة. "أعرف الإجابة عن هذا السؤال لأن فيرونيك أخبرتني عن ذلك، فهي تقدّم برنامجاً حوارياً عبر الراديو الكندي تستضيف فيه النجوم والمشاهير. لكنها كانت تقدِّم النشرة الجوية في محطة التلفاز الكندي قبل ذلك. هل تعرفينها؟".

"كلا". كانت عيني اليُسرى قد بدأت تنبض ألماً.

"لقد واعدت لايل كريز لمدة قصيرة".

"لا شك في أنني رأيتها سابقاً".

"أعـــتقد أنها قد أخبرتني بأن لايل كريز قد سبق وعمل لدى جريدة أميركية. لا. انتظري، إنني أتذكّر". عاد صوت التكتكة. "لقد كانت جريدة في مكان ما في الغـــرب، في ألـــبيرتا كما أظن. لكنه في الأساس أتى من الولايات المتحدة، أو ربما كان يتعلّم هناك".

"هل تعرفين أي ولاية؟".

"أعتقد أنه كان في إحدى الولايات الجنوبية، يجب أن يعجبك ذلك".

"متى جاء إلى كندا؟".

"يا الله، ليست لديَّ فكرة عن ذلك".

"وأين يقطن؟".

"خارج الجزيرة كما أظن، أو ربما في وسط المدينة".

"هل لديه عائلة هنا؟".

"آسفة، لا أعرف".

"ما مدى معرفتك بلايل كريز؟".

تغيّرت لهجة إيزابيل وأصبحت دفاعية بعض الشيء: "أنا لست كاتمة أسراره يا تمب".

"ولكـــنك حاولت التقريب في ما بيننا". حاولتُ إبقاء نبرة صوتي طبيعية بيد أن غضبـــي كان جلياً.

"لا تفهمي الأمور بهذه الطريقة. لقد طلب الرجل رؤيتك، وأنا لم أجد مانعاً من ذلك. هذا كل ما في الأمر. يبدو الأمر وكأن حياتك العاطفية جيدة هذه السنة".

"هل تعنين بأنها كانت فكرة كريز من البداية؟".

"نعم". ردّت باحتراس.

"متى حدث ذلك؟".

"لا أذكـــر، فقد التقيت به في ليكسبرس، تعرفين ذلك المقهى في شارع سان دنيس...".

"أجل".

"شاهد لايل صورتك في الجريدة، وكان مفتوناً جداً، أو هذا ما قاله لي على الأقـــل، وإن لم يستخدم هذه الكلمات تماماً. على كل حال، بدأنا نتحدث، وأخذ كل موضوع يقود إلى آخر، وقبل أن أستطيع أن أمنع نفسي، كنت قد دعوته إلى العشاء".

تك تك.

"في الحقيقة لم يكن سيئاً، بل كان في الواقع ساحراً للغاية".

"أمممم". كذلك كان تيد باندي.

مرّت بضع لحظات من دون أن نتكلّم.

"هل أنت غاضبة مني يا تمب؟".

"لا. لست غاضبة".

"سأرى ما يمكنني معرفته. سأتصل بفيرونيك و...".

"لا عليك، الأمر ليس مهماً".

كان آخر ما أحتاج إليه هو تنبيه لايل كريز.

"كان مجرد فضول يا إيزابيل، أتمنى لكِ رحلة موفقة".

"شكراً لك. أين تظنين أنني أضعت حقيبتي؟".

"ابحثي في خزائنك".

"فكرة جيدة. عمت مساءً يا تمب".

حين أنهينا المكالمة تذكّرت بأنني لم أسألها عن مكان رحلتها.

بعـــد مـــرور ساعة بدأت عملية التذكّر. بينما كنت مستلقية على سريري أحاول تجاهل موسيقى كيت، راحت الصور والحقائق والأسئلة تطفو إلى السطح ثم تعود لتغوص عميقاً كسمكة مدارية محتجزة في حوض صغير.

صورة: لايل كريز يسكب الشراب الفرنسي.

حقيقة: لايل كريز خدعنا بطريقته في التقرب مني. لقد كان في شارع بازيل لو غراند وعرف بشأن الهياكل العظمية، وكان قد قرأ المقال في الجريدة قبل حفل عشاء إيزابيل.

أســئلة: لِـــمَ أراد مقابلتي؟ هل يتعلّق ذلك باكتشاف الرفات؟ أكان ببساطة يبحث عن سبقٍ صحفيّ؟ أم أن لديه دوافع أخرى للحصول على المعلومات؟

صورة: لايل كريز الشاب على درّاجة نارية.

حقيقة: لايل كريز مرتبط بالولايات الجنوبية.

أسئلة: ماذا كان كريز يفعل مع أولئك الرجال؟ هل سرق مني صورة جنازة سيلفستر؟ إذا كان ذلك صحيحاً، فلِمَ سرقها؟ هل السبب في ذلك أن ماضيه يعرّضه الآن للخطر؟ مِمّن هو خائف؟

صورة: متوحش رث الثياب يدور حول المبنى الذي أقطنه.

حقيقة: إلى جانب إثارة خوفي في البداية، فقد أثار ذلك الرجل شيئاً ما في نفسي.

أسئلة: هل كذب كيت عندما سألته عن قدوم أي زائرين؟ لِمَ؟ من كان ذلك الأحمق الذي يعتمر قبعة البيسبول؟ ولِمَ كان ردُّ فعلي قوياً؟

صورة: لامانش والأنابيب والأجهزة الطبية الداعمة للحياة.

حقيقة: يبلغ عالم الأمراض الستين من عمره و لم يمارس في حياته أي تمارين رياضية و لم يتبع أي نظام غذائي سليم.

أسئلة: هل سينجو؟ هل سيعود إلى العمل؟

صورة: رايان يجلس على كرسي في المشرب.

حقيقة: يعمل متخفياً وهو ليس بخائن.

أسئلة: هل شكّل تصرفه تجاهي تهديداً لتخفّيه؟ هل كان في خطر؟ هل ساهمت في ذلك؟

اختلطت هذه التأملات والتساؤلات مع اعتبارات أخرى عديدة: كيفية إعادة كيت إلى هيوستون، وتأخّر موعد لقاحات بيردي، والفجوة في ضرسي، ونمو شعري.

ومع كل هذه الأفكار، استمر اللاوعي في إرسال رسالة مزعجة لم أستطع فهمها: صورة الرجل رث الثياب الذي يعتمر قبعة البيسبول. رحت أتقلّب في الفراش محبطة لعدم قدرتي على حلّ رموز تلك الرسالة.

كنت أنام بشكل متقطّع حين رنّ جرس الهاتف عالياً.

"مرحباً". قلت كالثملة.

"هل كنت نائمة؟".

أشارت الأرقام المضيئة على ساعتي إلى الواحدة والربع بعد منتصف الليل.

"ممم".

صاحت إيزابيل قائلة: "لقد كانت جامعة كارولينا الجنوبية".

"ماذا؟".

بدا صوتها معبّراً عن الرضا: "لايل من لندن في أونتاريو، لكنه تلقّى تعليمه في كارولينا الجنوبية. ولا تقلقي بشأن مصدري، فقد كنت بغاية الحرص".

تمتمت قائلة: "شكراً يا إيزابيل".

"هـــيا عودي الآن إلى النوم...آه لقد وجدت حقيبتي في خزانة الحمام. يا لي من غبية. تصبحين على خير".

أنهت المكالمة.

وضـــعت رأســـي علـــى الوسادة، ولاحظت أن جدار غرفتي قد كَفَّ عن الارتجاج. هل خرج كيت؟

بينما كنت أعود إلى النوم حاول اللاوعي مجدّداً إرسال صور. اتّخذ المتوحش شكلاً معيناً بشعره الطويل وصدريّته الجلدية، والجزمة، وقبعة البيسبول.

القبعة.

فتحتُ عينيّ، وجلستُ في الفراش باحثة عن صورة أخرى في ذاكرتي.

هل يُعقل ذلك؟

في صـــباح الـــيوم التالي استيقظت قبل رنين جرس المنبه. اختلست النظر إلى غـــرفة كيت فوجدته نائماً في سريره. أخذت حماماً، وارتديت ملابسي، وأضعت بعض الوقت إلى أن حان موعد ذهابـــي إلى المختبر.

ذهبتُ مباشرة إلى مكتب رونالد غيلبرت، وتقدّمت بطلبـــي. ومن دون أي كلمة، توجّه إلى رف معين، وتناول شريط فيديو، وسلّمني إياه. شكرته، وأسرعتُ إلى غرفة المؤتمرات.

وضعت الشريط في جهاز الفيديو بتوتر شديد، ثمّ شغّلته. لم أكن أعرف أين سأجد المشهد، فبدأت بمشاهدة الشريط من البداية، وسرّعت تقديم المشاهد.

ظهـــرت علـــى الشاشة صور شقة شيروكي ديجاردن: غرفة المعيشة، المطبخ، الجثة المجهولة. ثم ركّز الشريط على الجدران التي غطّتها بقع الدماء.

بعد ذلك تحرّكت الكاميرا نحو زاوية، وصوّرتها عن قرب وعن بعد، فضغطْتُ على زرّ التشغيل، وتحرّكت الصورة بسرعة عادية.

بعد دقيقتين لاحظت شيئاً موضوعاً بين الحائط وقفص صدئ للعصافير ترتكز عليه قيثارة. ضغطت على زر تجميد الصورة، وقرأت ثلاثة حروف تظهر من خلال بقعة بلون أحمر داكن.

"---- كوك".

تفحّصت القبعة عن كثب. كان لونها أبيض وأحمر، كما لاحظت وجود بعض الحروف من شعار مألوف لم أتنبّه إليه في أثناء وجودي في مسرح الجريمة. أكمل عقلي الحروف التي طمستها دماء شيروكي.

غ - ي - م - س---.

أجل.

غيمسكوك.

لم تكن القبعة تحمل كلاماً بذيئاً، بل كانت تحمل اسم فريق رياضيّ: غيمسكوك.

فريق غيمسكوك في جامعة كارولينا الجنوبية.

ومضت في ذهني مرة أخرى قبعة ذلك الأحمق. وقد سمح اتصال إيزابيل لذهني بتجميع وتنظيم أمر جديد لم أتنبّه إليه من قبل.

عندئذ انفتح باب الغرفة، وأدخل ميشال تشاربونو رأسه بشعره المشعّث. كان يحمل مغلّفاً بنيّ اللون.

"لقد طلب كلوديل مني أن أعطيك هذا المغلّف الذي يحتوي على خطة العمل الرسمية لنهار غد. كما أراد روي أن تحصلي عليها".

"أفترض أن السيد كلوديل مشغول جداً".

هزّ تشاربونو كتفيه بطريقته المعهودة: "إنه يعمل على التحقيق في جرائم القتل هذه لصالح الوكالتين".

اتّجه نظره نحو الشاشة. "هل هذا شريط ديجاردن؟".

"نعم، انظر إلى هذا الشيء".

دار حول الطاولة ووقف خلفي. أشرتُ إلى القبعة.

"هذه تُستعمل في جامعة كارولينا الجنوبية".

"لا تستطيع لعق أعضائنا".

"أسمعت بهذا الفريق؟".

"بشعار كهذا، مَن لم يسمع به؟".

"هذا ليس شعاره الرسمي".

"يبدو من ديكور منـــزل شيروكي أنه كان من المشجعين للرياضة".

تجاهلتُ تعليقه.

"في كل الصور التي رأيتها، هل كان شيروكي يعتمر قبّعة؟".

فكّر تشاربونو للحظة.

"كلا. وماذا في ذلك؟".

"ربما لم تكن هذه القبعة له. قد تكون لقاتله".

"دورسي؟".

أخبرته عن صور لايل كريز.

"إذاً، فقـــد أمضى الرجل بعض الوقت في كارولينا الجنوبية، أين المشكلة في ذلك؟! نصف سكان كيبيك يمضون عُطَلهم هناك".

"لِمَ قد يهتم لأمري لايل كريز فجأة بعد أن نبشت هذه الرفات؟".

"إضافة إلى أنك ظريفة جداً؟".

"نعم، بالإضافة إلى ذلك".

"حـــسناً، عندما تهدأ الأمور قد نستدعي لايل كريز ونستجوبه بشأن غايتلي ومارتينو. ولكن لا يوجد دليل يربطه بجريمة شيروكي".

أخبرته عن صورة شاطئ ميرتل.

"شيروكي وكريز كانا يعرفان بعضهما بعضاً، وتلك ليست صورة تجمع فتيان الكشافة في مخيم ما".

"هـــذه رحلة إلى ديكسي في العصر الجليدي. كريز صحفي، ربما كان هناك يقوم بتغطية حدث ما".

رمى تشاربونو بالمغلّف على الطاولة.

"اسمعـــي، لقد خضع شيروكي لعلاج كيميائي، وربما بدأ باعتمار القبعات

حـــين لم يعـــد يملـــك خياراً أفضل. لكنني سأتحقّق من أمر كريز إذا كان ذلك سيريحك".

حين غادر عدت إلى شريط الفيديو ورأسي يدور في متاهات من التفسيرات المتـــشابكة. يُحتمل أن تكون القبعة لدورسي إذ ادّعى أنه يعرف سافانا أوسبري، ربما كان في ولاية كارولينا الجنوبية.

بين لقطات صور الجدار، ركّزت على لقطة الزاوية؛ بقع الدم، القيثارة، قفص العصفور، القبعة.

بعـــد ذلـــك ظهـــرت على الشاشة لقطة التقطتها عدسة التصوير عن قرب. شعرت بالقشعريرة في عنقي. دنوت من الشاشة، ودقّقت النظر فيها جيداً آملة أن أستطيع فهم ما كنت أراه. لم يكن واضحاً ولكنه كان موجوداً بلا شك.

أعـــدت الـــشريط إلى نقطـــة البداية، وأوقفت جهاز الفيديو عن العمل، ثمّ انطلقـــت مـــسرعة من الغرفة. إذا كان ما رأيته حقيقياً، فسيكون على تشاربونو وكلوديل أن يجدا نظرية مختلفة.

صعدت السلالم إلى الطابق الثالث عشر، وتوجّهتُ نحو غرفة مليئة بالرفوف والخـــزائن المقفلـــة علّقت على بابها لافتة كُتب عليها: **غرفة المستندات القانونية والممتلكات.**

كان زي شرطة كيبيك معلقاً على بندقية لصيد الغزلان. انتظرتُ فيما كانت المـــوظفة تمـــلأ بعـــض الاستمارات وتسلّم وصلاً إلى الضابط ثم تضع علامة على الـــسلاح وتحفظـــه في إحـــدى الخـــزائن المقفلة. حين عادت، أريتها أرقام قضية شيروكي.

"هـــل بإمكانك التحقّق ممّا إذا كانت لائحة أدلة قضية شيروكي تحوي قبعة رياضية؟".

أجابـــت وهـــي تُدخل رقم القضية إلى الحاسوب: "هناك لائحة طويلة لهذه القضية، سيستغرق الأمر بعض الوقت".

كانت عيناها تركّزان على الشاشة بحثاً عن القبعة.

"هـــا هي. لقد كانت هناك قبعة رياضية". بدأت بقراءة النص: "وقد أُخذَت إلى المختبر بغية فحص بقع الدم الموجودة عليها، ثمّ أُعيدَت".

اختفت الموظفة بين الرفوف، وعادت بعد عدّة دقائق ومعها كيس من النايلون مقفل استطعت أن أرى بداخله القبعة الحمراء: "هل تريدين أخذها؟".

"أريد إلقاء نظرة عليها هنا لو سمحتِ".

"بالطبع".

فتحت الكيس، ووضعت القبعة على النضد. رفعت طرف القبّعة برفق وتفحّصت باطنها. قشرة من الرأس.

وضعت القبعة مكانها، وشكرت الموظفة. ثم عدت مسرعة إلى مكتبي، ورفعت سماعة الهاتف.

35

لم يكـــن كلوديل وكويكواتر في مقر عملية كركاجو. كما أن أياً منهما لم يكـــن في مقـــرّ شرطة مونتريال المدنية. فتركت لهما بعض الرسائل، وعدتُ إلى مكتب رونالد غيلبرت.

"شكراً على شريط الفيديو".

"هل كان ذا فائدة؟".

"هل لي أن أسألك أمراً؟".

"بالطبع".

"هـــل تتذكّـــر زاوية الغرفة حيث القيثارة والقفص اللذان وضعا إلى جانب الجدار؟".

"نعم".

"لقد كانت هنالك قبعة أيضاً".

"نعم أذكر ذلك".

"هل سجّلت ملاحظات عن بقعة الدم؟".

"بكل تأكيد".

"أنـــا مهتمة بمعرفة موقع القبعة ساعة وقوع الجريمة، هل تذكر في ملاحظاتك أي شيء بشأن ذلك؟".

"لـــست بحاجـــة إلى ملاحظـــاتي، فأنا أذكر كل شيء جيداً. إن بقعة الدم وترشاش الدماء على القبعة أتيا من الهجوم بأداة غير حادة قرب تلك الزاوية".

"وليس من الطلقة النارية".

"كلا. لو كان الأمر كذلك لاختلف شكل البقعة واتجاه الترشاش بما يتوافق مع نوع الاعتداء الذي سبق وناقشناه".

"تقصد وضعية شيروكي ممدّداً على الأرض".

"نعم".

"هل كان يعتمر القبعة؟".

"لا، ذلك مستحيل. كانت القبعة خلف القفص عندما تلطّخت بمعظم ترشاش الدم".

"كيف وصلت إلى هناك؟".

"ربما طارت إلى ذلك المكان في أثناء العراك".

"كيف عرفت ذلك؟".

"كان هناك دم تحت القبعة وعليها أيضاً. من المحتمل أن يكون المعتدي قد أضاعها في خضمّ العراك".

"إذاً لم يكن شيروكي يعتمر تلك القبعة؟".

"لا، أراهن بحياتي على ذلك".

"شكراً لك".

عدتُ إلى مكتبي عند الساعة العاشرة والنصف. لم أجد أي رسائل أو قضايا للعمل عليها في انتظاري.

أخذت أنقر بأصابعي محدّقة إلى الهاتف على أمل أن يرنّ. لكنه لم يرنّ. بغير تفاؤل طلبت رقم هاري في هيوستن، استمعتُ إلى رسالة مسجّلة بلغة إسبانية سيئة. جرّبت الاتصال بكيت، فلم أسمع سوى صوتي.

تباً، أين ذهبَ الجميع؟

اتصلتُ بكلوديل مجدّداً، وهذه المرة تركت له رقم هاتفي الخلوي. وفعلت الشيء نفسه مع تشاربونو. ثم أمسكت بحقيبتي وانطلقتُ مسرعة، إذ كنت قد ضقت ذرعاً بالانتظار.

لدى خروجي عجزت عن الرؤية للحظات. كان النهار يغتسل بنور الشمس وكانت الطيور تغرّد فوق أغصان الأشجار. كان أفراد طاقم المختبر والشرطة المحلية

في الممـــر يـــسترخون حول طاولات المتنـــزّه في الحديقة، يتحدّثون، ويستمتعون بالاستراحة الصباحية، ويرتشفون القهوة، ويدخنون السجائر.

تنـــشقت الهواء بعمق، واتّجهت إلى شارع بارثنييس وأنا أتساءل كيف فاتني الربيع. لبرهة راودني إحساس فريد. كانت جنازة دورسي ستقام بعد أقل من أربع وعشرين ساعةً. لو كان باستطاعتي تجميد الزمن، لاحتفظت بهذه اللحظات الهادئة وتغـــريد الطـــيور والـــشمس المشرقة ولأبقيت على صورة السيدات وقد خلعن أحذيـــتهن في المرج. لكنني كنت عاجزة عن فعل ذلك، وكان توتّري الشديد قد جعل أعصابـــي تتوتّر بسرعة من البروتون داخل مُسرِّع الجزيئات الذرية.

يـــا الله يا بريـنان. في الطابق الأعلى أردتِ أن تسير الأمور بطريقة أسرع، أما الآن فتريدين تجميد الزمن. فلتُصفي ذهنك.

كانت المناسبة تتطلّب شطيرة نقانق وشرائح البطاطا المقلية.

تـــوجهتُ يساراً نحو أونتاريو، ومشيت شرقاً مسافة مُجمّع سكني، ودخلتُ مطعم لافلور. كانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وكان المطعم خالياً، فطلبت وجبتي مباشرة.

يُعَّـــد لافلـــور نسخة عن سلسلة مطاعم المأكولات السريعة في كيبيك. وهو يقـــدّم شـــطائر النقانق واللحم وشرائح البطاطا المقلية بالجبن. وقد تمّ تصميمه من الداخل بالكروم والبلاستيك كون معظم زبائنه من الطبقة العاملة.

أخبرتُ الموظف على الصندوق بما أريده بالفرنسية قائلة: "أريد شطيرة نقانق مـــع الـــبطاطا المقلية وعبوة كولا للحمية لو سمحت". لِمَ لا أزالُ أستغرب الترجمة الحرفية لكلمة نقانق باللغة الفرنسية؟

"أتريدينها مشوية أم مطهوة على البخار؟".

اختـــرتها مطهـــوة علـــى البخار، وفي ثوانٍ معدودة وُضِعَت أمامي علبة من الكرتون كان زيت البطاطا المقلية قد لطّخ الجهة اليُسرى منها.

دفعـــتُ الحساب، وحملت وجبتي إلى طاولة تطلّ على منظر جميل من موقف السيارات.

فـــيما كـــنتُ أتناول طعامي، جالت عيناي على الزبائن الآخرين. كان إلى يـــساري أربـــع شابات يلبسن زيّ الممرضات الأبيض، هنّ تلميذات في المدرسة

التقنية في الشارع المقابل. وقد عرَّفت البطاقات التي يحملنها بهن: مانون وليز وبريجيت وماري - جوزيه.

خلف الشابات، جلس رساما يرتديان ثوبين فضفاضين يأكلان طعامهما بصمت. كانت البقع تلطّخ وجهيهما وشعرهما وأذرعهما مثل جدران ترشاش الدماء في مختبر غيلبرت. كانا يتناولان طبق البطاطا المقلية المغطاة بالجبن والصلصة البنية. في مدينة تشتهر بطعامها اللذيذ كان بوتين طبقاً لم أستطع حتى اليوم فهم شعبيته.

في الجهة المقابلة من الرسامين، جلس شاب ذو لحية قصيرة، كان بديناً ويضع نظارة ذات عدسات مدوّرة.

أنهيت تناول شرائح البطاطا المقلية ثم تفقّدتُ هاتفي الخلوي. كان الهاتف شغالاً والإرسال جيداً، لكنني لم أتلقَّ أي رسائل.

اللعنة! لِمَ لم يُعِد أحد الاتصال بي؟

كنت بحاجة ماسة إلى التنفيس عن توتري عبر ممارسة مجهود جسدي.

أمضيتُ ساعتين في الركض وحمل الأوزان والتدحرج حول كرة مطاطية كبيرة وممارسة التمارين الرياضية القوية. حينما أنهيتُ، بالكاد كنت أستطيع المشي إلى الحمام للاغتسال. لكن التمرين كان مضاداً فعّالاً للسموم. كما أن غضبي تلاشى مع سموم شطيرة النقانق والبطاطا المقلية.

عند عودتي إلى المختبر، وجدت رسالتين على مكتبي. كان تشاربونو قد اتصل. وأراد مورين التحدث بشأن لامانش. لم يبدُ ذلك مطمئناً. لِمَ لم تتّصل السيدة لامانش؟

أسرعت إلى القاعة لأرى مورين، لكن الباب كان مقفلاً، مشيراً إلى أنّه قد غادر ولن يعود اليوم. فعدت إلى مكتبي واتصلت بتشاربونو.

"وجدت أموراً أكثر مما ظننت بشأن كريز".

"مثل ماذا؟".

"يبدو أن علاقة كريز بوُدعاء الجحيم قديمة العهد. هو كندي الأصل، لكنه أكمل دراسته الجامعية في جامعة كارولينا الجنوبية، مشجّعاً لفريق غيمسكوك".

"يبدو أنك تعلّقت بالموضوع".

"إنهم يتغلّبون على فريق الردنكس".

"سأنقل وجهة نظرك إلى مجلس ماكغيل".

"هذا أفضل قانونياً".

انتظرته ليكمل حديثه.

"أكمل فتى الأخبار شهادة البكالوريوس في الصحافة عام 1983، وقرّر متابعة تخصّصه في الدراسات العليا واختار الدرّاجين الخارجين على القانون موضوعاً لرسالته. وبالمناسبة كان يدعو نفسه روبرت آنذاك".

"كيف يُفضِّل أحد اسم لايل على اسم روبرت؟".

"هذا اسم أبيه. على كل حال، امتلك روبي درّاجة فريدة من نوعها وكان يخرج برفقة زمرة الدرّاجين".

"هل أنهى أطروحته؟".

"لقد حضر الصفوف لمدة شهر أو اثنين ثم اختفى عن الأنظار. ولم يسمع عنه أساتذته شيئاً منذ ذلك الحين".

"ألا يوجد سجل بمكان وجوده سابقاً؟ أَمِن سجلٌ للضرائب؟ أو رخصة قيادة؟ أو بطاقة ائتمان؟ أو عضوية في ناد ما؟".

"كلا، لكن كريز عاد للظهور مجدّداً في ساسكاتشوان في العام 1989. كان يعمل على تغطية أخبار الجرائم لصالح صحيفة محلّية ويقدّم بعض القصص على الهواء في نشرة الأخبار المسائية على التلفاز. ثم تلقّى عرضاً للعمل في محطة التلفاز الكندي وانتقل للعيش في كيبيك".

"إذاً، فقد كان كريز مهتماً بالدرّاجين كطالب يُتابع بحثه. وقد حدث ذلك منذ زمن بعيد، هل تذكر؟".

"من الواضح أن كريز قد ترك ساسكاتشوان وهو على عجلة من أمره".

"حقاً؟".

"هل سمعتِ يوماً بعملية كاكوس؟".

"أكانت تتعلّق باستخدام مكتب التحقيقات الفيدرالية لمخبرين داخل وُدعاء الجحيم؟".

"انـــضم المخـــبر توني تيت إلى وحدة ألاسكا في أوائل الثمانينيات، ثم ترقّى ليـــصبح مـــن الـــبارزين على الصعيد الوطني. كان يضع سلكاً موصولاً بمكتب التحقيقات طوال الوقت".

"يعيش ودعاء الجحيم... يعيش! يعيش!".

"أظن أن توني كان يُفضّل الدفع نقداً".

"أين هو الآن؟".

"ضمن برنامج حماية الشهود إذا كان ذكياً".

"ما علاقة ذلك بكريز؟".

"يبدو أن قوات الماونتيز كانوا يجرون تحقيقاتهم الخاصة في الثمانينيات".

"هـــل تحاول إخباري بأن لايل كريز كان مخبراً يعمل لصالح الشرطة الملكية الكندية؟".

"لم أتمكّن من إيجاد أي دليل يُثبت ذلك، كما أن الجميع رفضوا التحدّث عن ذلـــك. ولكـــنني لطالما سمعت بأن لدينا مخبراً داخل عصابة وُدعاء الجحيم، وعندما سألت بعض القدامى عن هذا الأمر، لم يؤكّده أحد وكذلك لم ينفِه أحدٌ أيضاً".

ثم توقّف عن الكلام.

حثثته على المتابعة: "وماذا بعد؟".

"فلنبقِ الأمر بيننا فقط يا بريـنان".

"لكنني لا أخفي شيئاً عن مصفّف شعري".

تجاهل تعليقي الساخر.

"لديّ مخبرون في الشارع. لا أستطيع أن أصدّق أنني أُطلعك على هذه الأمور".

سمعتُ خشخشة عبر الهاتف فيما كان ينقل السماعة إلى يده الأخرى.

"علمـــتُ أن شخصاً ما كان يذهب مع أعضاء وُدعاء الجحيم إلى دار العبادة وقد كان رجلاً أميركياً. لكن الطريق كان ذا اتجاهين".

"هل كان يعمل لصالح الجهتين؟".

"نفدت مصادري عند هذه المعلومات".

"معلومات خطيرة جداً".

"نعم، خطيرة كنـــزيف الدماغ".

"هل تعتقد أن ذلك المخبر السري كان لايل كريز؟".
كيف لشخص أن يطمر ست سنوات من حياته؟
فكّرتُ في هذا الشأن.
"لكن لِمَ قد يظهر مجدّداً في مجال عمل معروف كهذا؟".
"ربما تصوّر أن الشهرة تؤمّن الحماية".
لم يتكلّم أحدنا لبضع لحظات.
"هل يعرف كلوديل بذلك؟".
"سأتصل به حالاً".
"إذاً، ما العمل الآن؟".
"سأحفر بشكل أعمق".
"هل ستقوم باستجواب كريز؟".
"ليس الآن، لا نريد أن نفزعه. فضلاً عن ذلك فإن كلوديل يعمل الآن لدى روي حتى تتمّ مراسم الجنازة. ولكن بعد إتمامها سأتحدّث معه ليساعدني على الوصول إلى كريز".
"هل تعتقد أن كريز متورط في جريمة شيروكي؟".
"ليس هنالك دليل على ذلك، ولكن ربما يعرف شيئاً عن الجريمة".
"تلك القبعة لم تكن لشيروكي أو لدورسي".
"كيف عرفتِ ذلك؟".
"هناك قشرة رأس داخل القبعة".
"ما المهم في ذلك؟".
"كان دورسي يحلق شعره كلياً بينما شيروكي كان أصلعَ جراء العلاج الكيميائي".
"لا بأس بذلك يا برينان".
"وقد قُتِلَ غايتلي ومارتينو في الوقت الذي كان فيه كريز مختفياً".
"هذا صحيح".
"وسافانا أوسبري".
ساد السكون المكالمة.

"ماذا عن رينالدي؟".

"الضفدع؟".

"نعـــم. كـــان الـــضفدع مستعدّاً للقيام بأي شيء للوصول إلى قبر مارتينو وغايتلي. فلِمَ لا نسأله عن مقتل شيروكي؟ قد يعرف شيئاً".

"قـــالَ كلوديل إنهم قاموا باستجوابه حتى كلّوا. فقد كان مستعداً للمساومة بـــشأن قضية جثتي بازيل لو غراند لأنها كانت قضية قديمة جداً. وهو لا يظن أن الأخـــوين سيخلّصانه من السجن. أما في ما يتعلّق بأي شيء حديث العهد فهو لن يبوح بأي أمر".

"حـــسناً. سأطلب من كلوديل مساعدتي على الوصول إلى كريز حالما ينتهي السيرك غداً. وبالمناسبة توخيّ الحذر يا برينان، فقد شوهدت شعارات البانديدوس في البلدة. وهناك شائعات تشير إلى أن وُدعاء الجحيم قد يقومون بتحرك ما... لذا لا...".

تردّد في متابعة كلامه.

"ماذا؟".

"قد يرغب ابن أختك في تفقّد موقع الحدث".

أحســـست بالنار تحرق وجنتيّ. لقد أخبر كلوديل زملاءه من رجال الشرطة عن كيت.

"لن يقترب ابن أختي من الجنازة".

"هـــذا جيّد، لأن حضور البانديدوس قد يدفع بوُدعاء الجحيم للقيام بعرض للقوى، وقد تصبح الأمور فظيعة".

مـــا إن أنهيـــنا المحادثة حتى بدأ القلق يُساورني. كيف يمكنني إبعاد كيت عن الجنازة إذا كان مصمّماً على الذهاب؟

ماذا أراد مورين أن يخبرني بشأن لامانش؟ هل توفي صديقي القديم؟

هـــل رايـــان في خطر مباشر؟ هل هدّدت مساعدته لي بكشف غطائه؟ هل عرضته للخطر كما فعلت مع جورج دورسي؟

ألقيت برأسي على دفتر السجلات الأخضر على طاولة مكتبـــي، وأغمضت عينيَّ ببطءٍ.

36

كـــنت تحت الماء وكان لايل كريز يتحدّث معي. تماوجت الأعشاب البحرية في الأسفل كما تتماوج خصل شعر جثة نصف غارقة. هنا وهناك كان شعاع من الشمس يخترق الظلام الحالك ويُنير الجزيئات الصغيرة التي تطوف حولنا.

اســـتيقظت علـــى ألم في عنقي. فتحت عينيّ، ثم رفعت رأسي وحرّكته بحذر لإزالة التشنجات في فقرات عنقي. كان المكتب مظلماً باستثناء ضوء خافت أبيض يتسلّل من الزجاج بجانب الباب.

كم من الوقت نمت؟ ركّزت نظري لأرى الساعة.

حينها رأيت خيالاً خارج بابـــي. تجمّدت وأنا أراقب وأصغي.

كـــان الطابق ساكناً إلا من دقات قلبـــي التي كانت تقرع كالطبول داخل أضلعي.

وقـــف الخيال جامداً من دون أن يأتي بأي حركة، ظلاً يحيط به ضوء باهت يخرج من المختبر الخاص بـــي.

نظرت إلى الهاتف. هل يجب أن أطلب جهاز الأمن؟

كنت أضع يدي على السماعة عندما انفتح الباب نحو الداخل.

بـــدا وجـــه جوســـلين كالشبح. كانت متّشحة بلباس أسود، وبدا رأسها البيضاوي الشاحب كفانوس معلّق ذي فتحات تمثّل العينين والفم.

"نعم؟".

وقفت كي لا أعطيها الفرصة للسيطرة عليّ.

لم ترد.

سألتها: "هل أستطيع مساعدتك؟".

مجدّداً لم تُجب بشيء.

"من فضلك أضيئي النور يا جوسلين".

نجح الطلب في الحصول على تجاوب منها حيث فشلت الأسئلة. رفعت ذراعها وعمّ النور أرجاء المكتب.

كان شعرها الرطب ملتصقاً بوجهها وعنقها. وكانت ملابسها مجعدة وكأنها كانت جالسة لمدة طويلة في مكان ساخن ومكتظّ. تنهّدت ثم مسحت أنفها بظاهر يدها.

"ما الأمر يا جوسلين؟".

بدا الغضب والقسوة في صوتها: "أنتِ تدعينهم ينجون بفعلتهم".

سألتها مشوشة الذهن: "من هم؟".

"ظننتُ أنك مختلفة عنهم".

"مختلفة عمّن؟".

"لا أحد يهتم لذلك. سمعت أفراد الشرطة وهم يهزأون من هذا الأمر. سمعتهم يضحكون. يقولون إن درّاجاً آخر قد مات. إنها طريقة رخيصة للتخلّص من هذه الحثالة".

أحسست بجفاف في فمي: "عمّ تتحدثين؟".

زفرت الهواء من خلال شفتيها وقالت: "أفراد الشرطة هم الأضحوكة. أولئك الوحوش".

أدهشتني الكراهية الظاهرة في عينيها.

"أخبريني، لِمَ أنت منزعجة؟".

ساد سكون طويل أخذت خلاله تتفحّص وجهي. ركزت نظرها على ملامح وجهي ثم حوّلت نظرها إلى مكان آخر وكأنها تأخذ صورتي لتختبرها في معادلة ذهنية ما.

"إنه لا يستحق ما حدث له. اللعنة! تباً لذلك". بدت الشتيمة غريبة باللغة الفرنسية.

تكلّمت بهدوء: "إذا لم تشرحي الأمر لي، فلن أتمكن من مساعدتك".

تـــردّدت في بـــادئ الأمـــر وكأنها تحسبها للمرة الأخيرة، ثم تركّزت عيناها الغاضبتان على عينيَّ.

"جورج دورسي لم يقتل ذلك الرجل المُسّن".

"تقصدين شيروكي ديجاردن؟".

هزّت بكتفيها وأجابت.

"كيف عرفت ذلك؟".

عبست وهي تقرّر ما إذا كان السؤال فخاً.

"أي شخص بمعدل ذكاء بسيط يعرف ذلك".

"هذا ليس مقنعاً بشكل جيّد. ماذا تقصدين...؟".

أجابت مقاطعة كلامي: "أتريدين سماع هذا أم لا؟".

انتظرت.

ابتلعت ريقها.

"لقد كنت موجودة هناك تلك الليلة".

"بالكاد كنتُ واقفة عند الباب عندما ظهر رجل ما. فذهبتُ إلى غرفة النوم. كـــان هـــو وشيروكي يتحدّثان بودٍّ في البداية، ولكن سرعان ما سمعتُ أصوات صراخ ثم ضرب عنيف. عرفت أن شيئاً سيئاً سيحدث، فاختبأتُ في الخزانة".

"لماذا كنت في ذلك المكان يا جوسلين؟".

أجابت ساخرة: "كان شيروكي سيكفلني في الكيوانس".

"تابعي".

"بقيت مختبئة حتى هدأت الأمور. ثم بدأت أتسلّل إلى الخارج عندما ظننت أن ذلك الرجل قد رحل. عندها سمعت الطلقة النارية. يا الله".

كانت الآن تحدّق إلى نقطة في مكان ما فوق كتفي. حاولت أن أتخيّل ما قد أصبح ذكرى بالنسبة إليها.

"ثم سمعـــتُ الـــرجل وهو يضرب على المكتب بعنف ويقذف بالأغراض في أرجاء الغرفة. تصوّرت بأنه يبحث عن المخدرات عند شيروكي. ارتعشت ركبتاي لأنني عرفت أن البضاعة كانت في غرفة النوم معي".

"وعـــندما شممتُ رائحة الدخان قرّرت أنه قد حان الوقت للهروب. لم يعد يهمني إن كان مدمناً أم لا. حطّمت زجاج النافذة وقفزت إلى الزقاق راكضة نحو زاويـــة الطـــريق. وهنا الجزء الأغرب من القصة. عندما درت حول المبنى ونظرت إلـــيه، كان ذلك الوغد لا يزال أمام المبنى الذي يقطن فيه شيروكي ينبش شيئاً في الوحل. ثم تقدّمت سيارة نحو الشارع واختفى".

"عمّ كان يبحث؟".

"كيف لي أن أعرف؟".

"ماذا حدث بعد ذلك؟".

"عندما تأكّدت من أنه لن يعود، عدت وبدأت أفتش المكان".

عـــمّ صمت طويل. ثم أرخت جوسلين حزام حقيبتها عن كتفها، وبحثت في داخلـــها، وســـحبت شيئاً صغيراً مسطّحاً، ورمت به إليّ قائلة: "لقد وجدت هذا حيث كان الرجل ينبش في الوحل".

أخـــرجتُ الـــصورة مـــن كيس خاص بإحدى الصيدليات، فرأيت رجلين يبتـــسمان من خلال غمامة من الدماء المتناثرة، وقد انعقدت ذراعاهما الداخليتان، وارتفعـــت ذراعاهما الخارجيتان، جاعلين أصابعهما على شكل علامة النصر. كان الرجل الواقف إلى اليمين هو شيروكي ديجاردن، قوياً ومفعماً بالحياة.

حـــين تعـــرّفت إلى الرجل الذي يقف إلى اليسار تقلّصت حنجرتي وانقطع نفسي. تابعت جوسلين كلامها لكنني بالكاد كنت أسمعها.

"... فضلاً عن حقيبة بالية... وعندما تسلّطت الأضواء الأمامية للسيارة عليه هرب كأرنب مذعور".

تسارعت أفكاري ولمعت الصور في رأسي.

"لِمَ أراد ذلك؟ عليك أن تعرفي ما يدور في خلد مدمن".

ثم رأيتُ وجهاً.

"ليتني تمكّنت من رؤيته".

رأيتُ قبعة بيسبول.

"لقد نجا هذا السافل بفعلته".

رأيتُ رقاقات من الذهب تحوم في دوامة مائية.

"لا يستحق ما حدث له".

عدت إلى الزمن الحاضر وجَهِدت لتكون تعبيرات وجهي عاديّة.

"هل تعرفين مذيع أخبار يُدعى لايل كريز يا جوسلين؟".

"في المحطة الإنكليزية؟".

"نعم".

"أنا لا أشاهد المحطة الإنكليزية. لِمَ تسألينني عنه؟ اسمعي، كل ما أريد إخبارك به هو أن دورسي لم يقتل شيروكي".

وافقتها الرأي: "أعرف أنه لم يفعل".

لكن، كان لديّ فكرة واضحة عن هوية الفاعل.

عندما غادرت جوسلين، اتصلتُ بكلوديل. لم يكن موجوداً، لكن هذه المرة وضعت السماعة وطلبت رقم جهازه الرنان. فيما كنت أطلب الرقم قلت في نفسي: إن الأمر طارئ بشكل كافٍ. حين عاود كلوديل الاتصال بي، أخبرته بقصة جوسلين.

"هل تستطيع التعرف إلى الرجل؟".

"لم تتمكّن من رؤية وجهه".

"رائع".

"لكنه كريز".

"لِمَ أنت متأكدة؟".

"تحمل القبعة التي وُجِدت في شقة شيروكي شعار جامعة كارولينا الجنوبية. وكريز تلقّى علومه هناك".

"لقد سبق و...".

"هل أخبرك تشاربونو بشأن قشرة الرأس؟".

"نعم".

"كان لديَّ شرف تناول العشاء مع كريز منذ فترة ليست ببعيدة. لديه قشرة في رأسه تكفي لتكوين تلة للتزلج عليها".

"والدافع؟".

فسَّرتُ له ما قد رأيته في الصورة.

"اللعنة!!".

نادراً ما كنت أسمع كلوديل يشتم.

"ما علاقة تلك المرأة بدورسي؟".

"لم تبح بأي أمور شخصية".

بدا نفسه حارّاً عبر السماعة: "هل يمكن الوثوق بها؟".

"لديها بالتأكيد بعض العادات الغريبة، لكنني أصدقها".

"إن كانت مرعوبة إلى هذا الحدّ، لِمَ ظلّت قريبة من المكان؟".

"ربما ظنّت أن ذلك الدخيل ترك مخدرات ورحل".

تصاعدت أنفاسه: "أخبرني ميشال تشاربونو عن حديثك. أظن أن الوقت قد حان للقاء السيد كريز".

عند إنهاء المكالمة، قمتُ بالاتصال بالخطوط الجوية لتحديد موعد لسفر كيت. فقد كان كيت سيذهب إلى تكساس سواء أرغب في ذلك أم لم يرغبً. حتى ذلك الحين، لن أدعه يغيب عن ناظريَّ لحظة واحدة.

وصلتُ إلى المنـــزل لأجد كيت يستحم.

صرخت عبر الباب عندما توقّف صوت تدفّق الماء: "هل تناولت الطعام؟".

"ليس الكثير".

"حسناً، وأنا أيضاً، أستطيع أن أطبخ المعكرونة".

ذهـــبتُ بسرعة إلى فوبورج لأجلب ثمار البحر وبعض الخضار. وعند عودتي طبخت المحار مع البصل والفطر ثم أضفت صلصة اللبن بالليمون والخردل والشبث. ثم غـــرفت الـــرخويات الـــتي أعـــددتها فوق المعكرونة الرفيعة، وقدّمتها مع الخبز والسلطة.

حتى كيت أُعجبَ بتلك الوجبة.

تبادلنا الحديث في أثناء العشاء، لكننا لم نقل الكثير.

سألتُ كيت: "كيف كان نهارك؟".

"جيداً".

"ماذا فعلت؟".

"ليس الكثير".

"هل لازمت المنـــزل؟".

"اســـتقللت القطـــار الكهربائـــي إلى جزيرة ما، وتمشّيت قليلاً، وتجوّلت في المتنـــزّهات".

"جزيرة سان هيلين".

"نعم، هنالك شاطئ في ذلك المكان وهو زلق للغاية".

"هذا يُفسّر وجود لوح التزلج عند المدخل".

سألني وهو يتناول قطعة من الخبز مما تبقّى من السلطة: "وماذا عن نهارك؟".

"جيد أيضاً".

لقـــد اتّهمـــتُ باللامبالاة تجاه الدرّاجين، كما اكتشفت بأن أحد أصدقائك الدرّاجين قد يكون قاتلاً.

أجابني بالقول: "رائع".

أخذت نفساً عميقاً.

"قمت بالحجز في الخطوط الجوية اليوم".

"ستقومين برحلة أخرى؟".

"هذه الرحلة لك".

أبقى عينيه على صحن السلطة: "مرحاً... لقد حانت ساعة الرحيل".

"أنـــت تعرف يا كيت كم أحبك وكم أحبّ أن تبقى هنا، لكن الوقت قد حان لترجع إلى بيتك".

"ماذا يقولون عن الضيف والسمكة العجوز؟ أم عن الأقارب؟".

"أنت تعرف أن الأمر ليس كذلك. لكنك هنا منذ أسبوعين، ألم تضجر؟ ألا تريد الذهاب لرؤية أصدقائك وتفقّد الأمور هناك؟".

هزّ كتفيه قائلاً: "لن يذهبوا إلى أي مكان".

"أنا متأكدة أن هاري ووالدك مشتاقان إليك".

"نعم بكل تأكيد، لذلك لم يكفّا عن الاتصال بـــي".

"أمك في المكسيك، لذا ليس من السهل...".

"لقد وصلت إلى هيوستن البارحة".

"ماذا؟".

"لم أرغب في إخبارك".

"حقاً؟".

"عرفتُ أنك سترغمينني على الرحيل عندما تعود".

"لماذا تظن ذلك؟".

وضع يده على الطاولة وقد لفّ أصابعه حول حافة الطبق. أما في الخارج فقد علا صوت صفارة الإنذار وخفت ثم علا وخفت. حين أجابني لم ينظر إليّ.

"عندما كنت صغيراً، بقيت دائماً بعيدة عني، إذ كنت تخافين أن تشعر هاري بالغيرة أو الغضب أو الامتعاض أو عدم الكفاءة أو... أو...".

التقط كيت قطعة من الخبز ثم رمى بها فتناثرت بضع قطرات من الزيت على الطاولة.

"كيت!".

"أتدرين شيئاً؟ يجب أن تشعر بعدم الكفاءة. فالأمر الوحيد الذي يجب أن أشكرها عليه هو أنها لم تقم بدفني في علبة للأحذية عند ولادتي". ثم وقف قائلاً: "سأحزم أمتعتي".

وقفت وأمسكت بذراعه. حين نظرت إلى وجهه كان يحمرّ غضباً.

"ليس لهاري أي علاقة بذلك. أنا أعيدك إلى المنزل لأنني خائفة عليك. كما أنني خائفة من الناس الذين كنت ترافقهم مؤخراً ومما قد يفعلونه. كما أخاف عليك أن تتورط في أمور قد تعرضك للخطر".

"هذا هراء. لم أعد طفلاً صغيراً. أنا أتخذ قراراتي بنفسي".

لمعت في رأسي صورة رينالدي الضفدع وظلّه يتموّج فوق القبر. لقد اتخذ غايتلي ومارتينو قراراً وكذلك فعلت سافانا أوسبري. وجورج دورسي. لن أسمح لكيت بأن يفعل نفس الشيء.

"إن أصابك أي مكروه فلن أسامح نفسي أبداً".

"لن يُصيبني شيء".

"لا أستطيع المخاطرة بذلك. أعتقد أنك كنت تضع نفسك في مواقف خطرة".

"لست طفلاً في السادسة من عمره يا خالتي تمب. يمكنك أن تطرديني، لكنك لا تستطيعين أن تملي عليّ ما أفعله بعد الآن". برزت عضلات فكه، وأخذت تفاحة آدم ترتفع وتهبط.

بعد هذه المحادثة غرقنا في صمت تام، مدركين أن الكلمات التي قد نقولها ستجرحنا في العمق. أرخيت قبضتي، واختفى كيت وهو يحفّ قدميه الحافيتين بالسجادة.

كان نومي متقطّعاً، ثم استيقظت وجلست في الظلام أفكّر في ابن أختي. تغيّر لون ستارة النافذة من الأسود إلى الفحمي. لم أحاول النوم بعد ذلك، وأعددت الشاي وأخذته معي إلى الشرفة.

غطّيت نفسي بوشاح جدتي، ورحت أتأمل النجوم تتلاشى في الأعلى، وأتذكّر الأمسيات في تشارلوت. عندما كان كيت وكاتي صغيرين، كنا نتأمّل مجموعات النجوم، ونمنحها أسماء نختارها نحن. كانت كاتي ترى فأرة أو جرواً أو زوجاً من ألواح التزلج. أما كيت فقد كان يرى أماً مع طفلها.

ثنيتُ رجليَّ داخل الغطاء، ورشفت الشاي الساخن.

كيف أجعل كيت يفهم أسبابي لإبعاده من هنا؟ لقد كان فتياً وضعيفاً يصارع من أجل أن يقبل به الآخرون ويعترفون به.

لكن اعتراف وقبول مَن يريد؟ لماذا يريد البقاء معي؟ هل أوفّر له قاعدة ينطلق منها لممارسة نشاطات لن يفصح لي عنها؟

منذ اليوم الذي وصل فيه كيت إلى هنا حيّرتني لامبالاته. ففيما تتلهّف كاتي للتواصل المستمر مع رفاقها، يبدو كيت راضياً بزيارة محدودة إلى الأماكن وبألعاب الفيديو وبرفقة خالته العجوز وقطتها المسنة. لا شك في أن كيت أصبح الآن مختلفاً جداً عن الفتى الذي أذكره: ركبتان مجروحتان، قُطَبٌ، عظام مكسورة. كانت حركة كيت الدائمة قد أبقت اسم هاري على رأس لائحة المسعفين المحليين في أثناء طفولته.

هل بقي كيت في المنزل؟ أم خرج مع لايل كريز؟ أو مع الواعظ؟ أو مع ذلك المتوحش؟ هل كان فاتراً معي لأنه كان متعباً؟

ارتشفتُ المزيد من الشاي. كان الآن قد أصبح فاتراً.

تـــصوّرت رجلين وراء ترشاش الدماء في ظلّ قطعة من البلاستيك وشعرت ببرد لم يستطع الشاي التخفيف منه.

هـــل كنت أقترف خطأً؟ إن كان كيت يمرُّ بفترة عصيبة، هل يمكن أن يؤثر وجـــودي إلى جانـــبه إيجابـــاً فيه؟ وإن كان قد تورّط في أمر خطر، أَمِنَ الأفضل لسلامته أن يبقى معي؟

كلا. فقد أصبح الوضع برمّته خطيراً ِجداً. سأتابع تنفيذ خطتي. سيكون ابن أختي في تكساس قبل أن تصبح جثة جورج دورسي تحت التراب.

زحف الفجر من الأفق ليبسط ضوءاً لطيفاً على فنائي، مضفياً على الأشجار وحاجـــز الشجيرات والأحجار البنية عبر الشارع لوناً خفيفاً. فرقّت الحوافّ حتى أصـــبحت المدينة أشبه بلوحة لونسلو هومر، لوحة مائية أشبه بستارة خلفية لمسرح جنازة في أرض للعصابات.

سكبت آخر ما تبقى من الشاي في الفناء، وذهبت لأوقظ ابن أختي.

كانت غرفته خالية.

37

وجدتُ ملاحظة معلّقة على البراد. قرأتها وهي في مكانها خوفاً من أن تخونني يداي المرتعشتان.

شكراً على كل شيء. لا تقلقي. أنا برفقة بعض الأصدقاء.

أصدقاء؟

أحسست أن قلبـــي قد توقّف عن الخفقان داخل صدري.

نظرت إلى الساعة. كانت جنازة دورسي ستبدأ بعد أكثر من ساعة.

طلـــبت رقـــم جهاز كلوديل الرنّان، ثم أعددت القهوة، وارتديت ملابسي، ورتّبت سريري.

إنها السابعة والربع.

رشفت القهوة، والتقطت قشرة ميتة من الجلد.

دارت الأرض، تحـــوّلت قـــشرة الأرض، اختفى اثنا عشر أكراً من الغابات المطيرة من الكون إلى الأبد.

ذهـــبتُ إلى الحمـــام، وسرّحت شعري، ووضعت بعض مساحيق التجميل، وأضفت أحمر الشفاه، ثم عدت إلى المطبخَ لأسكب كوباً آخر من القهوة.

إنها السابعة والنصف. أين كان كلوديل؟

عـــدت إلى الحمـــام حيث بلّلت شعري، وأعدت تصفيفه. كنت أبحث عن خيوط تنظيف الأسنان عندما رنّ الهاتف.

"لم أكن لأظن أنك تستيقظين باكراً".

"لقد رحل كيت".

"تباً!".

كنت أسمع صوت حركة المرور عبر الهاتف.

"أين أنت؟".

"خارج دار العبادة".

"كيف تجري الأمور؟".

"الأمـــر أشـــبه بعرضٍ للخطايا المميتة حيث تتمثّل خطيئتا الكسل والشراهة جيداً".

"لا أظن أنك قد رأيته".

"كـــلا، على كل حال لن أتمكن من تمييز فيدل كاسترو في هذه الزحمة. يبدو وكأن كل درّاج في القارّة قد أتى إلى هنا".

"وكريز؟".

"ليس من أثر له بعد".

سمعته يتنفس بسرعة.

"ما بك؟".

"لقد قمنا أنا وتشاربونو بتقصي بعض المعلومات الإضافية عن كريز. من العام 1983 حـــتى العام 1989 كان يعمل كمراسل أجنبـــي وليس كعميل سري. لكن التقارير الوحيدة التي كان يعدّها كانت مع حارس زنـــزانته".

سألته وقد أصابني التوتر "هل تمّ سجنه؟".

"أمضى ست سنوات في سجن جنوب الحدود".

"في المكسيك؟".

"هواريز".

عاد قلبـــي إلى الحياة وقفز داخل صدري.

"إن كريز قاتل وقد يكون كيت برفقته الآن. يجب أن أفعل شيئاً".

أصبح صوت كلوديل بارداً كصوت شرطي.

"إيـــاك أن تفكّـــري في الـــتجوال يا سيدة برينان. أولئك الدرّاجون يبدون كأسماك القرش التي تشتمّ المياه بحثاً عن الدم. وقد تسوء الأمور هنا".

سمعت صوتي يتقطّع، فتوقّفت لأتمالك أنفاسي.
"قد يعلق كيت في ذلك الجنون".
"اهدأي، سأرسل دورية للقبض على كريز".
"وماذا لو كانت لديه ترتيبات للجنازة؟".
"سنقبض عليه فور ظهوره".
كنت تقريباً أصرخ: "وماذا لو ذهب شاب في التاسعة عشرة من عمره ضحية لذلك؟".
"كل ما أقوله لك هو إياك والقدوم إلى هنا".
"إذاً فلتعثر على هذا الحقير".
كنت قد أنهيت الاتصال لتوي حين رنّ هاتفي الخلوي.
كيت!
هرعت إلى غرفة النوم، وسحبت الهاتف من حقيبتي.
كان الصوت يرتجف كصوت طفل صغير بعد بكاء طويل.
"يجب أن تعرفي ما يفعلونه".
في البداية شعرت بالإرباك ثم تعرّفت إلى الصوت، وبعد ذلك انتابتني مشاعر القلق.
"عمّن تتحدثين يا جوسلين؟".
"يجب أن يعرف أحدهم بما يفعله أولئك الهمجيون". تنفّست بحدّة من أنفها.
"هيا أخبريني".
"تتحوّل هذه المدينة إلى مسلخ، وطفلك في طريقه إلى المذبحة".
انقبضت معدتي من الخوف الذي تملّكني.
"ماذا تعنين؟".
"أعرف ما سيحدث".
"ما علاقة ذلك بابن أختي؟".
أصبح صوتها قوياً الآن: "أحتاج إلى الحماية والمال".
"أخبريني بما تعرفينه".
"ليس قبل أن نعقد اتفاقاً".

"ليست لدي السلطة لذلك".

"لكنك تعرفين من يملكها".

"سأحاول أن أساعدك، لكنني أريد أن أعرف هل كان ابن أختي في خطر؟".

ساد بعض الصمت ثم قالت: "اللعنة، لقد انتهى أمري على كل حال. سأنتظرك في نفق غي بعد عشرين دقيقة. على الرصيف الغربي".

كان صوتها مثقلاً بالهزيمة.

"سأنتظرك لعشر دقائق. إن تأخرت أو جلبت أحداً معك، فسأكون قد اختفيت، وسيكون كيت قد أصبح ذكرى في الوقت الذي تكون فيه الجرائد قد كتبت عن الأمر".

حلّ صمت قاتل!

طلبت رقم جهاز كلوديل الرنّان وتركت رقمي. ثم رحت أحدّق إلى الهاتف، وأُقلّب في الخيارات. لم أتمكن من التحدث إلى كلوديل. ثم جرّبت الاتصال بكويكواتر. لكنه لم يكن موجوداً أيضاً.

لم يقل لي كلوديل أن أتجنّب القطار. لذا سأذهب للقاء جوسلين، وأتصل به عندما تتوفّر لي المعلومات.

طلبت رقم مركز عملية كركاجو لكنني لم أترك رسالة. ثم وضعت الهاتف الخلوي في حقيبتي، واندفعت خارجة من الباب.

كانت جوسلين تجلس عند آخر النفق. كانت تضع حقيبة سفر في حجرها وأخرى عند قدميها. اختارت أن تجلس على مقعد في الزاوية وكأن ذلك سيوفّر لها الحماية من أي تهديد كان يخيفها. كانت تقضم ظفر إبهامها فيما كانت تتفحّص المسافرين الواقفين على جانبي الخطوط.

وجدتني وتابعت تقدّمي. حافظتُ على خط سيري في الوسط وقد كان صوت نبضي في أذنيَّ أعلى من أي ضجة منافسة. كان الهواء دافئاً وفاسداً وكأنه تكرّر بين أنفاس حشود المسافرين تحت الأرض. شعرت بطعم لاذع، وابتلعت لعابي بصعوبة.

راقبتني جوسلين بصمت وأنا أجلس على المقعد. بدت بشرتها البيضاء بنفسجية تحت الأضواء الاصطناعية كما بدا بياض عينيها أصفر.

بدأتُ بالكلام لكنها أوقفتني بحركة من يدها.

"سأقول كلامي لمرة واحدة، ثم سأرحل. أنا أتكلّم وأنت تصغين".

لم أقل شيئاً.

"أنـــا مدمنة على المخدرات وكلانا نعرف ذلك. كما أنني ساقطة وكاذبة". جالت عيناها على وجوه المصطفّين على الخطوط وكانت حركاتها متشنّجة.

"لقـــد كـــنت عضواً في كشافة الفتيات ومعسكرات التخييم السخيفة مثلك تماماً. لكن في مكان ما سلكت درباً غير صحيح لا أستطيع الخروج منه".

بدت عيناها كعيني جيفة بسبب الظلّ الأرجواني.

"لقـــد اســـتحوذت عليّ مؤخراً مشاعر البغض. أكره كل مَن وما على هذا الكوكب. ولكن أكثر ما أكرهه هو نفسي".

مسحت سائلاً سال من أنفها بظاهر يدها.

"تـــدركين أنهـــا الـــنهاية حين تعجزين عن النظر في بركة ماء أو في مرآة أو واجهة زجاجية لأنك تحتقرين الشخص الذي ينظر إليك".

التفتت إليّ. كانت عيناها اللتان خضعتا لعملية تجميل تحترقان بمشاعر الغضب والذنب.

"يمكـــن لحديثي معك أن يؤدي إلى قتلي. لكنني أريد الخلاص. أريد أن يدفع أولئك الحقيرون الثمن".

"ماذا لديك لتُقَدِّميه؟".

"سبايدر ماركوت والفتاة الصغيرة".

"أنا أسمعك".

"لقـــد كان جورج دورسي، لكنه ميت الآن، فلم يعد للأمر أهمية". نظرت بعيداً ثم ركّزت نظرها مجدّداً على وجهي.

"كان قتل ماركوت هو ردّ الهمجيين على قتل الأفاعي للأخوين فايلنكورت. لقد قتله جورج وعضو أصيل يدعى سيلفيان لوكومت. كانت الطفلة غلطة".

أسندت قدمها على حقيبة السفر.

"ظـــنَّ جورج أن هذه الضربة هي سبيله إلى النجومية. لكن الهمجيين أطاحوا بدورسي خوفاً من أن يشيَ بلوكومت". شخرت وضربت ذقنها برفق. "في الحقيقة كـــان دورسي ينتظرني قرب مكان جريمة شيروكي. عندما قبض عليه طاقم عمل

عملية كركاجو ثم دبّر اللقاء بك، قرّر الهمجيون القضاء عليه قبل أن ينبس بكلمة عـــن لوكـــومت. فهو الرأس المدبّر. نعم لوكومت. ذلك الحثالة الذي ضيّع الفتاة الصغيرة". وبصقت.

"هل من شيء آخر؟".

"جـــثث شارع سان بازيل. لقد كنت في الصورة لتسع سنوات. لدي الكثير لأساوم عليه".

"هل تتحدثين عن برنامج حماية الشهود؟".

"أريد المال والرحيل بعيداً".

"ماذا عن إعادة التأهيل؟".

هزّت بكتفيها.

"ماذا عن شيروكي؟".

"لقـــد أحضر عظام الفتاة إلى الشمال، وأنا كتبت قصته ولكن لن أسلّمها إلى أحد قبل ضمان حمايتي ورحيلي بعيداً عن هنا".

بدا وكأن أفكارها تنهار حتى قبل أن تعبّر عنها.

"لِمَ قرّرت التكلّم الآن؟".

"لقد قضوا على دورسي. قام بعملهم وتخلّصوا منه".

هزّت برأسها، وعادت تتفحّص الناس حولها.

"وأنا أصبحت واحدة منهم". كان صوتها يقطر باحتقار الذات. "لقد أوقعت بذلك المراسل".

"أي مراسل؟".

"لايـــل كريز. أدركت أن له علاقة بأمر ما عندما سألتني عنه. لذا شاهدت نشرة الأخبار في تلك الليلة. لقد كان هو الرجل الذي رأيته في شقة شيروكي. أنا متأكدة من ذلك تماماً. وقد أرسلت اسمه إلى الأفاعي مقابل بعض المال".

"يا الله".

"أنا لست إلا مدمنة حقيرة، هل فهمت؟" كانت تلك أشبه بصرخة.

"لكـــن عندما تُغلَقُ كل الأبواب في وجهك وينهار عالمك، ستساومين بأي شيء للحصول على مقابل. فضلاً عن ذلك لدي بعض الأسباب الأخرى".

بدأت يداها بالارتعاش، وضغطت بأصابعها على صدغيها.

"بعد ذلك اتصلت بكريز لأدبّر موعداً معه في المقبرة". ومجدّداً ضحكت تلك الضحكة المستنكرة.

"هل طلبوا منك تدبير موعد؟".

"نعم. إنهم يخطّطون لقتل كريز، إضافة إلى بعض الهمجيين الآخرين".

جفّ حلقي وبصعوبة تمكنت من الكلام: "وما علاقة كل هذا بابن أختي؟".

"حذّرهم كريز من محاولة القيام بأي أمور غبية لأن الصبي سيكون برفقته".

سمعتُ هدير قطار في آخر النفق.

"ستكون الجنازة عبارة عن فيلم دامٍ وقد يؤدي ابن أختك دوراً بطولياً فيه".

شعرت بتغيّر ضغط الهواء عند اقتراب القطار. توجه المسافرون من الطرف البعيد نحو حافة الرصيف.

جمدت نظرة جوسلين على شيء ما عبر خطوط القطارات. أصابت الدهشة عينيها ثم اتسعت حين تعرّفت عليه. فتحت فمها.

صرخت: "لوكومت...". وطارت يدها إلى زمّام الحقيبة.

مرّ القطار مصدراً صوتاً كالرعد.

طار رأس جوسلين نحو الخلف، وانتشرت غيمة من الدخان الأسود حوله على الجدار. رميت بنفسي إلى الجدار، وغطيت رأسي بكلتا يديَّ.

علت أصوات المكابح محدثة دوياً قوياً.

حاولت المرور من خلف المقعد أو من تحته لكنه كان مثبتاً إلى الجدار. لم يكن هناك من مفر!

انفتحت أبواب القطار، فنزل ركاب، وصعد آخرون.

في جهتنا تعالت الصرخات، واستدارت الوجوه، وساد الإرباك والرعب.

مضى القطار.

ثم تغيّرت الأصوات. تلاشى الفزع. وأخذ الناس يركضون.

بعد دقيقة كاملة من دون إطلاق للنار، وقفت على قدميّ بحذر والعظام وبقايا الدماغ تغطي سترتي. تقلّصت معدتي وأحسست بطعم إفرازات العصارة الصفراوية.

أصوات بالإنكليزية والفرنسية.

"انتبهي!".

"أتضحية!".

"اطلبوا الشرطة".

"هل ماتت؟".

"إنهم في طريقهم إلى هنا".

"يا الله!".

إرباك وزحمة على المصاعد.

انشلّ جسد جوسلين عن الحركة وخرج الزبد من زاوية فمها. شممت رائحة الغائط والبول ورأيت الدم يتجمّع في بركة على المقعد والأرض.

مـــرّت بخـــيالي صورة شيروكي وآخرين بسرعة كضوء كهربائي؛ غايتلي، ومارتينو، وسافانا أوسبري، وإميلي آن توسان.

عجزت عن منع موت هؤلاء. ولا أستطيع فعل شيء لجوسلين الآن، ولكنني لـــن أسمح لكيت بأن يكون الضحية التالية. لن أسمح بحدوث ذلك. ليس لكيت أو لهاري أو حتى لي.

تـــوجّهت نحو المصعد بقدمين مرتجفتين، واستقللته إلى الطابق الأرضي. وقد أبعـــدتني زحمة المشاة الذين ابتعدوا بأنفسهم عن المأساة. كانت سيارتا كروزر قد أقفلـــتا المدخل وقد فُتِحت أبوابهما وومضت أضواءهما. أعلنت الصفارات وصول سيارات أخرى.

كـــان يجـــب أن أبقـــى، وأدلي بإفادتي، وأدع الشرطة تهتم بالباقي. شعرت بالقرف والخيبة من عجزنا عن إيقاف مذابح الدرّاجين. اجتاحني خوفٌ كبير على كيت كألم جسدي متغلّباً على الحكمة وحسّ الواجب.

تمكّنت من تخليص نفسي وسط الزحمة وركضت.

38

كانت يداي لا تزالان ترتجفان حين دخلت شقتي الساكنة. ناديت كيت من دون أن أتوقّعَ جواباً.

سحبتُ من حقيبتي المغلّف الذي كان تشاربونو قد سلّمني إياه من روي. اطلعت على النظام المُتّبع بسرعة، تحقّقت من الساعة، وسارعت إلى المرأب.

بالرغم من مرور ساعة الزحمة المعهودة، فقد كانت حركة السير في وسط المدينة خانقة. قدت ببطء شديد وقلب تتسارع دقاته ويدين تتعرّقان على المقود حتى تحرّرت أخيراً وصعدت الجبل وركنت السيارة في موقف للسيارات مقابل بحيرة أو كاستور.

كانت المقابر تنتشر على امتداد تلة شومان ريمامبرانس، مدن الموتى التي تمتدّ نحو الأفق. وفقاً لخريطة روي كان موقع دفن دورسي داخل السياج، على بعد ثلاث وعشرين ياردة من البوابة الجنوبية. كان موكب الجنازة سيأتي من الجهة الشرقية ويدخل إلى المقبرة من المكان المقابل لي.

مسحتُ كفيَّ المتعرّقتين بسروالي ثم تحقّقت من الساعة.

قريباً.

عادة لا يهتمّ أشخاص كثيرون بالجبل في ساعات الصباح الباكر، لكن في هذا اليوم اصطفّ المعزّون على طول الطريق المؤدي إلى البوابة فيما راح البعض يتجوّلون حول الأشجار وأحجار القبور التذكارية داخل المقبرة. بدت لي الطقوس المنافقة سريالية، إذ إن أعضاء من الهمجيين وآلة الصخر كانوا يقومون بدفن الرفيق الذي قتلوه بأنفسهم بمراسم تشييع عظيمة.

كانـــت سيارات الكروزر التي يقودها رجال الشرطة مركونة على جانبـــي التلة. كانت أضواؤها تومض كما كانت أجهزة اللاسلكيّ فيها تخشخش. أقفلتُ الـــسيارة، وعبرت الشارع وأنا أخطو فوق العشب الأخضر الجديد الذي بدأ يلوّن الخـــط في الوسط. أسرعت الخطى على التلة فيما رحت أتفحّص الناس المتواجدين في المكـــان. كـــان معظمهم شباناً من العرق الأبيض. رأيتُ تشاربونو متّكئاً على سيارة شرطة، لكن لم يكن هناك من أثر لكريز أو لكيت.

عندما وصلتُ إلى البوابة استوقفني ضابط شرطة بالزي الرسمي.

"تمهلي أيتها السيّدة، يمنع الدخول إلى هنا. عذراً، ولكن سيتمّ عقد جنازة بعد قليل هنا، وهذا المكان مقفل. عليك أن ترحلي".

ورفع ذراعيه وكأن الأمر يستدعي استخدام قوة جسدية.

فعرّفت عن نفسي. "أنا الدكتورة تمبرانس برينان. مركز عملية كركاجو".

بدت علامات الشك على وجهه. كان يوشك على الكلام عندما شقّ الهواءَ صوتُ صفارة حادّ، فاستدار كلانا.

كـــان كلوديل يقف على هضبة صغيرة على مقربة من موقع قبر دورسي. عـــندما حصل على انتباهنا أشار إليّ بالقدوم بيد واحدة. أشار الحارس إليّ وهزّ كلـــوديل رأســـه موافقاً. وبنظرة عبّرت عن عدم الرضا سمح لي الحارس بعبور البوابة.

إن مقابـــر مـــونت - رويال هي أماكن جميلة وغريبة، وهي تضمّ مساحات شاســـعة من المناظر الطبيعية الخلابة وتصاميم المدافن المزخرفة التي تعلو وتهبط عبر تضاريس الجبل. مونت - رويال.

كانـــت تلك الأخيرة تُعنى بموتى أتباع الطائفة الكاثوليكية الذين دُفِن بعضهم في قبور واسعة ومزخرفة، فيما دفن بعضهم الآخر داخل قبور بسيطة مقسّطة على عـــشر ســـنوات. وقد تمّ دفن أكثر من مليون شخص داخل هذا السياج الحديدي الفخـــم مـــنذ أواسط القرن التاسع عشر. ويضمّ المكان الأضرحة والمدافن الفخمة ومواقع الدفن للأشخاص التقليديين.

وهـــناك أقسام للبولنديين والفيتناميين واليونانيين والإنكليز والفرنسيين. كما يمكن أن يحصل الزوار على خريطة ترشدهم إلى مواقع قبور الشخصيات المشهورة

في مونتـــريال. يرقد أفراد عائلة دورسي في القسم المخصّص لليونانيين، ليس ببعيد عن ماري ترافيرز، مغنية الثلاثينيات المعروفة بلا بولدوك.

الأهم في الأمر، أن قبر دورسي سيقع على بعد أقل من عشر ياردات عن تلة شـــومان ريمامـــبرانس. لذلك رأى مستشارو روي أنه إن كان هنالك من ضربة معـــدّة، فلا بد من أن تكون في المقبرة، إذ إنها الموقع المُرجّح والأصعب من حيث ضبطه.

توجّهت إلى كلوديل مسرعة على طريق الحصى، لكنني لم ألقَ ترحيباً دافئاً.

"ماذا تظنين نفسك فاعلة؟".

أجبته لاهثة: "إن كيت برفقة كريز، وهما في طريقهما إلى هنا".

كانـــت عيـــناه تتفحّـــصان الحشد فيما كان يتكلم: "أنتِ لا تُصغين إلى أحـــد أبداً، أليس كذلك يا سيدة برينان؟ يكفي أن جريمة قتل واحدة قد حدثت اليوم".

ومـــضت في ذهـــني صورة النفق. صورة جوسلين تبحث في الوجوه. صورة جوسلين وهي متشنّجة.

"لقد كنت معها".

"ماذا؟" ركّزت عينا كلوديل على وجهي.

فأخبرته بما جرى.

"وتركت مشهد الجريمة؟".

"لم يكن في وسعي فعل شيء".

"لن أشير إلى ما هو واضح".

أجـــبت بحـــدّة: "لقد ماتت". تخبّطت مشاعر الخوف والغضب والذنب في داخلي. و لم يخفّف عني عدم تعاطفه. بل زاد الأمر صعوبة. أردت أن أبكي.

لا، لا دموع.

في تلـــك اللحظة، ظهر شريكه في عملية كركاجو عند طرف الرابية. اقترب كويكواتـــر من كلوديل وتكلّم معه بصوت منخفض، ثم غادر من دون أن يعترف بوجـــودي. وخـــلال ثوانٍ ظهر مجدّداً في الأسفل يشقّ طريقه وسط مجموعة من القبور المزخرفة ليتمركز خلفَ عامود من الغرانيت الزهري.

"عـــندما أقول انطلقوا، تقومين بتغطية نفسك، من دون أي أسئلة ومن دون القيام بأعمال بطولية، هل فهمتِ؟".

"حسناً".

لم نُتابع محادثتنا.

كان هذا أمراً جيداً أيضاً. سأخبره لاحقاً عن لوكومت.

مرت خمس دقائق. عشر دقائق. كنت أشاهد المفجوعين ببدلات عمل تختلط بالسلاسل الحديدية ذات الإشارات المعقوفة ودبابيس الزينة وعصائب الرأس.

سمعـــتُ الجلبة قبل أن أرى الموكب. فقد بدأ الأمر بقعقعة خفيفة تطوّرت إلى صـــخب فيما لفّت المنحنى سيارتا كروزر. ثم ظهر النعش وسيارة ليموزين وست ســـيارات يتـــبعها فيلق من الدرّاجات النارية؛ أربع في المقدمة، واثنتان في الخلف. سرعان ما اكتظّ الشارع بالدرّاجات حتى لم يعد بإمكاني رؤية نهاية الخط.

انعكس شعاع الشمس على حديد الدرّاجات فيما كان موكب الجنازة يبطئ سيره ويدور نحو المقبرة. وعلت أصوات المحركات وناقلات السرعة في الجو. وبدأ رجـــال ملـــتحون يرتدون سراويل الجينـــز الملوثة بالشحم يترجّلون متّجهين نحو البوابة.

ضاقت عينا كلوديل وهو يشاهد المقبرة تتحوّل إلى حديقة حيوانات.

"يا الله، يجب منع أولئك الرجال من دخول السياج".

"يقول روي إن هذا مستحيل".

"تـــباً لحقـــوق الإنسان. امنعوا تلك الحشرات من الدخول وليرفع محاموهم الدعاوى في المحاكم".

اتّجه موكب الجنازة شمالاً، وسار ببطء شديد على طول الطريق المشجّر الذي يحـــيط بقـــسم اليونانيين. حين توقّف الموكب تقدّم رجل يرتدي بدلة إلى سيارة الليموزين وفتح الباب الخلفي. فترجل أشخاص تعلو وجوههم أمارات الارتباك.

شـــاهدتُ مـــنظّم الجـــنازة يصطحب العائلة إلى كراسٍ قابلة للثني تحت ظلّة خـــضراء مشرقة؛ رجل عجوز يرتدي بزة قديمة، وسيدتان بلباسين أسودين يلتفّ حـــول عنقيهما عقدان من اللؤلؤ المزيف، وشابة بفستان مزركش بالورود، وفتىً يرتدي سترة ذات كمين بالكاد يصلان إلى معصميه، ورجل دين عجوز.

حين ترجّل الأصدقاء والأقارب من سياراتهم، وقف أفراد عائلة دورسي واحدهم إلى جانب الآخر على شكل حدوة حصان متعرجة خارج الظلّة فيما راحوا يتبادلون النكات والشتائم. تحت الظلّة كان القبر الجديد مغطىً كمريض ينتظر الجراحة.

تجمّع ثمانية أفراد ببطءٍ حول النعش، وجميعهم يرتدون سراويل الجينز ويضعون النظارات. عند إشارة من منظّم الجنازة، قدّم مساعده قفازات، لكن أحداً لم يستخدمها. ثم حرّر حاملو النعش التابوت وحملوه باتجاه الظلّة وهم يرزحون تحت ثقل وزن جسد الميت وتابوته.

كانت أغصان الشجر فوقي ترتفع وتنخفض، واستطعت شمَّ عطر الأزهار والتراب الذي تم نبشه حديثاً. كانت الدرّاجات قد وقفت ساكنة. تناهى صوت بكاءٍ آتٍ من تحت الظلّة إلى مسامعي واعتلى النسيم ليدور حول قبور الموتى في المحيط.

"يا الله!".

عندما التفتّ كان كلوديل يحدّق إلى البوابة. تبعتُ نظرته، واخترق صدري الخوف.

كان كيت وكريز يشقان طريقهما من خلال أولئك الذين كانوا يتسكّعون عند المدخل. قطعا شبه دائرة المعزين بسرعة وتقدّما نحو ظل تمثال برونزي يبسط يديه نحو السماء بدا وكأنه يمشي على الماء.

بدأت أتكلّم لكن كلوديل أسكتني بإشارة من يده. ورفع جهازه، ونظر إلى شريكه في الأسفل.

أعطى كويكواتر إشارة معينة إلى يمينه أولاً، ثم أمامه مباشرة.

نظرتُ إلى حيث أشار كويكواتر. كان بين النائحين رجال يختبئون بين الأضرحة والأشجار وانتباههم غير مركز على الجنازة. لم تكن أعينهم هدأ، تماماً كعيني كلوديل وكويكواتر وقد كانوا يحملون الأجهزة اللاسلكية. ولكن بخلاف محققي عملية كركاجو، كانت لأولئك الرجال أوشام، كما كانوا ينتعلون أحذية عالية الساق.

نظرتُ إلى كلوديل متسائلة عن هوية أولئك الرجال.

"أمن عصابة آلة الصخر".

تحـــت الظلّـــة وقف رجل الدين وفتح كتابه. تصاعدت الأيدي، وانخفضت راسمة شارة على الصدور.

كان كلوديل يقف إلى جانبـــي متوتّراً.

ظهر رجل بين السراديب الإسمنتية على بعد ستين قدماً غرباً. تقدّم نحو الظلّة وهو ينظر إلى الأرض.

نظـــرتُ إلى كويكواتر. كانت عيناه مثّبتتين على حراس عصابة آلة الصخر. كـــان أحدهم يتكلّم عبر جهازه وآخر يسمعه في الجهة المقابلة. حدّق كويكواتر إليهما ثم رفع جهازه.

اتفق كلوديل مع شريكه وعيناه مسمّرتان على ذلك الرجل الذي يقترب من مكان النعش.

سألت كلوديل عند انتهاء المكالمة: "هل هنالك أي مشكلة؟".

"هو ليس عضواً في آلة الصخر. قد يكون من البانديدوس، لكن الحرس ليسوا متأكدين من ذلك".

"كيف عرف...؟".

"إنه يقرأ الشفاه".

"هل تعرّفت إلى ذلك الرجل؟".

"هذا ليس شرطياً".

تشنّجت أعصابـــي. لقد كان شكل ذلك الرجل يثير الريبة، بالرغم من أنه كـــان كمعظـــم الحاضرين يغطي الجزء الأسفل من وجهه بعصابة الرأس والجزء الأعلـــى مـــنه بقبعة تظلّل عينيه. لكن شيئاً مريباً كان في شكله، إذ كان يرتدي ســـترة لا تتماشـــى مـــع دفء هـــذا اليوم، كما التصقت ذراعاه إلى جانبـــي جسده.

فجأة، اقتربت سيارة جيب من المكان، وانحرفت باتجاه السياج. وفي اللحظة عينها علا صوت محرك، وانطلقت درّاجة هارلي من خلال البوابة.

بـــدت الأحداث التالية وكأنها ستستمر إلى الأبد، وقد جرى كلٌّ منها بحركة بطيئة. عرفت لاحقاً أن المشهد بكامله استغرق دقيقتين لا أكثر.

دار رجـــل جانبـــياً في شبه الدائرة التي كان الدرّاجون قد شكلوها، واتّجه مـــسرعاً إلى أحد أعمدة الظلّة. إطلاق نار. صراخ. انهارت الخيمة. تجمّد الحضور لدقيقة ثم تفرّقوا.

"انبطحوا أرضاً!".

دفعني كلوديل بقوة إلى الأرض.

زحـــف رجـــل ملتحٍ من بين كومة القماش، وركض باتجاه التمثال الحجري الـــذي يبسط يديه. وفي منتصف الطريق التوى ظهره فوقع إلى الأمام. وكان يجر نفسه على الأرض عندما انتفض جسده للمرة الثانية وسقط أرضاً.

بـــصقتُ التراب من فمي، وحاولت رؤية ما يجري، فضربت رصاصة شجرة الكستناء خلفي تماماً.

وعندما نظرتُ مجدّداً، رأيت الرجلَ ذا السترة الثقيلة والوجه المعصوب يختبئ خلف قنطـــرة وينحني نحو قاعدة التمثال. وقف فومضت أشعة الشمس على الفولاذ فيما كان يسحب منـــزلق سلاح أوتوماتيكي. ثم وضع سلاحه إلى جانبه وتوجّه نحو التمثال.

اعتراني خوف شديد.

من دون تفكير بدأت الزحف باتجاه الممر.

فصرخ كلوديل: "عودي إلى هنا يا برينان".

تجاهلـــته وركـــضت متعثّرة عبر التلة في الطرف البعيد كي أتفادى الطلقات الـــنارية. رحـــت أزحـــف، وأنطلق من نصب تذكاري إلى آخر حتى وصلت إلى التمثال الذي يختبئ ابن أختي في ظلّه.

كانت الطلقات النارية من المسدسات والأسلحة شبه الأوتوماتيكية تتعالى من حـــولي. فقد كان وُدعاء الجحيم ينفّذون انتقامهم وكانت عصابة آلة الصخر تردّ علـــى إطلاق النيران. وقد أضاءت الرصاصات المتطايرة القبور والشواهد. أصابت وجنتي شظية من الغرانيت وأخذ سائل دافئ يسيل على وجهي.

فيما كنت أدور حول التمثال من ناحية واحدة، ظهر الرجل ذو السترة الثقيلة مـــن الناحـــية الأخرى. كان كيت وكريز يقفان بيننا مباشرة. رفع الرجل ذراعه وصوّب سلاحه.

شدّ كريز بكيت إليه متّخذاً منه درعاً لنفسه.

صرخت: "انبطحوا أرضاً". كان العرق يسيل من شعري وريح باردة تضرب وجهي.

استغرق كيت بعض الوقت لينتبه إلى وضعه، ثم استدار وضرب بركبته ما بين رجلــي الصحفي. ارتفعت يد كريز، وفتح فمه واسعاً من الألم، لكنه كان يمسك بقميص كيت.

اســتدار كــيت يميــناً، لكن كريز شدّه بقوة ما إن ضغط ذلك الرجل على الزناد، فدوّى صوت يشقُّ المسامع هزّ قاعدة التمثال البرونــزي ويديه فوقنا. وقع ابن أختي أرضاً من دون حراك.

"لا!" غرقت صرختي بين أصوات المحركات والطلقات النارية.

ثم دوّى صــوت آخر كالرعد. رأيت ثقباً في صدر كريز ونهراً من الدم يسيل أمامه. بقي صامداً لبرهة ثم سقط أرضاً إلى جانب كيت.

أحســست بشخص حول الصرح، فرميت بنفسي فوق كيت لأحميه. كانت يده تتحرّك بوهن وبقعة حمراء تنتشر على ظهره.

بقــي ذلك الشخص يتقدّم حتى ملأ الفراغ بين التمثال والقبر المجاور. وقف مُباعداً ما بين قدميه قابضاً على مسدس بيديه الاثنتين وقد صوّبه إلى الرجل المُسلح الــذي يقــف فوقنا. لمعت الفوّهة. صوت مدوٌّ آخر. انفجرت عين الرجل المسلح وسال الدم من فمه، ثم سقط أرضاً إلى جانبــي.

التقت عيناي بعينين أشدّ زرقة من شعلة غاز البوتان. بعد ذلك استدار رايان واختفى.

في تلــك اللحظــة، رمى كويكواتر بنفسه إلى أسفل التمثال، ودفعني وكيت باتجــاه قاعــدة التمثال. انحنى أمام جثتي كريز وقاتله، وراح يحرّك سلاحه بشكل أقواس واسعة مستخدماً التمثال لحماية نفسه.

حاولــت أن أبــتلع ريقي، لكن فمي كان جافاً كالصحراء. مشّط الرصاص الأرض بجانبــي، ومجدّداً انتبهت إلى رائحة الزهور والتراب. خارج كهفنا الصغير كنت أستطيع رؤية أشخاص يركضون في كل الاتجاهات.

جالــت عيــنا كويكواتــر على المكان واستعدّ للانطلاق. وفي البعيد سمعت صوت الصفارات والمحركات ثم صوت انفجار.

ازداد خـــوفي فـــضغطت على الثقب في ظهر ابن أختي، وحاولت أن أحشر منديلاً فيه لأخفّف النـــزيف. لم يعد للزمن أي معنى.

ثم هدأ كل شيء. لم يعد أي شيء يتحرك.

خلـــف كويكواتـــر رأيت الناس يزحفون من تحت الظلّة يبكون وقد أصبح شـــعرهم أشعثَ. ظهر الدرّاجون من مخابئهم والتأموا في مجموعات بوجوه غاضبة وقبـــضات تضغط على الأصابع وكأنهم فنانو هيب هوب غاضبون. كان بعضهم مستلقين على الأرض من دون حراك. لم يبدُ لرايان أي أثر.

في البعـــيد أســـفل الجبل انطلقت الصفارات. نظرت إلى كويكواتر والتقت أعيننا. ارتعشت شفتي، لكنني لم أستطع أن أنبس بكلمة.

اقتـــرب كويكواتر مني، ومسح الدم عن وجنتي، ثم أزاح شعري عن وجهي. ونظـــر إليّ بعمق فتشاركنا تجربتنا وسرّنا. ارتفع صدري، وحرقت الدموع عينيّ. التفتّ بعيداً غير راغبة في أن يشاهد أحد ضعفي.

وقع نظري على صورة صغيرة مغطاة بالبلاستيك تحميها قاعدة التمثال.

نظرت إلى الدم ينضح من خلال أصابعي. كنت أبكي وأنا أضغط بقوة أكبر، ثم أغمضت عينيَّ وتضرّعت إلى الله.

39

سألني تشاربونو: "ماذا كنتِ تخططين لفعله؟".

"لم أخطط لشيء، لقد تصرفتُ بطريقة فطرية".

"لكنك لم تكوني مسلحة".

"كنت مسلحة بغضبي المبرّر".

"نادراً ما يفوز الغضب على سلاح شبه أوتوماتيكي".

كان قد مرّ أسبوع على حادثة إطلاق النار في المقبرة، وقد راجعنا تلك الحادثة مراراً وتكراراً. كان تشاربونو في المختبر الخاص بي يُراقبني فيما كنت أُحضّر رفات سافانا أوسبري للشحن.

أتت نتيجة تحليل الحمض النووي إيجابية لتربط الهيكل العظمي الذي وُجِدَ على شاطئ ميرتل بالرفات التي وجدت في سان بازيل لو غراند. كانت كايت بروفي قد أكّدت أن والدة سافانا قد توفيت، لكنها استطاعت تحديد مكان خالة لها. كان الدفن سيتمّ في كارولينا الجنوبية.

كنت أشعر بالحزن العميق كلما تخيّلت تلك الجنازة الموحشة. كان شعوري بالرضا لاكتشافي رفات سافانا والتعرف إليها قد خفّفه الأسف على حياها. لقد كانت شابة صغيرة وضعيفة تعاني من عجز جسدي ووحيدة قد نبذها والدها وهجرها والدها وقت موها. تساءلت هل كان هناك من يهتمّ لأمر رفاها.

سألت تشاربونو لأغيّر الحديث: "هل تعتقد أن سافانا اختارت أن تذهب إلى شاطئ ميرتل ذلك اليوم؟".

"وفقاً لما قاله كريز، فقد ذهبت الفتاة بإرادتها".

"قرار سيِّئ". تخيّلت تلك الضالة الصغيرة وتساءلت عمّا قادها إلى هناك.

"نعم. قرار مميت".

نظرتُ إلى تشاربونو وقد فاجأني توارد أفكارنا. لقد كان هنالك العديد من القرارات المميتة. غايتلي ومارتينو. جوسلين ديون. جورج دورسي. الهجوم الذي قام به وُدعاء الجحيم في المقبرة. كما كانت هناك قرارات شبه مميتة. كيت وكريز، وقد نجا كلاهما من الموت.

كانت فرقة موت تابعة لوُدعاء الجحيم قد أُرسِلَت من الولايات المتحدة للقضاء على كريز لأن جوسلين وشت به بصفته قاتل شيروكي ديجاردن. وتعمّد وُدعاء الجحيم إرسال رسالة مفادها أن قتل أحد أفرادهم سيعني الانتقام المؤكد، وقد اختاروا مكاناً عاماً جداً لإيصال رسالتهم. كان من المُفترض أن يهرب الرجل الذي أطلق النار على كريز من درّاجة نارية. لكن القاتل لم ينجُ، إذ تمكّن منه رايان وكويكواتر، بالرغم من أن الرسالة كانت قد تغيّرت.

لم يكن القناصون الذين كانوا في سيارة الجيب يعرفون المنطقة جيداً، فاصطدموا بالجبل في أثناء هروبهم من الشرطة. فقُتل الشخصان اللذان كانا في الأمام في الحادث وأُدخل الثالث إلى المستشفى وقد أُصيب بجروح عديدة. خلال تفقّد روتيني لسجله، تبيّن أنه مطلوب في نيويورك بجريمة قتل. وقد تعاون الرجل على نحو محدود جداً مفضلاً عقوبة السجن المؤبد التي أقرها جيراننا في الشمال على قوانين ولايته الأم. فقد اعتقد أن الحكم بالسجن المؤبد أفضل من الموت بحقنة مميتة في نيويورك، بالرغم من أن هذه الولاية لم تقم بإعدام أحد منذ العام 1963.

كانت ست ساعات من الجراحة قد أنقذت كريز، لكن المراسل بقي في غرفة العناية المركزة. كانت قصة تورطه تتّضح شيئاً فشيئاً كلّما اتضحت أفكاره.

كان كريز وشيروكي قد سافرا مع وُدعاء الجحيم في أوائل الثمانينيات. وقد كان هذا الأخير يطمح لأن يكون عضواً في العصابة، أما كريز الذي كان يريد أن يكون أكاديميًّا، فقد فتنه نمط حياة الدرّاجين. وقد كان الاثنان يرتبطان بجذورهما الكندية.

بحسب كريز، فقد التقى هو وشيروكي بسافانا أوسبري صدفة على شاطئ ميرتل ودعواها لركوب الدرّاجة معهما. ساءت الأمور لاحقاً وأرادت سافانا الرحيل. ثم خرجت الأمور عن السيطرة، وخُنِقت الفتاة، وأخفى شيروكي الجثة في الغابة.

"هل اعترف كريز بأداء دور ما في الجريمة؟".

"إنه ينكر ذلك. لكنه اعترف بالعودة مع شيروكي للبحث عن عظام الفتاة من أجل تزيين المنتدى".

"يا للسفلة".

نظرت إلى رفات سافانا، وشعرت بنفس الغضب والاشمئزاز اللذين راوداني عندما رأيت الصورة التي أخذها جوسلين من شقة شيروكي. فقد تعرّفت إلى الجمجمة فوراً من الثقب الصغير في جانبها. كانت الجمجمة معلّقة على أحد الجدران وقد تقاطعت عند أسفلها عظام القدمين على شكل شعار القراصنة. وقد وقف كريز وشيروكي تحت العظام وهما يشيران بأصابعهما بعلامة النصر.

"أين التقطت تلك الصورة؟" لم أكن قد سألت عن الأمر حتى ذلك الحين.

"في منتدى الأفاعي في سان بازيل. عاد كريز وشيروكي إلى شاطئ ميرتل في الشتاء التالي لمقتل سافانا أوسبري. بحثا عن جثتها، فعثرا على الجمجمة وعظام الساقين، وقد كانت تلك العظام لا تزال تحت التنك، أما ما تبقى، فكان قد تحلّل وبعثرته الحيوانات. قررا نقل الأجزاء السليمة إلى كيبيك ظناً منهما أن جمجمة إنسان ستُثير أفراد العصابة".

شعرت بقرف شديد منعني من التعليق.

"زينت عظام سافانا المشرب لسنوات عدة قبل أن يدفنها الأفاعي في الغابة خوفاً من تعرّض الشرطة لهم".

"لِمَ دفنوها على مقربة من غايتلي ومارتينو؟".

"كانت تلك مصادفة. كانت الدوافع وراء جريمة غايتلي ومارتينو شؤوناً مالية لا أكثر. ففي العام 1987، أراد الوُدعاء الحصول على مشرب كان غايتلي يمتلكه. وكانت تلك طريقتهم في الاستيلاء عليه. كان مارتينو صديقاً لغايتلي، وكان قد قتل أحد أفراد وُدعاء الجحيم الذي كان يضايق غايتلي بسبب المشرب".

"خطوة غير صحيحة".

"من دون شك".

"إذا كان كريز بريئاً من جريمة أوسبري، فلِمَ كان مستميتاً للحصول على الصورة؟".

"ظنّ أنه إن تصدّرت قضية العظام الأخبار، فقد ينفضح ماضيه وتنتهي مهنته".

"لذا قام بقتل شيروكي".

"لم نتأكّد من ذلك بعد، لكننا سنفعل. والدم الذي وُجِد على ذلك الشيء كفيل بسجنه لمدى حياته التافهة".

"سينكر أي علاقة له بالصورة. وشاهدتك الوحيدة لن تشهد في المحكمة".

كانت جوسلين قد وصلت إلى مستشفى مونتريال العام ميتة.

"لكن قشرة الرأس ستثبت التهمة عليه".

"ماذا لو كانت نتيجة فحص الحمض النووي غير حاسمة؟".

"لن يكون الأمر مهماً، إنه قذر وسيعترف في نهاية الأمر".

هذا ما اعتقدناه، لتسع ساعات أخرى.

في المستشفى كانت الستائر مفتوحة وقد ملأت أشعة الشمس المبعثرة الغرفة. كان كيت يُشاهد برنامجاً حوارياً وقد أخفض الصوت تماماً بينما كانت هاري تقلّب في صفحات مجلة للموضة. بالرغم من مرور أربعة أيام على خروجه من العناية المركزة، فقد كان وجه كيت لا يزال شاحباً، وبدا أسفل عينيه ملوناً باللون البنفسجي. كان صدره ملفوفاً بضمادةٍ، وقد تدلّت إبرة في الوريد من ذراعه اليسرى.

أشرق وجهه حين رآني.

ربتّ على ذراعه: "كيف حالك؟".

"بأحسن حال".

قلت بفرحٍ وأنا أحمل الباقة التي اشتريتها من متجر الزهور في المستشفى: "إنها باقة من أقحوان الربيع وهي كفيلة بإنعاش أضعف الأرواح".

"قريباً سنحتاج إلى تصريح خاص من أجل الاحتفاظ بالأزهار بسبب كل عمليات التمثيل الضوئي التي تجري في الغرفة".

تلوّى كيت للجلوس، ومدّ يده ليتناول كوب عصير الليمون، فجفل وسحب يده.

"دعني أساعدك".

ناولته كوب العصير. استند إلى وسائده وهو يضمّ شفتيه حول القشة.

"هل تحسَّن تنفسك؟".

"لا بأس".

أسند كوب العصير إلى صدره.

كانـــت الرصاصـــة المـــوجهة إلى كريز قد أصابت كيت عند زاوية عالية. فكسرت ضلعين، وثقبت إحدى رئتيه، ثم خرجت من إحدى العضلات. كان من المتوقع أن يتعافى كلياً.

"هل قبضوا على أولئك السفلة؟".

نظـــرت إلى أختي. كانت تجلس على كرسي في الزاوية، وقد عقدت ساقيها الطويلتين كبهلوان صيني.

"لقـــد فرَّ الدرّاج هارباً. أما الرجل الذي نجا من حادث ارتطام سيارة الجيب فقد اتهم بالشروع في القتل من بين أمور أخرى. وهو يتعاون مع الشرطة".

"تمب، إذا حصلت على...".

"هاري، هل بإمكانك طلب زهريّة أخرى من الممرضة؟".

"فهمتُ. حان الوقت للحديث بين الخالة وابن أختها. حسناً سأذهب لتدخين سيجارة".

أخـــذت حقيبتها، وقبّلت ابنها أعلى رأسه، وخرجت إلى الممر تاركة خلفها أثر عطر كريستال.

جلست على طرف السرير، وضغطت على يد كيت التي كانت باردة.

"هل تقول إنك بأحسن حال؟".

"الأمر مملّ جداً هنا يا خالتي تمب. كل خمس دقائق تأتي ممرضة وتحقنني بإبرة أو تأخذ حرارتي. ونحن لا نتحدّث هنا عن أمر مثير أبداً".

"حسناً".

"كما يقولون إنه يجب أن أبقى هنا ليومين أو ثلاثة".

"نعم، يريد الأطباء التأكد من أن رئتك قد شفيت تماماً".

تردّد ثم سألني: "كم كان عدد ضحايا الحادثة؟".

"بالإضـــافة إلـــيك وكريز، فقد أُصيب اثنان من أفراد عائلة دورسي بجروح وقُـــتِلَ ثلاثة من الهمجيين وآلة الصخر. وفيما يتعلّق بالمعتدين، فقد هرب أحدهم وقُـــتِل آخر. كما قُتل رجلان في حادث سيارة وقُبِضَ على واحد. لقد كان حمام دمٍ قلما حدث مثله في كندا".

نظر كيت إلى الأسفل، وأمسك البطانية باليد الأخرى.

"كيف حاله؟".

"سينجو. لكنه سيواجه تهمة قتل شيروكي ديجاردن".

"أنا أعرف أن لايل لم يقتل ذلك الشخص. لا يمكن أن يفعل ذلك".

"لقد حاول التضحية بك من أجل حماية نفسه".

لم يُجِب بشيء على ذلك.

"كان يستغلك للحصول على معلومات".

"ربما فعل ذلك، ولكنه لا يمكن أن يقتل أحداً".

تخيّلت الجمجمة وشعار القراصنة، لكنني لم أقل شيئاً لمعارضته.

"لماذا أحضرك إلى تلك الجنازة؟".

"لم يكـــن يـــريد ذلـــك، لكنني كنت مستميتاً لأرى استعراض الدرّاجات. وأخـــبرته بـــأنني ســـأذهب بمفردي إذا لم يأخذني معه. باستثناء ذهابه إلى متجر الـــدرّاجات ذاك، لم يكن لايل يخرج برفقة أولئك الرجال. وخلال وجودنا هناك، كان يحاول أن يبدو مهماً، لكنني أدركت أن أحداً منهم لم يكن يعرفه".

تذكرت محادثتي مع تشاربونو، وشكّنا الأولي بأن لايل كان عميلاً مزدوجاً. كانـــت الفكرة الآن تبدو سخيفة جداً. يا لسخرية الموقف. كان قلقي على كيت مبنياً على خوفي من تورطه مع الدرّاجين. كان يجب أن أقلق على لايل كريز.

"أنا آسف يا خالتي تمب على كل الألم الذي سببته لكِ".

"إن الواعظ وهؤلاء الرجال ليسوا سوى مجموعة خاسرين عاجزين عن شراء درّاجات خاصة بهم".

كنت قد عرفت حقيقتهم من كلوديل، لكنني تركته يُكمِل حديثه.

"جعلـــتك تعتقدين بأهم درّاجون لأبدو لك فتىً قوياً. ولكن بدلاً من ذلك، كنت سأتسبّب في قتلك".

"كيت، من كان ذلك الرجل الذي رأيته خارج شقتي؟".

"بكل صدق لا أعرف من يكون، على الأرجح مجرّد عابر سبيل".

ارتـــسمت على زاويتي فمه ابتسامة ساخرة: "ربما كان يقدم طلباً للعمل في المكان الذي حصلت فيه على تسريحة شعرك".

ضربت كتفه السليم برفق.

"ترفقي بحالي... فأنا مريض".

أخذ رشفة عصير ثم ناولني الكوب.

"وماذا تبيّن بشأن مسألة العين؟".

"تظـــنّ الشرطة أن الأفاعي قد وضعوها على سيارتي كرسالة تهديد لمنع أي محاولة لنبش ماضيهم".

ســـاد بعض الصمت. ظهر على شاشة التلفاز رجل يقدم الأخبار فيما كانت أسعار الأسهم تُعرض في أسفل الشاشة.

"أعـــتقد أنني سأحاول الذهاب إلى الجامعة حين أعود إلى المنـــزل. سأتسجّل في بعض الصفوف وأرى كيف ستجري الأمور".

"أظن أنها فكرة رائعة يا كيت".

"ربما أبدو لكِ كسمكة غبية".

"ربما سمكة نهرية".

"أرجو ألا تفقدي الأمل مني".

"مطلقاً".

كـــان يـــشعر بـــشيء مـــن الإحراج، فسألني ليغيّر الحديث: "كيف حال رئيسك؟".

"أفضل بكثير، وقد بدأ بإزعاج الممرضات".

"أوافقه على ذلك. وكيف حال رايان؟".

"لا تُكثر من الأسئلة يا سمكتي النهرية".

"إلى متى تظنين أنه سيبقى هنا، منتظراً الأزهار وحلوى الكراميل؟".

وقفـــت هاري عند باب الغرفة وقد علت شفتيها ابتسامة، وحملت في يدها زهريّة.

غـــادرتُ المستشفى، وعدتُ إلى المنـــزل. تناولت العشاء مع بيردي، وبدأت بسلـــسلة مـــن الأعمال المنـــزلية. هي عودةٌ إلى الحياة الطبيعية عبر الانغماس في الأعمال العادية. تلك كانت خطتي، وقد كانت مجدية.

حتى رنّ جرس الباب.

رميت جانباً كومة من الملابس المتسخة ونظرت إلى الساعة. كانت تشير إلى الثامنة والربع. لا يزال الوقت مبكراً على موعد قدوم هاري.

نظرت عبر شاشة جهاز المراقبة والفضول يعتريني.

ما الأمر؟

كان المحقّق لوك كلوديل يقف أمام باب شقتي عاقداً يديه وراء ظهره، وراح ينقل ثقل جسمه من كعبـــي قدميه إلى مقدّمتيهما.

تمتمتُ فيما كنت أدخله: "يكفي حياة طبيعية".

"مساء الخير يا سيد كلوديل".

"مساء الخير. أعتذر على إزعاجك في بيتك، ولكن حدثت بعض التطورات".

كـــان فكّـــه مـــشدوداً وكأن ما كان يوشك على قوله يدفعه إلى أقصى حدود التحضّر. "وأعتقد أنه يجب عليك معرفتها".

أمعقول ما أسمعه؟ هل هذه مجاملة من كلوديل؟ وباللغة الإنكليزية؟ ما الأمر يا ترى؟

التفّ بيردي حول كاحلي، لكنه لم يُبدِ رغبة في التحرّك.

تـــراجعت، وأشرت إليه بالدخول. دخل إلى الشقة، وانتظر متسمّراً في مكانه حتى أغلقت الباب، ثم تبعني إلى الكنبة في غرفة الجلوس. جلستُ قبالته، وتذكّرت حيـــنها محـــادثتي مع شريك رايان جين برتراند. أثارت الفكرة الانقباض المعتاد في معدتي.

يا الله، أرجو أن يكون سالماً.

أبعدت الفكرة عن ذهني، وانتظرت كلوديل ليتكلم.

"لقد كنتِ محقّة بشأن جورج دورسي. فهو لم يقتل شيروكي ديجاردن".

لقد كان ذلك اعترافاً مهماً.

"ولا حتى لايل كريز قام بذلك".

نظرت إليه وقد منعتني المفاجأة من الردّ.

"قبل موتها بقليل قامت جوسلين ديون بإرسال رسالة إلى أمها تخبرها فيها عن عـــدد من نشاطات الدرّاجين غير الشرعية بما فيها إطلاق الرصاص على إميلي آن توسان وريتشارد *سبايدر* ماركوت وجريمة شيروكي ديجاردن".

"لماذا قامت بذلك؟".

"كانـــت دوافعها معقّدة. أولاً كانت خائفة على حياتها وشعرت بأن الرسالة قـــد تؤمّن لها الحماية. بالإضافة إلى ذلك، كانت غاضبة بشأن جريمة قتل جورج دورســـي الـــذي أمـــر بقتله أحد أفراد عصابته. وقد كانت جوسلين تسكن مع دورسي في الفترة التي قُتِل فيها".

شعرت بالحرارة تتصاعد إلى جانبـــي عنقي، لكنني لم أُفشِ بما قالته جوسلين عن مقتل دورسي.

"هل قُتِلَ دورسي بسبب حديثه معي؟".

تجاهل كلوديل السؤال.

"كمـــا كانـــت جوسلين تشعر بالندم إثر أعمال عديدة قامت بها تشمل قتل شيروكي ديجاردن".

سألته بدهشة كبيرة: "ماذا؟".

"كما سمعتِ. جوسلين ديون قتلت شيروكي ديجاردن".

"ولكن جوسلين أخبرتني أنها سمعت كريز يضربه ويطلق النار عليه".

أسند ذقنه إلى يده وقال: "أظنّ أن موظفتك كانت تقتصد في قول الحقيقة".

"وفقاً لرسالة الشابة، فقد كانت ذاهبة إلى ديجاردن من أجل المخدرات حين أتـــى كريـــز ليطلب الصورة سيئة السمعة. تشاجر الرجلان، وضرب كريز رأس شيروكي بأنبوب حديدي ضربة عنيفة أفقدته وعيه وبدأ بتفتيش الشقة. لكنه عندما سمع أصواتاً في غرفة النوم، فزع وهرب".

"يـــبدو أن فتاتك كان مدمنة جداً ولا تملك المال. فقد ذهبت إلى هنالك بحثاً عن المخدرات، ووجدت الموقف مناسباً للحصول على كمية كبيرة من المخدرات.

وعندما رحل كريز، قامت بضرب شيروكي، وسحبته إلى كرسي واستخدمت مسدساً لتشويه وجهه".

"لِمَ تكبّدت عناء إطلاق النار عليه؟".

"لم تكن تريد أن يطاردها شيروكي في ما بعد. كما كانت تحت تأثير المخدرات وفي الوقت عينه صاحية بشكل كاف لتدرك أن عليها إخفاء آثار جريمتها. لذا جعلتها تبدو كضربة درّاج". أنزل كلوديل يده قائلاً: "لقد كنتِ محقّة في هذه المسألة أيضاً".

تنحنح وتابع كلامه.

"أخذت ديون حقيبة كان كريز قد أوقعها، ظناً منها أنها تحوي المخدرات. لكنها وجدت في داخلها صورة لكريز وديجاردن معاً. وفي وقت لاحق أعدّت رسالة ابتزاز إلى كريز معتقدة أنه إذا كان مستميتاً للحصول على الصورة فسيرغب في دفع المال في المقابل".

"في أثناء ذلك عرف الهمجيون باجتماعي بدورسي وأمروا بقتله". شعرت مجدّداً بالتشنج في عنقي.

"نعم. لفّقت جوسلين قصة قتل كريز لشيروكي خوفاً على حياتها. فقرّر الأفاعي الانتقام منه. كان ديجاردن من وُدعاء الجحيم، وكان قاتله قد ترك العصابة، فاحتقروه لذلك، وقرّروا قتله. كما أنهم لم يكونوا قد صفّوا بعد حساب مقتل سبايدر ماركوت. فطلبوا مساعدة خارجية من نيويورك وأقنعوا جوسلين ديون بإغواء كريز للقدوم إلى الجنازة، وقرّروا تصفية عدّة حسابات في الوقت نفسه".

توقّف عن الكلام لبرهة.

"لا بد من أن جوسلين هي التي تركت الصورة على مكتبي".

"نعم، بهدف إثارة الشكوك نحو كريز".

فكرتُ في أمر آخر.

"لذلك كان دم شيروكي موجوداً على تلك السترة".

"لقد كان ذلك الحقير يقول الحقيقة للمرة الأولى فقط. لم تكن السترة له، بل لجوسلين. لكن دورسي لم يعترف بذلك، إذ أراد حمايتها".

"ولقاؤه بي تسبب بقتله". عضضت على شفتي.

"لقد قُتِل دورسي لأن أفراد عصابته خافوا أن يشيَ بهم. كان سيتّصل بآخرين إن لم يتصل بك".

ابتلعت ريقي.

"هل تصدّق ما قالته ديون في رسالتها؟".

"إلى حدٍّ ما، نعم. لدينا أسباب عديدة للاشتباه بلوكومت في ما يتعلّق بجريمتي ماركوت وتوسان. لذا فقد وضعناه تحت الرقابة المشدّدة. يقول المدعي العام إن ما سمعتِ جوسلين تصرّح به عند رميها بالرصاص ليس كافياً للقبض على لوكومت. لكن الوقت كفيل بإظهار كل شيء".

"لا شك في أن جوسلين كانت الجاسوسة في مختبرنا".

"لقد حصلت على الوظيفة هناك من أجل التجسس لصالح الهمجيين. لكنها لم تمتعض من التحدّث مع الصحافة في بعض المناسبات".

"عندما كان المكتب العام يوافق على ذلك".

"نعم".

استنشق كلوديل الهواء من أنفه ثم زفر.

"إن عصابات الدرّاجين هي مافيات الألفية الجديدة، ولديهم سلطة هائلة على معجبيهم. كانت جوسلين من بين أولئك الذين يعيشون من العمل عند أسفل الهرم كالمومسات والقوادين والنشالين. ربما كانت تحتاج إلى تصريح كي تصطحب أمها إلى الاحتفال الديني يوم الأحد".

"في الدرجة الأعلى تجدين المستثمرين الأكثر نجاحاً، ومالكي المشارب، وتجار البضائع المسروقة الذين يُسمح لهم بالتسكّع معهم لأنهم يقومون بتبييض الأموال أو بتأدية بعض الخدمات المفيدة للنادي. اصعدي درجة وستجدين الأعضاء الذين يملكون الصلاحيات الكاملة والذين يديرون تجارة المخدرات الخاصة بهم. وفي أعلى قمة الهرم هناك الرجال الذين لهم علاقات مع الاتحادات في المكسيك وكولومبيا وبنظرائهم من العصابات في كل العالم".

لم أكن قد رأيت كلوديل يتحدّث بهذه الحيوية من قبل.

"ومن يكون هؤلاء المنحطّون الذين يعيشون على ظهر الضعفاء؟ إن معظمهم لا يملكون القدرة الأخلاقية أو العقلية لمتابعة عملية دراسية تقليدية، أو عملاً في

سوق مفتوحة. إنهم يستغلّون النساء لأنهم يخشونهن في الحقيقة. وهم غير متعلمين، وهم مضلّلون، وفي حالات كثيرة تعوزهم اللياقة الجسدية، لذلك يرسمون الأوشام علـــى أجـــسامهم ويبتكرون الألقاب ويتحدون كي يعززوا معتقداتهم اللاأخلاقية المشتركة".

سحب نفساً عميقاً وهز رأسه ببطء.

"ســـوني بارجـــر متقاعد، وربما يكتب سيرة حياته. سيبتاع كتابه الملايين، وســـتنتج هولـــيوود فـــيلماً عنه. وسيصبح فيلم *المتوحشون* رومانسياً من جديد، وستخدع الأسطورة جيلاً آخر".

فرك كلوديل وجهه بيديه.

"وسيـــستمر فـــيض المخدرات في الوصول إلى ساحات مدارسنا وإلى أزقة اليائسين".

أمـــسك بكميّه وعدّل الزرّين الذهبيين. حين تكلّم مجدّداً، كان صوته قاسياً كالفولاذ المُعالج.

"يـــا لـــسخرية القدر. ففيما كان وُدعاء الجحيم ينفّذون مذبحتهم في المقبرة، كان خصومهم يرسلون قتلة مأجورين للتخلّص منهم. أنا لا أعرف أي فريق شبه بـــشري قتل جورج دورسي. وليس بحوزتي أي دليل على أن لوكومت أطلق النار علـــى جوسلين ديون وسبايدر ماركوت وإميلي آن توسان. لكنني سأعرف ذلك. يوماً ما سأعرف ذلك".

نظر إلى عينيَّ مباشرة.

"ولن أرتاح قبل أن يزول هذا الشر من مدينتي".

"هل تعتقد أن تحقيق ذلك ممكن؟".

هزّ رأسه، وتردّد قليلاً ثم قال: "هل سنكون فريقاً؟".

من دون أي تردّد، أطرقت برأسي.

"أجل".

40

في الصباح التالي استيقظت متأخرة، وذهبت إلى النادي الرياضي. ثم أحضرت القهـــوة والحلـــوى إلى المنـــزل، وتناولتها مع أختي على الفطور. وعندما غادرت هـــاري البيت متوجّهةً إلى المستشفى، اتصلت بالمختبر. لم يكن هنالك من قضايا محـــوّلة إلى الطـــبّ الشرعي، لذلك كان لديَّ الوقت الكافي لاستكمال الخطة التي قاطعها كلوديل بزيارته.

نقعـــت الملابـــس، وتوجّهت بسرعة إلى الثلاجة. رميت جميع الأغراض التي كانـــت موجودة فيها منذ أكثر من شهر. كذلك رميت أي شيء لم أستطع تحديد تاريخه.

كـــان مزاجي أفضل بكثير مما كان عليه في الأسابيع الماضية. اعترف كلوديل أخـــيراً بأهمـــيتي كزميلة. وكنت واثقة بأنه هو وتشاربونو وكويكواتر سيتابعون التحقيقات حتى يصبح قتلة دورسي وديون خلف القضبان.

كنت قد اعتذرتُ من مارتن كويكواتر، وبدا أن الرجل لا يضمر أي شعور بالضغينة تجاهي، حتى إنه ابتسم في وجهي.

وكان لامانش يستعيد عافيته.

وتمَّ حـــلّ قـــضية جـــريمة قتل سافانا أوسبري، وكانت رفاتها في الطريق إلى عائلتها.

كانت كاتي ستصل إلى المنـــزل خلال أسبوعين. وكان ابن أختي على طريق الشفاء، بكل ما للكلمة من معنى.

وظهرت على شعري علامات النمو.

بيد أن الظلّ الوحيد في حياتي كان يلقيه قلقي على سلامة رايان. فقد كشَفَ غطاءه لينقذ حياتي. وقد تضرّعت إلى الله كي لا يكلّفه ذلك حياته. وتمنّيت بشدة ألاّ يكون ذلك قراراً مميتاً آخر.

إن فعِلَ الصواب على نحو كامل يمكن أن يؤدي إلى إلحاق العار ظلماً.

لا يزال بيت الشعر ذلك يدمع عينيّ.

كنت أعرف أن رايان لا يستطيع الاتصال بـــي. و لم أكن أعرف متى سأراه مجدّداً.

لم يكن ذلك مهماً، يمكنني أن أنتظر.

رميتُ بقطعة قديمة من جبن الشيدر في سلة النفايات.

لكن ذلك قد يستغرق وقتاً طويلاً.

رميت علبتين من الهلام المتخثّر.

لا شك في أنني بحاجة إلى تلك الأغنية.

لديّ شمس مشرقة في اليوم الغائم...

تمت

قالت آن ريفرز سيدون إنه إذا كان هناك من شخص يحسن اتقان رواية جنائية ومعقدة، فأنا أعرف من هو. فعلم كاثي رايكس موضوعي ودقيق وشخصياتها جذابة ومعقدة. النتيجة لا تقاوم.

«التفاصيل الجنائية آسرة» - اورلاندو سانتنل

«رواية جنائية مثيرة وديناميكية»

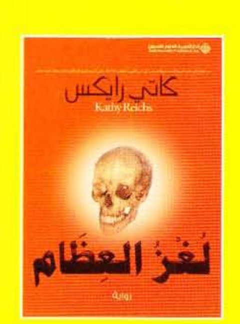
عن عمر تسع سنوات قتلت أميلي آن توسن في إطلاق نار في شارع مونريال، كما اختفت مراهقة من نورث كارولاينا من منزلها، وعثر على أجزاء من هيكلها العظمي على بعد مئات الأميال. حرّكت عمليات القتل الصادمة هذه تامب برينان من الشمال إلى الجنوب، ودفعت إلى تحقيق شديد يرهق الأعصاب داخل عصابات الدراجين الخارجين عن القانون حيث خطوة واحدة غير مدروسة تقود إلى نتائج لا تحمد عقباها بالنسبة إليها وإلى أحبائها.

كاثي رايكس، هي عالمة أنثروبولوجيا عدلية تعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبيك، أي أنها مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها. وتشغل المؤلفة منصب نائب رئيس الاتحاد الأميركي للعلوم العدلية، كما تشغل مقعداً في المجلس الاستشاري الكندي الوطني لخدمات الشرطة. وتُعتبر كاثي رايكس واحدة من مجموعة قليلة لا يتعدى عددها ستة وخمسين عالماً من علماء الأنثروبولوجيا العدليين المجازين من المجلس الأميركي للأنثروبولوجيا العدلية. تعمل الكاتبة أيضاً بصفتها أستاذة لمادة الأنثروبولوجيا في جامعة كارولاينا الشمالية في شارلوت. ويُذكر أن رواية «وُجدت ميتة» قد أوصلتها إلى الشهرة، وذلك عندما أصبحت ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز. فازت هذه الرواية أيضاً بجائزة «إيليس» لأفضل أول رواية لعام 1997. احتلت الروايات التي كتبتها المؤلفة مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز، ومنها رواية «الإثنين الأسود» التي صدرت بالعربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بالإضافة إلى Grave Secrets Bare Bones، Fatal Voyage، Deadly Decisions، Death du Jour، وCross Bones. موقع المؤلفة على شبكة الإنترنت www.kathyreichs.com.

اقرأ أيضاً للروائية كاثي رايكس

كاثي رايكس
Kathy Reichs
وُجدت ميتة
DÉJÀ DEAD
رواية







ISBN 978-9953-87-846-1
9 789953 878461



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com